المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

أساطير شعبية من
أوزبكستان

(الجزء الأول)



الطبعة الثانية

ترجمة

عبد الرحمن عبد الرحمن الخميسى

2/654

تمثل الأساطير الشعبية الأوزبكية نتاجًا رائعًا للإبداع الشعبى. لقد تشكلت الأساطير عبر قرون طويلة، ونسجت حكاياتها المتنوعة على السنة الرواة والحكاة الذين نقلوها من جيل إلى آخر. وخلال تلك الرحلة تعرضت الأساطير للعديد من التغيرات التى تصيب سائر الفنون الشعبية والفلكلورية، تمثلت فى غربلة الأساطير وتنقيتها من الشوائب وصقل جوهرها الإبداعى حتى وصلت إلينا فى أبهى صورة فنية. وهى تمتلئ بالكثير من المثل التعليمية والقيم الجمالية وموضوعات الحب والصدق العميق.

والخيال المشرق والفرح الصادق فى الأسطورة كانا دائمًا الدافع للبشر فى سعيهم من أجل العدالة والمساواة والفوز بالسعادة. كما كان الخيال الأسطورى وسيلة فعالة لنشر الأفكار والنضال من أجل الحرية والديموقراطية.

أساطير شعبية من أوزبكستان
(الجزء الأول)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

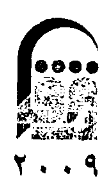
- العدد: ٦٥٤/ ٢
- أساطير شعبية من أوزبكستان (الجزء الأول)
- عبد الرحمن عبد الرحمن الخميسى
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة لمجموعة من الأساطير الشعبية الأوزبكستانية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

أساطير شعبية من أوزبكستان
(الجزء الأول)

ترجمة: عبد الرحمن عبد الرحمن الخميسى



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١١٠٢٨ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 7 - 343 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

مقدمة

إن الأساطير الشعبية الأوزبكية تمثل نتاجًا فنيا رائعًا للإبداع الشعبى. لقد تشكلت تلك الأساطير عبر قرون طويلة من الزمن، ونسجت حكاياتها المتنوعة على ألسنة الرواة والحكاة الذين نقلوها من جيل إلى آخر. وخلال تلك الرحلة الزمنية الطويلة التى قطعتها، تعرضت الأساطير إلى العديد من التغيرات التى دائمًا تصيب سائر الفنون الشعبية والفلكلورية. تمثلت تلك التغيرات فى "غربلة" الأساطير ، وتنقيتها من الشوائب الدخيلة والمبتذلة، وصقل جوهرها الإبداعى حتى وصلت إلينا فى أبهى وأرقى صورة فنية .

تعكس الأساطير فى جوهرها الواقع المادى الذى تعيشه الشعوب. وهى مرآة صادقة لعادات تلك الشعوب ومعتقداتها الروحية والدينية. ولهذا فإن الأساطير كثيراً ما تصبح خير معين لدراسة الظواهر التاريخية والاجتماعية والحضارات القديمة .

الأساطير الشعبية ثمرة للوعى الاجتماعى والإبداع الجماعى للشعوب. والدليل على ذلك أنها عندما تلقى بالضوء على مراحل تاريخية معينة نجدها تفعل هذا من منظور وإدراك شعبى. فهى تجسد فى صورة فنية صادقة الآمال التاريخية للشعوب. كما تبرز الأساطير أخلاقيات وسلوكيات تلك الشعوب. فتتغنى فى حكاياتها بأحلامهم حول السعادة المنشودة والعدل الاجتماعى .

خصائص الأساطير الشعبية الأوزبكية

الأساطير الشعبية الأوزبكية تتميز بالإيجاز الشديد والمعانى المكثفة، وأيضًا بالحيوية والوصف الدقيق للملامح الرئيسية التى تتسم بها الشخصيات. وهى كثيراً لا تذكر اسمًا معينًا للبطل أو الشخصية المقدمة، بل نجدها تصف نماذج عامة بمسميات

عامة : الغنى، الفقير، الكريم، البخيل.. إلخ. أما الصدام والتفاعل بين تلك الشخصيات فيدور فى بناء فنى بسيط يتسم فى الوقت نفسه بالعمق والإقناع .

كانت الأساطير الشعبية تنتقل عبر الزمن بالوسائل الشفهية. فكان ذلك سببًا لتعرضها إلى الصقل المستمر والتكثيف الدائم. وأصبح من النادر أن تجد فيها وصفًا زائدا للأحداث أو تفاصيل لا حاجة لها. ونتيجة لذلك، فقد أصبحت الأسطورة الشعبية – على الرغم من صغر حجمها – مشبعة بعالم رحيب من الأفكار والمشاعر الإنسانية والمعانى المكثفة .

فى الأساطير الشعبية الأوزبكية تتنوع الملامح الداخلية والخارجية للبطل. كما تتطابق تلك الملامح مع الثقل الفكرى الذى تعبر عنه. وتركز الأساطير على إبراز الطبائع المتنوعة للشخصيات الاجتماعية وعلى الجوهر الروحى لتلك الشخصيات .

تنبض الأساطير الأوزبكية بحس شاعرى إنسانى يتمثل فى استثارة وتحفيز مشاعر القارئ نحو الإحساس بالعدل والعدالة. وعلى الرغم من بساطة الصراعات الإنسانية فى تلك الأساطير، إلا أنها تكشف لنا عن السمات الرئيسية للعلاقات الاجتماعية بين البشر. فيشعر القارئ لدى قراءته لها بالتعاطف والمودة إزاء البطل الطيب الخيّر، وبالمشاعر المعاكسة تجاه الشخصية النقيض .

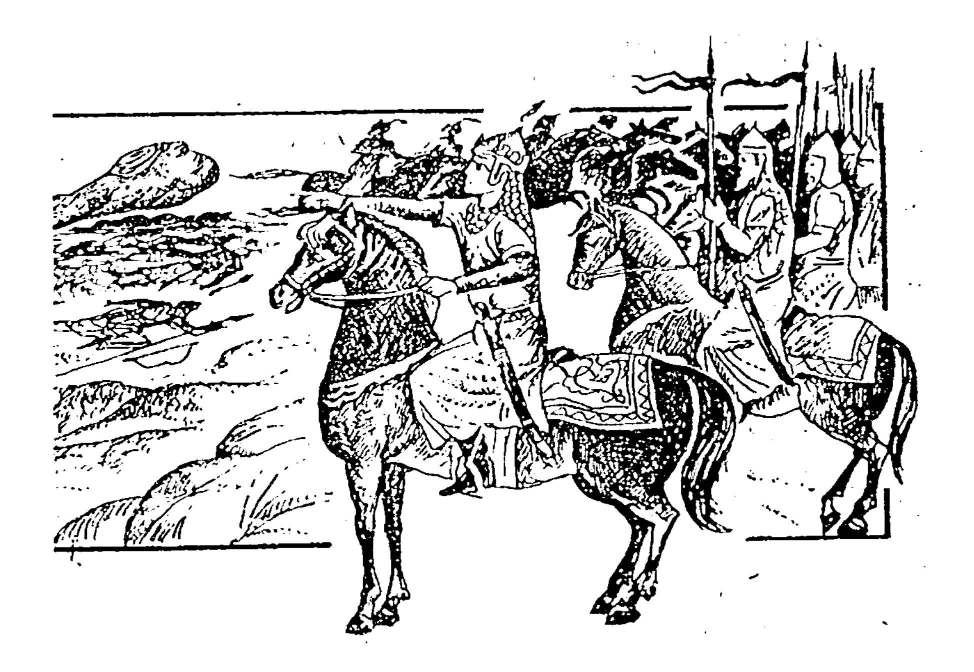
فى قلب كل أسطورة تنبض دماء الواقع. فالخيال الأسطورى الذى جسد آمال الشعوب، كان دائمًا يمهد السبيل أمام التطور فى جميع مجالات الحياة الاجتماعية والروحية. منذ أقدم العصور كان الإنسان يحلم بالطيران وملامسة السحاب فى السماء، وبالسفر إلى البعيد والحركة فى زمن قصير، وغيرها من الأحلام الأسطورية التى تحولت فيما بعد إلى حقائق .

الأساطير الشعبية الأوزبكية تفيض بقدرة حيوية فائقة. وفيها يصبح الخيال شكلاً من أشكال التعبير عن الحكمة والآمال، والمستقبل السعيد للناس: والجوهر الرئيسى فيها هو السعى الدائم إلى التغلب على مصاعب الحياة وتجاوزها والدعوة إلى النضال من أجل المستقبل المشرق. لقد اخترع الناس الزورق والشراع حتى يسبحوا ضد التيار. وصنعوا القوس والسهم لقتل الوحوش المفترسة التى لا يستطيعون الاقتراب منها.

وأبدعوا الكثير من أدوات العمل التي جعلت الإنسان سيداً بلا منـــازع على الأرض. إن كل ذلك يدخل ضمن الجانب السياسي والاجتماعي للحياة البشرية. فعندما تعلو الفكرة وتتخطى حـدود التنفيذ العمـلى لها، تتحـول إلى صـورة خيـالية مجازية، وهذا بالتحديد هو فن الأسطورة الشعبي الرائع .

الأساطير الشعبية الأوزبكية تمتلئ بالكثير من المثل التعليمية والقيم الجمالية الرائعة. كما تحتل مساحة كبيرة فيها موضوعات الحب والصدق العميق. إن الخيال في تلك الأساطير والتحليق معها يساعد على تهذيب الأفكار وصياغتها في صور فنية مضيئة مما يحقق الهدف من البناء الفني والفكري للأسطورة. فالخيال المشرق والفرح الصادق في الأسطورة كانا دائماً الدافع للبشر في سعيهم من أجل العدالة والمساواة والفوز بالسعادة. كما كان الخيال الأسطوري وسيلة فعالة لنشر الأفكار والنضال من أجل الحرية والديمقراطية. وظلت الأسطورة الشعبية دائماً تبعث لدى الناس مشاعر التفاؤل والأمل بالسعادة في أحلك الأوقات وأشدها عليهم. وفي كل هذا نستطيع أن ندرك السر في خلود الأساطير الشعبية وبقائها على مر الزمن .

اضربى ياعصا



كان يا ما كان، فى سالف العصر والأوان، رجل صياد بلغ من العمر الكثير، يعيش مع زوجته العجوز.

ذات يوم خرج الرجل للصيد فنصب شركه واختبأ ينتظر فريسة يسوقها الحظ إليه. ومر وقت ثم نظر الصياد فرأى لقلقًا كبيرًا قد وقع فى الفخ. وفجأة نطق اللقلق بصوت بشرى وقال:

– أطلق سراحى أيها الصياد فأنا زعيم اللقالق فى الجبال. أطلق سراحى وأنا أعطيك ما لا تحلم به. إن بيتى يقع هناك على التل خلف الجبال. وإذا أردت الذهاب إليه فاسأل عنى أى عابر سبيل وسوف يدلك عليه.

أطلق العجوز سراح الطائر من الفخ وتركه يطير.

وفى اليوم التالى صحا العجوز من نومه مبكراً وخرج إلى الطريق صوب بيت اللقلق حتى يطلب منه المكافأة. سار العجوز وسار، ثم مشى بين الدروب والجبال حتى وصل إلى مكان عشبى ترعى فيه الأغنام. فسأل العجوز الراعى:

– لمن هذه الأغنام؟

– هذه أغنام اللقلق أجاب الراعى .

واصل العجوز سيره حتى رأى قطيعًا من الجياد فسأل راعى القطيع قائلاً:

– لمن هذه الجياد؟

– إنها جياد اللقلق. أجاب الراعى.

– أيها الراعى، إن اللقلق قد وعد أن يمنحنى ما أطلب، فقدم لى نصيحتك وقل لى ما الذى أطلبه منه؟

– يوجد لدى اللقلق قدر عجيب إذا قلت له: اغلِ ماءك أيها القدر المسحور. يخرج منه الذهب على الفور، فاطلب منه أن يمنحك هذا القدر. نصح الراعى الصياد العجوز.

جدّ العجوز فى سيره ومشى يخترق السهول والجبال ويعبر الأنهار والبحيرات، ومضى فى سيره سبعة أيام وليال حتى وصل فى النهاية إلى بيت اللقلق .

– السلام عليك. قال العجوز وهو يعبر باب البيت.

– لاك لاك. لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك. لابد أنك جئت هنا من أجل الحصول على هدية منى، فماذا تريد ؟ أخبرنى.

– أريد القدر الذى يغلى فيخرج منه الذهب. قال العجوز.

فكر اللقلق وقال:

– أيها العجوز، ما حاجتك للقدر؟ إذا أردت ذهبا أستطيع أن أعطيك الكثير منه. حاول اللقلق إقناع العجوز بالعدول عن طلبه، لكن العجوز أصر ولم يتنازل؛ فأعطاه اللقلق القدر.

أخذ العجوز القدر فرحًا ومضى ليعود إلى بيته. سار العجوز فى الوديان والدروب حتى وصل إلى بيت أحد الأصدقاء، فدخل إليه ليأخذ قسطًا من الراحة. وقال لصاحب البيت محذرًا:

– انتبه جيدًا لهذا القدر بينما أرتاح بعض الوقت، ولو غفوت فلا تنطق بأى حال عبارة " اغلِ ماءك أيها القدر المسحور".

ما إن نام العجوز وراح فى سبات حتى صرخ صاحب البيت فى القدر قائلاً: "اغلِ ماءك أيها القدر المسحور" فانهالت منه النقود الذهبية. أخذ الرجل القدر السحرى وخبأه فى الحجرة المجاورة ووضع مكانه قدرًا آخر زائفًا يشبهه.

صحا العجوز من نومه فأخذ القدر وغادر البيت مواصلاً طريقه.

جد العجوز فى سيره ومشى يخترق السهول والجبال ويعبر الأنهار والبحيرات. ومضى فى سيره سبعة أيام وليال حتى وصل فى النهاية إلى بيته وقال لزوجته:

– هيا أيتها العجوز ضعى غطاء على المائدة وزينيها. فالآن سوف نجمع الذهب ونصبح من الأغنياء.

زينت الزوجة المائدة وغطتها بمفرش جميل. ثم وضع العجوز القدر فى منتصف المائدة وصرخ فيه بكل قوته قائلاً:

– اغلِ ماءك أيها القدر المسحور.

لكن القدر لم يغل شيئًا ولم يخرج منه ذهب ولا فضة. صرخ العجوز بالعبارة مرة أخرى وظل القدر على حاله.

غضب العجوز وقال:

– لقد خدعنى اللقلق الملعون وكذب على وأعطانى قدرًا عاديا. سأذهب إليه غدًا وأطلب منه هدية أخرى.

وفى اليوم التالى خرج العجوز مبكرًا فى طريقه لبيت اللقلق وسار حتى وصل إلى راعى الجياد فقال له:

– لقد خدعنى اللقلق فما الذى أطلبه منه الآن؟

فكر الراعى برهة ثم قال:

- يوجد لدى اللقلق مفرش سحرى، إذا فرشته وقلت له : "مفروش يا مفرش" تخرج منه فى الحال أحجار الياقوت. فاطلب هذا المفرش منه.

ذهب العجوز إلى اللقلق وعبر من الباب وقال:

- السلام عليك أيها اللقلق.

- لاك لاك. لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك. لقد أعطيتك فى المرة السابقة القدر السحرى والآن ماذا تريد؟ سأل اللقلق.

حكى العجوز ما جرى وأضاف قائلاً:

- وهكذا فقد خدعتنى أيها اللقلق وأعطيتنى قدراً عاديا بدلاً من السحرى، وأنا الآن جئت أطلب منك أن تعطينى المفرش السحرى.

كان من اللقلق ما كان، وأعطى العجوز المفرش السحرى. أخذه العجوز مغتبطاً وذهب فى طريق العودة إلى بيته. سار العجوز وسار حتى وصل إلى بيت الصديق الذى مر به من قبل وقال له:

- انتبه جيداً لهذا المفرش بينما أرتاح بعض الوقت، ولو غفوت فلا تنطق بأى حال عبارة "مفروش يا مفرش".

وما إن نام العجوز وراح فى سبات حتى صرخ صاحب البيت فى المفرش قائلاً: "مفروش يا مفرش ". وما إن نطق جملته حتى ظهرت سبعون ياقوتة ثمينة. جمع الرجل الياقوت وأخذ المفرش السحرى وخبأه. ثم وضع مكانه مفرشاً آخر زائفاً يشبهه. صحا العجوز من نومه وأخذ المفرش الزائف ورحل فى طريقه لبيته.

وصل إلى البيت وقال:

- والآن يا زوجتى العجوز سوف نصبح من الأثرياء وأحقق لك كل ما تشتهين من أحلام. انظرى بنفسك ولا تتعجبى.

فرد العجوز المفرش وصرخ قائلاً:

- مفروش يا مفرش.

لكن كلماته ذهبت أدراج الريح ولم يخرج من المفرش شيء. ثار العجوز غاضباً وقال:

– لقد خدعني اللقلق الوغد مرة ثانية، سأذهب إليه غداً وأسأله هدية أخرى.

وفى اليوم التالى انطلق العجوز فى الفجر يجد فى السير إلى بيت اللقلق.

وصل العجوز إلى راعى الجياد فحكى له كل ما كان وسأله:

– والآن ما الذى يمكن أن أطلبه من اللقلق؟

– يبدو أن لك الكثير من الأعداء أيها العجوز. ومن الأفضل أن تطلب من اللقلق إذن العصا السحرية التي تضرب بنفسها. فإذا قلت لها: "اضربى يا عصا" تضرب من يقف أمامها مهما كان عددهم أو قوتهم.

مضى العجوز فى طريقه بلا إبطاء حتى وصل إلى بيت اللقلق فدخل من الباب وقال:

السلام عليك أيها اللقلق.

– لاك لاك. لولا سلامك سبق كلامك لأكلت لحمك قبل عظامك. ما الذى أتى بك أيها العجوز؟ لقد أعطيتك من قبل القدر السحرى والمفرش السحرى، والآن ماذا تريد؟ سأل اللقلق.

– لقد خدعتنى مرة أخرى وأعطيتنى مفرشاً عاديا بدلاً من المفرش السحرى. والآن أريد منك شيئاً غير ذى قيمة، أعطنى العصا التى تضرب من تلقاء نفسها. قال العجوز.

– هل تريد العصا؟ سوف أمنحها لك فهى لا تلزمنى. قال اللقلق، وأعطى العجوز العصا التى تضرب من نفسها.

أخذ العجوز العصا وسار فى طريقه إلى البيت. مشى طويلاً حتى وصل إلى بيت صاحبه الذى توقف عنده من قبل وقال لصاحب البيت:

– انتبه جيداً لهذه العصا بينما أرتاح بعض الوقت، ولو غفوت فإياك أن تنطق بأى حال جملة "اضربى يا عصا".

وما إن نام العجوز وراح فى سبات حتى صرخ صاحب البيت فى العصا قائلاً: "اضربى يا عصا". وما إن نطق جملته حتى اندفعت العصا تهوى بالضرب على كل من بالبيت. صحا العجوز من نومه على صراخ صاحبه وأسرع يستطلع الأمر. فالتف حوله الجميع يتوسلون إليه ويرجونه قائلين :

اجعل العصا تكف عن ضربنا، لقد سرقنا قدرك ومفرشك السحريين وسوف نعيدهما لك فاغفر لنا واطلب من العصا أن تكف عن الضرب وإلا ستقتلنا .

- كفى أيتها العصا. صرخ العجوز فتوقفت العصا عن الضرب .

أحضر صاحب البيت القدر والمفرش السحريين من الحجرة الأخرى وأعطاهما للعجوز. أخذ العجوز أشياءه ومضى فى طريقه إلى البيت. سار العجوز، وسار ومشى يخترق السهول والجبال ويعبر الأنهار والبحيرات. وظل فى سيره سبعة أيام وليال حتى وصل فى النهاية إلى بيته.

وضع القدر وصرخ فيه:

اغلِ ماءك أيها القدر.

غلى القدر وصار يقذف بالنقود الذهبية. ولم يستطع العجوز وزوجته أن يجمعا النقود من كثرة عددها.

ثم صرخ العجوز بعد ذلك قائلاً:

- مفروش يا مفرش.

انبسط المفرش وخرجت منه سبعون ياقوتة ثمينة. قفز العجوز وزوجته من الفرح والسعادة عندما رأوا ما لم يروه فى حياتهما. فأكلا من الطعام وشربا كل ما كانا يحلمان به.

وصلت إلى مسامع أمير البلاد أخبار القدر والمفرش السحريين اللذين حصل عليهما الصياد العجوز فطمع الأمير فيهما وأرسل وزيره فى الحال إلى بيت العجوز.

- أعطنى القدر والمفرش السحريين. قال الوزير للعجوز.

هتف الصياد العجوز قائلاً : اضربى يا عصا.

انهالت العصا بالضرب على الوزير حتى نجا منها بأعجوبة وأطلق ساقيه للريح.

حشد الأمير سبعة آلاف جندى وجمع قواته وحاصر فى الصباح بيت العجوز.

- هيا أيها العجوز اخرج إلى المعركة إذا كانت روحك مازالت فى جسمك. صرخ الأمير منادياً العجوز.

فتح العجوز باب بيته وصرخ فى العصا منادياً:

- اضربى يا عصا.

واندفعت العصا تضرب وتضرب عسكر الأمير وقواته حتى فروا جميعًا بالكاد من أمامها. وصلت العصا إلى الأمير وظلت تضربه وتكسر عظامه فاستغاث الأمير مستنجداً:

أنقذنى من الموت أيها العجوز واجعل العصا تكف عن الضرب.

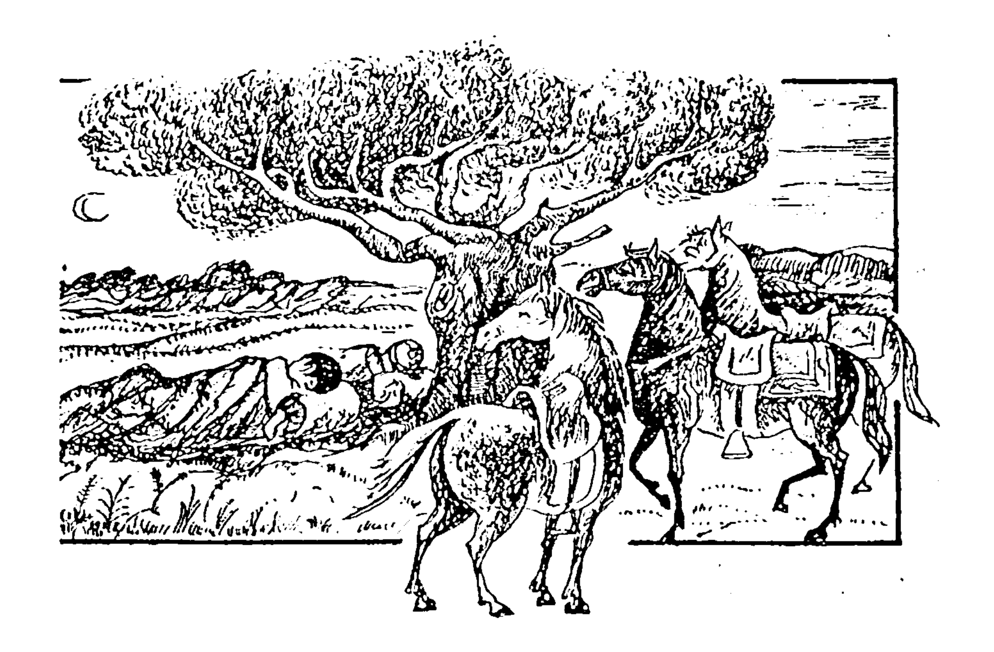
وقف العجوز أمام بيته ينظر إلى الأمير وهو يبتسم وقال:

- فى المرة القادمة لا تفكر أن تثرى على حساب الفقراء الطيبين.

وعاش العجوز الصياد مع زوجته فى سعادة وسلام.

* * *

الأبطال الثلاثة



في زمن من الأزمنة القديمة عاش رجل لا هو بالغني ولا هو بالفقير. كان لديه ثلاثة أبناء. وكانوا ثلاثتهم آية في الجمال والروعة مثل البدر في السماء. حصلوا على قسط واف من التعليم والعلوم وكانوا على قدر كبير من العقل والحكمة، يختلطون فقط بالأخيار ويبتعدون عن الأشرار.

كان الابن الأكبر تانجوتش باتير قد بلغ من العمر واحداً وعشرين عاما. والابن الأوسط أورتانش باتير قد أتم عامه الثامن عشر. أما أصغرهم كينجا باتير فقد بلغ السادسة عشرة عاما.

ذات مرة نادى الوالد على أبنائه الثلاثة وأجلسهم بجواره. وصار يداعبهم واحداً بعد الآخر ويمسّد بيديه فوق رءوسهم وقال:

أبنائى الأعزاء، أنا لست غنيا، وما سوف أتركه لكم من متاع الدنيا بعد رحيلى لن يكفيكم طويلاً. ولا تنتظروا أو تأملوا منى أكثر من ذلك. لقد زرعت فيكم ثلاثة أشياء: أولاً: أنشأتكم موفورى الصحة أقوياء البدن. ثانيًا: أعطيتكم سلاحًا فى أيديكم حتى أصبحتم محاربين أشداء. ثالثًا: علمتكم ألا تخشوا أى شيء فى الدنيا فأصبحتم جسورين شجعان. والآن سوف أعطيكم ثلاث نصائح أنصتوا لها جيداً ولا تنسوها: كونوا شرفاء تنعموا بحياة هادئة، لا تغتروا أو تتباهوا بأنفسكم فلا تحمر وجوهكم أبداً من الخجل، لا تستسلموا للكسل تصبحوا دائمًا من السعداء. أما عن بقية الأمور فى الدنيا ففكروا فيها بأنفسكم. وقد جهزت لكم ثلاثة جياد بثلاثة ألوان: الأسود والأشقر والرمادى. وملأت لكم ثلاث حقائب بالزاد الذى يكفيكم أسبوعًا. فلتسبقكم السعادة دائمًا. ارتحلوا وسافروا بين المدائن والبلاد. اخرجوا إلى الدنيا وشاهدوا العالم. إن لم تتعرفوا على العالم جيداً فلن تعرفوا الناس الذين يسكنونه. اذهبوا واصطادوا الطيور والفرائس. والآن أودعكم وأرجو لكم السعادة والنجاح حليفًا يا أبنائى.

قال الوالد ما قاله، ثم نهض وترك الأبناء.

حزم الإخوة أغراضهم واستعدوا للرحيل. وفى الصباح الباكر جلس ثلاثتهم على خيولهم وانطلقوا على الطريق. وظلوا طوال اليوم ينهبون الطريق على الجياد حتى ابتعدوا بعيداً. وعندما حل المساء قرر الإخوة أن يرتاحوا فترجلوا عن الجياد وتناولوا الطعام. وقبل أن يرقدوا للنوم اتفقوا على التالى:

"المكان هنا موحش وغير آمن لنا إذا نعسنا ثلاثتنا جميعًا، فلنقسم الليل بيننا على ثلاث ورديات للحراسة، وكل منا يحرس بالتناوب".

وتم الاتفاق بينهم على ما قيل.

كان الأخ الأكبر تانجوتش هو أول القائمين بالحراسة. أما الآخرين فرقدا للنوم. مر وقت طويل على تانجوتش باتير وهو جالس يلعب بكرة فى يده ويراقب ما حوله على نور القمر الذى أضاء المنطقة.

ساد السكون والصمت المكان وأصبح كل شيء يشبه حلمًا فى المنام.

فجأة، وعند أطراف الغابة ترددت أصوات وضوضاء. امتشق تانجوتش سيفه وتأهب متحفزًا.

كان هناك عرين لأحد الأسود بالقرب من المكان الذى توقف فيه الأشقاء. وعندما شعر الأسد برائحة الناس هبط من عرينه إلى الوادى متجها نحوهم.

كان تانجوتش باتير واثقًا كل الثقة أنه سوف يتدبر أمره مع الأسد بمفرده، فابتعد جانبًا كى لا يزعج شقيقيه النائمين. ركض الأسد نحو تانجوتش حينما رآه حتى أدركه.

استدار تانجوتش نحو الأسد وضربه بسيفه فأصابه فى كتفه الأيسر وجرحه جرحًا كبيرًا. هجم الأسد الجريح على تانجوتش باتير الذى راوغه وبكل عزمه ضربه بالسيف ضربة شديدة على رأسه خر الأسد صريعًا بعدها بجوار تانجوتش.

جلس تانجوتش فوق الأسد وسلخ فروته ثم وضعها تحت ملابسه. وعاد إلى شقيقيه النائمين كما لو أن شيئًا لم يحدث.

مر وقت وجاء الدور على الأخ الأوسط أورتانش باتير ليقوم بالحراسة.

وأثناء حراسته لم يحدث شىء يعكر صفوه.

بعد ذلك قام أصغرهم كينجا باتير ليأخذ دوره هو الآخر. وظل يحرسهم حتى مطلع الفجر.

هكذا مرت الليلة الأولى على الأشقاء.

وفى الصباح الباكر انطلق الإخوة ثانية على الطريق. ساروا طويلاً وعبروا الكثير من الدروب والفيافى. وعندما هبط الليل توقفوا عند جبل كبير وترجلوا من فوق جيادهم. وعند سفح الجبل كانت هناك شجرة حور كبيرة متفرعة الأغصان. أسفل الشجرة تدفق ينبوع ماء صاف. يطل بالقرب منه كهف يعيش به ملك الأفاعى السلطان أدجار.

لم يكن الأبطال يعلمون شيئًا عن ملك الأفاعى. فترجلوا فى هدوء من على الجياد وربطوها ووضعوا لها طعامًا وصاروا ينظفون سروجها ثم جلسوا يتناولون طعام

العشاء. وقبل أن يرقدوا للنوم قرروا أن يقوموا بالحراسة مثلما فعلوا سابقًا. فبدأ الأخ الأكبر تانجوتش باتير بالنوبة الأولى. وعندما انتهى دوره قام الأخ الثانى أورتانش باتير ليقوم بنوبته.

كان الليل مقمراً ولف السكون المكان. وفجأة سمعت أصوات ضوضاء. ومن أعماق الكهف خرج يزحف السلطان أدجار ورأسه تهتز وجسمه الطويل يتلوى على الأرض. وظل زاحفًا حتى وصل إلى ينبوع الماء.

لم يرغب أورتانش باتير فى أن يزعج شقيقيه النائمين فركض إلى الوادى مبتعداً عن عين الماء.

شعر السلطان أدجار برائحة الإنسان وزحف مسرعا خلف أورتانش حتى أدركه. قفز أورتانش جانبًا وضرب أدجار بالسيف على ذيله. التف السطان أدجار على نفسه وهو فى مكانه ومد رأسه ناحية أورتانش. لكن أورتانش تفاداه وضربه ضربة قوية على ظهره. استجمع ملك الثعابين الجريح قواه وهجم على أورتانش. لكن البطل صرعه بضربة ساحقة أخيرة من سيفه.

بعد ذلك قام أورتانش فسلخ جلد الثعبان ووضعه أسفل ملابسه. وقفل عائداً إلى شقيقيه. ثم جلس فى مكانه هادئًا كما لو أنه لم يحدث شيء حتى جاء دور الأخ الأصغر كينجا باتير للحراسة. وفى الصباح رحل الأشقاء ثانية على الطريق ليكملوا سفرهم.

ساروا على الطريق طويلاً وعبروا الوديان والسهول والجبال حتى بدأت الشمس تميل للغروب فتوقفوا عند ربوة عالية، وترجلوا من على جيادهم وجلسوا يرتاحون. أضرم الإخوة النار وتناولوا العشاء. ومن جديد صاروا يتناوبون الحراسة فيما بينهم. من الأخ الأكبر فالأوسط حتى جاء دور الأخ الأصغر.

جلس كينجا باتير يحرس شقيقيه النائمين ولم ينتبه أن شعلة النار صارت تخبو حتى انطفأت. وفكر كينجا باتير فى نفسه:

"ليس من الجيد أن نبقى هنا بدون نار موقدة".

تسلق الربوة حتى وقف أعلاها وأخذ يراقب المكان من حوله. على البعد رأى بريق شعلة يومض بين الحين والآخر.

امتطى كينجا باتير جواده وانطلق به نحو المكان الذى رأى البريق به. سار فترة طويلة حتى وصل إلى منزل لا يوجد حوله شيء. فترجل كينجا باتير من على فرسه وتسلل على أطراف أصابعه إلى شباك البيت يختلس النظر بداخله.

كانت الحجرة مضاءة وفى منتصفها شعلة من النار عليها قدر به طعام يغلى. حول الشعلة جلس عشرون رجلاً ملامحهم المخيفة تدل على الخبث والإجرام وعيونهم تقدح بالشرر والقسوة. وكان من الواضح أنهم يتفقون فيما بينهم على القيام بشيء غير طيب.

فكر كينجا باتير:

"آخ، هذه عصابة من المجرمين قد اجتمعوا هنا. هل أتركهم وأذهب لحالى؟ لا يصح لرجل شريف أن يفعل هذا. فلأجرب معهم المكر والدهاء".

فتح كينجا الباب فجأة ودخل الحجرة. أخرج المجرمون على الفور أسلحتهم. لكن كينجا باتير نظر إلى زعيم العصابة وقال له:

– سيدى، أنا عبدكم البائس الفقير جئت من إحدى المدن البعيدة. وقد كنت أقوم حتى الآن بسرقات صغيرة. ومنذ زمن طويل أتمنى أن أنضم لعصابة كبيرة مثل عصابتكم. وعندما سمعت بوجودكم هنا أسرعت بالمجيء إليكم. وعلى الرغم من صغر سنى إلا أننى أتمنى أن تقبلوننى عضوا معكم. فأنا أتقن عدداً لا بأس به من الخدع المختلفة وأستطيع تدبير الدسائس والمكائد. كما أننى حاذق فى الحراسة والتجسس ويمكننى أن أكون نافعًا لعملكم.

هكذا استطاع كينجا باتير أن يدير الحديث بذكاء وفطنة.

أجاب رئيس العصابة قائلاً:

– فعلت الصواب بمجيئك إلينا أيها الفتى.

عقد كينجا يديه أمام صدره وانحنى أمامهم وجلس بجوار النار.

كان الطعام قد نضج على النار فأكل الجميع حتى شبعوا.

فى هذه الليلة قرر المجرمون أن ينهبوا خزانة الملك. وبعد أن شربوا الشاى امتطوا جيادهم وخرجوا إلى الطريق وقد انضم اليهم أيضا كينجا باتير.

بعد وقت قليل وصلوا إلى حديقة القصر، فترجلوا عن خيولهم وصاروا يتجادلون فيما بينهم عن أفضل السبل للدخول إلى القصر. وطال النقاش والجدل.

أخيراً انتهى اللصوص إلى القرار التالى: أن يتسلق سور القصر كينجا باتير متسللاً إلى الداخل كى يستطلع لهم أحوال الحراس إن كانوا نائمين أم أنهم مازالوا يقظين. وبعد أن يطمئنوا للأوضاع بالداخل يتسللون واحداً بعد الآخر عبر السور إلى حديقة القصر. ثم يجتمعون معا ويقتحمون القصر مرة واحدة لنهبه.

ساعد اللصوص كينجا باتير فى تسلق السور إلى الداخل وقفز باتير إلى الحديقة. ثم سار فيها ورأى الحراس يغطون فى نوم عميق. وعثر على عربة يد كبيرة فدفعها ناحية السور حتى التصقت بجانبه. ووقف بعد ذلك فوق العربة وأطل برأسه خارج السور منادياً على اللصوص:"إنه الوقت المناسب تماماً".

أمر زعيم اللصوص أفراد عصابته أن يتسلقوا السور واحداً بعد الآخر ويلحقوا بكينجا باتير.

ما إن وصل أول اللصوص إلى العربة الموجودة بجوار السور وأخذ يهم بالقفز من عليها حتى فاجأه كينجا باتير بسيفه من الخلف حول رقبته وجز رأسه.

– فليستعد التالى فيكم ويقفز إلىّ نادى كينجا باتير على اللصوص ودفع بجثة اللص من فوق العربة إلى الأرض.

الخلاصة أن كينجا باتير استطاع أن يقطع رقاب اللصوص جميعاً واحداً بعد الآخر. وبعد أن انتهى منهم اتجه إلى القصر. ومر فى سيره بالحراس النائمين فسار بحذر كى لا يوقظهم ودخل إلى القصر. فوجد أمامه بهواً واسعاً فيه ثلاثة أبواب يقف عليها عشر فتيات من الخدم يغطون بدورهن فى نوم عميق.

دخل كينجا باتير من الباب الأول دون أن يراه أى أحد أو يشعر به كائن فى القصر. فوجد نفسه يقف فى حجرة رائعة الجمال مزينة بأثمن الأثاث والمتاع ، تغطى حوائطها ستائر من الحرير المنقوش بالورود.

ويتوسط الحجرة سرير من الفضة الخالصة، عليه أغطية من القطن الأبيض الناعم تتدثر بها حسناء تغار الورود على الأرض من جمالها وهى تنام عليه. نظر كينجا باتير إلى الحسناء النائمة، ثم اقترب منها فى هدوء ونزع سوارًا ذهبيا من يدها اليمنى ودسه فى جيبه وخرج من الحجرة عائدًا إلى البهو مرة أخرى.

"فلأفتح الآن الباب الثانى وأرى ما خلفه من الأسرار". قال لنفسه كينجا باتير.

فتح الباب الثانى فوجد نفسه داخل حجرة فاخرة الأثاث. على حوائطها تنسدل الستائر الحريرية المنقوشة بأشكال الطيور المختلفة. يتوسطها سرير من الفضة تنام عليه فتاة باهرة الحسن والجمال يختلف القمر والشمس لحسنها وكل منهما يقول للآخر: لقد أخذت هذا الجمال عنى أنا. ويحيط بها عشر فتيات من الخدم.

اقترب كينجا باتير بهدوء من الفتاة، ونزع من رقبتها العقد الذى ترتديه ووضعه فى جيبه وقفل خارجًا من الحجرة إلى البهو.

"والآن ينبغى علىّ النظر فى الحجرة الثالثة" . فكر كينجا باتير.

كانت الحجرة الثالثة أفخم وأروع من سابقتيها. حوائطها مغطاة بالحرير الملون. يتوسطها سرير فضى تحيط به ستة عشر فتاة من الخدم. وتنام عليه فتاة رائعة الجمال بدرجة مذهلة. حتى إن ملكة النجوم نجمة الصباح الباهرة كانت مستعدة للانحناء أمام حسنها الوضاء والقيام على خدمتها.

اقترب كينجا باتير فى حذر من سرير الفتاة ونزع من أذنها اليمنى القرط الذهبى الذى ترتديه. ثم وضعه فى جيبه وتسلل من الحجرة.

خرج كينجا باتير من القصر كما دخله. وتسلق السور إلى الخارج. ثم امتطى فرسه وعاد إلى شقيقيه.

كان الشقيقان مازالا يغطان فى نومهما. فجلس كينجا باتير حتى طلوع الفجر وهو يلهو ويلعب بالكرة.

بعد شروق الشمس تناول الأشقاء فطورهم، ثم امتطوا جيادهم ومضوا فى طريقهم.

وسار الأشقاء لبعض الوقت وهم يقطعون الطريق حتى وصلوا إلى المدينة وتوقفوا بالقرب من إحدى المقاهى. فترجلوا عن جيادهم ودخلوا إلى المقهى. وهناك جلسوا يستريحون ويحتسون أكواب الشاى الساخن.

فجأة خرج المنادى إلى الشارع يهتف بالناس ويقول:

– من فيكم أيها الناس له أذنان فليسمع ويصغى جيداً. فى الليلة الماضية قام أحد الرجال بقطع رقاب عشرين لصا فى حديقة القصر الملكى، وقد سرقت قطعة ذهبية من كل بنت من بنات مليكنا. ويريد الملك من جميع الناس صغيرهم وكبيرهم أن يساعدوه فى شرح وفهم تلك الأحداث الغامضة التى جرت بقصره. وأن يدلوه على الفتى الشجاع الذى قام بهذه البطولة الفائقة. ومن لديه فى منزله زوار أو أغراب قادمون من مدن أو بلدان أخرى فعليه أن يحضرهم إلى القصر على الفور. وعلى الحاضر منكم أن يعلم الغائب.

بعدما سمع صاحب المقهى النداء فى الشارع اقترح على ضيوفه الأشقاء الثلاثة الذهاب إلى القصر والمثول أمام الملك.

حزم الأشقاء أمرهم وقاموا متجهين إلى القصر دون عجالة.

عندما علم الملك أنهم غرباء عن المدينة، أمر بتخصيص أفخر الأجنحة لإقامتهم بالقصر. كما كلف الوزير بمعرفة أسرارهم.

قال الوزير:

– إذا سألناهم بصورة مباشرة فقد يتهربون من الإجابة علينا. وإنى أرى أنه من الأفضل أن نتركهم ونتنصت على ما يقولونه فيما بينهم.

مكث الأشقاء فى الحجرة بمفردهم. وقد وضعوا لهم مائدة زاخرة بشتى صنوف الطعام وأشهاه. وأخذ الأشقاء يتناولون منه ويأكلون.

وفى الحجرة الملاصقة لهم جلس الملك والوزير فى صمت وهدوء يسترقان السمع لما يقوله الأشقاء.

– لقد أحضروا لنا لحم حمل صغير . قال تانجوتش باتير . لكن هذا الحمل قد أرضعته الكلاب. ألا يأنف الملك من لحم الكلاب؟ وأكثر ما يدهشني أن عناقيد العنب هذه تفوح منها رائحة الدم البشرى.

– هذا صحيح . أكد كينجا باتير على كلام شقيقه . إن الملوك جميعاً سفاحون مصاصو دماء. وليس من الغريب أن تمتزج عناقيد العنب بدم الناس. كما يدهشنى شيء آخر: إن قطع الخبز هذه مرصوصة بشكل لا يستطيع رصها عليه سوى خباز ماهر.

قال تانجوتش باتير:

– من الواضح أنهم قد أحضرونا هنا كي يعرفوا منا ما الذى جرى فى قصر الملك. فإذا سألونا بماذا نجيبهم على هذا السؤال؟

– لن نكذب عليهم فى شيء . قال أورتانش باتير . بل نقول لهم الحقيقة كاملة.

– نعم، لقد حان الوقت كي نحكى ما حدث لنا على الطريق فى الثلاثة أيام الأخيرة . قال كينجا باتير.

بدأ تانجوتش باتير الحديث وصار يحكى لهما كيف صارع الأسد فى أول ليلة ثم أخرج من تحت ثيابه فروة الأسد التى سلخها وألقى بها أمامهما. بعد ذلك أخذ يحكى أورتانش باتير ما جرى له فى الليلة الثانية ثم أخرج جلد ملك الثعابين ووضعه أمام شقيقيه. وأخيراً تحدث كينجا باتير وحكى ما صار معه فى الليلة الثالثة وأخرج القطع الذهبية التى أخذها يريها لشقيقيه.

وهنا انكشف السر وعرف الملك والوزير ما جرى بالقصر. لكن أحداً منهما لم يفهم ما قاله الأشقاء حول اللحم والعنب والخبز. لذا فإن الملك أرسل فى طلب الراعى أولاً. وعندما وصل الراعى.

– قل لى حقيقة الأمر . قال الملك . هل كانت الكلاب ترضع الحمل الذى أرسلته لى بالأمس؟

– ارحـمني أيـها الملك . قـال الراعى . وأعطنى الأمــان على حـيـاتى وأنا أقص عليكم ما جرى.

–.قل الحقيقة وأنا أعطيك الأمان . قال الملك.

وصار الراعى يحكى وقال:

– فى الشتاء نفقت إحدى أغنامى وتركت حملا صغيراً . فأشفقت عليه وأعطيته للكلاب كى تطعمه. وقد كان بالفعل ورضع الحمل من الكلاب. وبالأمس أرسلت لكم هذا الحمل لأنه لم يعد لدى غيره بعد أن أخذ خدمكم منى كل الحملان الأخرى.

بعد ذلك أرسل الملك فى طلب البستانى وقال له.

– قل لى الحقيقة ، لماذا تفوح عناقيد العنب برائحة الدم البشرى؟

– ارحمنى أيها الملك . قال البستانى . وأعطنى الأمان على حياتى وأنا أحكى لكم الحادثة التى وقعت بكل التفاصيل.

– أعطيك الأمان هيا احكى لى . قال الملك.

حينئذ صار البستانى يحكى وقال:

– فى الصيف الماضى كان هناك من اعتاد فى كل ليلة أن يسرق أفضل عناقيد العنب الخاصة بسموكم. فصرت أختبئ بين تكعيبة العنب وأحرسها. حتى جاء يوم رأيت اللص يسير متسللاً كى يسرق العنب. فضربته بهراوة كبيرة على رأسه بكل قوتى. وعندما وقع ميتا حفرت حفرة بجوار التكعيبة ودفنته بداخلها.

أما عن قطع الخبز المرصوصة فقد كان الملك هو الذى وضعها بنفسه. ذلك لأن والد الملك كان خبازاً!

دخل الملك جناح الأبطال وقام بتحيتهم وقال:

– إن كل ما قلتموه كان صدقا ولهذا فإن إعجابى بكم قد زاد وزاد. ولى رجاء واحد عندكم أرجو أن تنفذوه.

– تفضل أيها الملك . قال تانجوتش باتير . إن كان فى وسعنا فسوف نقوم بما تطلب منا .

– لقد رزقني الله بثلاث بنات وليس لدى نسل من الأولاد. إن بقيتم هنا زوجتكم من بناتى وأقمت لكم الأفراح والليالى الملاح أربعين يومًا وليلة، ودعوت لها كل أهل المدينة وأطعمتهم جميعًا ابتهاجًا وفرحًا.

– إن ما تقولونه لهو كلام عظيم . أجاب تانجوتش باتير . لكن كيف يمكن لنا الزواج من بناتكم ونحن لسنا من أبناء الملوك؟ بل إن والدنا أبعد ما يكون عن الغنى والثراء. إن ثراءكم جاء من الحكم والملك أما نحن فقد نشأنا فى الكد والعمل.

لكن الملك أصر وقال:

– أنا حاكم هذه البلاد. وأنتم قد رباكم والدكم على العمل بأيديكم. وإذا كان والدكم قد ربى أبطالاً شجعانًا مثلكم فلا يمكنه أن يكون أقل منى، بل إنه فى حقيقة الأمر يعد أغنى منى. والآن أقف أمامكم أنا الملك القوى المهيب والد البنات الثلاث، الذى يتمنى الملوك والأمراء أن ينالوا رضاه وأرجو منكم أن تتخذوا من بناتى زوجات لكم.

وافق الأشقاء على الزواج. فأقام الملك أفراح لأربعين يومًا وليلة. وصار الأبطال الثلاثة يعيشون فى قصر الملك. وكان الملك يحب من أصهاره أصغرهم كينجا باتير أكثر من الآخرين. وكانت له مكانة خاصة فى قلبه.

ذات يوم كان الملك نائمًا متدثرًا بغطاء ثقيل من البرد. وفجأة خرج من أحد الشقوق ثعبان سام واقترب منه وهو يتحفز للدغه. وظهر كينجا باتير فى اللحظة المناسبة. فامتشق سيفه بسرعة وهوى به على الثعبان فقسمه نصفين ورماه جانبًا.

لم يكد كينجا باتير يعيد حسامه فى مكانه حتى استيقظ الملك وأفاق وساورته الشكوك والوساوس."إن الفتى ليس قانعا بالزواج من ابنتى . فكر الملك . فهو يريد أكثر من ذلك بكثير. إنه يريد قتلى كى يصبح ملكا بدلاً منى".

ذهب الملك إلى وزيره وحكى له ما جرى وما تساوره من شكوك حول الفتى. وكان الوزير منذ زمن وهو حاسد حاقد على الأشقاء والمكانة التى حازوها فى القصر. وقد واتته الفرصة لبث كراهيته والتنفيس عنها. فصار يحفز الملك ضدهم.

- أيها الملك، لقد زوجتم بناتكم فلذات كبدكم من عابرى سبيل غرباء لا أصل لهم ولا فصل دون أنْ تسألونى النصح والمشورة. والآن يريد صهركم المحبوب أن يقتلكم. فلابد من توخى الحذر يا مولاى وإلا سوف ينجح بالحيلة والمكر فى التخلص منكم.

صدق الملك كلام الوزير وأمر قائلاً:

- يلقى كينجا باتير فى السجن فوراً.

وألقى الحراس بكينجا باتير فى السجن. فاغتمت وحزنت الأميرة الصغيرة زوجة كينجا باتير على ما أصاب زوجها. وصارت تبكى ليل نهار حتى شحب وجهها وذبلت نضارتها. وذات يوم أخذت تتوسل وترجو أبيها وهى جاثية أمامه على قدميها أن يطلق سراح زوجها. وحينئذ أمر الملك أن يخرجوا كينجا باتير وأن يحضروه للمثول بين يديه.

- لقد ظهرت على حقيقتك يا ناكر الجميل . قال الملك . كيف كنت تريد قتلى؟

فى الإجابة على سؤال الملك، حكى كينجا باتير له حكاية الببغاء.

حكاية الببغاء

فى زمن من الأزمنة عاش أحد الملوك. وكان له ببغاء يحبها كثيراً. كان الملك يعشق الببغاء لدرجة أنه لا يتحمل العيش بدونها ولو ساعة واحدة.

كانت الببغاء تسرى عن الملك بالحكايات المسلية، وتضحكه بالقصص الطريفة. وذات يوم سألته قائلة:

- إن لى فى موطنى بالهند أسرة تعيش هناك، أبى وأمى وإخوتى وأخواتى. وقد مضى علىّ زمن طويل وأنا بالأسر لديكم. والآن أرجو منكم أن تطلقوا سراحى لعشرين يوماً فقط كى أطير وأزور بلدى. ستة أيام تستغرق الرحلة للوصول هناك وستة أيام للعودة، وثمانية أيام أقضيها مع أبى وأمى وأسرتى وأطمئن على أحوالهم.

- كلا . قال الملك . إذا أطلقت سراحك فلن تعودى إلىّ، وسوف أحزن بدونك.

أخذت الببغاء تؤكد وتقسم قائلة:

- أيها الملك، أقسم لك أن أعود إليك ولن أحنث بقسمى أبداً.

– حسنا أيتها الببغاء سوف أطلق سراحك لمدة أسبوعين فقط . قال الملك.

– الوداع أيها الملك، وسوف أعود لك في الميعاد المطلوب. قالت الببغاء بسعادة وأخذت تودع الجميع وطارت من القفص. وارتفعت تحلق في السماء طائرة صوب الجنوب، والملك يتابعها بنظراته وهو غير مصدق أنها سوف تعود.

بعد مرور ستة أيام من الطيران وصلت الببغاء إلى موطنها في الهند. وبعد أن عثرت على والديها وأسرتها تملكتها حالة من النشوة والسعادة للقائهم. وصارت تغنى من الفرح وترفرف بجناحيها فاردة ريشها . وأخذت تلهو وتحلق طائرة من جبل إلى آخر ومن شجرة لأخرى، وتقفز من فرع إلى آخر ثم تتمرغ فوق حشائش الغابات والحدائق. وزارت الببغاء جميع الأقارب والأصدقاء واستمتعت بصحبتهم. ومر اليومان عليها كاللحظات الخاطفة دون أن تشعر بهما . وأزف الوقت كي تطير في رحلة العودة إلى محبسها في القفص. كان من الصعب عليها للغاية فراق الأب والأم والإخوة والأخوات.

وسرعان ما تبدلت لحظات المرح والسعادة إلى أوقات من الحزن والشقاء. من يعلم فقد يحالفها الحظ وتتمكن من العودة لزيارتهم مرة أخرى. وقد تكون هذه هي الزيارة الأخيرة.

اجتمع من حولها الأهل والأصدقاء والمعارف. وأشفقوا جميعًا على الببغاء ونصحوها بالبقاء وعدم العودة إلى الملك. لكن الببغاء قالت لهم:

– لقد أعطيت الملك وعداً بالعودة، فهل يجوز أن أحنث بالوعد الذى أعطيته؟

– هاه هاه . قالت إحدى الببغاوات ساخرة . ومن منكم سمع أن الملوك ينفذون وعودهم ويلتزمون بما يقولون؟ إذا كان ملكك هذا رجل عادل، فكيف يمكنه أن يسجنك لديه في المحبس لأربعة عشر عامًا، ثم يمنحك الحرية أربعة عشر يومًا فقط لا غير؟ وهل أنت خلقت على هذه الأرض كي تعيشى حبيسة طوال عمرك؟ لا تفرطي في حريتك من أجل تسلية أحد ما في العالم. إن قسوة هذا الملك أكبر بكثير من رحمته. وهناك حكمة تقول: لا تظل قريبًا من الملك والنمر. ففى القرب من كليهما خطر جسيم.

لكن الببغاء لم تستمع إلى تلك النصائح وحزمت أمرها للطيران والعودة إلى الملك.

حينئذ تحدثت أم الببغاء وقالت:

- فى هذه الحالة اسمعى منى تلك النصيحة وخذى بها. بالقرب من ديارنا تنمو حبوب الحياة. من يأكل منها ولو حبة واحدة يعود إليه شبابه على الفور. الكهل يعود شاباً، والعجوز تعود صبية صغيرة. احملى معك ما تستطيعين حمله من هذه الحبوب الثمينة وقدميها إلى الملك مقابل أن يمنحك الحرية. من الجائز أن تصحو بداخله روح العدل ويطلق سراحك.

حبّذ الجميع نصيحة الأم وبسرعة أحضروا لها ثلاث حبات من حبوب الحياة. ودعت الببغاء الأهل والأصدقاء وطارت محلقة صوب الشمال.

ومرت ستة أيام على الطيران حتى وصلت الببغاء إلى الملك. فأعطته الهدية التى أحضرتها له، وأخبرته عن المفعول السحرى لتلك الحبات. ففرح الملك فرحًا كبيراً ووعد الببغاء أن يطلق سراحها. وأعطى حبة من الحبوب لزوجته. واحتفظ بالباقى معه.

اشتعل قلب الوزير بالحسد والحقد وقرر أن يلوى مجرى الأمور بطريقة أخرى.

- احترس يا مولاى ولا تأكل من تلك الحبوب التى أحضرها الطائر حتى نجربها أولاً على أحد من المحيطين ونتأكد من عدم خطورتها. وعندما يتضح لنا نفعها تستطيع تناولها مطمئنًا فى أى وقت كان - قال الوزير.

استحسن الملك نصيحة الوزير وقرر الأخذ بها. وأخذ الوزير حبة منهم وحقنها بسم زعاف قوى المفعول. وقسمها إلى نصفين، ثم قال الوزير:

- فلنجرب هذه الحبوب الآن.

أحضروا من الخدم اثنين وأطعموا كلاً منهما نصف الحبة المسمومة. فسقطا من فورهما على الأرض ميتان. وقال الوزير:

- هذا ما كان سيحدث لك يا مولاى إن كنت أكلت من الحبوب.

- لكنت مت مثلهما . صرخ الملك يهتف بغضب. ثم أخرج الببغاء المسكينة من قفصها وفصل رأسها عن جسدها. فكانت هذه هى المكافأة التى منحها الملك للببغاء.

كان الملك غاضبًا على أحد الرجال العجائز وأراد له الموت فأمره بتناول الحبة الباقية لديه. وما إن أكلها العجوز حتى نما فى رأسه الشعر الأسود، وظهرت أسنان جديدة فى فمه، ولمعت عيناه ببريق الشباب والحيوية، وبدا مظهره مثل شاب فى العشرين من عمره.

هنا أدرك الملك الخطأ الذى ارتكبه فى حق الببغاء عندما قتلها. لكنه أدرك ما أدركه متأخراً.

– والآن سوف أقص عليكم ما جرى أثناء نومكم يا مولاى . قال كينجا باتير وهو يختتم حكايته. ثم خرج إلى الحديقة وأحضر منها جسم الثعبان المشطور نصفين. وأخذ الملك يطلب الصفح والغفران من كينجا باتير الذى قال للملك:

– أرجو يا مولاى أن تسمح لنا أن نعود إلى ديارنا فى بلدنا. فلن ينعم أحد أبدًا بالسلام والهناء وهو يجاور الملوك.

وظل الملك يرجو ويتوسل إلى الأبطال الثلاثة، ويحاول إقناعهم أن يعدلوا عن قرارهم بالرحيل دون جدوى.

– نحن لا نستطيع العيش فى القصر مثل حاشية البلاط الملكى. بل نريد العيش بالكد والعرق . قال الثلاثة.

– لتظل إذن بناتى هنا فى القصر معى . قال الملك.

لكن البنات ألحوا قائلين:

– لن نفترق عن أزواجنا.

أصابت الملك الدهشة والذهول. واضطر فى نهاية الأمر أن يرضخ ويسمح لهن بالسفر مع أزواجهم.

وعاد الشبان الأبطال إلى والدهم ومعهم زوجاتهم. وعاشوا سعداء هانئين فى حياتهم وفى عملهم.

* * *

الحكيم لا يرتوى أبدًا



عاش رجل عجوز فى سالف العصر والأوان. وكان العجوز يدخر ثلاثمائة قطعة ذهبية. وذات يوم نادى الرجل على ابنه وأجلسه بالقرب منه وقال له:

– لقد كبرت يا على خان و جعلك الزمن رجلا وجعلنى كهلا. وأريد أن ألقنك أمور التجارة قبل أن أموت. غدا سوف ترحل مع قافلة من قوافل التجار وخذ معك مائة قطعة ذهبية. وعندما تصل إلى المدينة الأخرى لا تضع النقود سدى. بل أنفقها فقط فى شراء البضائع اللازمة للتجارة.

ذهب الابن فى طريقه بعد أن وضع له والده النقاط فوق الحروف.

كان الابن قد بلغ عامه الثامن عشر. وكان شابا ذكيا رائع الخلق غير أنه كان يكره التجارة ويحلم أن يتعلم فنا من الفنون أو حرفة يعمل بها ويرتزق منها. ولم يجرؤ

على خان أن يعصى أوامر أبيه العجوز أو يناقشه فيها. فأخذ منه النقود ورحل مع قافلة التجار.

بعد مرور بضعة أيام وصلت القافلة إلى مدينة ضخمة كبيرة. فتوقفت بها وخرج إليها المسافرون والتجار.

كانت هناك حديقة كبيرة تتوسط المدينة. وفى مساء اليوم نفسه ذهب إليها على خان ليتنزه فيها ويسرى عن نفسه. ودخل إلى الحديقة فوجدها منيرة بآلاف المصابيح المشتعلة التى حولت ليلها إلى نهار. وبين الأشجار رأى سورا يحيط بصالة كبيرة من المرمر تخرج من أرضيتها أعمدة رشيقة تحمل السقف المطعم بالنقوش والرسومات البديعة الملونة بكل ألوان الكون. وتغطى أرض الصالة الأبسطة المشغولة بالحرير وعدد كبير من الطاولات القصيرة المصنوعة من الذهب والفضة واللؤلؤ. وفوق الطاولات تقف تماثيل صغيرة من الأحجار الكريمة . ومئات من الشبان يرتدون ملابس متشابهة يجلسون حولها ويحركون قطع التماثيل أمامهم .

تسمر على خان مذهولا أمام السور يشاهد الصالة العجيبة . وظل واقفا فى مكانه لأكثر من ساعة لا يحرك عينيه عن المشهد الذى يراه .

أخيرا انتبه حارس الحديقة إلى وجوده فذهب ناحيته وقال له:

– لماذا تقف هنا؟ وما الذى يدهشك هكذا؟

– من هم هؤلاء الناس؟ وماذا يفعلون فى هذه الصالة؟ سأل على خان.

– هؤلاء جميعا من الشبان الذين يتعلمون فن الشطرنج. وقد مضى عليهم هنا شهر فى الدراسة والتعليم. أجاب الحارس.

– وكيف يمكن لى أن ألتحق بهذه المدرسة؟ سأل على خان.

– يمكنك أن تلتحق بالمدرسة لو دفعت مائة قطعة ذهبية. رد الحارس.

دفع على خان المائة قطعة ذهبية وبدأ يتعلم الشطرنج.

لم يمض وقت طويل حتى تعلم على خان فن الشطرنج، وأتقن اللعبة وتفوق فيها على معلميه أنفسهم وصار ينتصر عليهم فيها.

مر عام وانتهى على من التعليم فى المدرسة. وبدأ الشبان فى العودة إلى منازلهم. وفكر على خان فى حزن: "كيف أذهب وليس معى أية نقود ؟".

رق المعلم لحال على فأعطاه قطعة ذهبية وأرسله مع قافلة عابرة الى بلدته. وعاد على خان إلى والده بأيد خاوية. فاستقبله الأب بالحزن والفتور.

مضى عام آخر ونادى العجوز على ابنه ثانية. وبعد حوار ونقاش دار بينهما أعطى العجوز لابنه مائة قطعة ذهبية وأرسله مع قافلة من التجار بعد أن أوصاه بالحفاظ على المال.

حطت القافلة رحالها فى المدينة السابقة نفسها وقرر على خان بحسم قائلا لنفسه: "لن أنفق النقود هباء فى هذه المرة".

وفى المساء خرج على يتريض.

واقترب من الحديقة الكبيرة وتناهت الى أسماعه أصوات موسيقى عذبة كالماء تصدر من الحديقة. نظر على إلى نفس المكان الذى تعلم فيه الشطرنج فرأى شبانا يتعلمون العزف والموسيقى على مختلف الآلات الموسيقية فوقف مشدوها يستمع إلى موسيقاهم.

نسى على نصيحة أبيه فى الحال وأخرج من جعبته المائة قطعة الذهبية ودفعها ليتعلم الموسيقى والعزف على الآلات.

وفى وقت قصير استطاع على أن يجيد العزف ويتقنه حتى إنه تفوق على معلمه وأقرانه .

وانقضى عام وانتهت الدراسة وتذكر على خان والده فى حزن فقال لنفسه:"كيف أستطيع الظهور أمام والدى الآن ؟". ورق قلب المعلم لحاله ومنحه قطعتين ذهبيتين وأرسله إلى بلدته.

عاد على خان إلى بيته والتقى بأبيه وفرح الأب العجوز بعودة الابن. لكن حزنه ازداد أكثر من المرة السابقة لما فعله على بالمال .

مر زمن طال أو قصر وانصرم عام آخر فأعطى العجوز لعلى المائة قطعة الذهبية الأخيرة الباقية لديه وقال له:

- إن لم تحافظ على هذا المال فلن يصبح لدينا قطعة واحدة من الخبز ولا سقف يغطى رءوسنا. وجعل العجوز ابنه يقسم أمامه بأن ينفق النقود فقط فى شراء البضائع ولا شىء غير البضائع.

وسافر على إلى المدينة نفسها. ولدى وصوله ذهب إلى حمام البخار ليغسل جسمه من تراب الطريق.

ثم توجه بعد الحمام إلى حديقته المعروفة وفكر قائلا لنفسه: "سألقى فقط نظرة عابرة على المكان وأمضى لحال سبيلى بعد ذلك". وما إن فكر بذلك حتى وجد نفسه فى قلب الحديقة يقف أمام الصالة المرمرية. نظر على فرأى شبانا جالسين يكتبون على الأوراق نصوصا يمليها عليهم المعلم.

تجمد على فى مكانه من الانبهار والإعجاب. وظل واقفا طويلا طويلا والوقت يمر عليه دون أن يشعر به حتى قرر أخيرا : " تعلمت فن الشطرنج ثم أتقنت العزف والموسيقى ولا أعرف القراءة والكتابة ، إن هذا لا يصح أبدا. لابد أن أتعلم القراءة والكتابة حتى لو صرت بعد ذلك معدما وفقيرا".

دفع على المائة قطعة الذهبية الأخيرة فى المدرسة وانطلق بحماس يتعلم القراءة والكتابة. ومضت الأمور كما حدث من قبل. درس على وتفوق على أقرانه وجميع من بالمدرسة. وانتهت فترة الدراسة وبدأ الطلاب فى الرحيل.

مرة أخرى وجد على خان نفسه مفلسا بلا مال يرجع به إلى موطنه. فأعطاه المعلم ثلاث قطع ذهبية وأرسله إلى طريق السفر لكن على خان قرر ألا يعود لأبيه.

عمل على خادما لدى أحد التجار الأثرياء. وكان التاجر قد تأهب للسفر إلى بلاد بعيدة. فحمّل الخدم البضائع والمتاع فوق الجمال ومضت القافلة تسير فى رحلتها.

ظلت القافلة تسير فى طريقها ليلة بعد أخرى ونهاراً بعد نهار دون أن تعثر على قطرة ماء فى أى مكان حتى وصلت أخيرا إلى بئر فى الصحراء. لكن الماء كان على عمق بعيد فى البئر.

أمر التاجر خادمه الجديد بالنزول إلى البئر. أطاع على خان الأمر ونزل إلى قرار البئر وملأ الدلو بالماء . ثم نظر إلى جدار البئر فرأى بابا خشبيا على الجدار . فكر على متسائلا: "ما هذا الباب ؟". ثم فتح الباب ودلف إلى الداخل فرأى حجرة منيرة يجلس على بساط فيها جنى يحمل قيثارة وهو قابع فى سكون مغمض العينين مطأطأ الرأس والحزن الشديد باد عليه.

لم يخف على من الجنى بل ترك الدلو عند الباب ودخل بهدوء. ثم تناول القيثارة من يد الجنى وصار يعزف عليها.

انسابت النغمات الحلوة من أوتار القيثارة الرقيقة وغطت أرجاء المكان. استمع الجنى للنغمات ففتح عينيه وتنهد بارتياح. ثم نظر حوله واتجه إلى على خان ومسد بيده فوق رأسه وسأله:

– أيها الإنسان، ما الذى جاء بك إلى هذا المكان؟

وحكى على للجنى كل ما كان من أمره وجرى. ثم تذكر القافلة التى تنتظره فقام متأهبا للرحيل. وهنا قال له الجنى:

– ما الذى تريده من الدنيا؟ أخبرنى وأنا أحقق لك رغبتك.

رفع على خان عينيه مشدوها إلى الجنى ولم ينطق. فقال الجنى :

– لقد مات ولدى الوحيد ومرت خمسة أيام على رحيله من الدنيا. وقد أصبحت وحيدا من بعده. وعصف بى الحزن والهم حتى صرت أشتاق إلى الموت. فأحضرت تلك القيثارة معى حتى أروح بها عن نفسى وأنشغل بموسيقاها عن همومى. وأمسكتها بيدى لكننى لم أستطع العزف عليها. ولو كان وصولك هنا قد تأخر بضعة ساعات لأصبحت فى عداد الأموات. لقد أنقذنى عزفك من الهلاك المحقق. فاطلب ما شئت وأنا أمنحك كل ما أمتلك من الكنوز.

– أرجو أن تساعدنى فقط فى الخروج من هذا البئر فهذا كل ما أريده . قال على خان، وعزف مرة أخرى على القيثارة.

أعطى الجنى لعلى كيسا مملوءًا بالذهب وقال له:

- والآن أغمض عينيك.

أغلق على خان عينيه .

وعندما فتحهما وجد نفسه على الأرض بجانب البئر. ونظر حوله فرأى القافلة قد غادرت المكان ولا يوجد أحد منها.

مضى على خان يقتفى آثار أقدام الجمال فى الطريق حتى أدرك القافلة. دهش الجميع لدى رؤيتهم له وصاروا يسألونه كيف استطاع الخروج من البئر. وقص عليهم على خان كل ما جرى معه وأخرج لهم كيس الذهب الذى منحه له الجنى.

وعندما توقفت القافلة للراحة أخرج التاجر ورقة وكتب رسالة وختمها بخاتمه. ثم نا ى على خان وأعطاه الرسالة وقال له :

- إن لى بنتًا جميلة كالبدر سوف أزوجها لك. فاسبقنى إلى منزلى وأقم الاستعدادات للزفاف. واحرص على نقودك ولا تضيعها. وسوف أدركك بالمنزل بعد ثلاثة أيام.

أعطى التاجر على خان فرسًا "رهوان" وشرح له طريق الوصول إلى منزله.

انطلق على وسار بالفرس. وبعد وقت وقف ليستريح وفكر قائلا:"لقد دفعت مائة قطعة ذهبية كى أتعلم القراءة والكتابة، فلأقرأ ما هو مكتوب بها".

فض على الرسالة وقرأها ثم ارتعد بدنه من الخوف والفزع.

فقد كان هذا ما كتبه التاجر لزوجته:

" زوجتى العزيزة، أرسل إليك ذهبا يحمله الخادم حامل الرسالة. لقد خدعته وجعلته يظن بأنى سوف أزوجه من ابنتى. فما إن يصل إليك حتى تأمرى بقطع رأسه فى الحال. مع تحيات واحترامات زوجك".

تحسس على رقبته وأحضر قلما وورقة وكتب التالى:

" زوجتى العزيزة، أرسل إليك ضيفا عزيزا غاليا، أرجو أن تستقبليه بكل إجلال وحفاوة. وأن تزوجيه من ابنتنا، وليقام العرس والزواج دون انتظار وصولى".

ختم على خان الرسالة وتابع طريقه نحو المنزل.

وصل على إلى المدينة وبحث عن منزل التاجر حتى عثر عليه. وأعطى الرسالة لزوجته. فضت الزوجة الرسالة وقرأتها. ثم استقبلت الضيف بمظاهر التكريم والاحترام.

فى اليوم التالى أقيمت الاحتفالات بزفاف ابنة التاجر وعلى خان. واستمرت الأفراح والليالى الملاح يومين.

فى اليوم الثالث ركب على فرسه واستدعى الخدم والحراس وأصدر لهم أمرا:

- سوف أسافر لأمور تجارتى فلا تفتحوا البوابة لأحد فى الليل. وإذا تسلل أحد من السور، فاقبضوا عليه وأوسعوه ضربا بلا رحمة ولا هوادة. فهذه أوامر سيدكم التاجر رب المنزل.

وفى المساء وصل التاجر مع قافلته إلى منزله وأخذ يطرق البوابة ليفتح له الخدم. لكنه ظل ساعتين يطرق وينادى دون أن يفتح له أحد. فتسلل عبر السور إلى حوش المنزل لكن الخدم أمسكوا به وأوسعوه ضربا بالعصى والشوم حتى كادوا أن يفتكوا به.

ظل التاجر طويلا وهو فاقد لوعيه. وما إن أفاق حتى سار بالكاد يجرجر قدميه حتى وصل إلى حجرته وسأل زوجته:

- ما الذى فعلته عندما وصل الرسول حاملا خطابى لك؟

- فعلت ما طلبته فى رسالتك - قالت الزوجة.

- وأين الذهب إذن؟ - قال التاجر ولمعت عيناه من الجشع.

- عن أى ذهب تتحدث؟

– ألم أطلب منك أن تأمرى بقتل الرسول حامل الرسالة وأن تأخذى منه الذهب الذى بحوزته وتخفيه؟

– هل فقدت عقلك أيها الرجل؟ أتريد أن تقتل صهرك؟

– صهر من؟

– زوج ابنتك.

– ومتى زوجتيها؟

– منذ يومين.

ضرب التاجر جبهته بيده وأخذ يسب ويلعن الزوجة والخدم. وسأل الخدم وهو فى سورة من الغضب:

– وأين هو صهرى الآن؟

خرج منذ الصباح وطلب منا أن نحرس البوابة وألا نسمح لأحد بالدخول فى الليل. وإذا جرؤ أحد على الدخول فينبغى ضربه – قال الخدم.

وهنا أدرك التاجر أن على خان أراد أن يعاقبه وقرر أن يتصالح معه.

ولنترك التاجر مع زوجته لبعض الوقت ونحكى عن على خان.

سار على خان طويلا فى طريقه حتى وصل إلى مدينة كبيرة. وكان يوم وصوله هو يوم السوق. وسمع المنادين يصيحون بين الناس قائلين:

– اسمعوا أيها الناس والحاضر منكم يعلم الغائب. من يرى فيكم نفسه ماهرا فى لعبة الشطرنج فليذهب اليوم إلى قصر الملك ليلاعبه. وإذا استطاع أحد أن يفوز عليه ثلاث مرات متتالية فسوف يتنازل له الملك عن عرشه. ومن يهزم ثلاث مرات متتالية سوف يفقد رأسه بعد أن يقطعها له الملك.

ذهب على خان إلى قصر الملك وطلب منه أن يلعب معه الشطرنج.

وبدأ على خان يلعب مع الملك. وخسر على مرة ثم فاز مرتين. ولعبا ثانية ففاز الملك مرتين ثم خسر مرة. وفى المحاولة الثالثة فاز على خان ثلاث مرات متتالية.

أسقط في يدى الملك وأصبح عليه أن يتنازل عن عرشه لعلى خان. فقام من مكانه وانحنى لعلى قائلا:

– هيا انهض واجلس على العرش، فقد أصبحت أنت الملك أيها الفتى.

– ليست لدى الرغبة أن أصبح ملكا. بل أريد العودة إلى مدينتى وتعليم أهلها الثقافة والموسيقى.

فى البداية سافر على خان إلى زوجته. وبعد ذلك اصطحبها معه ورحل إلى مدينته وذهب إلى والده.

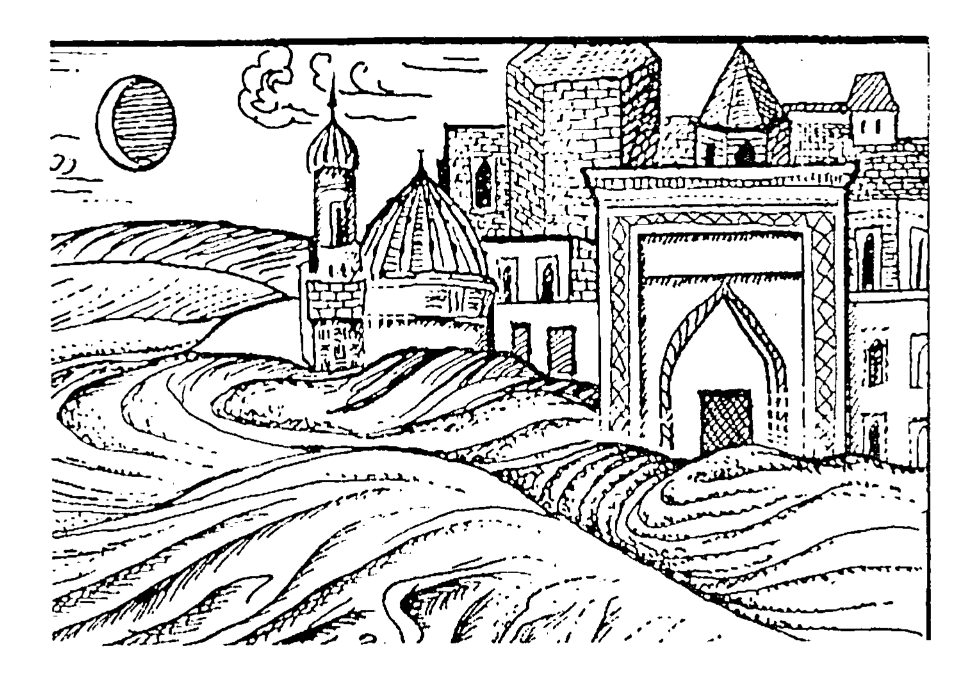
حكى على خان لوالده كل ما جرى له من أحداث. فابتسم الوالد ونظر إلى على بفخر وسعادة وقال له:

– إنك حقا فتى بارع الذكاء. فكم من العلوم درست، وكم مرة من الموت أفلت.

– إن الحكيم لا يرتوى أبدا يا والدى – قال على خان.

* * *

الرمال الشريرة



قديما قديما فى زمن بعيد كان هناك أمير يحكم مدينة بخارى ويفرض الظلم والهوان على العباد فى البلاد. ويحكى أن قوافل الجمال والتجار بعد أن سارت طويلا طويلا عبر الرمال الحمراء انبثقت أمامها فجأة من قلب الرمال بيوت وقباب شاهقة تلامس طرف السماء. كانت هذه بيوت مدينة فرهشة القديمة ومملكة الحياة السعيدة. كانت القوافل العابرة قد أنهكها التعب والعطش. وما إن اقتربت من المدينة حتى اختفت البيوت والأسوار والقباب من على الأرض وكأنها لم تكن قائمة. وتتوه القوافل بعد ذلك وتضيع وسط ضباب يبتلع المدينة القديمة.

فى هذا الزمن القديم قامت هناك بالفعل مدينة فرهشة. وكانت تقع على جزيرة تحيط بها أمواج البحر من كل جانب. كانت حوائط المدينة وأسوارها مبنية من المرمر

الوردى، وأبراجـهـا من الذهب الخـالص، وأسـقـف بيـوتـهـا من الفـضـة. وعند شـاطئ الجزيرة شيد قصر منيف رائع الجمال. عاش به الشـاه نجم الدين حاكم البلاد العظيم. ومن حول المدينة امتدت بسـاتين العنب وحـدائق الفـاكهة والأشـجـار. كـانت الأعـاصير والرياح البـاردة تعصف بالحدائق. فماتت فروع الأشجار وسقطت أوراقها. لكن سكان المدينة لم يخشوا أو يفزعوا وهم آمنون خلف الأسوار المرمرية للمدينة. ولم يهتموا حتى بالنظر نحو أمواج الرمال الحمراء التى هجمت بضراوة على الحقول والبساتين.

فى هذا الوقت كان نجم الدين العظيم شابا صغيرا متهورا قليل الخبرة والذكاء. ولم يكن يفكر فى شـئـون الرعيـة والبـلاد بقـدر مـا كـان يحب الخـمـر والنسـاء واللهـو والمغـامرات.

وفى يوم من الأيام خـرج نجم الدين فى رحلة للصـيـد. وفـجـأة ظهـر له نمر هائل الحجم هجم عليه بسرعة البرق فأوقعه مع رمحه على الأرض. وبدا للشاه المغلوب على أمره أن نهايتـه قد حلت حين انطلق فـجـأة سـهـم أصـاب النمر فى مقـتل وصرعه. قام الشـاه نجم الدين ينفض التراب من على مـلابسـه ويستطلع الأمر. فرأى شـابا صـغيرا يحمل قوسه فى يده. مد الشاه يده نحو الفتى وسأله:

- ما اسمك أيها الفتى ؟

- زهيد.

- لقد أنقذتنى من موت محقق، ومن الآن سوف تصبح أخا لى يا زهيد.

عـاد الشـاه نجم الدين إلى القصـر واصطحب مـعه الفتى زهيد. ثـم جمع الحـاشية والوزراء والمستشارين وقال لهم:

- أنتم جمـيعـا من الأغبياء والجبناء، أين كنتم عندمـا هاجمنى النمـر المفترس؟ اخرجوا جميعا من هنا وغادروا القصر. فمن الآن لن يكون هناك وزير ولا مستشار لى غير أخى زهيد.

وأصبح الشاب زهيد وزيرا فى البلاد كما قال الشاه نجم الدين.

عـاد الشـاه نجم الدين إلى اللهو والمرح تاركا شـئون فرهشـة للوزير زهيد يديرها بمعـرفته.

وفى غضون وقت قصير علا شأن الوزير زهيد وذاع صيته واشتهر بالذكاء والحكمة. وقدم إليه العلماء والحكماء من شتى بقاع الأرض يستمعون لآرائه وينبهرون بحكمته وحديثه. وكان الشاه نجم الدين لا يترك زهيد يبتعد عنه خطوة واحدة. فكان يفعل دائما كل ما يشير له زهيد وينصح به.

وفى يوم من الأيام قال الوزير زهيد للشاه كلمات حكيمة:

- إن الرمال الشريرة سوف تجلب للبلاد شرورا ومصائب بالغة، فهى تزحف يوماً بعد يوم على البساتين والحدائق. فلتمنع يا مولاى الشاه أن يقطع أحد الأشجار فى الحدائق والوديان.

دهش الشاه من كلام زهيد لكنه استمع لنصيحة وزيره. وأعلن أنه سيقطع رأس كل من يجرؤ ويقطع شجرة حتى ولو كانت شجيرة صغيرة.

اعترض الوزير على أن تكون العقوبة هى القتل. لكن الشاه قال:

- إن أوامرى واجبة ولابد أن تطاع.

أخذ رجال الشاه يطاردون الناس فى كل مكان ويقبضون على كل من يجمع ولو حطبا ويعدموه. حتى هاج الناس وثاروا على الوزير وصاروا يلقون عليه باللوم لأنهم كانوا يعلمون بأن نجم الدين لا يحرك إصبعا دون نصيحة من الوزير.

وذات يوم كان الشاه يقوم بالصيد فى المكان نفسه الذى كاد فيه أن يفترسه النمر عندما شاهد فتاة حسناء كالبدر. ضفائرها تتدلى مثل خيوط الليل الأسود. وفى عينيها نور يضىء أكثر من النجوم الساطعة فى السماء، وخداها أنعم من المشمش، وأهدابها فى استدارة القوس. كانت الفتاة ذات قوام ممشوق مشدود مثل غزال برى شارد.

أمر الشاه بالإمساك بالفتاة وجلبها إلى قصره. وعندما رآها الوزير زهيد امتقع وجهه واصفر وقال:

- أيها الشاه العظيم إننى أعرف هذه الفتاة. فاسمها جميلة، وهى خطيبتى فاتركها لى .

لكن الشاه نجم الدين سخر ضاحكا من كلمات وزيره. وفى الليلة نفسها قامت الأفراح والليالى الملاح احتفالا بزفاف جميلة إلى الشاه. وبعد ذلك أصبحت زوجة له. وكى يرضى الشاه وزيره أحضر له شابة مليحة من بخارى وزوّجها له.

أحب الشاه نجم الدين زوجته الجديدة حبا شديدا. فألبسها الملابس الفاخرة وأغدق عليها بالذهب والجواهر الثمينة من رأسها لأخمص قدمها.

- هل تحبيننى يا جميلة؟ سألها الشاه.

لكن جميلة امتنعت عن الرد والكلام. فلم تكن تحب سوى السهول والوديان وتتوق إلى حريتها التى انتزعها منها الشاه.

ولم يمر وقت طويل حتى وضعت جميلة بنتا أسمتها جولشهرة. ورغم أن إنجاب البنات فى ذلك الزمن لم يكن محببا لدى الملوك والأمراء، إلا أن الشاه قد ازداد حبه وولعه بزوجته جميلة.

غير أن الحزن لم يفارق جميلة. وغرقت فى الهموم والأتراح مثلما تغرق الرمال فى الصحراء. وكانت همومها تزداد كلما رأت الوزير زهيد.

ورزق الوزير زهيد بولد أسماه شاكر.

لم تكن جميلة تحب النظر الى ابنتها جولشهرة التى أنجبتها من الشاه المكروه لها. ولم يكن الوزير زهيد يحب النظر إلى ابنه شاكر الذى أنجبه من الزوجة التى لا يحبها.

وفى يوم جاءت حريم الشاه يبلغونه باختفاء زوجته جميلة بلا أثر خلفها. وأيضا اختفاء الوزير زهيد بعدها من القصر.

اسود وجه الشاه من الغضب فنادى على الحرس والخدم. وأمرهم بالبحث والسعى خلف جميلة وزهيد. وبعيدا عن المدينة استطاع الحراس القبض على الهاربين. وتملك الغيظ من الشاه فقتل زوجته. وألقى بوزيره فى غياهب السجون.

مرت شهور وأعوام طويلة وتذكر الشاه نجم الدين وزيره الحكيم زهيد. فأخرجه من سجنه وأخذه من يده وصعد به فوق أعلى برج فى مدينة فرهشة وقال له مشيرا إلى الرمال:

- انظر يا زهيد لقد تحقق ما قلته لى من قبل. فالرمال الشريرة تلتهم مدينة فرهشة لأننى نسيت نصيحتك، وتركت الناس يقطعون الأشجار التى تحمى المدينة ولم أحافظ عليها.

تطلع زهيد بعينيه فى أسى وحزن إلى زحف الرمال الحمراء على المدينة. جبال من الرمال تلتصق بالأسوار. أمواج الرمال تخترق البوابات والطرقات. حتى أوراق الشجر القليلة المتبقية قد تحول لونها إلى اللون الأحمر. وقال زهيد:

- أيها الشاه، لقد اغتصبت منى محبوبتى وألقيت بى فى ظلمات السجون وسرقت منى شبابى وعمرى. والآن جئت تطلب منى العون والنصيحة.

رجاه الشاه متوسلا:

- سوف أجعل منك وزيرا مرة أخرى، سوف تصبح حاكما للبلاد وسأمنحك كل ما تطلب من الثروة والجاه.

- وما قيمة كل ذلك الآن، انظر لى، لقد أصبحت عجوزا أبيض الشعر.

توسل الشاه نجم الدين راجيا زهيد أن ينصحه ويساعده على إنقاذ المدينة من الموت والخراب، لكن زهيد ظل رافضا ولم يغير موقفه.

فى هذا الوقت صعدت إلى البرج جولشهرة ابنة جميلة والتى قد أصبحت فتاة رائعة الحسن. انبهر زهيد بجمالها وانجذب لحسنها الخلاب فقال:

- حسنا إنى أوافق على تلبية رجائك بشرط أن تعطينى جولشهرة التى تشبه أمها كثمرة مقسومة لنصفين. وأتخذها زوجة فاضلة لى، تطربنى بالأغانى، وتملأ علىّ وحدتى وشيخوختى بالمتعة والحب. فأنت تعلم أننى لم أحب أبدا أحدا فى حياتى سوى جميلة. وها هى مشاعر الحب تدق باب قلبى مرة أخرى.

صرخ الشاه قائلا:

- كلا لا أستطيع أن أعطيك أثمن لؤلؤة عندى وأجمل زهرة فى بستانى، إنها ابنتى المحبوبة فكيف أعطيها لك؟

وكظم الشاه غيظه وحنقه على زهيد وعينه وزيرا مرة أخرى. وكان الشاه كل يوم يتوسل إليه ويرجوه بأن يخبره كيف ينقذ المدينة من الرمال لكن قلب زهيد كان قد تحجر من القسوة، ولم يعد يفكر طوال الوقت إلا فى جولشهرة الحسناء.

أما شاكر بن زهيد فقد عاش طوال تلك الفترة فى القصر حتى كبر وصار شابا يافعا بهى الطلعة. وتوطدت - فى الخفاء - بينه وبين جولشهرة مشاعر الحب والهيام. فهو لم ير فى مثل جمالها جمالا بين الفتيات. وهى لم تر فى مثل رجولته رجولة بين الشبان.

وذات يوم كان اللقاء بينهما فى حديقة القصر. وارتمى شاكر على قدميها وفتح لها قلبه. ارتجفت أوصال الفتاة وتعلقت برموشها الطويلة قطرات بللورية من الدمع سالت على خديها. وقالت بصوت ناعم رقيق كصوت الأجراس:

- أه يا شاكر أنا أعلم بحبك لى منذ وقت طويل، ولكن ألم تعلم شروط أبيك الوزير زهيد؟ ورغم أن والدى الشاه قد رفض أن يعطينى له إلا أننى سوف أتزوجه فى سبيل إنقاذ مدينتنا من الخراب والموت.

أطرق شاكر برأسه فى صمت. لكنه أخذ عهدا فى نفسه أن تكون جولشهرة له وليس لغيره.

ويومًا بعد يوم استمرت الرمال فى زحفها على المدينة أقرب فأقرب. وجاء صيف شديد الحرارة. وفى الليل والنهار كانت الرياح تحمل سحبا كاملة مليئة بالرمال. حتى اكتست الشوارع والقباب بطبقات سميكة من الرمال. وجفت مياه الآبار وخزانات المياه واسودت شفاه الناس وجحظت عيونهم. وأصبحوا ينادون بشفاه ممزقة من العطش : "الماء ، الماء"

ومرة أخرى دعا الشاه نجم الدين وزيره وحاول أن يقنعه. لكن الوزير أجاب:

– هل تعطينى ابنتك؟

– لا.

– إذن فأنت لا تهتم بمدينتك. وانقض الوزير على الشاه وقتله. وفر الحراس هاربين من الخوف. ودخل الوزير على جولشهرة معلنا :

– جهزى نفسك للزفاف ولا تحاولى الرفض والعناد وإلا الموت للمدينة .

– سمعا وطاعة. ردت الفتاة وصارت تبكى فى حرقة ومرارة. وخرج الوزير على جواده معلنا للناس:

– يا أهل البلاد، لقد مات الشاه وانتهى أمره، اخضعوا لى وأطيعو أوامرى، وأنا أمنحكم الحياة والسعادة.

اقتاد الوزير جموع الناس لخارج المدينة. وأمرهم بحفر الخنادق حول الأسوار وزرع الأشجار. لكن أوامر الوزير جاءت متأخرة. فقد كانت رياح الصحراء الساخنة تصفر وتدوى أكثر فأكثر فى الأرجاء تاركة ورائها جبالاً من الرمال التى غطت كل شىء. وكانت الرمال تخترق الأعين والآذان والأفواه. وأصبح من الصعب الكلام والسمع والرؤية. وكان عزرائيل ملاك الموت يخرج من قلب تلك الرمال الحمراء ويحصد الأرواح. واخترقت أمواج الرمال القاتلة أسوار المدينة إلى الشوارع تكتسح فى طريقها البيوت والقصور. واضطر العجائز والنساء والأطفال إلى الهرب وترك بيوتهم بعد أن غاصت أقدامهم فى الرمال.

شاهد الوزير زهيد المدينة وهى تحتضر وتموت، فقرر الهرب هو الآخر. ودخل إلى القصر يبحث عن جولشهرة فلم يجدها . فصعد زهيد إلى البرج العالى ونظر فرأى على البعد وسط تلال الرمال فارسين فى رداء أبيض يبتعدان على حصانين. لم يكن الفارسان سوى جولشهرة وشاكر.

رفع زهيد يديه ناحية الهاربين وهو فى ثورة عارمة من الغضب وصرخ يقول:

- أيتها الرمال، ادفنيهما بداخلك، أيتها الرياح مهدى لهما قبرا فى أحضانك.

واختفى الفارسان فى بحر أمواجه من الرمال.

وهجمت الرياح على الوزير العجوز فغطته بالرمال. وصرخ الوزير مفزوعا:

- يا إلهى، إنى أرى دماء جولشهرة وشاكر وهى تسيل.

مزق الوزير العجوز ملابسه وقفز من أعلى البرج إلى أسفل. وظلت الريح تعصف بالمدينة البائسة وتغطيها بالرمال الحمراء الشريرة.

كانت هناك مدينة، ولم تعد هناك مدينة.

عندما تسير طويلا فى الرمال الحمراء، ويفترسك العطش والتعب، انظر حولك بعيون دامعة، وحلق بنظرك بعيدا بعيدا خلف خيوط الشمس الغاربة، وبين أمواج الرمال، فقد تلمح أسوارا رائعة، وقبابا عالية تحيط بها حدائق غناء. إذا رأيتها فلتعلم أنها مدينة فرهشة الأسطورية التى لم تطمرها الرمال الشريرة أبدا.

* * *

السمكة الذهبية



فى زمن بعيد عن زماننا عاش صياد عجوز مع ابنه الوحيد على شاطئ بحر من البحور. وكان الصياد يعيش فى فقر شديد ولا يملك سوى قارب قديم. وكان الابن الشاب يساعد أبيه الصياد ويغنى له الأغانى طوال اليوم.

فى فجر أحد الأيام ألقى الصياد بشبكته فى الماء. ثم سحبها ورأى فيها سمكة تقفز وتحاول الفكاك من خيوطها. لم تكن السمكة كبقية الأسماك بل كانت ذهبية اللون رائعة الجمال. نظر الصياد العجوز إليها فى دهشة وفرح وقال لابنه:

- احرس السمكة الغالية يا بنى، بينما أذهب إلى الحاكم وأخبره عنها، فربما يمنحنا هدية ثمينة نظيرا لها.

رحل العجوز وظل الصياد الشاب يتابع السمكة الذهبية الجميلة وينظر إليها وهى تقاوم الموت وتعانى من العذاب فى الشبكة. رق قلب الابن لها فلم ينتظر عودة أبيه وأطلق سراح السمكة فى البحر.

قفزت السمكة فى البحر قفزتين وغاصت بين الأمواج. وحضر الحاكم يحيط به حشد من الحرس والحاشية وقال:

- إذن أيها الصياد، أين هى السمكة العجيبة التى حدثتنى بها؟

أطرق الصياد الصغير برأسه وقال:

- لقد رق قلبى للسمكة الجميلة فأعدتها مرة أخرى إلى البحر.

ثار الحاكم وهاج غاضبا وصار يسب العجوز قائلا:

- أيها العجوز الملعون، كيف تجرؤ على إزعاجى وتقل راحتى بهذه الأكاذيب الحمقاء؟ وهل سمع أحدكم من قبل أن هناك سمكًا ذهبيًا يسبح فى البحر؟

وقف وزير الحاكم يعبث بشعر لحيته الطويلة التى لامست من طولها الأرض، وقال بصوت رزين:

- لقد عشت على الأرض أكثر من مائة عام ولم أسمع فى حياتى بمثل هذه السمكة الأعجوبة.

حاول الصياد العجوز بشتى السبل إقناع الحاكم بصدق روايته حول السمكة الذهبية. غير أن الحاكم لم يصدقه بل ازداد حنقه وغيظه عليه. فأمر بتوثيق الصياد الابن وربطه بالحبال، ثم وضعوه مربوطا فى القارب القديم ودفعوا بالقارب إلى عرض البحر.

عاد الحاكم إلى قصره وهو سعيد بالعقاب القاسى الذى أنزله بالصياد. بينما جلس الصياد العجوز المسكين على شاطئ البحر ينظر إلى أمواجه العاتية وهى تبتعد بالقارب الذى يحمل ابنه الوحيد وتدفعه إلى المصير المجهول، والعجوز لا يستطيع مساعدة ابنه وإنقاذه. سقط العجوز على الشاطئ باكيا ينتحب ويلعن الحاكم الشرير.

رقد الصياد الصغير المربوط بالقارب ينتظر موته المحتوم. بينما أخذ القارب يبتعد أكثر فأكثر فى مياه البحر.

وأخيرا لاحت فى الأفق البعيد جزيرة فى البحر. ودفعت الأمواج بالزورق إلى شاطئ الجزيرة حتى غاصت مقدمته فى رمال الشاطئ. حينئذ خرج فى الحال من خلف الأشجار شاب صغير. كان الشاب يشبه الصياد الابن بدرجة مذهلة كما لو كانا تفاحة وانقسمت نصفين.

اقترب الشاب من الصياد الصغير وحل وثاقه من الحبال. فعانق الصياد الشاب شاكرا له وممتنا. أخرج الشاب قطعة من الخبز وقسمها نصفين وأعطى أحدهما للصياد ليأكله. وهكذا قامت بينهما صداقة وأخوة حميمة.

ذات يوم كان الصديقان يسيران فى الجزيرة عندما رأيا عجوزا يرعى قطيعا من الماشية. ولم يكن الشابان يعرفان بأن هناك أحداً غيرهما يسكن الجزيرة. اقترب الصديقان من العجوز وقاما بتحيته. ثم حكى العجوز لهما قائلا:

– على مسافة ثلاثة أيام من السفر توجد مدينة يحكمها أحد الأمراء. وقد حلت بهذا الأمير مصيبة شنيعة. فقد رزق بابنة وحيدة لم تشهد الشمس ولا القمر جمالا فى مثل جمالها. لكنها لم تنطق بكلمة واحدة منذ ولادتها. وأعلن الأمير على كل الناس أن من يعالج ابنته الخرساء من الخرس فسوف يزوجها له ويمنحه أفضل العطايا والهبات. وإذا تقدم أحد وادعى بقدرته على علاجها وفشل فى ذلك، فسوف تفصل رأسه عن جسده. وبسبب ذلك فقد الكثيرون من الشبان الطيبين رءوسهم عند قصر هذا الأمير.

دهش الصديقان من حكاية العجوز وقررا أن يسافرا ويجربا حظهما مع الأمير. وعندما اقتربا من قصره قال الشاب للصياد:

– دعنى أتقدم قبلك وأجرب حظى مع الأميرة الصغيرة. وإذا نجحت فى علاجها فسوف أقتسم معك المكافأة التى سيمنحها لى الأمير.

وافق الصياد . ودخل صديقه الشاب إلى قصر الأمير.

قابل الشاب فى القصر بعض الوزراء وقالوا له:

- لقد جاء مثلك عشرات الشبان والأدعياء من قبل لعلاج الأميرة. لكنهم جميعا فشلوا فى جميع محاولاتهم. وفى كل مرة تظل الأميرة على حالها، لكن جبل الرءوس المقطوعة يزداد ويعلو. ومصيرك لن يكون أفضل منهم بأية حال.

بيد أن الشاب الجسور لم يهتز أو يتراجع بل دخل بشجاعة إلى حجرة الأميرة وركع أمامها وقال:

- أيتها الأميرة الحسناء، نحن ثلاثة من الإخوة، ذات يوم دخلنا إلى الغابة لقطع الأخشاب من الأشجار . فقطع أخى الأكبر شجرة وصنع من خشبها طائرا جميلا . وأتقن أخى صنع الطائر بمهارة شديدة حتى إنه بدا كالحقيقى. ثم دخل الأخ الأوسط إلى الغابة فجمع أجمل الريش وأندره وزين به الطائر الخشبى حتى صار أجمل وأروع. أما أنا فعثرت على ينبوع سحرى غسلت الطائر فى مياهه الصافية البللورية ودبت الحياة فى الطائر الخشبى فصار يصدح ويغنى ثم طار فى السماء. بعد ذلك قامت بيننا المشاحنات والخلافات، وأصبح كل منا يؤكد صارخا "إن الطائر ملكى أنا". واشتعل بيننا الشجار واستمر بلا نهاية. فما رأيك أيتها الأميرة الجميلة ؟ من فينا يستحق أن يتملك الطائر؟ هيا أخبرينى حتى ننهى النزاع القائم بيننا.

مطت الفتاة رقبتها للأمام وارتجفت أهدابها، ومرت بوجهها ابتسامة عابرة لكنها لم تنطق بكلمة واحدة، بل رفعت يدها مشيرة بها إلى فمها، وظلت تحرك رأسها.

ثار الشاب وصرخ يهدد الأميرة:

- إذا كان قدرى أن أموت بسببك فسوف أجعل رأسك تسقط بالقرب من رأسى.

وامتشق الشاب سيفه وصار يلوح به مهددا الفتاة. صرخت الأميرة من الخوف وارتمت على الأرض مذعورة. وفى هذه اللحظة خرجت من فمها حية بيضاء وصارت تزحف وهى تصدر فحيحا مخيفا. هجم الفتى على الحية وداسها بكعب حذائه ثم هرس رأسها وقتلها.

نظرت الأميرة الجميلة إلى الفتى بعيون فاضت بالدموع وخلعت خاتما من أصبعها وأعطته له قائلة:

- خذ هذا الخاتم واذهب إلى والدى فى القصر حتى يكافئك.

أخذ الشاب الخاتم وهرع مسرعا إلى صديقه. وما إن رآه الصياد الصغير حتى ارتمى عليه يعانقه. حكى الشاب للصياد ما جرى مع الأميرة فى القصر، ثم أعطاه الخاتم وقال له:

- والآن سوف أبوح لك بسرى وأكشف لك عن شخصيتى. فما أنا سوى تلك السمكة الذهبية نفسها التى رق قلبك لحالها وأطلقت سراحها فى الماء. فعندما كنت تغنى على شاطئ البحر وتتغنى بجماله ومياهه، وصلت أغانيك الجميلة إلى مملكتنا تحت الماء والأمواج، حتى جذبنى الفضول إلى سماعها. فسبحت بالقرب من الشاطئ كى أسمع غناءك عن قرب، وحينئذ وقعت فى شباك والدك الصياد التى أنقذتنى منها. وعندما ألقى حرس الحاكم بك إلى البحر مربوطا فى الزورق دعوت أصدقائى المخلصين من الأسماك. وقاموا بمساعدتى فى دفع الزورق إلى الجزيرة. أما أنا فاتخذت هيئة إنسان يشبهك مثل توأمك. وفى خلال الفترة القصيرة التى عشناها معا عرفتك عن قرب ورأيت أن لك قلبًا طاهرًا نظيفًا فأحببتك مثل أخى من لحمى ودمى. والآن قد حان وقت عودتى إلى مملكتى تحت الماء. فخذ الخاتم واذهب إلى الأمير ليكافئك. واذا احتجت إلىّ فى أى وقت كان يمكنك أن تخرج إلى الشاطئ وتنادى علىَّ ثلاث مرات. وسوف ألبى نداءك دائما.

قال الشاب ما قال وقفز إلى البحر وغاص فى أمواجه.

حزن الصياد الصغير على فراق صديقه المخلص وسرح طويلا بعينيه ينظر إلى الأمواج التى اختفى صديقه فى قلبها ثم ذهب إلى قصر الأمير وطلب السماح له بالدخول لمقابلته. لكنه وقف ينتظر طويلا ولم يسمحوا له بالدخول. فقد رفض الأمير أن يعطى الصياد ابنته الوحيدة.

اسودت الدنيا فى عيون الصياد الصغير لما سمع رد الأمير فذهب إلى الطرف الآخر من المدينة وعمل حدادا فى أحد الدكاكين.

مر أسبوع وعلمت الأميرة بما جرى من والدها فبكت بحرقة ومرارة وقالت له:

- إذا لم تزوجنى من هذا الفتى الجسور الذى شفانى من الداء فلن ترانى بعد الآن. فالحياة بدونه لا تساوى عندى شيئا .

وجرت الأميرة إلى شاطئ النهر وحاولت أن تلقى بنفسها فى مياهه. واستطاع الحرس بصعوبة أن يمنعوها. ولم يعد أمام الأمير سوى أن يقبل زواج ابنته من الصياد الصغير.

أعلن الأمير الخبر بين الناس وأمر الخدم بتجهيز الصياد وإلباسه أفخر الثياب استعدادا للاحتفال بالزواج. وفى اليوم التالى سار موكب الزفاف بشوارع المدينة. فدقت الدفوف وعزفت الأغانى ورقصت النساء.

وهكذا أصبح الصياد الصغير صهرا للأمير. لكن الأمير لم يحب صهره وكان دائما يفكر فى طريقة للخلاص منه. وشعر الصياد الصغير بمشاعر الأمير البغيضة تحيط به فى القصر وتخنق روحه.

شعرت الاميرة بأن زوجها الصياد الصغير يتنهد دائما فى حزن وأسى فاقتربت منه وسألته عما يحزنه ويكدر صفوه. وأجاب الصياد:

- إن الهواء شحيح فى هذا القصر المنيف، أبحث عنه فلا أجده، ولا شيء هنا يدخل البهجة على قلبى. لقد قضيت صبايا على شاطئ البحر. وتركت هناك والدى المحبوب الذى لا أعرف شيئا عنه. فإذا رضيتى أن تذهبى معى إلى والدى سوف أصبح أسعد إنسان فى الوجود. لكنك لو رحلتى معى إلى موطنى فسوف تعيشين حياة زوجة صياد فقير، ولن يصبح لديك مثل هذا القصر المنيف والخدم والجوارى.

قالت الأميرة:

- إنى راضية بكل ما تقول ولا أبتغى شيئا من الدنيا إلا سعادتك وراحة بالك. لكن كيف نستطيع ركوب البحر وليس فى البلاد هنا من يصنع المراكب؟

– اطمئنى سوف أرتب كل شىء. اجمعى أغراضك واستعدى للرحيل.

أرسل الصياد الصغير زوجته إلى القصر وخرج إلى الشاطئ ونادى على السمكة الذهبية ثلاث مرات. فخرجت إليه السمكة من الماء وسألته:

– ماذا أستطيع أن أفعل لك أيها الصديق الحميم؟

– غلبنى الشوق والحنين إلى بلدى وأريد العودة لوطنى. ولا يوجد هنا مراكب ولا زوارق نركب البحر بها، وزورقى القديم قد تحطم على الشاطئ.

قالت السمكة الذهبية:

– سوف أحقق لك رغبتك فى القريب، عندما يحل المساء سأبعث إليك بسمكة هائلة من البحر، فادخل بشجاعة إلى فمها مع زوجتك، وكن مطمئنا، ففى الصباح سوف تكون على شاطئ بلدك.

غاصت السمكة بين الأمواج واختفت فى مياه البحر.

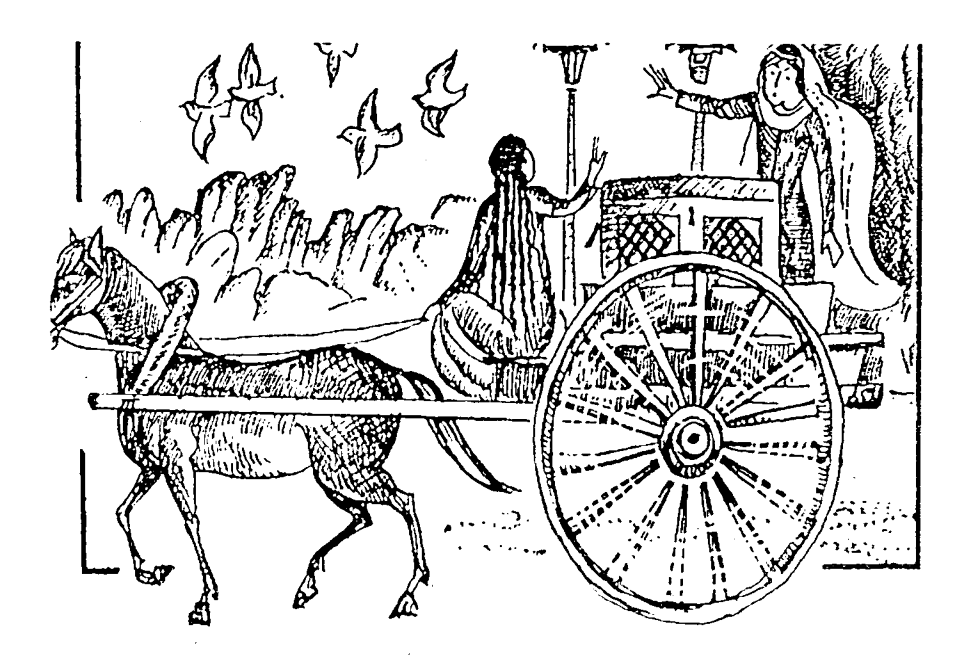
وعندما حل المساء هاج البحر وعلت أمواجه. وظهرت سمكة هائلة الحجم تندفع المياه من منخريها كالنافورة الكبيرة وصارت تضرب المياه بذيلها الكبير.

خافت الأميرة الجميلة وارتعدت أوصالها لما رأت السمكة الضخمة. فهدأ الصياد الصغير من روعها وطمأنها. ثم أمسك بيديها ودخل بها إلى فم السمكة الضخمة. أطبقت السمكة فاها على الصياد وزوجته وسبحت فى مياه البحر. وظلت تسبح بهدوء وحذر حتى اطمئن قلب الصياد وزوجته وراحا فى سبات عميق. وفى الصباح وصلت السمكة العجيبة إلى المكان المطلوب ففتحت فمها وسقطت أشعة الشمس الدافئة على وجه الصياد وزوجته. نظر الصياد فرأى أمامه الشاطئ المحبوب لوطنه. والكوخ الذى عاش فيه. ووالده العجوز يجلس بالقرب منه. ذهل الصياد الصغير وطار قلبه من الفرحة. فجرى مسرعا نحو والده يعانقه ويقبله.

بعد ذلك أحضر الصياد الصغير زوجته إلى الكوخ وقدمها إلى الده. وعاشوا ثلاثتهم فى الكوخ ترفرف عليهم أجنحة السعادة والسلام.

* * *

الشقيقتان



فى أحد الأزمنة القديمة، عاشتا معًا شقيقتان جميلتان. كبراهما تدعى جولنورا والصغرى اسمها أميمة. وفى أولى سنوات عهدهما بالحياة كانت أمهما قد رحلت عن الدنيا وهما لا تزالان صغيرتان. وأصبحتا يتيمتين مبكرا.

أما والد جولنورا وأميمة فقد تجرع الحزن والحسرة على موت الأم. لكن الحزن سرعان ما تبخر من قلبه مثل الدخان، وتزوج الوالد مرة أخرى. كانت الزوجة التى اختارها لنفسه أرملة شمطاء جاءت إلى المنزل ومعها ابنها. وكان الابن ولدا فاسدا مدللا.

ما إن وطئت عتبة الدار قدما المرأة زوجة الأب حتى صرخت فى البنتين الشقيقتين مهددة ومتوعدة وقالت:

- إياكما أن تجرؤا على الضحك أو حتى الابتسام، إياكما أن تصدرا ضوضاء بالمنزل أو تتحركا دون إذن منى.

تجمدت الشقيقتان جولنورا وأميمة فى مكانهما وجلستا فى صمت وخوف بعد سماع التعليمات الصارمة.

ومنذ ذلك اليوم تبدلت أحوال الشقيقتين. فكانت زوجة الأب كل يوم تكره جولنورا على تنظيف حجرات البيت ومسح الأرض، ونقل المياه، وتقطيع الحطب وجمعه وإشعال الفرن، وغسل الملابس والملاءات، وأخيرا طهى الطعام. وكانت جولنورا تعمل منذ الفجر حتى منتصف الليل. وعلى الرغم من ذلك لم تكن زوجة الأب أبدا راضية عنها. بل على العكس، كانت تسب وتضرب جولنورا طوال اليوم.

أما جولنورا المسكينة فقد تحملت شتى صنوف الشتائم والضرب فى صمت وجلد. لكنها فى المساء كانت تبكى بحرقة ومرارة على حالها وهى تحتضن شقيقتها الصغيرة أميمة.

مرت الأيام والشهور والسنون وكبرت جولنورا وأصبحت فتاة يانعة جميلة كالبدر.

وتناقلت الألسن فى البلدة كلمات الإعجاب حول جمال الفتاة وحسنها الباهر.

- إنها حقا جميلة الجميلات هذه الفتاة جولنورا. هكذا تحدث الكل عنها وصار اسمها يتردد على جميع الشفاه بالبلدة الصغيرة.

وتقدم العرسان بالعشرات لخطبة جولنورا الحسناء، واحداً بعد الآخر. والكل يطلب يدها، ويقدمون لها فروض الطاعة والولاء. لكن زوجة الأب الشريرة نجحت فى إبعادهم وأقنعت الأب برفض طلبهم للابنة. وذلك كى تضمن بقاءها بالمنزل لتظل تخدمها وقررت زوجة الأب فى نفسها قرارا لم تعلم به أحدا. فقد نوت أن تزوج جولنورا من ابنها الفاسد المدلل.

وفى أحد الأيام عادت جولنورا إلى المنزل وهى تحمل الحطب. فوجدت الزينة والهدايا متناثرة فى الأركان. وهرعت إليها الشقيقة الصغرى والحزن باد على وجهها. فسألت جولنورا شقيقتها:

- ما الذى يجرى بالمنزل يا أميمة؟

- إنها تجهيزات العرس يا أختى.

- عرس!! عرس من؟

- عرسك يا جولنورا، لقد قرروا تزويجك من ابن زوجة أبينا، وقد سمعت والدنا يتحدث مع زوجته فى هذا الأمر. قالت أميمة بصوت متهدج حزين.

- يا إلهى، إن الموت أرحم لى من هذا الزواج.

قالت جولنورا كلماتها وظلت مدة لا تستطيع أن تتمالك نفسها من الصدمة. وفكرت جولنورا "كم تحملت من الآلام والمعاناة، لكن الزواج من هذا الفاسد شىء لا أستطيعه أبدا".

فكرت جولنورا فيما ينبغى أن تفعله والحزن يعتصرها. وأخيرا قررت قائلة فى حسم:

- لابد لى أن أهرب من هنا.

وعانقت جولنورا شقيقتها أميمة وضمتها بقوة إلى صدرها مودعة إياها. وغادرت البيت وأسرعت إلى الطريق.

وفى المنزل بحثت الوصيفات عن العروس حتى يلبسوها ملابس الزفاف لكنهم لم يجدوها. فركضوا فى إثرها يبحثون عنها. ومن خلفهم اندفع الخدم والخطاب ومن ورائهم هرول الطباخون والطباخات، وبعدهم غاسلو الصحون. وخلف الجميع ركض الضيوف والمدعوون والجميع يبحثون عن الفتاة الهاربة من عريسها.

ظلت جولنورا تركض وتركض حتى وصلت إلى منطقة الحقول، ومن هناك صعدت إلى الجبال. وصارت جولنورا تبحث بين الشقوق والكهوف على مكان تختبئ فيه ولا تراها العين.

وظلت تركض وتقفز بين الصخور فى الجبل حتى أضناها التعب، فرقدت على الأرض ووجهها فوق الصخور تحتضنها باكية، ودموعها تنهمر من مآقيها.

وتتـــاهى إلى مسامع جولنـــورا أصوات المطـــاردين وقد صارت تقـترب منها أكثر فأكثر.

إنهم بالتأكيد سوف يلحقون بها وهى راقدة منهكة فى هذا المكان. سوف يعثرون عليها وحينئذ سوف تساق إلى مصيرها الأسود. إلى الزواج من الولد الفاسد المدلل.

انتفضت جولنورا وهى تستجمع قواها وأخذت تجرى مرة أخرى فى الوادى بين الجبال المحيطة.

ظلت تجرى طويلا طويلا حتى إن شعرها الجميل شعث وهاش، وجرحت ساقاها وقدماها من الصخور المدببة الحادة، وصارت أنفاسها تتلاحق بصعوبة من فرط الإجهاد. لكنها رغم ذلك واصلت الجرى. وأخذت أصوات المطاردين أيضا تقترب منها أكثر فأكثر.

توقفت جولنورا فى قلب الجبل الكبير. ونظرت إلى قمة الجبل وهى ترجو قائلة:

– إنى أتوسل إليك أيها الجبل العظيم، ارفق بحالى وساعدنى كى أختبئ منهم. قالت جولنورا كلماتها للجبل وهى تبكى وسالت دموعها تنهمر فوق صخوره.

– افتح لى شقا بين صخورك كى أختبئ بداخله، ارفق بحال اليتيمة من زوجة الأب الشريرة أيها الجبل العظيم.

فى هذه اللحظة دوى صوت فرقعة هائلة، وتحركت صخور الجبل على اليمين وعلى اليسار مفسحة عن شق بينها.

نظرت الفتاة بسعادة وهى تكاد تطير من الفرحة. وقفزت فى الشق المفتوح.

– لا أعرف كيف أشكرك أيها الجبل الكريم، لقد عادت إلىَّ البسمة من الفرح، وجفت دموعى المنهمرة، والآن أخفنى عن زوجة أبى وعن ابنها.

فى هذه اللحظة تحركت صخور الجبل مرة أخرى لتغلق الشق المفتوح بينها على الفتاة المختبئة. وقد حدث ذلك بسرعة شديدة حتى إنها لم تستطع أن تسحب كل شعرها إلى الشق. وظلت بعض أطرافه ظاهرة خارج الصخور.

في الصباح الباكر كان والد جولنورا هو أول من وصل إلى الجبل بعد أن اقتفى آثار ابنته. ولمح الأب أطراف شعر جولنورا بين الصخور فصرخ بلهفة:

- يا ابنتي العزيزة، يا قلبي المحبوب، أين أنت؟ هتف العجوز وصار يبحث عن مدخل إليها بين الصخور لكنه لم ينجح في اختراق قلب الجبل.

جلس الأب العجوز يتوسل ويرجو الجبل بصوت عال:

- تزحزحي أيتها الصخور وانشقي، افتحي لي طريقا أيتها الصخور حتى أصل إلى ابنتي وأستطيع أن أملى عيني برؤيتها، إني أتوسل إليك أيها الجبل.

وفجأة سمع العجوز صوت ابنته يهمس قائلا:

- لا تصغ إلى كلامه أيها الجبل، ولا تنشقي أو تتزحزحي من مكانك أيتها الصخور، لقد كان والدي في الماضي فقط، أما الآن فقد أصبح غريبا عني.

رحل الأب عن المكان عائدا إلى منزله والحزن يلفه.

وسرعان ما وصلت إلى الجبل زوجة الأب الشمطاء وصارت تنادي وتصرخ:

- تحركي أيتها الصخور تحركي، أريد أن أرى ابنتي العزيزة وأملى عيني بوجهها.

ومن قلب الصخور تردد صوت جولنورا:

- لا تستمعي إليها أيتها الصخور ولا تتحركي أو تتزحزحي، فهذه المرأة ليست أما لي، بل هي زوجة أبي الحقود الشريرة.

لم تتحرك الصخور. وخبطت زوجة الأب الصخر بقدميها في غل وغيظ، ولم يتأثر الصخر من خبطتها بل تأثرت قدمها وانكسرت. فرحلت عن المكان وهي تسب وتلعن.

وهنا وصل العريس الفاسد المدلل ابن زوجة الأب. وقف فوق الصخور وقال:

- أريد أن أرى عروسي الجميلة، تحركي أيتها الصخور كي أشاهدها من فضلك.

ومن قلب الصخور همس صوت جولنورا يقول:

- لا تتحركى ولا تنشقى أيتها الصخور الحبيبة، فهذا الشاب المدلل اللئيم هو آخر من أريد رؤيتهم على وجه الأرض.

وهكذا رحل الجميع عن الجبل يجرون أذيال الخيبة. وحينئذ وصلت أميمة ووقفت تهمس فوق الصخور بصوت رقيق حنون:

- ترفقى بحالى أيتها الصخور ودعينى أرى وجه شقيقتى المحبوبة.

تعالى صوت جولنورا بفرح وسعادة من قلب الصخور وقالت مهللة:

- انشقى أيتها الصخور وأفسحى لى طريقا، حتى أستطيع أن أعانق شقيقتى الصغيرة أميمة الحبيبة إلى قلبى، وأضمها إلى صدرى.

تزحزحت الصخور وانفلقت إلى نصفين فاتحة بينها شقا مثل الباب. فخرجت من الشق جولنورا وهرعت إليها شقيقتها أميمة تعانقها فى حب وحنان. وسارا معا عبر الجبال العالية العاتية، ومنها هبطا إلى الوادى الممتد الفسيح.

سارا طويلا طويلا حتى وصلا إلى بحيرة صغيرة فتوقفا عندها.

كانت أميمة ظمآنة وأرادت أن تشرب من البحيرة. لكن جولنورا نادت عليها محذرة:

- إنى أحذرك يا أختاه، إذا شربت من مياه هذه البحيرة فسوف تتحولين إلى دبة.

- أنا لا أريد أن أصبح دبة. قالت الأخت الصغرى وهى تبتعد عن البحيرة فى خوف. واستمرا يواصلان سيرهما. بعد فترة من المشى ظهرت بحيرة أخرى. ركضت إليها أميمة مسرعة وقد اشتد بها العطش وهمت بالشرب منها حين استوقفتها جولنورا محذرة:

- انتظرى يا أختاه ولا تتعجلى الشرب، فهذه المياه إذا شربت منها سوف تحولك إلى ذئبة تعوى.

- لا يا ربى، أنا لا أريد أن أصبح ذئبة تعوى بصوتها الكريه. قالت أميمة وهى تبتعد عن البحيرة بخوف. واستمرا فى سيرهما حتى شاهدت أميمة بحيرة ثالثة أمامها. ركضت إليها مسرعة فى لهفة للشرب منها. وصرخت جولنورا بحسم تحذرها قائلة:

- إياكى والشرب من هذه البحيرة يا أميمة، وإلا سوف تصبحين عنزة.

- والله هذا شىء ظريف أن أكون عنزة حتى أستطيع أن أجرى بسرعة وأنطح بقرونى. ردت أميمة وهى تضحك على تحذير جولنورا.

ولم تكد جولنورا تنطق بكلمة أخرى حتى كانت أميمة قد شربت من البحيرة حتى ارتوت من مياهها. نظرت جولنورا إلى أميمة فى حسرة وقد تحولت أميمة إلى عنزة جبلية صغيرة تركض بجوارها.

- لماذا شربت يا أختى التعيسة المسكينة؟ صارت جولنورا تولول وتبكى على حال أختها وتحتضن العنزة الصغيرة.

وفجأة ظهر الصيادون الذين شاهدوا العنزة الجميلة الصغيرة، فصاروا يصوبون أسهمهم إليها. وصرخت جولنورا فى هلع وخوف:

- هيا نهرب من هنا بسرعة يا أختاه.

لكن الوقت لم يسعفهما للهرب. فلحق بهما الصيادون وأحاطوهما من كل جانب حتى أمسكوا بالأختين، جولنورا والعنزة أميمة.

عندما شاهد الصيادون جمال جولنورا وظرف عنزتها، قرروا الذهاب بهما إلى الملك.

عندما رأى الملك جولنورا انبهر بحسن طلعتها وجمالها الأخاذ ووقع فى غرامها على الفور. فقال لها بصوت العاشق:

- سوف تصبحين زوجة لى يا جولنورا الجميلة.

وقامت الاحتفالات فى أرجاء البلاد بمناسبة العرس الميمون لأربعين يوما ويوما. فذبحت الذبائح ووزعت الهدايا باسم الملك على شرف الزواج من جولنورا.

وكان الملك متزوجا من امرأة تدعى بيكا. ومنذ اللحظة الأولى تملك الحسد والحقد من بيكا على جولنورا الجميلة. فكانت لا تترك فرصة إلا وتلعنها وتذم فيها، وأيضا ظلت تحاول أن توقع بين الملك وبين جولنورا.

- ساحرة دجالة هذه الجولنورا، وهى مشعوذة أيضا، والعنزة التى تصاحبها مسحورة مسخوطة مثلها. صارت بيكا تردد هذه الاتهامات دائما.

ومن فرط حقدها، أمرت بيكا بحبس العنزة وتقييدها بالسلاسل والحبال. فربطها الحراس بشجرة تطل على البحيرة بحديقة القصر.

مرت أيام ومضت شهور وصارت بيكا أشد غضبا وأكثر حنقا وثورة. وكان السبب فى ازدياد غضبها أن جولنورا كانت تنتظر مولوداً.

لقد كانت بيكا تعيش منذ سنوات طويلة وهى تحلم وتتمنى أن تنجب مولودا للملك يرث العرش ويصبح وليا للعهد. لكن حلمها لم يتحقق، فما يدرك المرء كل ما يتمناه.

وصلت الأخبار الطيبة إلى مسامع الملك. وعلم أنه قريبا سوف يصبح أبا لولى العهد من جولنورا الجميلة. كاد الملك أن يطير من الفرح والسعادة بالخبر. فأقام حفلا كبيرا بهذه المناسبة. دعا إليه عددا كبيرا من الضيوف. وبعد انتهاء الحفل خرج مع الضيوف إلى رحلة للصيد على شرف المولود المنتظر.

كان هذا كله من تدبير بيكا حتى تجعل الملك يبتعد عن القصر. وبعد ذلك أمرت بيكا الخدم بتعليق أرجوحة عالية بين شجرتين عند شاطئ البحيرة الموجودة بحديقة القصر. ونادت بيكا جولنورا ودعتها إلى ركوب الأرجوحة والتأرجح بها لأعلى. وادعت لها أن هذا فألا حسنا للمولود حيث يصعد نجمه عاليا كلما تأرجحت هى بها عاليا. قفزت جولنورا إلى الأرجوحة وصارت تتأرجح عاليا بها. وما إن ارتفعت بها لأعلى نقطة حتى قطعت بيكا الحبل الذى يربط الأرجوحة بالأشجار فسقطت جولنورا فى مياه البحيرة العميقة واختفت بداخلها وهى تصرخ مستنجدة ولا أحد يسمعها. وهتفت بيكا فى شماتة:

- الوداع يا جولنورا، سوف تمكثين تحت الماء للأبد، ولن تخرجى من هناك إلا لو جفت مياه البحيرة، هاهاها.

لم ير ما جرى لجولنورا أحد سوى العنزة أميمة.

وسرعان ما لاحظ الجميع بالقصر اختفاء جولنورا. وتعالت الهمسات بين الخدم والحراس حول ذلك الاختفاء المريب. وذهب مرسال إلى الملك يعلمه بالخبر المشئوم.

عاد الملك من رحلته مكلوما. ورأى بيكا التى رقدت مدعية المرض وقالت:

- يا للأسف أيها الملك العظيم.

- ماذا حدث؟ سأل الملك فى لهفة.

- أنت لم تصدقنى عندما قلت لك إن جولنورا ساحرة دجالة، لقد دست لى السم ثم تحولت إلى بومة بعد ذلك وطارت بعيدا عن هنا. إن هذا هو ما جرى أثناء غيابك.

- أيتها الحسود الشريرة، ما هذا الذى تقولينه؟ صرخ الملك ثائرا فى غضب، ونادى على الصيادين والحراس وقال لهم:

- ابحثوا عن جولنورا فى كل شبر ومكان واعثروا عليها بأى طريقة.

خرج الصيادون والحراس إلى الوديان والجبال ولم يتركوا شقا ولا شبرا إلا وبحثوا فيه بلا جدوى. فلم يكن هناك أثر للجميلة جولنورا.

مضت الأيام تتوالى وصمتت العنزة تماما عن الصياح والحركة. بل صارت طوال الوقت تنظر بحزن إلى مياه البحيرة وتنهمر الدموع من عينيها.

وفى يوم نظرت بيكا إلى العنزة الحزينة، وخشيت أن تفضح أمرها هذه العنزة المسحورة المسخوطة فاتفقت مع الحكيم على أمر ما.

وصلت إلى الملك الأخبار تعلمه بأن بيكا ترقد عليلة تشكو من مرض عضال.

وقف الملك أمام بيكا ليطمئن عليها فقال له الحكيم:

- إن الحالة المرضية للسيدة بيكا شديدة للغاية يا مولاى، وليس هناك سوى طريقة واحدة لإنقاذها قد ألهمنى بها الله، وهى أن نطعمها لحم العنزة الموجودة لديكم فتشفى بإذن الله.

كانت جولنورا مازالت تحتل قلب الملك ولم يستطع نسيانها بعد. وكان يشفق على العنزة الصغيرة التى كانت تحبها جولنورا. فقال بصوت حزين:

- حسنا، سوف آمر الصيادين أن يصيدوا لها عنزة جبلية كبيرة من الوادى.

- لا يا مولاى، لقد ألهمنى الله أن شفاءها لن يتم إلا بأكل لحم هذه العنزة الموجودة هنا وليست عنزة غيرها. قال الحكيم اللئيم.

- يا للأسف والحزن، فهذه عنزة لطيفة وذكية، لكن ما العمل.. إنى مضطر إلى الموافقة على هذا الطلب. قال الملك بأسى وهو يخبط ركبته بيده.

صارت العنزة تبكى من الحزن وتركض إلى شاطئ البحيرة بالقدر الذى تسمح به السلسلة المربوطة بها، وتتطلع إلى المياه.

وفجأة ترددت من تحت الماء، بصوت عذب خفيض، أغنية رقيقة تقول:

يا أحبائى الصغار

قمرى شمسى والنهار

يا حملانى الجميلة

يزيد حبى كل ليلة

قفزت العنزة أميمة وهى تكاد أن تطير من الفرح والسعادة. فقد كان هذا الصوت هو صوت أختها جولنورا. وترددت أغنية أخرى بصوت جولنورا من تحت الماء:

يا أحبائى الصغار

عيونكم مها الغزلان

شعوركم مثل الحرير

هل تسمعوا صوت الخرير؟

وفى هذه اللحظة وصل أربعون من الطهاة. بسرعة أشعلوا النار فى كمية من الحطب ووضعوا فوقها وعاء كبيرا مملوءا بالماء.

خلف الطهاة وصل أربعون جزارا. أحضروا حبلا وربطوا أحد طرفيه بفرع شجرة، ثم وصل عدد من البغال الكبيرة عليها سكاكين ضخمة مسنونة النصال. وأمسك الأربعون جزارا بالعنزة المسكينة وربطوا قدميها بالطرف الآخر من الحبل.

كان كبير الجزارين فى وقفته أمام العنزة أميمة يشبه الصقر الذهبى الذى استعد للانقضاض على فريسته اليمامة وتمزيقها إربا إربا.

وما إن وضع الجزار سكينه على رقبة العنزة أميمة حتى صرخت تتوسل وتصرخ:

– أيها الملك العظيم، أرجو أن تسمعنى..اسمح لى بتحقيق أمنية أخيرة.

كاد الجزار أن يقع من الرعب والصدمة. فلم يحدث له من قبل أن سمع عنزة تتكلم بصوت بشرى.

وانتهزت العنزة الفرصة وأفلتت من الحبل وركضت مثل الريح إلى البحيرة ثم وقفت تهتف وتنادى بصوت عال:

– جولنورا يا جولنورا، إن أختك الصغيرة أميمة تستنجد بك أن تساعديها، ساعدينى قبل أن يقتلونى يا جولنورا.

من تحت الماء تردد صوت جولنورا بحزن يقول:

– آه يا مهجة قلبى ويا أختى الحبيبة، وا أسفاه، ليتنى كنت أملك أجنحة كى أطير بها إليك، لكننى هنا خائرة القوى عاجزة عن الخروج.

اقتربت العنزة أميمة من المياه أكثر وقالت:

– لقد سنوا نصال السكاكين ويستعدون لذبحى يا أختاه، ألا يمكنك الخروج لنجدتى ما دمت حية؟

– أنا حية وأحمل على يدى ابنىَّ التوأم حسن وحسنى، لكننى لن أستطيع الخروج من هنا إلا لو جفت مياه البركة.

وهنا التف جمع غفير من الناس حول البركة كى يساعدوا جولنورا أن تخرج مع وليديها. فمنهم من حمل وعاء ومنهم من أحضر دلوا أو قلة. وصاروا يملأون الأوانى والجرادل ويفرغون مياه البحيرة حتى ينقذوا جولنورا.

وسرعان ما نضبت مياه البحيرة. وظهرت على القاع جولنورا تجلس وهى تحمل وليديها التوأم حسن وحسنى.

حمل الناس جولنورا والتوأم والسعادة تغمرهم. وقفت جولنورا تحتضن العنزة أميمة بحب وشوق ودموعها تنهمر من الفرحة وقالت:

– لقد أنقذت حياتى يا أختى الحبيبة فخذى اشربى هذا المشروب ليعيدك إلى حالتك الإنسانية. ومدت جولنورا يدها بمشروب إلى العنزة أميمة.

شربت العنزة المشروب وإذا بها تتحول إلى حالتها الآدمية وتعود أميمة الأخت الصغرى الجميلة لجولنورا وسط دهشة الناس وتهليلهم.

افتضح أمر بيكا وما فعلته. وبسرعة قبضوا عليها هى والحكيم الدجال وساقوهما إلى الملك ليحكم فى أمرهما. نظر الملك إليهما فى غيظ وأمر قائلا:

– اربطوهما إلى ذيول أربعين فرسا وأطلقوا الأفراس فى الوادى حتى تتمزق أوصالهما عقابا على ما فعلاه.

– إذن خذ هذه الطعنة أيها الملك. قالت بيكا وهى تطعن الملك فى قلبه بخنجر كانت تخبئه فى صدرها.

مات الملك من أثر الطعنة الغادرة.

أمسك الناس ببيكا والحكيم ونفذوا فيهما ما أمر به مليكهم قبل موته من عقاب.

والتف الناس حول جولنورا وطلبوا منها قائلين:

– نريدك أن تكونى ملكة علينا يا جولنورا الجميلة.

وهكذا عاشت جولنورا وأميمة وحسن وحسنى وكل الرعية فى البلاد فى سعادة ورخاء.

* * *

الكسالى العشرة



كان ياما كان، فى سالف العصر والأوان، وفى إحدى المدن الصغيرة عاش عشرة من الكسالى الخاملين. وفى المدينة نفسها عاش معهم رجل نشيط من المجتهدين. كان أصحابنا الكسالى يمتلكون بيتا فى قلب السوق بالمدينة. أما صاحبنا النشيط فقد عاش بعيدا عن السوق فى أقصى أطراف المدينة.

كان كل من الكسالى والنشيط يعملون فى صناعة عربات اليد الخشبية. لكن الكسالى كانوا دائما فى حالة من الخمول والبلادة حتى إنهم طوال اليوم لم يصنعوا سوى عربة واحدة بالكاد. أما النشيط فكان يصنع بمفرده عشر عربات فى اليوم الواحد.

ومرت الأيام على هذا الحال. وكان الناس فى السوق يتحاشون شراء عربات الكسالى لكثرة عيوبها، ويمتدحون عربات النشيط ويقبلون على شرائها لحسن صناعتها ودقة عملها. وصار الناس يثمنون عربات النشيط بسعر عال، أما العربات الرديئة التى صنعها الكسالى فلم ينظروا حتى إليها. ولم يستطع الكسالى أن يبيعوا عربة واحدة حتى تراكمت العربات لديهم وساءت أحوالهم. دارت رءوس الكسالى من الإحباط واليأس وأصبحوا يفكرون ليل نهار فيما يفعلون حتى يقبل الناس على شراء عرباتهم. وأخيرا هتف أحدهم قائلا:

- وجدتها ، والله وجدتها!

كان أربعة من الكسالى يربطون المسامير. وخمسة يمسكون بالبلطة عندما تجمدوا فى أماكنهم على صوت عاشرهم. سأل أحدهم :

- ما هى التى وجدتها؟

استكمل الكسول العاشر كلامه:

- سوف أذهب على الفور إلى منافسنا النشيط وأثنى أمامه على عملنا وأمتدحه. ثم أقول له إن كل واحد منا يصنع فى اليوم الواحد عشر عربات، أى أننا مجتمعين ننتج مائة عربة كل يوم. ونتيجة لإنتاجنا الكبير فإن المال قد أصبح لدينا أكواما لن نستطيع إنفاقها أبدا. ونحن نشفق عليه وعلى أحواله وندعوه للانضمام إلينا ليعمل لدينا بضعة أيام ويصيب قدرا من الثراء. وسوف نستغل تلك الأيام التى يعمل فيها معنا ونسعى إلى بيع عرباتنا الكاسدة والتخلص منها.

- كلامك مصيب يا رجل. هتف الكسالى فرحين بالاقتراح وأرسلوا زميلهم إلى النشيط. عندما وصل الكسول إلى النشيط قدم له العرض وأردف قائلا:

- يا أخى النشيط نحن نشفق عليك كثيرا، فكر فيما تفعله، فأنت منذ طلوع الشمس حتى غروبها تكدح وتبذل العرق الوفير. فلماذا ترهق نفسك وتعذبها بهذا القدر الكبير؟ إن كسرة من الخبز كافية لأن تشبع الجوع. وفر جهدك وانضم إلينا كى تربح أكثر.

رفض النشيط عرض الكسول. لكن الكسول لم ييأس وظل يلح ويعيد ويزيد فى الإقناع والحديث حتى استسلم النشيط وقبل أن ينضم إليهم.

- حسنا، إذا كان هذا هو المقدر لى فلأذهب معك. قال النشيط.

بدأ الكسالى والنشيط فى العمل معا . كان القيظ شديدا وجلس الكسالى بلا عمل فى ركن ظليل بعيدا عن حرارة الشمس. أما النشيط فقد ربط منديلا مبللا على رأسه ليحميه من الحرارة وظل ينشر ألواح الخشب ويبردها ويربط المسامير. واستمر يعمل ويعمل طوال اليوم بحماس كبير وبلا توقف.

فى المساء جفف النشيط عرقه وغسل وجهه ويديه. وأخذ يعد العربات التى صنعها فكانت عشر عربات. أما الكسالى فلم يصنعوا جميعا سوى عربة واحدة. نظر النشيط والدهشة فى عينيه لكنه التزم الصمت ولم يتكلم.

ذهب الجميع إلى السوق لبيع العربات. فلم يشتر أحد عربات الكسالى. لكن الحاضرين تكالبوا حول عربات النشيط واشتروها جميعا .

حاول النشيط أن يعلم الكسالى أصول الصناعة والدقة اللازمة لعمل العربات لكن جهوده راحت أدراج الرياح ولم يتعلم الكسالى منه شيئا . يأس النشيط من تعليمهم فتركهم وعاد إلى داره.

جلس الكسالى يفكرون طويلا طويلا دون أن يصلوا إلى فكرة تسعفهم. كان خمسة منهم يحملون لوحا خشبيا وأربعة يربطون المسامير عندما هتف عاشرهم قائلا:

- وجدتها ، والله وجدتها .

تجمد الجميع فى أماكنهم، وقال أحدهم:

- ما هى التى وجدتها؟ أكمل الكسول العاشر كلامه بحماس قائلا:

- اليوم نذهب تحت جنح الظلام إلى دار النشيط ونحرق جميع عرباته، وغدا لن يجد رواد السوق شيئا معروضا سوى عرباتنا ، وبالتالى سوف يرتفع ثمنها ويشتريها الجميع، فما رأيكم فى هذه الفكرة؟

- إنها فكرة عبقرية منك. رد الكسالى عليه وهم فرحون.

عندما حل المساء اختبأ الكسالى بجوار دار النشيط حتى خرج من داره متجها إلى المدينة. حينئذ ذهبوا إلى مكان العربات المصنوعة وأشعلوا فيها النار حتى التهمتها عن آخرها. عاد النشيط إلى داره ورأى عرباته المحترقة فنظر بحسرة إليها وقال:

- إن الحزن لن يعيدها إلى حالها، فلأنسى ما جرى وأبدأ فى العمل على وجه السرعة كى أعوض ما ضاع. وشرع النشيط فى العمل بنشاط وهمة وهو يغنى بحماس.

دفع الكسالى عرباتهم نحو السوق لبيعها. ومروا فى الطريق على دار النشيط فوجدوه يعمل ويغنى وهو فى حالة من السعادة والحيوية. أصابتهم الدهشة والذهول وقالوا:

- السلام عليك أيها النشيط، كيف حالك؟ هل تمضى الأمور على ما يرام؟

- نعم، إن كل شىء على ما يرام كما ترون. أجاب النشيط.

- لقد سمعنا أن عرباتك قد احترقت، هل هذا حقا ما جرى؟

- نعم، هذه هى الحقيقة. لقد كان ينبغى علىّ حرقها منذ زمن طويل لكننى كنت مشغولا، ولحسن الحظ ظهر أناس أخيار أحرقوها وقاموا بالعمل بدلا منى. فأسعدونى بفعلتهم كثير السعادة. قال النشيط للكسالى الذين تساءلوا مندهشين:

- ولماذا أسعدك حرقهم؟

- هاها.. لسبب بسيط هو أننى أحتاج إلى الكثير من الرماد.

- ماذا؟ هل تقول إنك تحتاج إلى رماد؟ سأل الكسالى بدهشة.

- نعم، سوف أخبركم عن السر ولا تفشوه لأحد. فى السوق يحتاجون كثيرا إلى رماد العربات ويشتد الطلب عليه، حتى إنهم يبادلونه بالذهب وزنا بوزن. لقد ذهبت وبادلتهم برماد عرباتى المحترقة. انظروا ومتعوا أنظاركم. وأخرج لهم النشيط من جيوبه مقدارا كبيرا من الذهب ليؤكد كلامه. دارت رءوس الكسالى من بريق الذهب

وعادوا أدراجهم إلى دارهم. وبسرعة قاموا بإشعال النار فى عرباتهم. ثم جمع الكسالى رماد العربات المحترقة وذهبوا به إلى السوق وهم فى حالة من السعادة والفرح وأخذوا ينادون على الناس ويصيحون:

- من يحتاج رماد العربات فليتقدم نحونا، هيا اغتنموا الفرصة يا حضرات.

- نبيع أفضل رماد لأفضل عربات.

- قيراط الرماد نبادله بقيراط الذهب، هيا اغتنموا الفرصة.

- اقتربوا قبل أن تنفذ الكمية اقتربوا.

صار الحضور بالسوق يضحكون ويقهقهون حتى دمعت أعينهم من الضحك على ما يقوله الكسالى. ثم التف الناس حولهم وهم يحملون العصى والحجارة وضربوا الكسالى علقة ساخنة وطردوهم من السوق شر طردة.

عاد الكسالى خائبين منكسرين لما جرى لهم فى السوق وتملك الغيظ منهم. فقرروا أن ينتقموا من النشيط الذى جعلهم أضحوكة السوق وسخر منهم. بعدما انتصف الليل ذهب الكسالى إلى دار النشيط ليضربوه. لكن النشيط لم يكن موجودا بالدار. وفى الظلام اصطدم الكسالى بحمار النشيط يقف بحوش الدار فانقضوا عليه وهم فى سورة الغيظ وأوسعوه ضربا بالأيدى والأرجل حتى مات الحمار المسكين من شدة ضربهم.

فى الصباح عاد النشيط إلى داره فوجد الحمار ميتا. حزن النشيط على الحمار وحمله فوق إحدى عرباته وذهب به إلى الحقل.

سار النشيط فى الحقل متجها نحو جرن كبير حتى وصل إليه. أنزل الحمار الميت ووضعه وسط كومة من القمح الذى لم يدرس بعد داخل الجرن. وسنده كما لو كان واقفا يأكل من القمح. واختبأ بجانبه فى هدوء.

كان مالك الجرن هو المرابى اليهودى المكروه من الجميع إيريل بك، والذى جلس بالقرب من الجرن يتناول طعام الفطور.

رأى المرابى الحمار بين القمح فانتفض واقفا يصرخ عليه ليبعده:

– هشش ، هشش، ابتعد عن قمحى أيها الحمار المفجوع، ابتعد وإلا سأقتلك من الضرب.

لكن الحمار بالطبع ظل فى مكانه ولم يتحرك. جرى المرابى نحوه وهو يحمل عصا فى يده ونغزه بها فى جنبه. وما إن لمست العصا جثة الحمار حتى وقع على الأرض وظهر النشيط من خلفه متصنعا الدهشة والحزن وصار يصرخ مولولا:

– يا للمصيبة يا للمصيبة، ما الذى فعلته يا إيريل بك؟ لقد قتلت حمارى الجميل القوى، قتلته أيها المتوحش.

تراجع إيريل إلى الخلف مذعورا من المفاجأة وقال راجيا:

– أرجوك لا تصرخ هكذا بصوت عال واهدأ، فأنا لم أقتله، إنما حانت ساعة حمارك بالصدفة عندما اقتربت منه، فلا تصرخ حتى لا يسمعك أحد.

لكن النشيط واصل صراخه وهتف:

– لا وألف لا أيها المرابى، فأنت سبب خسارتى، لقد قتلتنى ، قتلت حمارى وسوف تكون نهايتك على يدى حتى أنتقم له.

وهجم النشيط بالعصا على إيريل المرابى ليضربه، لكن إيريل أوقفه قائلا:

– انتظر انتظر، سوف أدفع لك ما تريد عوضا عن حمارك.

– ذهبا، والله سوف تدفع ذهبا. قال المجتهد.

– يا ليومى المنحوس، يا لحظك العاثر يا إيريل. أخذ المرابى يولول ويندب حظه لكنه فى النهاية دفع للنشيط عشرة جنيهات ذهبية عدا ونقدا.

مضى النشيط إلى داره وفى الطريق قابل الكسالى الذين استوقفوه:

– السلام عليك أيها المجتهد.

– وعليكم السلام أيها الرفاق.

– كيف حالك؟ وهل هناك من جديد لديك؟

– لدى الكثير من الأخبار الجديدة، فى الليلة الماضية مات حمارى المسكين، واليوم حملت جثته إلى السوق وبعتها بثمن مرتفع، انظروا كم أخذت مقابلا لجثته.

أخرج النشيط من جلبابه الجنيهات الذهبية وصار يلوح بها بيده للكسالى متفاخرا.

جحظت عيون الكسالى وكادت أن تخرج من مآقيها وهم ينظرون إلى الذهب.

مرر النشيط الجنيهات الذهبية من تحت أنوف الكسالى ورحل إلى سبيله تاركهم فى ذهولهم. وقف الكسالى وهم يحترقون من الحسد. ثم ركضوا مسرعين إلى دارهم. وجمعوا كل الحمير التى لديهم وقاموا بذبحها. حملوا بعد ذلك جثث الحمير وأسرعوا بها إلى السوق ليبيعونها.

صار الكسالى ينادون على المارة فى السوق ليشتروا بضاعتهم ويهتفون:

– من يريد جثث الحمير يقترب هنا،هيا اغتنموا الفرصة يا حضرات.

– نبادل جثث الحمير بالذهب، أسرعوا قبل فوات الأوان.

التف الناس ورواد السوق وهم فى حالة من الغضب حول الكسالى وصاروا يتندرون:

– ما هذه السفالات التى يقومون بها؟

– من هؤلاء الحمقى الذين يتاجرون بجثث الحمير؟

وأمسك الخلق المجتمعون بالكسالى فضربوهم علقة أسخن من السابقة، وطردوهم مع جثث الحمير من السوق شر طردة.

ما إن وصل النشيط إلى داره حتى رأى الكسالى يركضون ناحيته والشرر يتطاير من أعينهم وهم يحملون العصى ويستعدون للفتك به.

فكر النشيط وأعمل عقله:

"أنا واحد وهم عشرة، لمعركة إذن غير متكافئة بالمرة.. من الأفضل لى أن أهرب منهم". وركض النشيط هاربا فى الوادى ومن خلفه ركض الكسالى.

ركض النشيط فى الوادى أسرع من الغزال، فلهذا كانوا يسمونه بالنشيط. واستطاع أن يسبق الكسالى بمسافة كبيرة.

وأثناء جريه فى الوادى رأى أمامه وجها لوجه المرابى إيريل بك راكبا على حماره يسوق أغنامه إلى المرعى.

– مهلا أيها النشيط، إلى أين تركض هكذا مسرعا؟ هتف المرابى قائلا.

– ألم يصلك الخبر بعد يا إيريل؟ لقد اختارونى لأكون ملكا. أجاب النشيط.

– ماذا تقول؟ أنت أيها المعدم البائس يختارونك لتصبح ملكا!! هذا والله كلام فارغ لا يقبله العقل. إذا كانوا يريدون ملكا فليختارونى أنا. قال إيريل بك.

– إذا كنت تريد أن تصبح ملكا بدلا عنى فاركض على قدميك بسرعة إلى الربوة العالية هناك وسوف يختارونك. قال النشيط وهو يشير إلى الربوة البعيدة.

كان إيريل يتوق ويرغب بشدة فى أن يصبح ملكا. وقرر أن يضحى بكل شىء فى سبيل ذلك . نزل إيريل بك من فوق حماره ، وترك أغنامه وأخذ يركض بسرعة ناحية الربوة.

أما النشيط فقد غطى وجهه بمنديل وجلس على الحمار يسوق الأغنام. وهنا وصل الكسالى وهم يلهثون وسألوا النشيط:

– ألم تر رجلا يركض هنا أيها الراعى؟

– نعم، كان هنا بالفعل رجل يركض. أجاب النشيط بصوت مغاير لصوته وهو يمسك بخده كما لو كانت أسنانه تؤلمه.

– هل رأيته منذ فترة طويلة؟

– لا، لم تمر سوى لحظات. قال النشيط وهو يشير إلى إيريل بك الذى ظهر فى البعد وهو يركض بسرعة ناحية الربوة العالية.

- ها هو يركض هناك يا رفاق. قال أحد الكسالى مشيرا إلى إيريل. وركض الكسالى مسرعين يحاولون اللحاق بإيريل ظنا منهم أنه النشيط.

أزاح النشيط المنديل من على وجهه ونزل من على حمار إيريل. وصار يغنى فى سعادة ويصفر واتجه عائدا إلى داره.

ويحكى أن الكسالى مازالوا إلى وقتنا هذا يركضون ويركضون فى الوادى يبحثون عن النشيط.

* * *

المرأة الحكيمة



كان يا ما كان فى سالف العصر والأوان ، رجل عجوز فقير يعيش فى قرية صغيرة اسمها " أكوجار ". ولما ضاق به الرزق والحال رحل الفقير إلى المدينة للبحث عن عمل يعيش منه. وعمل الفقير أجيرا عند أحد التجار. وظل يكدح ويعمل طوال عام كامل حتى استطاع توفير القليل من المال. خاف الفقير أن يحتفظ بالمال معه فيسرق منه. وفكر أن يتركه عند أحد الرجال الموثوق بهم فى الشرف والنزاهة.

فكر الفقير العجوز وفكر ثم قرر قائلا لنفسه:

- سأعطى العشرين دينارا قاضىَ المدينة وأودعهم لديه. وأعمل لفترة أخرى أدخر فيها المزيد من المال وعندئذ أسترد ما سأتركه عند القاضى. ثم أرجع لقريتى، وأعود إلى أسرتى وأطفالى.

ذهب العجوز من فوره إلى قاضى المدينة ودخل عليه وقال:

– السلام عليكم أيها القاضى المحترم.

– وعليكم السلام يا والدى، كيف أستطيع مساعدتك؟ أجاب القاضى .

قال العجوز:

– أيها السيد المحترم، لقد جئت إلى المدينة من قرية " أكوجار " بحثا عن العمل والرزق كى أطعم أسرتى وأطفالى. وأريد أن أعمل لبعض الوقت حتى أوفر القليل من المال. والهدف من زيارتى لحضرتكم أن تحتفظ لى على سبيل الأمانة بالعشرين دينارا التى أمتلكها حتى يحين ميعاد عودتى إلى القرية.

قال القاضى :

– أحسنت صنعا أيها العجوز بمجيئك إلىّ. تفكيرك مصيب وقرارك حكيم. سوف أحتفظ لك بالنقود عن طيب خاطر وسعادة. وسوف أضع نقودك فى كيس على هذا الرف المعلق خلفى.

خرج العجوز فرحا وراضيا من عند القاضى.

ومر زمن طال أو قصر. كدح العجوز خلاله وعمل حتى ادخر عشرين دينارا أخرى فقرر أن الوقت قد أزف ليعود إلى بيته وأسرته. وذهب إلى القاضى مرة أخرى.

– السلام عليكم أيها القاضى المحترم. ألقى العجوز بالتحية.

– أهلا ومرحبا بك. ماذا تريد أيها العجوز؟ قال القاضى.

عقد العجوز يديه حول صدره فى احترام وقال:

– أيها القاضى المحترم لقد حان وقت رجوعى إلى قريتى " أكوجار ". وجئت كى أسترد نقودى التى أودعتها أمانة عندك.

انتفض القاضى من مجلسه وقفز يصيح فى غضب:

– ماذا تقول؟ وعن أى نقود وأمانة تتحدث؟ أنا لا أفهم شيئا مما تقوله.

وقع العجوز فى ذهول ودهشة وشرح قائلا:

- أيها السيد، منذ وقت مضى تركت لك عشرين دينارا كى تحتفظ لى بها. والآن حان وقت عودتى إلى بيتى وقريتى وأريد أن أسترد نقودى التى وضعتها فى كيس على الرف هناك .

ثار القاضى وهاج غاضبا وقال:

- أيها المخرف الملعون، عن أى نقود تتحدث؟ وما هذا الهراء الذى تقوله؟ لا تثرثر ولا تحكى لى أوهاما من خيالك. فليس عندك شهود على ما تقول. ولابد أنك كنت تحلم. أغرب عن وجهى ولا تدع عينى تقع عليك بعد الآن.

قال العجوز راجيا:

أتوسل إليك يا سيدى أن ترحم فقرى وشقائى، أعد إلىّ نقودى التى ادخرتها من العمل الشاق. ارحم أطفالى الصغار الجوعى.

لكن القاضى لم يسمع شيئا مما قاله العجوز. وقام بسبه وطرده إلى الخارج.

سار العجوز المسكين يبكى وينتحب فى الطريق. وجلس على شاطئ النهر الذى فاض بدموعه.

ومرت بالقرب منه امرأة تغطى وجهها ببرقع. وعندما رأت المرأة العجوز يبكى توقفت بالقرب منه وسألته:

- ماذا بك يا والدى؟ ولماذا تجلس هنا وتبكى؟

- لا تسألينى يا ابنتى. فقد وقعت فى مأزق كبير لا فكاك منه. ولهذا فقد استسلمت للحزن والبكاء. قال العجوز وهو يبكى.

رفعت المرأة البرقع عن وجهها وقالت:

- احك لى يا والدى عن مأزقك. فربما أستطيع أن أساعدك فى الخروج منه.

قال العجوز فى حزن:

- لا تتعبى نفسك يا ابنتى. فلن تجدى له مخرجا .

وظلت المـرأة تطـيب خاطر العجـوز وتلح عليـه حـتى حكى لها مـا جرى بينـه وبين القاضى.

فكرت المرأة بعض الشيء وقالت:

- يا والدى، إن ما فعله القاضى معك جريمة ينبغى أن يحاكم عليها. سوف أفكر فى وسيلة تعيد إليك نقودك المسروقة التى تعبت من أجل الحصول عليها. انتظرنى هنا فى مكانك حتى أذهب إلى البيت وأعود. لكن أرجوك ألا ترحل حتى أعود.

قالت المرأة ما قالته ورحلت. وجلس العجوز ينتظرها.

ذهبت المرأة إلى بيتها فتزينت وتعطرت، وارتدت أفخر ثيابها وأجملها. ثم وضعت على وجهها برقعا من الحرير وأخذت كيسا مملوءا باللؤلؤ الثمين. ثم نادت على ابنها الصغير وعادت إلى المكان الذى تركت به العجوز وقالت له :

- أيها الوالد، سأذهب الآن إلى القاضى وأدخل عليه وحدى. وبعد أن أدخل إلى مجلسه بقليل الحق بى وطالبه بنقودك فى جلبة وصراخ يسمعهما الجميع. وكلما تماديت أكثر فى الصراخ كان هذا أفضل لك. وسوف يعيد إليك القاضى النقود. فخذها منه واخرج. ثم اطلب من ابنى الصغير أن يلحق بى بسرعة عند القاضى .

لم يفهم العجوز شيئا مما تدبره المرأة لكنه وافق أن يفعل ما قالته.

دخلت المرأة على القاضى. وظل العجوز مع ابنها فى الخارج.

كان القاضى يجلس بمفرده عندما رأى المرأة قادمة. فنهض من مكانه مرحبا بها:

- أهلا وسهلا ومرحبا، تفضلى يا ابنتى العزيزة. ما الذى أستطيع أن أفعله لك؟ أخبرينى ولا تستحى.

رفعت المرأة البرقع الحريرى عن وجهها، فأضاء جماله المكان. وانبهر القاضى بجمالها وثيابها الفاخرة وقال ملحا:

- هيا أرجوك احكى لى مطلبك.

- سيدى القاضى، لقد سافر زوجى التاجر فى رحلة طويلة. وقال لى قبل سفره : "سوف أترك لك هذا الكيس الملىء باللآلئ الثمينة. فلا تتركيه بالبيت. بل اتركيه وديعة لدى القاضى المحترم ليحتفظ به". فما رأيك يا سيدى؟ قالت المرأة بصوت رقيق فى تواضع وهى تغض البصر.

لم يتمالك القاضى نفسه من الفرح ومد يده يأخذ الكيس. ثم فتحه وصار يتفحص اللآلئ فى انفعال ولمعت عيناه من الجشع وقال:

- إن زوجك رجل حكيم يا ابنتى. وأنت فعلت عين الصواب والحق. سوف أحفظ لك اللآلئ عن طيب خاطر وسعادة.

وفى هذه اللحظة دخل العجوز وصرخ فى القاضى متوسلا:

- لقد جئت أستعيد نقودى التى تركتها عندك أمانة، أرجوك يا سيدى أن تعيدها إلىّ.

غضب القاضى واحتار فيما يفعله. فكيس اللآلئ الثمينة بين يديه. والمرأة تجلس أمامه وقد سمعت حديث الرجل العجوز.

مد القاضى يده إلى الرف خلفه وتناول منه كيس النقود. ثم قذفه فى وجه العجوز وهو يصيح فيه قائلا:

- خذ مالك أيها الوضيع السافل واغرب عن وجهى فى الحال.

خطف العجوز نقوده وخرج وهو يطير من السعادة والفرح. ومن بعده دخل الطفل ابن المرأة إلى القاضى وهو يهلل ويقول:

- أمى، أمى، لقد عاد أبى من السفر فأسرعى نعود إلى البيت.

تظاهرت المرأة بالأسف والخجل وقالت:

- أرجو أن تسامحنى يا سيدى، يبدو أن زوجى قد عاد فجأة من رحلته، ولابد أن أعود بسرعة إلى منزلى.

خطفت المرأة كيسها الملىء باللآلئ من يد القاضى وهرولت إلى الخارج مسرعة.

أصيب القاضى بالذهول من المفاجأة، فظل جالسا فى مكانه كالتمثال ولم ينطق.

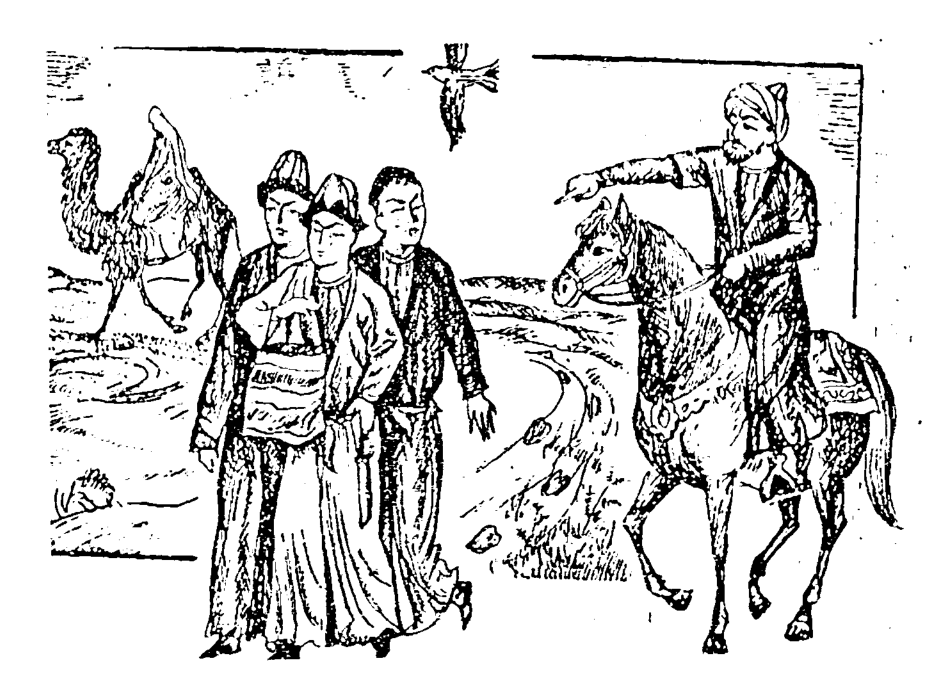
انتظر العجوز المرأة على الطريق حتى ظهرت فجرى إليها وانحنى لها وقال:

- لك منى ألف شكر وتحية يا ابنتى الحكيمة. سأدعو لك دائما أن يحفظك الله وتتحقق جميع أحلامك وأمانيك. وأن تعيشى مع زوجك عمرا مديدا وحياة سعيدة.

ودّع العجوز المرأة وانطلق عائدا إلى قريته "أكوجار". أما المرأة فعاشت حياة سعيدة حققت فيها كل أمانيها بفضل ذكائها وبصيرتها الحكيمة .

* * *

المنجمون الثلاثة



فى مملكة من الممالك القديمة عاش حكيم عجوز. وكان له ثلاثة من الأبناء الذكور. وحين جاء الوقت الذى شعر فيه الحكيم بملاك الموت يرفرف من حوله وعرف أن ساعته قد حانت للقاء ربه، نادى على أبنائه ليقفوا بين يديه وقال لهم:

– لقد حانت لحظة فراقى لكم وللدنيا، ولن أترك لكم بعد موتى بساتين مشجرة أو خزائن مملوءة بالذهب والجواهر. ولكننى قد منحتكم فى حياتى ما هو أعظم من كل كنوز الأرض. فقد علمتكم الحكمة والذكاء. ولهذا فأنا أستقبل الموت راضيا مطمئنا عليكم.

ومات الرجل الحكيم. ومر زمن قصر أو طال، واجتمع الإخوة الثلاثة يتشاورون فى أمرهم حتى كان قرارهم: " فلنرحل فى أرض الله الواسعة ولنعش بالطول والعرض فى

بقاع الأرض، حتى نجمع ما نجمع من الحكمة والعقل، ونضاعف ما ورثناه من علم عن أبينا الحكيم ..."

جمع الأشقاء ما استطاعوا حمله من الزاد والزواد وخرجوا إلى أرض الله الواسعة. ساروا وساروا، وقطعوا صحروات، وعبروا وديان وسهول وتسلقوا جبالا عالية. ومشوا أياما وليال بلغت أربعين يوما حتى نفذ ما عندهم من زاد. فاعتصرهم الجوع وتشققت شفاههم من العطش. لكنهم واصلوا السير بآخر ما بقى لديهم من القوة والبأس. وأخيرا لاحت لأنظارهم قرية على البعد. فرح الأشقاء مهللين: "أخيرا وصلنا إلى العمار".

نهضت عزيمتهم مرة أخرى. فواصلوا المشى بسرعة على الرغم من التعب الشديد الذى حل بأقدامهم. كان الأخ الأكبر يتقدمهم حين توقف فجأة متلفتا من حوله ونظر فى الأرض وقال:

– لقد سبقنا إلى هذا الطريق أحد الجمال.

وبعد بضعة خطوات أضاف الأخ الأوسط:

– وقد كان هذا الجمل أعور العين.

وساروا بعض الشىء حتى توقف الأخ الأصغر قائلا:

– كما أنه يحمل امرأة على سنامه.

واصل الإخوة سيرهم حتى لحق بهم فارس مهيب يمتطى فرسا ويتدلى من خصره سيف كبير. نظر إليهم الفارس يتفحصهم بفضول. فقال له الأخ الأكبر :

– أيها العابر .. هل تبحث عن شىء ضاع منك؟

نظر إليه الفارس وأجاب:

– نعم أنا أبحث عن شىء ضاع منى.

– هل ما تبحث عنه جمل شارد؟ سأل الأخ الأكبر.

– حقا، إنى أبحث عن جمل شارد. أجاب الفارس .

تدخل الأخ الأوسط فى الحوار قائلا:

– هل كان جملك أعور العين؟

– نعم، كان أعور بالفعل. رد الفارس .

– وهل كان جملك يحمل امرأة على سنامه؟ سأل الأخ الأصغر.

أجاب الفارس وهو ينظر بدهشة شديدة إليهم:

– وهذه أيضا حقيقة، إن جملى عندكم إذن، هيا أخبرونى الآن أين ذهبتم به؟

أجاب الإخوة معا:

– نحن لم نبصر جملك أيها الفارس.

سخر الفارس متهكما:

– إذا كنتم لم تبصروه كما تدعون فكيف استطعتم أن تصفوه لى؟

– لقد حزرنا. قال الإخوة.

وهنا استل الفارس سيفه مهددا به الأشقاء. وأوثقهم بالحبال كى يتبعوه. سار الفارس معهم حتى وصلوا إلى قصر الشاه الحاكم. وترك الفارس الأشقاء عند بوابة القصر تحت حراسة الجنود. ثم دخل ليقابل الشاه ويحكى له ما حدث. فقد كان الفارس أحد جنود الشاه. وكان يرعى قطيعا له فى الجبال ترافقه زوجته على ظهر أحد الجمال. لكن الزوجة تخلفت عن القطيع وانحرفت عن مساره حتى تاهت مع الجمل. استمع الشاه لحكاية الفارس ثم قال:

– إذا كنت لم تحك لهم شيئا عن جملك، وهم الذين بادروا بوصفه لك فلابد إذن أنهم قد سرقوا هذا الجمل ومعه زوجتك أيضا. أحضروا لى هؤلاء الأولاد.

خرج الفارس لبرهة ثم عاد ومعه الأشقاء الثلاثة الذين ركعوا أمام الشاه فى خضوع وتبجيل. زأر الشاه بصوته مهددا:

– أيها اللصوص الملاعين، أين خبأتم الجمل ؟ وأين ذهبتم بزوجة الجندى؟

– نحن لم نر جملا ولا امرأة يا مولاى. أجاب الإخوة.

قال الشاه:

– إن الجندى لم يسألكم عن أى شيء، بل أنتم بادرتم بأنفسكم ووصفتم له الجمل والمرأة التى كانت على ظهره. فلا تكذبوا بالتى هى أحسن.

أجاب الإخوة:

– أيها الشاه العظيم. لقد طفنا طويلا بأرض الله الواسعة، وتحملنا المشقة والتعب، وتعلمنا كيف ندرك الأشياء ونستنتجها بعقولنا، وكل ما قلناه عن الجمل ما هو إلا استنتاج وتخمين.

أخذ الشاه يضحك وهو غير مصدق وقال:

– وهل يا ترى تستطيعون تخمين شيء لم تروه أبدا؟

ثم نظر الشاه إلى وزيره وهمس إليه ببضعة كلمات خرج الوزير بعدها من المجلس. وبعد لحظات دخل خادمان يحملان صندوقا كبيرا فوق محمل ووضعاه أمام الشاه الذى قال:

– والآن أيها المحتالون هيا حزروا وأخبرونى ما الذى يوجد فى الصندوق؟ وإن لم تعرفوا فسوف أقطع رءوسكم وأعلقها على سور المدينة.

– نظر الأخ الأكبر وتحدث بثقة قائلا:

– مهما كان الشيء الذى فى الصندوق فهو قطعة واحدة.

– كما أن هذا الشيء ذو شكل دائرى. أضاف الأوسط.

– هذا الشيء ما هو إلا قطعة من المرمر. أكمل الأخ الأصغر.

أمر الشاه بسرعة قائلا:

– افتحوا الصندوق لأرى ماذا به.

أسرع الخدم بفتح الصندوق ونظر الشاه بداخله فوجد قطعة واحدة مستديرة من المرمر. حمل الشاه القطعة ورفعها بيديه حتى يراها الجميع. ثم نظر إلى الفارس قائلا:

- هل رأيت؟ هؤلاء الناس ليسوا بلصوص إنما هم فعلا من المنجمين. هيا اذهب من هنا وابحث عن جملك الضائع فى مكان آخر.

التف جميع الحاضرين فى القصر حول الإخوة الثلاثة ينظرون إليهم فى إعجاب ودهشة. وحمل الشاه بنفسه صينية عليها قطع من الخبز ووضعها أمام الإخوة قائلا:

- تفضلوا أيها الضيوف الأعزاء.

تبادل الأشقاء النظرات وهم يبتسمون، وأخذ كل منهم قطعة من الخبز ووضعها فى منديل. نظر الشاه إليهم وفكر بغيظ: "لابد أنهم حقا من اللصوص فهم لا يخافوننى، بل يسخرون من دعوتى لهم بأكل الخبز. سوف أتركهم يرحلون وأتبعهم إلى المقهى الذى يذهبون إليه وأتلصص عليهم. فقد يتحدثون فيما بينهم عن الجمل المسروق".

أطلق الشاه سراح الأشقاء وسمح لهم بمغادرة القصر قائلا:

- والآن تستطيعون الرحيل كيفما تقودكم أقدامكم.

غادر الإخوة القصر متجهين إلى المقهى يتبعهم الشاه متنكرا فى ثوب قديم. وفى المقهى جلس الإخوة على أريكة خشبية وطلبوا أكواب الشاى من النادل. وعند شرب الشاى سأل الأخ الأكبر:

- ما الذى لاحظتموه يا إخوتى؟

- ابدأ أنت أيها الشقيق. رد بدوره الأخ الأصغر .

أجاب الأكبر :

- أعتقد أن الشاه ينحدر من بسطاء القوم. وأنه فى الأصل ابن لأحد الخبازين.

سمع الشاه فى ذهول ما قاله الأخ الأكبر وانطلق من فوره إلى أمه يسألها:

- أخبرينى يا أمى ، هل أنا شاه ابن شاه ؟ أم أننى ابن رجل بسيط؟

- ولماذا تسأل هذا السؤال؟ قالت الأم.

- أسأل لأننى لا أعرف من أنا.

أجابت الأم:

- لقد كان زوجى شاهًا ولم يرزقنا الله أولادا. وكان عندنا خادم يصنع الخبز. أنجبت زوجته طفلا وماتت فور ولادته. فى المساء حمل الخباز الطفل وأحضره إلينا وهو يبكى قائلا: " أرجوكم أن تأخذوا طفلى وتتكفلوا برعايته، وليصبح لكم ابنا، فليست لدى المقدرة على تربيته وإطعامه". وقطعت وعدا للخباز أنا والشاه أن نربى ابنه، وأقسم الخباز أن يظل هذا سرا بيننا لا يعلم به أحد أبدا. وفى صباح اليوم التالى أعلن فى البلاد أن زوجة الشاه قد أنجبت ولدا. كبر الولد وأصبح رجلا هو أنت. ومات الشاه بعد ذلك لترث أنت ثروته وعرش مملكته.

فى الصباح التالى طلب الشاه مرة أخرى الإخوة الثلاثة ليمثلوا بين يديه. وعندما حضروا إليه أجلسهم معه وأحاطهم بمظاهر التكريم والحفاوة وقدم إليهم أطايب الطعام وتحدث قائلا :

- أيها الضيوف الأعزاء، من فيكم سأل الجندى عن جمله الضائع؟

تقدم الأخ الأكبر نحو الشاه وركع أمامه قائلا:

- أنا يا مولاى.

وكيف عرفت بأمر الجمل الضائع؟ سأل الشاه.

أجاب الشقيق الأكبر:

- رأيت آثار أقدام الجمل تسبقنا على الطريق. وعندما شاهدت الفارس أدركت أنه يبحث عن هذا الجمل.

- ومن منكم الذى خمن بأن الجمل أعور العين؟ سأل الشاه.

نهض الأخ الأوسط وقال:

- أنا يا مولاى المعظم.

- وكيف خمنت بأن الجمل أعور وأنت لم تره بعينيك؟ سأل الشاه.

أجاب الأخ الأوسط:

– لقد كان العشب النامي متآكلا فقط على أحد جانبي الطريق، أما على الجانب الآخر فكان سليما على حاله. ولهذا حزرت بأن الجمل الذي أكل العشب أعور العين.

أشار الشاه إلى الأخ الأصغر مبتسما وقال:

– هل أنت الذي عرفت بأمر المرأة التي حملها الجمل؟

– نعم يا مولاي. أجاب الأخ الأصغر.

– وكيف أدركت هذا؟ سأل الشاه.

– لقد توقف الجمل في أحد الأماكن بالطريق وبرك جاثيا على قدميه، وفوق الرمال على أحد الجوانب رأيت آثارا لحذاء صغير عرفت منها أن الراكب امرأة. قال الأخ الأصغر.

– وكيف عرفتم أن الصندوق به قطعة من المرمر؟ سأل الشاه الإخوة.

أجاب الأخ الأكبر:

– بعدما رحل والدنا عن الدنيا أصبحنا نفكر في جوهر كل شيء حولنا، ونحكّم عقولنا في كل ما نرى. لقد كان الصندوق يحمله خادمان، ومع ذلك كان من الواضح أنه ليس ثقيلا. وبما أن عظمتكم أردتم امتحاننا، فليس من المنطقي أن يكون الصندوق فارغا.

– وعندما وضع الخادمان الصندوق سمعت صوت الحجر وهو يتحرك ويدور، فعرفت أن الشيء الذي به مستدير الشكل. تحدث الأخ الأوسط.

– أما أنا يا مولاي فقد فكرت أن الصندوق إذا احتوى على قطعة واحدة فلابد أن تكون شيئا ثمينا، وخمنت أنه من المرمر. أضاف الأخ الأصغر.

– هكذا إذن ، وكيف عرفتم أنني ابن لخباز بسيط؟ استفسر الشاه.

نهض الأخ الأصغر وركع أمام الشاه قائلا:

– إن البرهان على صحة كلماتنا مثله مثل الوقوف على حد السيف. فعندما أردت إكرامنا يا مولاى قدمت لنا الخبز على صينية، ولم تمنحنا ذهبا وجواهر أو مناصب رفيعة كما يفعل عادة بقية الملوك. ولهذا أدركنا أن الخبز عندك أثمن من الذهب والمناصب، ولابد أن تكون ابنا لصانع الخبز.

فكر الشاه طويلا فيما قاله الإخوة الثلاثة ثم قال:

– لقد أصبحت عجوزا ضعيف البأس. وصار من الصعب علىّ تمييز اللون الأبيض من الأسود وأشعر بالحاجة إلى الراحة والسكون. أما أنتم ، فالطريق مازال أمامكم مفتوحا. أنتم شبان صغار ذوو عقول راجحة وفطنة تساعدكم على معرفة الصواب والخطأ وتمييز الخير من الشر. وأنتم أفضل من يحكم البلاد والشعب .

وعين الشاه الإخوة الثلاثة وزراء فى المملكة لإدارة شئونها . وهكذا فاز الإخوة بالمناصب العالية بفضل ذكائهم وعقولهم الراجحة .

* * *

زمـردة وأزهـار الـسـوسـن



كـان يا مـاكـان فى سـالف العـصـر والزمـان، منزل صـغـير على أطراف الوادى الكبير، يعيش فيه أربعة أشخاص: العـجـوز وابنته زمـردة، وزوجـته العـجـوز الشـريرة وابنتها نعمات.

كـانت زوجـة العـجـوز تحب ابنتـهـا نعـمـات وتدللهـا، وتكره ابنة زوجـهـا زمـردة وتحتقـرهـا. فكانت دائمـا تضـرب الفتـاة المسكينة وتشـتـمـهـا، وترغـمـهـا على العمل فى المساء والصباح، ولا تتركها أبدا فى حالها ترتاح .

كانت زمردة جميلة كالبدر، وجهها بشوش كالنهار، شـديدة الذكاء. لا تشبع عيناك من رؤيتها مهما نظرت. ولا تمل أذناك من سماعها مهما تكلمت.

أما نعمات فكانت على العكس من زمردة ولا تشبهها فى شىء: كسولة، وغير ودودة، ومتقلبة المزاج والأهواء. تتسكع طوال النهار وتثور وتتشاجر لأتفه الأشياء.

كانت زمردة تستيقظ فى الفجر وتركض مسرعة نحو عين الماء. وعندما تراها أزهار السوسن تحنى لها رءوسها وتقول: "مرحبا بك مرحبا". وعندما تجلس زمردة على الحشائش ترتاح، تفرح بها الورود والبلابل وتغنى لها أغانى الحب والمودة.

لم تكن أزهار السوسن تحب نعمات أو تداعبها. لأن نعمات كانت تعاملها بجفاء وقسوة. فتدوس عليها وتقطعها. لهذا كانت الأزهار عند مجىء نعمات تختبئ منها، وتغلق على نفسها أوراقها.

كان هذا يثير الحقد والغيظ فى قلب زوجة الأب الشريرة. وأصبحت تفكر فى الخلاص من زمردة حتى لا ترى وجهها مرة أخرى على الأرض.

وفى يوم قالت فيه الزوجة لزوجها العجوز:

– إن ابنتك كسولة لا تطيع الكلام، إذا لم تطردها من هنا فلن ترنى بعد اليوم.

احتار العجوز ولم يعرف ماذا يفعل.

وظلت الزوجة تلح عليه وتطالب:

– خذ زمردة إلى الغابة، واتركها تضل هناك. فلن أعيش معها تحت سقف واحد.

عمل العجوز بنصيحة زوجته فأخذ زمردة إلى الجبال. وظل يسير فى الدروب معها ويسير حتى وصل إلى مكان مهجور لم يصله من قبل إنسان. وقال العجوز لابنته:

– اجلسى هنا على هذا الحجر يا ابنتى وانتظرينى حتى أذهب لقطع بعض الحطب وأعود.

– حاضر يا والدى. قالت الفتاة.

ذهب العجوز ليقطع الحطب.

وظلت الفتاة تنتظر أباها وهى جالسة على الحجر.

ثم هبت فجأة عاصفة ودوى صفير الرياح. وعلق العجوز بلطته على إحدى الأشجار. اشتدت الرياح وصارت البلطة تتأرجح على الشجرة وتخبط فروعها: "توك! توك!" كانت زمردة تسمع الصوت وتظن أنه أباها يقطع الأخشاب. فظلت جالسة تنتظر. وطال انتظارها وهى تجلس والعجوز لم يرجع بعد. وعندما هدأت الرياح قامت زمردة وذهبت ناحية الصوت الذى كانت البلطة تصدره وهى تتأرجح. سارت فى الوادى وهى تجمع الورود حتى رأت شجرة كبيرة تتأرجح من على فرعها بلطة أبيها. فصارت تبحث بعينيها عن أبيها الذى اختفى وابتلعه المكان. صرخت زمردة فى فزع وخوف:

- يا لحظى التعس يا للشقاء، أين أنت يا والدى؟

أخذت زمردة تبحث عن والدها العجوز. فمشت وسارت بين الدروب فى الجبال حتى تاهت وضلت الطريق.

شعرت الفتاة بالرهبة والخوف وهى وحيدة فى الغابة. ولم تعرف أى طريق تسلكه. فانهمرت دموعها وأخذت فى البكاء. ولمحت فجأة دربا ضيقا يمتد فى الغابة. فسارت فيه وهى تستمع لغناء الطيور. نظرت زمردة تحت قدميها فشاهدت زهورا من مختلف الألوان: حمراء وبيضاء وصفراء. كانت الأزهار تشير لها برأسها نحو الطريق وتهمس تحدثها بصوت خفيض حتى هبط الليل على المكان وساد الظلام.

وظلت زمردة تمشى وتسير، تشير لها الأزهار وتدلها إلى الطريق. والوقت يمضى ولا يتوقف. وأخيرا لمحت زمردة على البعد شعلة نارها تتأجج شحيحة. أرهفت سمعها فسمعت أصوات كلاب تنبح. واصلت زمردة المشى حتى وصلت إلى منزل صغير. نظرت من الشباك فرأت امرأة عجوز تجلس بالداخل. فرحت زمردة ودخلت إلى البيت، فألقت بالتحية على المرأة وحكت لها ما جرى.

اغتبطت المرأة العجوز بالفتاة الجميلة بشوشة الوجه التى حضرت إليها. فقد كانت العجوز ساحرة طيبة من ساحرات الغابة. وأخذت تواسى الفتاة قائلة:

- لا تحزنى يا ابنتى فسوف أساعدك فى محنتك.

- شكرا لك يا سيدتى الطيبة، أنت الآن فى مقام والدتى، سأساعدك وأفعل لك كل ما تطلبينه منى عن طيب خاطر وحب خالص.

فى هذا الوقت اجتمعت أعداد كبيرة من الطيور حول منزل الساحرة العجوز. وأخذت جميعها تصدح وتتغنى بزمردة وروحها الجميلة. وكانت الساحرة العجوز تفهم لغة الطيور. فلما سمعتها ازدادت سعادتها بزمردة. فكانت تحنو عليها وتدللها قائلة: "يا طفلتى الرقيقة الوديعة". وكانت تعطيها اللعب والدمى، وتقص عليها الحواديت والحكايات. وتطلعها على كتب ليس لها فى العالم مثيل.

وعاشتا معا فى سعادة أياما وشهورا. وازداد حب الساحرة العجوز لزمردة التى كانت تمسح الأرض والشبابيك، حتى جعلت بيتها القديم يضىء ويلمع فى الغابة.

وفى يوم كانت العجوز تجهز لطهى الطعام فقالت للفتاة:

- اصعدى يا ابنتى إلى سقف البيت وأحضرى لى من عليه حطبا.

- حاضر يا جدتى. أجابت زمردة وزحفت فوق سطح المنزل. وكان السطح عاليا مرتفعا. حتى يمكنك أن ترى منه أطراف الأرض الأربعة. نظرت زمردة من فوق المنزل فبان لها سطح منزلها الذى عاشت فيه مع أبيها.

دق قلب زمردة دقات عنيفة وسالت دموعها على خديها.

- ما الذى يبكيك يا صغيرتى الجميلة؟

- لقد رأيت بيتنا على البعد فتذكرت والدى الذى اشتقت إليه. قالت زمردة وهى تبكى بمرارة.

هدأت العجوز الفتاة ولاطفتها. ثم وضعت لها الطعام وأطعمتها. وفى سريرها أرقدتها. وفى صباح اليوم التالى قالت لها:

- اجمعى عرائسك ولعبك يا حبيبتى الصغيرة. فاليوم سوف تذهبين إلى بيتك. واصعدى إلى سقف المنزل وسوف تجدين صندوقين باللونين الأبيض والأحمر. اتركى الأبيض مكانه وخذى الصندوق الأحمر معك.

قالت العجوز ما قالت ثم خرجت إلى الغابة. جمعت زمردة لعبها وانتظرت. ورجعت العجوز ومعها عربة يجرها حصان أبيض جميل . فأجلست زمردة فى العربة ووضعت معها الصندوق الأحمر وقالت لها:

- خذى معك مفتاح الصندوق، وعندما تصلين إلى البيت افتحيه فهو هديتى إليك.

ودعت زمردة الساحرة العجوز بعد أن شكرتها وقبلتها. ومضت فى طريقها إلى البيت. لم تمر ثوان معدودة حتى وجدت زمردة نفسها أمام بيتها.

شاهدت زمردة والدها يجلس حزينا أمام البيت فركضت نحوه واحتضنته قائلة:

- مرحبا يا والدى الغزيز.

فرح الرجل بابنته حتى امتلأت عيناه بالدموع وقال:

- ابنتى المحبوبة !

دخلا معا إلى البيت. وانتشر الخبر بين الجميع بعودة زمردة إلى بيتها. اجتمع المعارف والجيران. وفتحت زمردة الصندوق الأحمر فصرخ الجميع فى دهشة وذهول : آخ.

كان الصندوق مكتظا بأثمن الجواهر والأشياء التى تكفى زمردة طوال حياتها.

رأت زوجة الأب الشريرة الصندوق فاستشاط غضبها وصرخت فى زوجها تأمره أن يأخذ ابنتها نعمات فى الحال إلى الغابة ويتركها مثلما فعل بزمردة.

أخذ العجوز نعمات وانطلق معها إلى الغابة.

وعندما حل المساء ذهبت نعمات إلى الشجرة التى علق بها العجوز بلطته. وصرخت نعمات وبكت فى مكانها. لكن البلابل والأزهار لم يتحركوا لمساعدتها ولم تسمع سوى نعيق البوم فى الغابة المظلمة.

ظلت نعمات تركض من الخوف فى الغابة حتى وصلت الى منزل الساحرة العجوز. قابلتها الساحرة بالترحاب وهدأت من روعها وقالت لها:

- لا تحزنى يا ابنتى فسوف أساعدك.

لكن نعمات لم تجد كلمات تشكر بها الساحرة العجوز لأن أمها لم تعلمها الكلمات الطيبة. اغتاظت الساحرة من نعمات فلم تعطها اللعب والعرائس. ولم تقص عليها الحواديت.

كانت نعمات تجلس من الصباح إلى المساء فى كسل ولهو لا تنظف شيئا فى المنزل. حتى عمت القذارة والفوضى المكان، وغطت الأتربة الشبابيك والأبواب.

وفى يوم قالت العجوز لنعمات:

- اصعدى يا ابنتى الجميلة إلى سقف المنزل وأحضرى لى من عليه حطبا.

- اصعدى بنفسك أيتها العجوز فلست خادمة عندك. أجابت نعمات.

حزنت العجوز وصارت تحاول إقناع نعمات بالصعود إلى السقف. وصعدت نعمات أخيرا لكنها لم تحضر حطبا. بل جلست تبكى وتولول حتى سألتها العجوز :

- لماذا تبكين؟

- لقد رأيت بيتى من هنا وسوف أرحل عنك. ردت نعمات وهى تهز قدميها.

- حسنا ارحلى إلى بيتك وخذى معك الصندوق الأبيض الذى يوجد على السقف، وهذا مفتاحه افتحيه عندما تصلين إلى بيتك. قالت الساحرة.

فرحت نعمات وأنزلت الصندوق من على السقف. ولم تحضر لها الساحرة عربة ولا حصانا تركبه إلى منزلها. فاضطرت نعمات إلى جر الصندوق الثقيل فى الغابة.

نبح الكلب أمام منزل الرجل العجوز. وسمعت الزوجة الشريرة نباحه فخرجت مسرعة. وما إن رآها الكلب حتى اندفع نحوها وأخذ يهمس محركا أنفه فى الهواء. اقتربت العجوز منه لتسمع ما يهمس به فسمعته يقول :

لقد وصلت إلى أمى فى شوق

أحمل على ظهرى الصندوق

والصندوق مملوء بالأفاعى والشقوق

اغتاظت الزوجة من كلام الكلب وثارت. فالتقطت عصا طويلة وانهالت بها ضربا عليه حتى كادت أن تقتله وفكرت فى سعادة: "إن ابنتى قادمة تحمل معها الحرير والجواهر الثمينة".

وصلت نعمات أخيرا إلى البيت. واجتمع المعارف والجيران ليروا ما بالصندوق. لكن الزوجة جلست فوق الصندوق ولم تسمح لأحد أن يرى ما بداخله، ثم حملت الصندوق مع ابنتها إلى داخل المنزل، وأغلقتا جميع الأبواب وفتحتا الصندوق وصرخت الزوجة وابنتها من الرعب والفزع:

- يا إلهى، النجدة، أنقذونا، أغيثونا من التنين.

كان بالصندوق وحشان من الديناصورات المفترسة . ابتلع الوحشان الزوجة العجوز وابنتها المشاكسة. ثم تسللا من الشباك وطارا فى الهواء.

وهرع الجيران إلى المنزل عندما سمعوا الصراخ؛ فكسروا الأبواب ودخلوا إلى البيت، لكنهم لم يجدوا أحدا به.

ولم يعثر أحد بعد ذلك على الزوجة الشريرة ولا على ابنتها المشاكسة. وعاش الرجل العجوز مع ابنته فى سلام وسعادة .

* * *

زوجة الثرى



فى زمن من الأزمنة البعيدة فى مدينة مارجلان، عاش رجل ذو صيت واحترام يدعى طلبة باشا. وعاش طلبة أرملا بعد أن ماتت زوجته وتركت له ابنا وابنة فى عمر الزهور.

كبر الابنان. وفى يوم من الأيام استعد طلبة للرحيل والسفر الطويل لقضاء بعض الأعمال. واصطحب معه ابنه فى سفره وترك ابنته وديعة لدى أحد أقربائه المقربين واسمه إيشان العجوز.

كانت الابنة آية فى الحسن والجمال، وشعر العجوز بقلبه يميل إليها فقرر أن يأخذها زوجة له. وفى أحد الأيام بعد أن تناول إيشان طعام الغذاء، نادى على الابنة حتى تصب له الماء كى يغتسل. وصار يداعبها ويمسد بيده فوق رأسها وقال:

- غدا يكون يوم عرسنا.

حزنت الفتاة وانقبض قلبها الذى كان يحب فى الخفاء شابا وسيما ثريا من مدينة أساك ويميل إليه. ولم يكن الشاب يعرف بحبها له. قالت الفتاة للعجوز:

- كيف يجوز هذا يا سيد إيشان؟ فأنت شيخ فى التسعين من العمر وأنا مازلت فى السادسة عشرة.

- لكن فؤادى الشاب يفيض شوقا للضحك واللعب معك. أجاب العجوز وأخذ يمسد بيده على شعرها ويتحسسه.

قفزت الفتاة مذعورة من الخوف ودفعت العجوز بيديها وفرت من الحجرة. وقع العجوز على الأرض وجرح أنفه وفمه. وبعد ذلك لم يتحدث العجوز مع الفتاة فى شىء مما جرى لكن قلبه الأسود امتلأ بالحقد والشر. فأرسل خطابا إلى طلبة باشا كتب فيه يقول: "ابنتك صارت تسلك سلوكا أعوج، وسوف تجلب العار لشرفك وشيبتك. وأنا لم أقم بطردها من منزلى حتى الآن إكراما لصداقتنا واحتراماً لك".

أصبح وجه طلبة باشا أسود من ظلام الليل عندما قرأ الرسالة الكاذبة، ونادى على ابنه وأمره قائلا:

- اذهب فورا إلى مارجلان واعثر على أختك الخاطئة التى جلبت لنا الخزى والعار. ثم اقتلها واعتصر لى دمها فى قنينة كى أشربه وأمسح العار الذى دنست به أسرتنا ويهدأ قلبى، وأستطيع أن أعود مرفوع الرأس إلى بلدتى.

لم يستطع الابن أن يعصى أوامر أبيه، فانطلق من فوره إلى مارجلان. وقاد أخته إلى الوادى وقال لها:

- يا أختاه، أنا لا أستطيع قتلك فاذهبى من هنا إلى حيث تريدين. وعاد الأخ إلى بيته وذبح عنزة وحمل إلى أبيه قنينة مملوءة بدمها. شرب طلبة باشا دم العنزة وهدأ قلبه.

عاد طلبة باشا إلى مارجلان وزار العجوز إيشان. تحدثا معا فى مختلف الأحوال وحول الأقارب، ولم يذكر طلبة باشا اسم ابنته فى الحديث. فقد قرر أن يدفن ذكراها فى قلبه إلى الأبد.

أما الفتاة البائسة فقد هامت على وجهها وتشردت فى الوديان لأربعين يوما وليلة. حتى وصلت إلى عين من عيون الماء فشربت حتى ارتوت، ثم تسلقت إحدى الأشجار كثيفة الفروع وسكنت عليها.

فى هذا الوقت كان الشاب الثرى الذى أحبته الفتاة يصطاد فى الوادى مع عدد من أصدقائه وخلانه. وعندما حل الظمأ بالجياد توقف الفتى عند حافة العين لتشرب منها الجياد. وأثناء ذلك وقع بصره على الشجرة الواقفة بجانب العين. فلمح بين أغصانها وجها رائع الحسن يطل عليه. هتف الثرى قائلا:

– من أنت أيتها الحسناء؟

– أنا ابنة طلبة باشا التاجر من مارجلان. أجابت الفتاة.

– وماذا تفعلين فوق هذه الشجرة؟ سأل الشاب فى دهشة.

وأخبرته الفتاة بأنها ضلت طريقها وتاهت فى الوادى. فقال لها الثرى:

– لا يجوز أن تبقى هنا بمفردك، سأصطحبك معى إلى أمى.

ونفذ سهم الحب إلى قلب الثرى الذى عشق الفتاة عندما رآها. واصطحبها معه إلى بيته فى مدينة أساك وعاشت مع أمه. ولم يمر وقت طويل حتى قامت الأفراح وتزوج الثرى من الفتاة فى عرس بهيج.

مضت عدة أعوام أنجبت خلالها ابنة طلبة باشا طفلا جميلا. وذات يوم مرت فى شوارع أساك قافلة من تجار مارجلان. وخرج الثرى وزوجته على أصوات القافلة يشاهدان موكب التجار. وتذكرت الفتاة والدها طلبة باشا وفاضت عيناها بالدموع. فسألها الثرى:

– لماذا تبكى يا زوجتى؟

– لقد تذكرت والدى عندما رأيت تجار مارجلان. ولم أستطع حبس دموعى .
أجابت الفتاة.

-- وإذا أذنت لك بزيارة والدك ، فهل تذهبين إليه؟

– نعم، لو أذنت لى فسوف أذهب إليه.

وكان الثرى يحب زوجته حبا شديدا ، فرق لحالها وحزنها ونادى أخاه قائلا:

– اربط الحصان إلى العربة واذهب بزوجتى إلى مارجلان.

وفى الطريق إلى مارجلان دارت الأفكار السوداء برأس شقيق الثرى وقرر أن يأخذ الفتاة الحسناء زوجة له ويخون أخاه. فابتعد بالعربة عن الطريق وساقها نحو الجبال. أدركت الفتاة مقصد الأخ الغادر فاحتضنت طفلها وقفزت من العربة وأخذت فى الركض. أخرج الأخ سهما من جرابه وأطلقه صوب الفتاة لكن السهم أخطأها وأصاب الطفل فصرعه فى الحال وهو فى حضن أمه.

عاد الأخ أدراجه إلى أساك.

– هل قمت بتوصيل زوجتى وطفلى إلى والدها؟ سأل الثرى.

– إن زوجتك خائنة وسلوكها معيب، لقد هاجمنا فى الطريق عشيقها وكاد أن يقتلنى ثم أخذ زوجتك معه وهرب.

انتفض الثرى من الغضب وامتطى صهوة جواده. وانطلق مسرعا فى إثر زوجته. وأخذ يبحث فى الوديان والسهول والجبال دون أن يعثر على أثر لها أو لطفله.

وبعد ذلك سافر الثرى إلى مارجلان واصطحب معه أخاه الخائن. وقصد منزل طلبة باشا وحياه سائلا:

– ألم تأت ابنتك لزيارتك؟

امتقع وجه طلبة باشا وأجاب:

– ماذا تقول أيها الرجل؟ وعن أى ابنة تسأل؟ لم يعد لدى بنات بعد أن أمرت بقتلها وشربت دماءها.

وقف الثرى مذهولا ولم يفهم شيئا وجلس بين الضيوف منكس الرأس لا يتكلم.

فى هذا اليوم نفسه كان طلبة باشا قد أعد العدة للاحتفال بزفاف ابنه.

ولنترك الثرى جالسا يتجرع الأحزان والهموم، ونذهب لنرى ماذا ألم بزوجته.

بالدموع والعويل دفنت الأم الثكلى طفلها الذى قتله سهم الغدر والخيانة. ومضت هائمة على وجهها بين الوديان القاحلة. وسارت تتخبط فى الطرقات حتى وصلت إلى بوابة منزل أبيها. نظرت متلصصة من الباب فشاهدت مظاهر المرح والاحتفال بالزفاف. وفجأة مرت بالقرب من الفتاة خادمة تركض وراء عنزة شاردة. فنادت عليها زوجة الثرى واستوقفتها قائلة :

- أيتها الخادمة، هل تبيعيننى معطفك وغطاء رأسك؟

ساومت الخادمة حول الثمن، ثم أعطت الفتاة معطفها الممزق وغطاء رأسها القديم. ارتدت الفتاة الأسمال البالية ودلفت إلى صالة الاحتفال.

وحين رآها الطباخ ظن أنها من الخدم فنادى عليها قائلا:

- تعالى هنا ساعدينا أيتها الخادمة.

أشعلت الفتاة نار الفرن. وصارت تركض من ركن إلى آخر وهى تحمل أباريق الشاى وتضع أطباق الطعام فوق المائدة فى همة ونشاط. وكان طلبة باشا يتوسط المائدة وبجواره ضيوفه الأجلاء، الثرى وأخوه، والعجوز إيشان، والعريس ابن طلبة. لم يتعرف طلبة باشا على ابنته وهى ترتدى الملابس القديمة للخادمة. ولم يعرف الثرى زوجته، ولا الأخ أخته، ولا أخ الثرى ضحيته، ولا العجوز إيشان ابنة صديقه الحسناء.

وعصفت بالحاضرين مشاعر متباينة. فكان طلبة باشا سعيدا أما الثرى فكان حزينا. وشعر ابن طلبة باشا بالفرح. وكان الحقد يأكل قلب شقيق الثرى. وكان العجوز سكران.

بعد أن شبع وشرب الجميع نادى العجوز على الخادمة قائلا:

- أيتها الخادمة، تعالى إلينا واحكى لنا حدوتة.

- حسنا، سوف أحكى لكم حدوتة فاسمعوها جيدا. أجابت زوجة الثرى.

- هيا احكى أيتها الخادمة. قال الثرى.

لكن الفتاة اشترطت عليهم قائلة:

- بشرط ألا يغادر أحد منكم مكانه أو يقاطعنى قبل أن أنتهى من القص والسرد.

- موافقون. أجاب الجميع.

وبدأت زوجة الثرى تسرد حكايتها:

- عاش رجل نو صيت واحترام فى مدينة مارجلان، اسمه طلبة باشا. ماتت زوجته وتركت له ابنًا وابنة.

وهنا قفز طلبة باشا من مكانه قائلا:

- ما هذه الحدوتة الغبية أيتها الخادمة؟ أنا هو طلبة باشا بشحمه ولحمه، وأقسم بأنه ليس لدى ابنة، بل ابن فقط.

اعترضت زوجة الثرى:

- ألم نتفق على ألا يقاطعنى أحد منكم أثناء الحكى؟

عاد طلبة باشا إلى مكانه، ثم واصلت الفتاة حكايتها:

- سافر طلبة باشا المحترم مع الابن فى رحلة وترك ابنته أمانة فى منزل العجوز إيشان. فقام العجوز بمغازلة الفتاة وأراد أن يتزوجها قسرا عن إرادتها. وعندما صدته الفتاة ورفضته قرر العجوز أن ينتقم منها، فكتب لأبيها يدعى أن الفتاة قد جلبت له ولأسرته العار.

وعند هذه اللحظة قفز العجوز إيشان من مجلسه صارخا فى الفتاة:

- من أنت أيتها الخادمة الحقيرة حتى تقولين الأكاذيب عن رجل فاضل مثلى؟

- يا سيد إيشان لقد وافقت من قبل على شروطى بألا يقاطعنى أحد قبل أن أنتهى من الحدوتة.

عاد العجوز إلى مكانه واستمرت الفتاة تحكى:

- غلى الدم فى عروق طلبة باشا، فأمر ابنه بقتل ابنته . لكن قلب الابن رق لحال أخته فذبح عنزة بدلا منها.

حينئذ قام أخوها من مكانه قائلا:

- إنك تعرفين كل شىء، أخبرينى إذن ما الذى حل بأختى؟

لكن زوجة الثرى واصلت حكايتها:

- وحمل الابن إلى والده قنينة مملوءة بدم العنزة. شربها طلبة باشا وهو يظن أنها دم ابنته التعيسة المقتولة.

وهنا رفع طلبة باشا يديه إلى أعلى وهو يصرخ:

- يا مصيبتى.

واصلت زوجة الثرى حكايتها:

- وبعد ذلك نسى والد الفتاة ابنته ولم يتذكرها ولو مرة واحدة، ونسى أنه أمر بقتل ابنته التى من لحمه ودمه. وتشردت الفتاة فى الوديان حتى قابلها الثرى الشهم الذى أحبها. فأخذها إلى بيته وتزوجها وأنجب منها طفلا.

حينئذ انتفض الثرى بدوره غاضبا وقال للفتاة:

- سوف أقطع رأسك أيتها الخادمة إن لم تخبرينى عن مكان زوجتى؟

لكن الزوجة التى لم يتعرف عليها زوجها قالت:

- إذا قطعت رأسى أيها الأرعن فلن تعرف ما الذى حدث بعد ذلك. استمع إلىّ ولا تتعجل.. وأرادت الفتاة أن تزور والدها عندما اشتد بها الشوق إليه. وسافرت إلى مارجلان مع شقيق زوجها فحاول شقيق زوجها أن يغازلها وقتل طفلها ..

– كذب وافتراء! قفز أخو الثرى مهتاجا وضرب بقوسه الخادمة فسقط الغطاء من على رأسها. وظهرت ضفائرها الجميلة تتدلى من فوق كتفيها.

صرخ الجميع فى دهشة عندما شاهدوا أمامهم الفتاة الحسناء بهية الوجه التى يتبارى القمر والشمس من أجل عيونها. وانكشفت الحقيقة أمام الحضور. فهب الثرى صارخا وصرع أخاه الخائن وقتله فى مكانه. أما إيشان الغادر فعلقوه من قدميه وطافوا به شوارع مارجلان . ثم طردوه من المدينة ليكون عبرة للسفلة من أمثاله .

* * *

طاهر وزهرة



يحكى أنه فى قديم الزمان عاش أحد الملوك. ولم يكن ملكنا هذا من الملوك المحظوظين لأنه لم يرزق بذرية من نسله. وفى يوم من الأيام جلس الملك حزينا يفكر فى حاله عندما دخل عليه كبير الوزراء وسأله قائلا:

– مليكنا المعظم المبجل، لماذا أرى الحزن طاغيا على وجهك؟ أنت تملك من الثروة ما لا يملكها أحد على الأرض، فما الداعى للحزن إذن؟

أجاب الملك على سؤال كبير الوزراء وقال:

– قد تكون مصيبا فيما قلت، لكن هذا الملك وتلك الثروة الكبيرة التى بحوزتى لا يعوضانى عن الذرية التى حرمت منها، وسوف أموت مقهورا حزينا لأننى لم أنجب

بعد. تنهد الوزير تنهيدة حسرة وهو يواسى الملك. وذكّره أنه أيضا يعيش بلا أولاد. وأنه أيضا بلا ذرية على الأرض. وجلسا الاثنان يتجرعان الحزن والمرارة على حالهما. ثم قررا معا أن يرتحلا ويطوفا بالبلاد حتى يسريا عن نفسيهما.

سار الملك ووزيره طويلا طويلا. ومضت عليهما أيام وليال وهما يقطعان الطرق والوديان. وفى أحد الأيام وصلا إلى حديقة رائعة الجمال يحيط بها سور ويتلوى كالثعبان. دارا حول الحديقة محاذيين للسور وهما يبحثان عن باب للدخول إليها فلم يجدا. وفى الحديقة تفتحت شتى أنواع الزهور وفاحت روائحها الذكية. وسمعا تغريد البلابل والعصافير تزقزق فوق أغصان الاشجار. وفوق العشب الأخضر الكثيف فرشت أبسطة ناعمة الوبر كالحرير وتناثرت عليها الوسائد المخملية الطرية. وكان لهذه الحديقة مفعول السحر فى إزالة الهموم والكروب من أى شخص. فإذا دخلها إنسان يحمل أتراح الدنيا وأغلق عينيه بداخلها، ينسى على الفور أحزانه مهما كبرت.

وأخيرا عثر الملك ووزيره على مدخل غريب الشكل يفضى إلى الحديقة. فدلفا من خلاله وجلسا على بساط مفروش أسفل إحدى الأشجار. فجأة ظهر أمامهما كهل ذو لحية بيضاء طويلة يرتدى رداء أبيض فضفاضا. اقترب الكهل منهما وسأل:

– مرحبا بكما يا أبنائى، ماذا تفعلان هنا؟

وقف الملك والوزير وانحنيا للرجل العجوز فى احترام وتبجيل.

بعد ذلك تبادلا النظرات، واستجمعا أفكارهما وشرعا يحكيان للكهل عن أحوالهما. وكيف أنهما يعيشان بلا ذرية أو أطفال. وأنهما قد زهدا فى متع الدنيا ومباهجها وارتحلا يطوفان البلاد.

استمع الكهل لما قاله الملك ووزيره. وبعد ذلك أخرج من جيب ردائه تفاحتين حمراوين وأعطى واحدة لكل منهما وهو يقول:

– خذوا يا أولادى هاتين التفاحتين. كل واحد منكم يذهب بتفاحته إلى زوجته المحبوبة ويقتسمها معها، وعندئذ سوف تنجبان. ارحلا الآن وعودا إلى دياركما.

وتذكرا أن تحيوا بشرف، واهتموا برعيتكما، واحكما بين النـــاس بالحكمة والعـــدل، ولا تظلما شعبكما. وهناك شيء آخر ينبغي عليكما ألا تنسياه. من فيكما ينجب ولدا يسميه طاهر. ومن ينجب بنتا يسميها زهرة. ولا تفرقا بينهما في الصغر، حتى يكبرا معا فزوجوهما. تذكرا ما قلت ولا تنسياه.

رحل الرجـــل الكهل تاركـا المـلك والوزير يتـبـادلان نظـرات الدهشـة ويفكـران فيما جرى لهما. حتى قررا في النهاية:

"فلتجرى الأمور مثل ما قال الكهل، وليكن ما أخبرنا به"

عاد الملك ووزيره الى ديارهما بالمملكة. وفعل كل منهما بالحرف الواحـد مثلما قال لهما الكهل. ومضت الأيام يوماً بعد يـوم، وتلاحقـت الشهور شهـراً بعد شهـر. وكان الملك ووزيره يكادا أن يحلقا في الفضاء من السعادة وهما ينتظران ظهور أول وليد لكل منهما. وحتى لا يشعـرا بالوقت المتبقي ويتجنبا معاناة الانتظار خرجا معا إلى الصيد.

وبعد مرور ثلاثة أيام بالتمام والكمال وضعت زوجة الوزير ولدا، كما وضعت زوجة الملك بنتا. فأرسلوا رسـولا إلى الملك ليخبره بالنبـأ السعيد. وعندما أدرك الرسـول الملك قال له:

– أبشر يا ملك الملوك العظيم، ومر لي بالمنح والعطايا، فقد رزقتم بطفلة وضعتها زوجتكم اليوم.

ثم التفت الرسول إلى الوزير وقال مهللا:

– ومنـك أيضـا أنتظـر هديتي أيها الوزير، فقـد وضعت زوجتـكم اليـوم ولدا بهي الطلعة.

تملك الغيظ من الملك وامتلأ قلبه بالحسد. فقد كان دائما يتمنى أن ينجب ولدا. فخرج عن طوره وهو في حالة من الحنق والهيـاج، وألقى إلى الرسول بمنديل أبيض وصرخ فيه قائلا:

– اقتل هذه البنت، وأغمس هذا المنديل في دمها وأحضره لي.

أما الوزير، فقد كاد أن يطير من السعادة والفرح، ولم يكن يشعر بالأرض تحت قدميه وهو يركض بفرسه عائدا إلى بيته.

وقبل أن يصل الوزير إلى داره تعثر جواده فى صخرة على الطريق، فوقع الوزير من على فرسه واصطدمت رأسه بحجر حتى شجت ومات قبل أن يرى وليده الصغير.

ومرت الأيام مريرة حزينة على زوجة الوزير المكلومة. وأطبقت عينيها على دموعها وطوت أحزانها فى قلبها، ومضت فى تربية ابنها اليتيم الذى لم ير والده.

مضت الأيام يوما بعد يوم، وتوالت الشهور والسنون. كبر المولود وأصبح يركض ويلهو فى الطرقات وفى يوم من الأيام رآه الملك. فسأل وزيره الجديد قائلا:

- من هذا الولد الصغير؟

انحنى الوزير احتراما وأجاب قائلا:

- أيها الملك العظيم إن هذا الولد هو ابن وزيركم السابق الراحل، واسمه طاهر. ولو كانت ابنتكم على قيد الحياة لكانت فى مثل عمره الآن.

سمع الملك كلمات الوزير التى نفذت إلى قلبه وأثارت شجونه. فضرب جبهته بقبضة يديه وهو يهتف:

- يالى من بائس تعيس! لماذا أمرت بقتل ابنتى؟ لماذا؟ صرخ الملك وهو يبكى ويندب حظه.

صمت الوزير ولم يقل شيئا للملك وفى هذا اليوم نفسه ذهب مسرعا إلى جناح الحريم فى قصر الملك ونادى على إحدى الجوارى وسألها:

- ما الذى جرى لابنة الملك؟

- سوف أحكى لكم لكن لا تبلغوا الملك - أجابت الجارية - إن ابنته تعيش بصحة وعافية، وقد كبرت وأصبحت صبية مليحة.

هرول الوزير إلى مليكه وقال:

- أيها الملك المبجل أرجو أن تتسع رحمتك لعبدك المطيع وأنا أزف لكم نبأ سعيدا.

- تكلم يا وزير - رد الملك.

- لا تحزن يا مليكى وألقِ بهمومك جانبا فإن ابنتكم مازالت على قيد الحياة.

ابتهج الملك وقفز سعيدا وأمر قائلا:

- أحضروها لى على الفور كى آراها.

أحضروا الفتاة إلى الملك. وما إن رآها حتى احتضنها وصار يتملى فى وجهها ويداعبها بسعادة. وبعد ذلك أمر الملك أن تقام الاحتفالات بالبلاد لأربعين يوماً وليلة.

فى هذا الوقت نفسه أصبح طاهر صبيا يافعا. لم يكن يكدر صفوه أو يشغل باله أى شىء وفى أحد الأيام كان طاهر يلهو فى فناء الدار، يلقى بالحصى فى الهواء عندما أصابت إحداها عجوزا تجلس بالقرب من الفناء. صرخت العجوز وغضبت قائله:

- ما هذا الذى تفعله يا ولد يا طاهر؟ بدلا من هذا العبث واللهو غير المفيد اذهب أيها اليتيم والعب مع خطيبتك الموعودة زهرة.

هرول طاهر إلى العجوز وصار يجذبها من يدها ويقول:

- ما معنى هذا الكلام الذى تقولينه يا جدتى؟ ومن تكون هذه الفتاة زهرة التى تتكلمين عنها؟

- اترك يدى يا ولد. أنا أقول لك ، اتركها فأنت تؤلمنى.

- حسنا، لكن احكى لى حكاية تلك الفتاة أرجوكى يا جدتى الحبيبة، احكيها. وقف طاهر أمام العجوز يتوسل إليها.

- لن أقول لك شيئا، اذهب إلى أمك ودعها تحكى لك الحكاية كلها.

وكان هذا ما فعله طاهر.

- من تكون خطيبتى هذه يا أمى؟ أخبرينى بالحقيقة.

- ولو أنى كنت أفضل تكتم ذلك الأمر عنك، ولم يكن هناك داع لأن تعرف عنه شيئا، لكن بما أنك قد عرفت، فسوف أقص عليك كل ما جرى.

وحكت الأم لطاهر كيف أن أباه والملك حرما طويلا من نعمة الإنجاب. وكيف أنهما اتفقا بعد ذلك على المصاهرة. كما حكت الأم لطاهر عن والده المسكين الذى وقع من فوق حصانه ومات يوم مولد ابنه. ولم يمهله القدر لرؤيته. ثم أردفت الأم تقول:

- والآن يا بنى لن تصبح زهرة من نصيبك بأى حال من الأحوال، بعد أن أصبحت يتيما معدما.

- حسنا يا أمى، هذا كل ما كنت أريد أن أعرفه منك.

ومنذ هذا اليوم أصبح طاهر يلعب ويلهو دائما فقط مع زهرة.

ومرت الأيام والشهور والسنون. وكبر طاهر وكبرت زهرة. وبدأ الاثنان يتلقيان الدروس والعلوم عند المعلم نفسه. لكن طاهر لم يلتفت إلى الدرس والمعلم بل كان طوال الوقت يثرثر ويتحدث مع زهرة.

ذهب المعلم إلى الملك يشكو له وقال:

- أيها الملك المعظم، إن طاهر يعيقنى ويعطلنى عن تعليم ابنتكم زهرة.

غضب الملك وقال ثائرا:

- فلتقيموا سورا يفصل بينهما على الفور.

نفذ المعلم أمر الملك وأقام السور. لكن طاهر فى اليوم نفسه ثقب ثقبا كبيرا فى حائط السور وصار يتحدث مع زهرة من خلال الثقب.

أصبح طاهر وزهرة لا يستطيعان العيش ولو ليوم واحد إلا معا. فقد كبرا وتوهجت شعلة الحب فى قلبيهما.

عندما علم الملك عن هذا الحب اشتد غيظه ونادى على كبير الصناع وأمره قائلا:

- أريدك أن تصنع لى على وجه السرعة صندوقا خشبيا، ضعوا فيه طاهر، وألقوا بالصندوق فى النهر، يحمله بعيدا عنا.

علمت زهرة بأمر الملك، فجمعت ذهبها وحليها الثمينة وهرولت إلى كبير الصناع تتوسل وترجوه باكية بدموع حارة:

- أرجوك تقبَّل منى هذا الذهب، وإن لم يكف سوف أحضر لك المزيد، لكن اجعل الصندوق متينا محكما حتى لا يتسرب الماء إليه، واصنعه واسعا حتى يستطيع اليتيم المسكين أن يتنفس الهواء وهو بداخله. وامنحه فرصة للحياة.

رق قلب كبير الصناع لزهرة ولدموعها المنهمرة. وصار يهدئ من روعها ويطمئنها:

- سوف أصنع الصندوق أفضل وأمتن مما تطلبين، وإن لم يعجبك تستردين ذهبك ثانية.

أخذ النجارون يعملون بهمة فى صناعة الصندوق. وعندما انتهوا منه أبلغوا الملك أن الصندوق أصبح جاهزا. أخفت زهرة وجهها خلف برقع وذهبت تعاين الصندوق. وبالفعل كان الصندوق أفضل بكثير مما طلبته.

فى اليوم التالى أرسل الملك المنادين والصياح إلى القرى والنجوع لينادوا على الخلق والناس. فخرج الأهالى وتجمعوا فى الميادين. وطلع الملك من قصره وأعلن:

- لقد حكمنا على طاهر بالموت. واليوم سوف يضعونه فى صندوق ويلقون به فى النهر يحمله إلى مصيره المحتوم.

أشفق الناس على مصير المسكين طاهر. لكن أحدا منهم لم يجرؤ على أن يعترض أو يحتج على قرار الملك. اكتفوا بمصمصة الشفاه ولم يحرك أحد ساكنا. لقد خاف الجميع بطش الملك القاسى.

هرول الجميع إلى شاطئ النهر. الرجال والنساء والشيوخ والأطفال. وصلت أم طاهر والأسى يعتصرها. ارتمت فوق رمال الشاطئ وصارت تولول وتلطم من الحزن.

هاج الناس وماجوا وصاروا يتصايحون فى غضب:

- فلتسقط دموع الأم كالمطر فوق رأس الملك!

- لم يحكم على أحد بالموت من قبل لأنه أحب فتاة!

– لن نغفر للملك مثل تلك القسوة والظلم!

وهنا هتف المنادى أن الحراس يسوقون طاهر إلى النهر.

هدأت أصوات الناس وسكن الضجيج. وصاروا يفسحون الطريق للشاب الصغير. فقط كانت الأم المسكينة تصرخ وتنادى متوسلة:

– أرجوكم اسمحوا لى أن أراه للمرة الأخيرة، أتوسل إليكم.

استجابوا لتوسلات الأم وساقوا إليها طاهر وهو مكبل بالحبال. ضمت الأم طاهر بقوة إلى صدرها. احتضنت ركبتيه برأسها وهى تتهاوى على الأرض. وشهقت وهى تفارق الدنيا ميتة من الحزن على ابنها.

ارتفعت فى الهواء أصوات الصراخ والبكاء على الأم. أمسك الحراس بطاهر وألقوا به فى الصندوق. لكن طاهر هتف ينادى زهرة ويقول:

– إذا كتب لى أن أعيش فسوف أظل أحبك إلى الأبد، وإن مت فسوف أظل أحبك.

واستطاعت زهرة بصعوبة أن تجيب عليه بكلمات قليلة:

– وأنا لن أنساك أبد الدهر يا طاهر.

وهنا أغلق الحراس الصندوق بالغطاء، وألقوا به إلى قلب النهر.

طاف الصندوق طويلا على صفحة النهر وبداخله طاهر. وتعاقبت الليالى والأيام حتى رسا الصندوق أخيرا على شاطئ مدينة الروم.

كان ملك الروم له ابنتان جميلتان. وفى هذا اليوم ذهبت البنتان إلى الشاطئ للتريض بصحبة الوصيفات والخدم عندما لمحتا الصندوق عائما فوق الماء.

اقترب الصندوق من الشاطئ فاندفعت ابنة الملك الكبرى إلى الماء. وحاولت أن تربط الصندوق بضفائرها وتسحبه إلى الشاطئ لكنها لم تنجح. وقفزت فى الماء ابنة الملك الصغرى وربطت الصندوق بضفائرها الطويلة، حتى نجحت فى سحبه إلى البر.

وصارت الشقيقتان تتنازعان وتتخاصمان على أحقية الصندوق وما به لهما. وطال النزاع بينهما حتى اتفقتا على أن يقتسما الصندوق مناصفة. الشقيقة الكبرى تأخذ الصندوق الخارجى، والصغرى تأخذ الموجود بداخل الصندوق.

فتحت الشقيقتان الصندوق ورأوا أمامهم شابا بديع الجمال. حتى إن بريق جماله الأخاذ كان يغطى على بريق الشمس نفسها. يلامس كتفيه شعره المجعد الأسود الفاحم. حاجباه مثل سهمان رفيعان فوق الجفون. وعيناه تتوهجان كشعلة من النار. ومثل هذا الفتى الجميل تتبارى لخطفه بنات أكبر الملوك. وما إن رأته الفتاتان حتى صارتا تتنازعان من جديد:

– أنا التى سآخذه لنفسى.

– لا، بل أنا.

حتى قالت الأخت الصغرى:

– لا، بما إنه كان موجودا داخل الصندوق فهو بالتأكيد لى، ولن أعطيه لأحد.

فى هذا الوقت وصل الخدم إلى بلاط الملك وصاروا يقصون عليه:

– أيها الملك العظيم، لقد عثرت ابنتاك على صندوق بالنهر. ووجدا بالصندوق شابا لا يوجد لحسنه وبهائه مثيل فى العالم. وابنتكم الصغرى تريد أن تأخذه زوجا لها. وأفضل منه صهرا لكم لن تجدوا بين الناس.

أجزل الملك العطاء لخدمه المخلصين مكافأة لهم على الأخبار الطيبة. وجمع الوزراء وهرع معهم إلى شاطئ النهر يستطلع الأمر. ونظر الملك إلى الشاب فوجده أروع من وصف الخدم له. اتخذ الملك طاهر كابنٍ له من لحمه ودمه. وسرعان ما زوجه بابنته الصغرى. وبهذه المناسبة السعيدة قامت الأفراح والاحتفالات فى أرجاء البلاد لأربعين يومًا وأربعين ليلة.

كانت ابنة الملك باهرة الحسن والجمال. وفاق حسنها جمال زهرة. لكن طاهر ظل متذكرا ووفيا للوعد الذى منحه لمحبوبته البعيدة. فلم يرغب حتى بالنظر إلى جمال ابنة الملك. ولم ينطق لها بكلمة واحدة.

صارت الأميرة المسكينة تبكي كل مساء وطافت بذهنها أفكار مريرة:

"لماذا لا يبادلني الحب؟ لماذا لم يقل لي كلمة واحدة حتى الآن؟"

وجربت الفتاة فسألت طاهر. لكنه لم ينطق بأي جواب.

وهكذا مرت أربعون ليلة. وفي الليلة الواحدة بعد الأربعين نطق طاهر وقال لابنة الملك:

– أبلغي والدك برغبتي في الذهاب إلى شاطئ النهر.

كادت الأميرة أن تطير من السعادة. وركضت مسرعة إلى الملك وقالت:

– أبشر يا والدي الملك، لقد نطق طاهر وتكلم، إنه يريد الذهاب إلى شاطئ النهر والجلوس هناك.

ابتهج الملك وسر بعد أن سمع الأخبار الطيبة. وقرر أن يقيم احتفالا كبيرا على شاطئ النهر. وذهب الكثير من الناس للمرح واللهو هناك. وأعلى الشاطئ فردت الأبسطة الوثيرة والمأكولات النادرة لأجل عيون طاهر.

وسرعان ما وصل طاهر. كان الحزن باديا على وجهه. وشفتاه مطبقتان على فم لا يبتسم. أعلن الملك ذلك بين الحضور وقال:

– أول من يسمع منكم ضحكة يطلقها صهري، سوف أكافئه ذهبا يغطيه من رأسه إلى أخمص قدميه.

لكن طاهر ظل جالسا في صمت ينظر بحزن إلى مياه النهر.

ولنتركه جالسا في مكانه، لتسمعوا ما جرى من أمر زهرة.

كان الوجد والشوق إلى طاهر يتملك زهرة ليل نهار. وبعد ذلك قام والدها القاسي بتزويجها من كارا باتير، وهو ابن لأحد الملوك. فخيم الحزن والسواد على حياتها تماما.

مضت الأيام تتوالى يومًا بعد يوم. وفي واحد من الأيام رأت زهرة حلما في منامها.

رأت زهرة نفسها تتجول مع طاهر فى حديقة رائعة الجمال. وصارت زهرة تبكى بحرقة ومرارة واستيقظت من نومها. ثم فكرت والألم يعتصر قلبها:

"ربما يكون حبيبى مازال على قيد الحياة؟ لو أن أحدا يحمل لى ولو خبراً صغيراً عنه".

فى اليوم التالى أحضرت زهرة حقيبة مملوءة بالذهب، وذهبت بها إلى قصر الباشا زعيم القوافل. أعطت زهرة للباشا الحقيبة وصارت ترجوه وتتوسل إليه:

- أنت تسافر إلى مختلف أرجاء الدنيا، وتقابل شتى صنوف الناس، اعثر لى على طاهر، أحضر لى ولو خبرا صغيرا عنه، أو مجرد أن تعرف لى إن كان حيا يرزق أم لا.

- حسنا- وافق الباشا زعيم القوافل. وسرعان ما جهز جمله وحمله بالزاد ورحل مسافرا.

طالت أسفار الباشا. وعبر العديد من المدائن والقرى. وبحث فيهم جميعا عن طاهر فلم يعثر له على ذكر أو أثر.

وفى أحد الأيام وصل الباشا إلى النهر. ونظر فرأى شابا رائع الحسن يجلس أعلى الشاطئ ومن حوله الناس يمرحون ويلهون.

"لأقوم بالغناء لبعض الوقت، فقد يكون طاهر هنا على هذا الشاطئ" فكر الباشا وبدأ فى الغناء:

أنا الباشا رحالة الزمان

أطوف أسافر لكل مكان

كى أعثر على طاهر جان

اظهر وبان يا طاهر جان

سمع طاهر اسمه يتردد فى غناء الباشا، فابتسم وأجاب عليه بالغناء:

أيها الباشا الوقور

قلبى يسمعك بسرور

تريد أن تعثر على طاهر

انظر إليَّ فأنا لك ظاهر

حينئذ أراد الباشا التأكد من أن الشاب هو طاهر المقصود وليس طاهر غيره فصار يغني ثانية:

إن الأسماء في الدنيا كثيرة

لو تسمعها تصاب بالحيرة

لكن قلب زهرة الولهان

لا يعرف سوى طاهر جان

ما إن نطق الباشا باسم زهرة في غنائه، حتى انتفض طاهر في مكانه وقفز إلى الباشا يحتضن رقبة الجمل بيديه، وأصبح يتوسل إليه والدموع تنهمر من عينيه:

– خذني معك إلى زهرة، كي أملي عيني من وجهها ولو مرة واحدة.

– لقد زوجوا زهرة من كارا باتير– قال الباشا مجيبا على طاهر– ولا يوجد الآن مبرر لديك كي تنظر إليها. وقد مضى عليك هنا وقت طويل ولابد أنك قد تزوجت. فما الداعي لأن ترحل من هنا؟ من الأفضل لك أن تبقى هنا. وما جئت إلا كي أعرف إن كنت حيا أم ميتا.

– لقد زوجوني هنا من ابنة الملك – قال طاهر– وقد مرت أربعون ليلة بعد الزفاف، ولكني لم أنطق بكلمة واحدة للعروس، ولم أنظر إليها أبدا. خذني معك إلىَ زهرة.

تراجع الباشا عن رفضه وقال:

– حسنا أيها الفتي، إني موافق. لكن قبل رحيلك عليك أن تذهب وتودع زوجتك. فقد تزوجتك عن حب، وليس هناك داع لأن تغضبها.

ذهب طاهر إلى القصر. دخل حجرة الأميرة ووقف عند عتبتها يقدم قدمًا ويؤخر الأخرى وقال:

- يا ابنة الملك، إنى شاكر لك على كل ما فعلته معى، لكنى اليوم سمعت أخبارا عن زهرة، وسوف أسافر إليها الآن.

أجابت عليه الأميرة بسؤال وقالت:

- ألم يحملك النهر يا طاهر هدية لى؟ هل من المعقول أن زهرة البعيدة أجمل منى لهذه الدرجة؟

- نعم لقد حملنى النهر إليك أيتها الاميرة، وإنك لآية فى الحسن والجمال، لكن قلبى لا يرى أحدا سوى زهرة البعيدة - قال طاهر كلماته تلك، وانحنى للأميرة وانطلق خارجا من القصر.

ورحل طاهر مسرعا مع الباشا فوق الجمال فى طريقه إلى زهرة.

سارا طويلا طويلا. وعبرا بلدان وقرى كثيرة. حتى وصلا إلى مفترق ثلاثة طرق وتوقفا عنده. وكان هناك أمامهما حجر كبير منقوش عليه كتابة تقول:" الطريق الأيمن بلا عودة، والطريق الأيسر بلا نهاية، أما الطريق الأوسط فهو أخطر الطرق". أخذ الباشا يفكر فى حيرة أى الطرق يختار منهم.

- فلنذهب عبر الطريق الأوسط - قال طاهر- وإن كان أخطرهم إلا أنه أقصرهم مسافة، وسوف يوصلنا أسرع إلى زهرة.

وسارا بالفعل عبر الطريق الأوسط. وسرعان ما ظهرت لهما على الطريق إحدى المدن. كان سكان تلك المدينة يبحثون عن اثنين من المجرمين الفارين حديثا من حراسهما. وما إن رأى الناس طاهر والباشا حتى ظنوا أنهما المجرمان الهاربان. فقبضوا عليهما. وكبلوهما بالأغلال. ثم ألقوا بهما فى أحد الزنازين.

فى داخل سجنه كان طاهر يحلم بحبيبته زهرة ليل نهار ويعتصره الشوق إليها. لكن كيف الوصول إليها وهو محاط بتلك الأسوار المتينة والأبواب الحديدية. فكر طاهر وفكر كثيرا:" سوف أظل أغنى وأغنى حتى يسمعنى كل الناس، وقد يتعرف علىّ أحد منهم ويطلقون سراحى"

وصار طاهر يشدو مغنيا:

أسافر للحبيبة وأسأل القدر

أهتدى بالشمس ونور القمر

لا أعرف لماذا رمونى هنا

وزهرة فى انتظارى بالشوق والمنى

وظل طاهر يغنى أغنيته هذه كل يوم وكل ليلة، حتى سمعها أحد التجار الذى كان زميلا لطاهر فى الطفولة. وكان يعلمه معلم طاهر نفسه، ويقرأ دروسه فى كتاب واحد معه. انتفض التاجر فى دهشة وهتف قائلا:

– إن هذا الشاب هو بالتأكيد طاهر، فليس فى العالم أحد غيره يستطيع أن يتذكر زهرة ويبقى على حبها طوال هذه السنين؟

ذهب التاجر إلى حراس السجن وأعطاهم كمية من الذهب وقال:

– هيا أطلقوا سراح طاهر، فهو لم يذنب فى شىء، ولا يحيا إلا بحبه فقط.

أطلق الحراس سراح طاهر والباشا من السجن. وأعادوا إليها الجمال. فشكر طاهر صديقه التاجر وودعه، ثم واصل مع الباشا طريقهما.

سارا طويلا حتى طال الطريق. وعبرا وديان وسهول وجبال. وفى فجر أحد الأيام وصلا أخيرا إلى مدينتهما. وبالقرب من قصر الباشا توقف طاهر فودع رفيقه وشكره كثير الشكر وانطلق بعد ذلك إلى قصر الملك.

تسلل طاهر إلى حديقة القصر وصار يبحث عن زهرة. كانت زهرة فى هذا الوقت مستغرقة فى نوم عميق على بساط مخملى. ومن أجل أن يوقظها أخذ طاهر يغنى بصوت خفيض:

أنادى عليك فانظرى إلىَّ

أتيت إليك بقلب لدى

يفيض بشوق ووجد كبير

فقومى أضمك يا حبى الأخير

سمعت زهرة الصوت الحبيب إلى روحها. دق قلبها دقات سريعة من الفرح، واستيقظت تتلفت حولها. قفزت زهرة من على البساط فوق رقبة طاهر تعانقه وهى تبكى وتضحك فى الوقت نفسه. وظلا متعانقين وسارا معا فى قلب الحديقة.

تحدثا طويلا ولم يشبعا من الحديث. وظل كل منهما ينظر إلى وجه الآخر، ولم يمل أحد منهما من النظر. وفى هذه الأثناء لم ينتبها إلى شقيقة كارا باتير التى رأتهما على هذا الحال فركضت مسرعة إلى أخيها وقالت:

- لقد وصل طاهر.

هاج وماج كارا باتير وهرع إلى الملك وهو ثائر وحكى له.

أرسل الملك الحراس إلى الحديقة يبحثون عن طاهر. فقبضوا عليه وألقوا به فى جب عميق. حيث غاصت قدماه فى الوحل والقاذورات، والماء الراكد يسيل على رأسه من أعلى الجب.

فى اليوم التالى اجتمع الملك مع وزرائه وحكمائه يتشاور معهم. وأخذوا يفكرون فيما يفعلونه مع طاهر. وقرروا أن يقطعوه إلى نصفين. ويعلقوا أجزاء جسمه على بوابة المدينة.

وانطلق المنادون فى الطرق والشوارع يدعون الناس لحضور الإعدام. وهرع الكل إلى ساحة المدينة كما حضرت زهرة. وكان الجميع يرثون للفتى البائس ويندون بقسوة الملك.

- ما الذى جعله يعود إلى هنا؟ - قال بعض الناس.

- الحب هو الذى أعاده إلى هنا - أجاب الآخرون.- وهل يقتل الفتى المسكين لهذا السبب؟ عليك اللعنة أيها الملك الدموى، عليك اللعنة.

أتى الحراس بطاهر إلى الساحة وشحذ الجلاد سيفه الحاد. أخذ الحضور يلعنون الملك الظالم لكن أحدا لم يستطع أن يفعل شيئا. وظلت زهرة ترجو وتوسل أبيها أن يرحم طاهر، لكن قلبه المتحجر لم يلن أبدا. وعندما رأت زهرة الجلاد يمسك بطاهر اسودت الدنيا فى عينيها وتهاوت على الأرض مغشياً عليها.

رفع الجلاد سيفه فى الهواء وهوى به على طاهر فشقه نصفين.

صرخ الناس والحضور، ترددت أصوات الغضب والتذمر وعبارات الاستهجان يطلقها الناس. اندفعت إلى الأمام امرأة عجوز وهتفت بصوت غاضب تقول للملك:

- إن عرشك أيها الملك الشرير غارق فى الدم مثل السيف المغروس فى الجسد. وإن كنت قتلت طاهر، لكنك لن تقتل حبه أبدا. لن تشرق الشمس ثانية ولن يسود العدل العالم مادمت تحكم أيها الظالم القاسى.

فى هذا الوقت علق الجلاد على بوابة المدينة جسد طاهر الممزق.

حينئذ رفعت زهرة رأسها وقالت بصوت يئن:

سوف تسير الجمال وتتوقف عند حائط المدينة وتصرخ قائلة بأن لحم طاهر معلق يعرضه الملك الجزار للبيع فمن يشتريه؟

لم يجرؤ الملك على أن يجيب عليها بشىء.

بعد مقتل طاهر، ارتدت زهرة السواد حزنا على محبوبها، وغطت وجهها لمدة أربعين يوماً وليلة.

فى اليوم الواحد بعد الأربعين توسلت زهرة إلى والدها الملك أن يسمح لها بزيارة قبر طاهر. وافق الملك على طلبها، لكنه أمر الخدم والجوارى أن يذهبوا معها حتى تعود. حينئذ أخذت زهرة عددا من اللآلئ الثمينة وضعتها بمنديل معها. كما أخفت بملابسها خنجراً حاداً وخرجت.

ما إن غادرت زهرة القصر مع الجوارى حتى أخذت تلقى بحبات اللؤلؤ واحدة بعد الأخرى على الطريق. لمح الخدم والجوارى اللؤلؤ فانشغلوا بجمعه والتقاطه من الأرض.

صارت زهرة تبتعد عنهم أكثر فأكثر حتى اختفوا عن ناظريها. وأصبح قبر طاهر على بعد خطوات قليلة. فألقت زهرة ما بقى معها من حبات اللؤلؤ وركضت نحو القبر تحتضنه. ثم طعنت نفسها بالخنجر فى القلب.

انتهى الخدم من جمع اللآلئ وذهبوا إلى القبر ليجدوا زهرة ميتة عنده. بكى الجميع بحرقة ومرارة. ودفنوا زهرة بجوار قبر طاهر.

عندما عرف كارا باتير بما جرى صرخ يقول غاضبا:

- لا، إن زهرة سوف تظل على حبها لطاهر بعد موتها، وأنا لن أسمح لهما بذلك. وقام وهو ثائر فقتل نفسه هو الآخر.

- إن شقيقى لم يرغب فى أن يتركهما بمفردهما - قالت ذلك أخت كارا باتير- فادفنوه بين طاهر وزهرة.

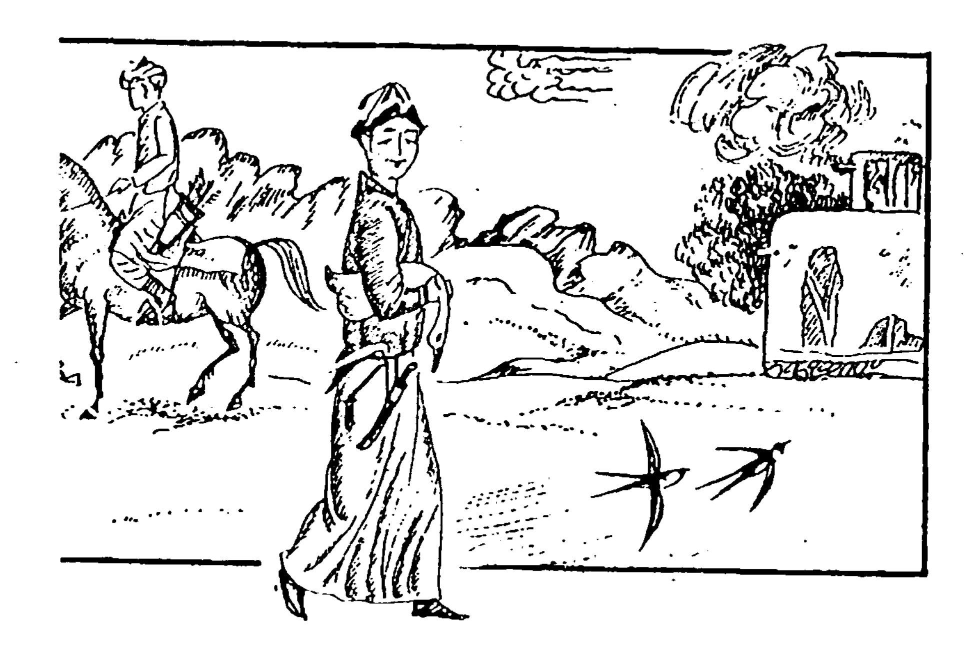
- ألم يكفيكم العذاب الذى عانوه فى حياتهما؟ ألا تريدون منحهما الراحة بعد الموت؟ ارحموهما واتركوهما معا - قال الناس راجين متوسلين، لكن أحداً لم يسمعهم.

ودفن الظالمون القساة كارا باتير بين زهرة وطاهر حتى يفرق بينهما فى اللحد.

نمت فوق قبر طاهر وردة حمراء، وارتفعت فوق قبر زهرة وردة بيضاء. وبينهما وقفت صبارة سوداء. استطالت الزهرتان من أمام الصبارة وتشابكت فروعهما ومالت أوراقهما فى عناق أبدى. وهكذا ظل الورد يتفتح إلى الأبد مثله مثل الحب الأزلى الذى جمع طاهر وزهرة.

* * *

كـليتش باتير



فى أحد الأزمنة البعيدة عاش رجل خارق القوى يدعى كليتش باتير.

ذات يوم سـمع أن هـناك فى مكان مـا على الأرض تعـيش فـتـاة بارعـة الحـسن والجمال اسمها أكبلياك. فرحل يبحث عنها فى أرجاء المعمورة.

أثناء ترحاله لاقى كليتش فى الطريق عابر سبيل.

– أيها الرفيق، هل تسافر بعيدا؟– سأل العابر كليتش باتير.

– أبحث فى الأرض عن الحسناء أكبلياك – أجاب كليتش باتير – لكن أخبرنى من أنت؟ وما الذى تفعله هنا؟

– انا أعمل حائكًا للثياب – قال العابر – وقد سمعت أن هناك رجلاً خارق القوى ظهر فى بلادنا يدعى كليتش باتير. وأنا أبحث عنه كى أجرب قوتى معه.

– إنك حقا لمحظوظ أيها الرجل – قال كليتش باتير وهو يضحك – فأنا صديق مقرب لكليتش باتير، وقد عشت وتجولت معه كثيرا. فلتجرب قوتك معى فى البداية. وإذا كانت الغلبة لك تستطيع أن تجرب قوتك بعد ذلك مع كليتش باتير نفسه.

– إذا كان الأمر هكذا فلا مانع عندى – أجاب الحائك.

أمسك كل منهما بالآخر وصارا يتصارعان فى نزال قوى. رفع كليتش باتير الحائك فوق يديه وبضربة واحدة قذفه على الأرض.

نهض الحائك من وقعته وانحنى أمام كليتش باتير.

– لقد أحسنت أيها الرجل، وإذا كنت بهذه القوى فما حال كليتش باتير إذن؟

أعطى كليتش باتير للحائك علبة صغيرة للتبغ وقال له:

– خذ هذه العلبة أيها الرفيق، ولا تنسنى. طالما ظل بها تبغ فهذا معناه أن الأمور على ما يرام. وإذا رأيت الدم يقطر منها، فأسرع إلىّ بكل ما أوتيت من قوى. كنت واحدا والآن أصبحنا اثنين.

ودع كليتش باتير الحائك ومضى فى طريقه.

ومر عليه وقت لا هو طويل ولا هو قصير وهو مازال فى الطريق. حتى قابل عابر سبيل آخر. وكان الرجل يعمل حدّادا. سأل الحدّاد كليتش باتير قائلا:

– إلى أين وجهتك أيها الرفيق؟

– أبحث فى الدنيا عن الجميلة أكبلياك – أجاب عليه كليتش باتير – وأنت، ماذا وقوفك هنا على الطريق؟

– تدور الأقاويل عن رجل مسافر ذى قوة خارقة اسمه كليتش باتير. وأنا أنتظر ظهوره كى أصارعه وأمتحن قوته – قال الحدّاد.

– لقد حالفك الحظ أيها الرجل. فأنا صديق لكليتش باتير – قال كليتش باتير – ما قولك أن نتصارع معا لتمتحن قوتك معى فى البداية؟

– وأنا موافق – أجاب الحدّاد عليه.

وأمسك كل منهما بخصر الآخر يحاول أن يوقعه. لكن كليتش بسرعة نجح فى أن يلقيه على ظهره بالأرض.

لم يغضب الحدّاد من هزيمته. وعرض صداقته على كليتش باتير. فأعطاه كليتش باتير علبة تبغ صغيرة وقال له:

– طالما بقى تبغ فى هذه العلبة فاعلم أن الأمور تجرى على ما يرام. لكن لو رأيتها تقطر دما أسرع إلىّ بكل ما أوتيت من قوى. كنت واحدا وأصبحنا اثنين، والآن صرنا ثلاثة.

ودع كليتش باتير الحدّاد ومضى مواصلا طريقه.

ومر وقت قصر أم طال على كليتش باتير، وهو مازال مسافرا. حتى قابل سقّاءً يقف على جانب الطريق.

صارعه كليتش باتير وهزمه بسرعة كالآخرين. ثم أعطاه علبة تبغ وقال له ما قاله من قبل للحائك والحدّاد عن العلبة. وختم حديثه معه قائلا: "لقد كنا ثلاثة، ومعك أصبحنا أربعة".

انطلق كليتش باتير يواصل طريقه. وظل يسير ويسير طويلا طويلا حتى وصل إلى أحد الأودية. كان فى الوادى أحد الرعاة يسوق قطيعا من الأغنام.

– لمن هذه الأغنام؟– سأل كليتش باتير الراعى.

– إنه قطيع الحسناء أكبلياك – أجاب الراعى.

– وأين تعيش الحسناء أكبلياك؟

– هاه يا لك من مقدام أيها الشجاع – قال الراعى – كم عدد الشبان الذين أتوا هنا قبلك ولم يفلح أحد منهم فى الوصول إليها، ومنهم الكثير من أبناء الملوك والأمراء. ولم يلقوا جميعا فى سبيل ذلك سوى حتفهم. انظر إلى هـذا القصر الشامخ هناك. على أسواره رءوس معلقة تزينه. إنها رءوس أمثالك من المتهورين الطامحين للوصول إليها. فلا تفكر بذلك أبدا.

فكر قليلا كليتش باتير وقال:

– لن يحول شىء بينى وبين الوصول إلى أكبلياك. لكن أخبرنى ما الذى علىّ أن أفعله فى سبيل ذلك الهدف؟

– اذهب إلى السوق واشترى قفة من الزبيب. فالحسناء أكبلياك تملك حصانا يحب أكل الزبيب بشدة. وهذا الحصان يأخذ فى الصهيل بصوت عال إذا ما لمح أحدا يحاول التسلل إلى القصر. وحينئذ تستيقظ الحسناء وتقطع رأس المتسلل على الفور. لهذا ينبغى أن تلجأ إلى المكر والحيلة. واحفر نفقا تحت الأرض يصل بك إلى إسطبل هذا الحصان. وازحف إلى هناك ومعك الزبيب، وغطى الحفرة بحصيرة. واقبع فى حفرتك ساكنا متخفيا كى لا يراك الحصان. وعندما يحل الليل وتنام الحسناء أزح الحصيرة واخرج من مخبأك. وضع الزبيب فى معلف الحصان. وحينئذ تستطيع أن تعتبر أن الحسناء أكبلياك قد أصبحت ملكا لك.

سمع كليتش باتير كلام الراعى وقرر أن يأخذ به. فشرع يحفر ويحفر حتى صارت الحفرة نفقا تحت الأرض وصل به إلى إسطبل الحصان. وحينما أراد تغطية الحفرة بالحصيرة لمحه الحصان وارتفع صوته بالصهيل. وفى اللحظة نفسها ظهرت الحسناء أكبلياك ودخلت الإسطبل.

– ما الذى جعلك تصهل هكذا؟ ما الذى حدث من جديد؟ – سألت الحسناء الحصان وهى تمسد على عنقه ورقبته بيدها الناعمة. وصارت تنظر فى أنحاء الإسطبل فلم تر شيئا. وغادرت المكان إلى حجرتها.

ما إن تحرك كليتش باتير بحذر شديد من تحت الحصيرة حتى صهل الحصان مرة ثانية بصوت أعلى.

ودخلت الحسناء إلى الإسطبل ثانية. ثم قامت بتفتيش المكان ولم تعثر على شيء. فصرخت فى الحصان بغضب.

– ما الذى حدث لك؟ إن صهيلك هذا يمنعنى من النوم – قالت ما قالته وضربت الحصان مرتين بالسوط. وخرجت إلى حجرتها وراحت فى النوم.

قبع كليتش باتير فى حفرته ساكنا حتى هبط الظلام. فأزاح الحصيرة من فوق الحفرة وخرج منها يسير بهدوء وحذر. ثم وضع ما معه من زبيب فى معلف الحصان. وهنا لم يعد الحصان يرى أو يسمع شيئا من حوله. وتسلل كليتش باتير إلى داخل القصر. ودخل إلى حجرة أكبلياك. فرآها مستغرقة فى سبات عميق على فراشها وهى تتدثر بأربعين غطاء. راح كليتش باتير بسرعة ومهارة يدق حول الفراش أربعين حلقة، وربط فى كل منها خصلة من شعر أكبلياك. استيقظت الحسناء من نومها وصارت ترتعد من الخوف حين رأت شابا يقف أمامها يحدق فيها بنظراته.

– ما الذى أتى بك إلى هنا؟ – سألته أكبلياك – ما الذى تبتغيه منى؟ سوف أنهض الآن وأقطع رأسك هذه.

حاولت أكبلياك القيام من الفراش فلم تستطع، لأن شعرها كان مربوطا فى الحلقات التى وضعها الفتى.

ضحكت الحسناء وأخذت تثنى على كليتش باتير وتمدح فطنته وقالت:

– حسنا أيها الفتى الشجاع، لقد استطعت أن تهزمنى.

ومنذ هذه اللحظة صار الاثنان يعيشان معا.

كان أحد الأمراء ويدعى كاراخان قد سمع عن أكبلياك وجمالها الأخاذ. فاستدعى إليه امرأة ماكرة عجوز وقال لها:

– إذا استطعت أن تحضرى لى هذه الفتاة المدعوة أكبلياك، سوف أمنحك ذهبا يرتفع من الأرض إلى أعلى قامتك.

مضت العجوز الماكرة وركبت حمارها، وسارت به على الطريق. حتى وصلت إلى أحد الأماكن التى يمر بها كليتش باتير أثناء عودته من الصيد. توقفت العجوز عند هذا المكان. وقامت فضربت أقدام الحمار بصخرة حتى كسرتها. وجلست بجانبه تبكى وتولول بصوت عال.

وصل كليتش باتير إلى المكان الذى تجلس فيه العجوز وسألها:

- ماذا بك أيتها العجوز؟

- عطفك يا بنى - قالت العجوز الماكرة تتوسل - لا تتركنى فى هذا الوادى وحيدة لا حول ولا قوة لى. وإلا فمصيرى هو الموت المحقق.

أشفق كليتش باتير على العجوز. فأجلسها خلفه على حصانه وأخذها معه إلى المنزل.

تملك الغضب من الحسناء أكبلياك وقالت:

- لماذا أحضرت معك هذه العجوز الشمطاء الشريرة؟ إنها ماكرة وسوف تجلب لنا الشؤم والخراب.

- ما الذى يمكنها أن تفعله مثل هذه العجوز المسكينة؟- قال كليتش باتير وهو يضحك - دعيها تبقى معنا وتساعدك فى شئون البيت.

وعاشت المرأة العجوز معهم، تساعد أكبلياك فى أمور المنزل. وفى يوم من الأيام سألت العجوز الماكرة أكبلياك قائلة:

- أخبرينى يا ابنتى العزيزة، ألا تعرفين أين توجد روح كليتش باتير؟ فمن الجيد لك لو أنك تعرفين مكانها.

- وكيف يمكن السؤال عن ذلك؟- قالت أكبلياك.

- فى المساء عندما يعود كليتش باتير من الصيد، تخاصمينه وتبتعدين عنه. وفى هذه الحال سوف يخبرك عن مكانها- قالت العجوز الماكرة وهى تقهقه من الضحك.

في المساء عاد كليتش باتير من الصيد. فأشاحت أكبلياك بوجهها عنه وجلست في ركن مطرقة الرأس صامتة لا تتحدث.

- ما لي أراك حزينة هكذا يا روحي الغالية؟ ما الذي جرى؟- سأل كليتش باتير في دهشة كبيرة.

- إنني لا أعرف شيئا عنك حتى وقتنا هذا - قالت الحسناء أكبلياك.

- حسنا، وما الذي تريدين معرفته؟

- أريد أن أعرف أين توجد روحك - سألت أكبلياك.

وظل كليتش باتير يحاورها بالكلام محاولا أن يقنعها ويرضيها، لكنها لم تقتنع بحديثه ولم تتركه حتى حكى لها وقال:

- إن روحي موجودة في سيفي، ولهذا يسمونني كليتش باتير، أي السيف البتار. ولهذا فأنا بدون سيفي لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة.

كانت الحسناء أكبلياك شابة صغيرة قليلة الخبرة والإدراك. لذا فإنها سرعان ما هرعت إلى العجوز الماكرة وأخبرتها بما قاله لها كليتش باتير. وسمعت منها العجوز ما كانت تنتظر سماعه. وعرفت ما كانت تريد معرفته. وفرحت في نفسها وهي تقول" لقد اقتربت الآن من تحقيق مرادي". ثم قالت بصوت مسموع:

- لا يمكن أن أصدق أبدا أن روح الإنسان يمكن أن تكمن في سيف. لقد خدعك زوجك وكذب في ذلك الأمر. وإذا أردت أن تتأكدي من ذلك، خذي منه سيفه في الصباح قبيل خروجه إلى الصيد. ولنرى وقتها ماذا سيحدث له بدون السيف.

في صباح اليوم التالي طلبت أكبلياك من كليتش باتير أن يترك لها سيفه بالمنزل. وأراد كليتش باتير إرضاءها فترك لها سيفه وخرج بدونه إلى الصيد. وسرقت العجوز الماكرة السيف ومضت فألقت به في مياه النهر. في هذه اللحظة سقط كليتش باتير من فوق جواده على الأرض بلا حراك ولا نفس. وفي هذا الوقت نفسه صنعت العجوز من الخشب حصانا سحريا مدهشا. إذا قرصت أذنه اليمنى يرتفع بك طائرا في السماء. وعندما تقرصه في إذنه اليسرى يهبط بك على الأرض.

انبهرت الحسناء أكبلياك بالحصان الخشبى الرائع وسألت:

- ما هذا الحصان الخشبى؟

- يمكنك أن تجربيه بنفسك - قالت العجوز - فهذا ليس بالحصان العادى، بل إنه حصان طائر. هيا اجلسى خلفى عليه، وسوف يحلق بنا فى السماء، نطير ونشاهد الكثير من الممالك والبلدان.

جلست أكبلياك مع العجوز فوق الحصان. قرصت العجوز أذنه اليمنى فطار محلقا بهما فى الأعالى. ولم تمض دقائق حتى وصل الحصان إلى قصر الأمير كاراخان.

ركعت العجوز الماكرة أمام الأمير كاراخان وقالت:

- مولاى الأمير كاراخان، لقد نفذت ما أمرتنى به وأحضرت لك الحسناء أكبلياك.

أعطى الأمير للعجوز ما استطاعت حمله من الذهب مكافأة لها. وأقام الأفراح فى البلاد لأربعين يوماً وليلة.

ولنترك الأمير ونذهب لنرى ما كان من أمر أصدقاء كليتش باتير الحائك والحداد والسقّاء. فقد رأوا جميعا وفى اللحظة نفسها أن علب التبغ لديهم صارت تقطر دما. وعلى الفور اجتمع ثلاثتهم وحزموا أمرهم وانطلقوا مسرعين إلى بيت كليتش باتير. لكن النهر وقف حائلا بينهم وبين البيت.

- هيا أفرغ ماء النهر أيها السقاء.- قال الحداد للسقاء.

أخذ السقاء يفرغ ماء النهر بدلوه الكبير حتى ظهر قاع النهر أمامهم. ثم رأوا سيف كليتش باتير ملقى فى القاع فالتقطه السقاء وأعطاه للحداد قائلا:

- اصقل سيف كليتش باتير أيها الحداد.

صقل الحداد السيف حتى أصبح حادا لامعا. وفى هذه اللحظة نهض كليتش باتير من المكان الذى سقط فيه بلا حراك وصار يعطس وينفض الغبار عن وجهه. ثم تلفت حوله ولم يجد حصانه فعاد إلى منزله سيرا على الأقدام. وما إن وصل إلى المنزل أخذ يبحث عن الحسناء أكبلياك ولم يجد لها أثرا فى أى مكان.

التقى كليتش باتير بعد ذلك بالحائك والحداد والسقاء.

- ما الذى جرى لك أيها الصديق؟- سأل الجميع فى صوت واحد.

- لقد حلت بى مصيبة كبيرة - قال كليتش باتير- لقد خطفت العجوز الخبيثة منى الحسناء أكبلياك.

ذهب الحائك إلى المدينة التى يعيش بها الأمير كاراخان. فوجد الناس يحتفلون والطبل والزمر فى كل مكان بالمدينة.

- ما الذى يجرى هنا؟ - سأل الحائك أحد المارة.

- كيف لا تعرف أيها الرجل؟ إنها أفراح العرس الجديد - أجاب الرجل.

- أى عرس هذا؟

- عرس الأمير والحسناء أكبلياك.

ركض الحائك مهرولا إلى كليتش باتير وقص له كل ما سمعه فى المدينة.

امتشق كليتش باتير سيفه البتار، وامتطى صهوة فرسه وانطلق إلى المدينة. اخترق الجميع حتى اقتحم القصر. وقام بمبارزة الأمير كاراخان بالسيف.

انتصر كليتش باتير على الأمير وقام بقطع رأسه.

نصب كليتش باتير الحائك أميرا على البلاد. وعين الحداد والسقاء وزراء معه.

واستمرت الاحتفالات أربعين يومًا بالبلاد. وبعد نهايتها عاد كليتش باتير مع الحسناء أكبلياك إلى دارهما ليعيشا معا وللأبد.

* * *

كينجا باتير



فى زمن غير هذا الزمان عاش ثلاثة من الإخوة. وفى يوم خرجوا معا إلى الصيد فدخلوا إلى الغابة. غلب النعاس اثنين منهم وجلس الأخ الأكبر يحرسهم أثناء النوم. وبعد أن انتصف الليل غلبه النعاس هو الآخر فنام مع إخوته. وفى أثناء نومهم دخل عليهم أحد الوحوش فالتهم كل ما تبقى لديهم من الطعام.

وفى الليلة التالية قام بالحراسة الأخ الأوسط. وتكرر ما حدث لأخيه فتسلل الوحش مرة أخرى وأكل طعامهم.

فى الليلة الثالثة جاء دور الأخ الأصغر الجسور كينجا باتير لحراستهم. وبعد منتصف الليل بدأ النعاس يغالبه ويداعب جفونه فأخذ السكين وصار يخدش به جسمه

وهو يتألم. وكان يتحمل الألم حتى لا يغلبه النعاس وينام. ومضى زمن قصير حين سمع كينجا باتير صوتا آتيا من داخل الغابة. ونظر فرأى الوحش يسرق طعامهم من القدر. وكان يجذب اللحم بهدوء ويأكله. أمسك كينجا باتير بسيفه وهجم على الوحش هجمة شجاعة فقطع رأسه.

وفجأة رأى كينجا باتير الرأس المقطوعة تتدحرج داخل الأحراش فجرى ورائها ليلحق بها. لكن الرأس ظلت تتدحرج وتندفع حتى سقطت فى حفرة عميقة بالغابة.

عاد كينجا باتير إلى مكانه. وفى الصباح قص على إخوته ما جري فذهبوا جميعا إلى موقع الحفرة. وأحضروا حبلا ربطوا به الأخ الأكبر من خصره وأنزلوه فى الحفرة. وما إن بلغ منتصف الحفرة حتى صرخ الأخ الأكبر مستنجدا:

– ارفعونى لأعلى، ارفعونى..

ورفعه الأخوان إلى خارج الحفرة. ثم أنزلوا الأخ الأوسط إلى الحفرة. وما إن بلغ منتصفها حتى صرخ:

– ارفعونى لأعلى، ارفعونى..

مرة أخرى رفعه الأخوان إلى خارج الحفرة. وأخيرا جاء الدور على كينجا باتير. فأخذ الحبل وشده بقوة حول خصره وقال لأخويه:

– مهما صرخت أو استنجدت أو حتى بكيت وطلبت أن ترفعونى فلا تفعلا، بل أنزلونى فى الحفرة حتى أبلغ نهايتها.

– حسنا. وافق الأخوان وأخذا ينزلانه فى الحفرة. حتى وصل كينجا باتير إلى منتصفها فشعر بشيء يقبض روحه، لكنه تحامل على نفسه ولم يطلب النجدة. وظل يهبط ويهبط فى الحفرة العميقة والتى لم تظهر لها نهاية حتى وصل الشاب الجسور أخيرا إلى قاعها. كانت الحفرة غارقة فى ظلام دامس كليل القبور. ولاح بها شعاع ضوء ضئيل شحيح. فأخذ الجسور يزحف متجها ناحية الشعاع. حتى رأى كهفا تجلس فيه فتاة رائعة الحسن والجمال تحمل بين يديها رأس الوحش التى قطعها كينجا باتير وتتحدث معها:

– لقد حذرتك أكثر من مرة بعدم الخروج إلى الأرض حتى لا يصيبك مكروه ويقتلك أحد من الرجال، وما قدّرته قد حدث وأصبح جسمك ملقى فى مكان ما بالغابة بينما رأسك هنا بين يدى، ماذا أفعل الآن يا ربى؟

وهنا ظهر كينجا باتير للفتاة الحسناء فأصابها الخوف وفرت مذعورة من أمامه. لكنه أمسك بها مطمئنا وقال:

– لا تخشى منى شيئا أيتها الأخت، فقد أتيت إليك من الأرض لأحررك من سجنك. احكى لى من أنت؟ ومن أين أتيت؟ ولماذا تعيشين هنا تحت الأرض؟

شعرت الفتاة بعطف الشاب الجسور ورقته فهدأت وقالت:

– أنا الأميرة ابنة الملك، وقد خرجت ذات يوم فى نزهة بالجبال حين هاجمتنى أرواح الجان الشريرة وأحضرتنى أسيرة هنا. وأرغمونى على الزواج من ملك العالم السفلى سركا باتير صاحب هذه الرأس المقطوعة أمامك.

سأل كينجا باتير الأميرة الحسناء قائلا:

– وأين توجد روح تلك الرأس الآن؟

قادت الأميرة كينجا باتير إلى حجرة أخرى وفتحت صندوقا، فأخرجت منه علبة صغيرة. كانت بالعلبة دودة راقدة فى لفة من القطن. سحل الفتى الجسور الدودة وقتلها ، فكفت الرأس المقطوعة عن الحركة بعد ذلك إلى الأبد.

أحضرت الفتاة مفتاحا وأعطته لكينجا باتير. وأخذ كينجا باتير يفتح الحجرات المغلقة واحدة بعد الأخرى. وكانت كلها مليئة بكل ما هو نفيس وثمين من شتى أرجاء العالم : أسلحة، وذهب، ولؤلؤ، وفضة، وياقوت. فجمع كينجا باتير كل تلك الكنوز فى صناديق واستعد لمغادرة الحفرة. ثم قال للأميرة:

– لقد حررتك من القوى الشريرة، فلنصعد الآن على سطح الأرض.

– وأنا أتوق إلى الخروج. قالت الأميرة.

جمع كينجا باتير الصناديق ووضعها أسفل الحفرة. ثم ربط أولهم بالحبل وجذبه. شاهد الأخوان الأكبر والأوسط أن الحبل يتأرجح فجذباه من الحفرة، ثم فتحا الصندوق المربوط به فوجدا فيه من الذهب والفضة ما لم تره أعينهما من قبل. ومرة أخرى ألقيا بالحبل فى الحفرة ثم جذباه بصندوق ثان ملىء باللؤلؤ والياقوت. وفى المرة الثالثة أنزلا الحبل ثم رفعاه بصندوق آخر. لكن فى هذه المرة خرجت منه الأميرة الحسناء بوجه كالبدر وعينين كالنهار. وحين رآها الأخوان تجمدا فى مكانهما من فرط الانبهار بجمالها. أنزلا الحبل مرة أخرى فى الحفرة وأخذا يرفعانه فظهر لهما فى هذه المرة كينجا باتير. تشاورا الأخوان فيما بينهما وقال الأخ الأكبر:

– إذا عاد أخونا الأصغر فلن ننل من الثراء شيئًا ولا من الحسناء نصيب، فلنقطع الحبل ونهرب من هنا.

وكان هذا ما حدث بالفعل. قطع الأخوان الحبل وفرا من المكان هاربين. وسقط المسكين كينجا باتير هاويا فى الحفرة يواجه مصيره.

عاد كينجا باتير إلى وعيه وصار يتلمس طريقا للخروج من الحفرة. وظل يمشى ويمشى باحثا عن مخرج إلى الأرض حين سمع فجأة صوتا ينبعث بالقرب منه. نظر كينجا باتير فرأى فلاحا عجوزا يركب على ثور ويحرث الأرض. اقترب كينجا باتير من العجوز وسأله:

– مرحبا يا والدى !

قال الفلاح العجوز:

– هدوءا، لا ترفع صوتك يا بنى واحترس لنفسك حتى لا تراك الأرواح الشريرة وحينئذ لن تخرج من هنا حيا. أخبرنى، ما الذى أتى بك إلى هنا؟ فأنت إنسان ولست طائرا، ولك قدمان وليس جناحان تطير بهما من هنا.

قال الشاب للعجوز :

– لقد ضللت الطريق يا والدى، فأخبرنى كيف السبيل للخروج من هنا إلى الأرض.

- آه لو تعلم يا بنى، إن طريق الخروج محفوف بالمخاطر والأهوال. انظر إلى تلك الصخرة هناك، فى داخلها عش لطائر السيمور العملاق، وهو يربى صغاره فيه، وكل يوم عندما يترك الطائر صغاره بالعش ويطير ليحضر لهم الطعام، يحضر التنين، ويهجم على العش ويأكل أحد الصغار. فإذا كنت جسورا شجاعا واستطعت أن تصرع التنين ، فسوف يحملك السيمور من هنا ويطير بك إلى سطح الأرض.

انطلق الشاب الجسور إلى الصخرة وقتل التنين فى الحال. وأنقذ صغار السيمور من الموت. وفرح صغار الطائر حتى إن أحدهم عانق كينجا باتير واحتضنه بجناحيه. وفى المساء تردد فى السماء صوت أجنحة السيمور العملاق تخفق وهو فى طريق العودة إلى العش. وحكت الطيور الصغيرة للطائر الأم عن الشجاعة التى رأوها. وسأل طائر السيمور:

- حسنا حسنا، وأين هذا الفتى الجسور الذى أنقذكم من التنين؟

ونظر السيمور فرأى كينجا باتير يجلس تحت جناحى أحد الصغار . فقال له السيمور:

- أيها الإنسان ، لقد أنقذت أبنائى من الموت ، فاطلب منى ما تشاء وأنا ألبيه لك فى الحال.

سأل الشاب الطائر مطلبا واحدا:

- طر بى إلى بيتى على الأرض.

أجاب السيمور:

- مطلبك صعب المنال أيها الفتى، لكن لابد أن أحققه لك، جهز لى قربتين، وضع بأحدهما ماء، وبالأخرى لحما. وعندما أطلب منك الماء تعطينى اللحم، ولو سألتك عن اللحم تعطينى الماء، ولنطير معا إلى الأرض.

فرح الشاب أنه سيطير إلى الأرض ويعود لبيته. وأحضر على الفور ما طلبه منه طائر السيمور. فوضع الماء فى قربة واللحم بالأخرى وجلس فوق ظهر الطائر. وطاروا طويلا وطاروا، وحلقوا فى الهواء. ثم سأل السيمور:

– كيف تبدو لك الأرض الآن؟

– أراها مغطاة بزهور اللوز. أجاب الفتى.

وطار السيمور أسرع وأسرع ثم عاد وسأل:

– والآن كيف تراها؟

– الآن تغطيها أزهار المشمش. قال كينجا باتير.

– لم يبق لنا سوى القليل من الطيران ونصل للأرض، أعطنى الماء. قال السيمور.

لكن اللحم قد نفذ من القربة . ما العمل يا ترى ؟ قطع الفتى الجسور من فخذه قطعة من اللحم وأعطاها للسيمور. وعرف السيمور من مذاقها أنها لحم بشرى فوضعها تحت لسانه. وطار الطائر بعض الوقت حتى هبط على الأرض. ونزل كينجا باتير من على ظهره وسأله السيمور:

– ما هذا اللحم الذى أعطيته لى آخر مرة؟

– إنه لحم عادى من القربة. قال كينجا باتير.

– لا تكذب علىّ وقل لى الحقيقة. رد السيمور. واضطر كينجا باتير أن يعترف له بما فعله. فأخرج السيمور قطعة اللحم من تحت لسانه وأعادها إلى فخذ الفتى وقال له:

– رداعا أيها الفتى الجسور. لقد طرت بك إلى الأرض كما طلبت. والآن ينبغى عى العودة إلى صغارى.

سار كينجا باتير وسار. ثم دخل إلى الغابة يبحث عن أخويه حتى رآهما يقفان عند الحفرة ذاتها يتشاجران. وسمع الأخ الأكبر يقول صارخا:

– إنها فتاتى أنا وسوف آخذها لنفسى.

فيحتج الأخ الأوسط فى غضب قائلا:

– لا إنها فتاتى أنا.

اقترب منهما كينجا باتير وما إن رأته الأميرة حتى ألقت بنفسها فى أحضانه. واحمرّ وجها الأخوين من شدة الخجل. ورغم خسة ما فعلاه بأخيهما الأصغر إلا أنه لم يعاقبهما على ما فعلاه معه وقال لهما:

- ارحلا من هنا ولا تدعا بصرى يقع عليكما بعد الآن.

وأخذ كينجا باتير الأميرة الحسناء ورحل معها.

وهكذا، تحققت للفتى الجسور أمانيه وأحلامه.

* * *

معروف الإسكافى



كان ياما كان فى سالف العصر والأوان، رجل يدعى معروف الإسكافى. كان معروف يعمل فى إصلاح الأحذية المختلفة وترقيعها وخياطة الثقوب بها. وكان يمكن لمعروف أن يحيا بما يربحه حياة ميسورة، لكن قلبه الطيب وروحه الخيرة دفعاه دوما إلى توزيع كل ما يربح من المال على الفقراء والمحتاجين والأرامل والسائلين العون.

وفى يوم من الأيام عمل معروف بنصيحة شيخ الجامع وتزوج من امرأة عرافة اسمها ريزفون لها باع فى قراءة الطالع والتنبؤ بالغيب. وكانت هذه المرأة محتالة كبيرة. تمر بالبيوت فى المدينة فتقيم الصلوات وتقرأ أشعار الحداد وتدعى الاتصال بأرواح الموتى. وكثيرا ما كانت تخدع البسطاء والسذج من الناس وتقرأ لهم الطالع

والمستور وتدعى أنها تفك طلاسم المستقبل والأقدار. وكان الناس يصدقونها ويعاملونها بإجلال ويطلقون عليها اسم الشيخة ريزفون.

أصبحت ريزفون لا تطيق الحياة مع زوجها معروف بسبب كرمه الشديد وإنفاقه كل مكسبه على الفقراء والأرامل والمحتاجين.

ذات يوم عاد معروف إلى بيته وهو كالعادة صفر اليدين مفلسا من المال. فهاجت ريزفون عليه وثارت وصارت تسبه وتلعنه بكل سباب الأرض. وفى النهاية طردته من البيت غير آسفة عليه.

غادر معروف المدينة على غير هدى وسار إلى حيث قادته قدماه. حتى رأى قافلة تسير من قوافل التجار فانضم لها وسار فى ركابها. وكلما توقفت القافلة للراحة يركض معروف فيسقى الجمال العطشى ويطعم الجياد الجائعة. وفى الليل يسهر على حراسة المتاع والبضاعة التى تحملها القافلة. وأخيرا وصل معروف إلى مدينة خوتان بعد أن ذاق الأمرين من التعب والهوان.

فى خوتان قابل معروف أحد المعارف من التجار يدعى على. وكان على شخصا خبيثا شديد المكر . فقد كان يعلم بكرم معروف وسخائه وفكر فى أن يستغل طباع معروف الطيبة. فاصطحب علىٌ معروفًا إلى داره وألبسه من رأسه لأخمص قدميه فاخر الثياب. وأقام له وليمة من أطيب الأطعمة، فأطعمه وسقاه ووضعه على فراش ناعم وثير.

فى اليوم التالى فتح على دكانا جديدا خاصا بمعروف. ولما كان معروف رجلا كريما سخى اليد، أصبح يهب المال ويمنح البضائع إلى العابرين والسائلين من الفقراء والمحتاجين . خلاصة القول أن معروف فى أول يوم له وزع بضاعة ونقودا على فقراء مدينة خوتان بما يساوى ألف جنيه ذهبى من أموال على التى ائتمنه عليها.

وفى اليوم التالى أعطى على مرة أخرى لمعروف بضاعة تساوى ألف جنيه ذهبى. ومرة أخرى وزع معروف كل البضاعة الموجودة بالدكان على الفقراء والسائلين.

ذاع صيت معروف وكرمه فى أرجاء المدينة حتى وصل إلى مسامع ملك خوتان. فأمر بدعوة معروف إلى الحضور فى قصره والمثول بين يديه.

أمر الملك بنحر الذبائح وإقامة الولائم وتعليق الزينة ورفع الرايات على شرف قدوم معروف إلى القصر.

فى المأدبة أكل معروف القليل من الطعام حتى شبع وارتوى. عندئذ صار الملك يمطره بالأسئلة المختلفة: من أية مدينة حضر؟ ما العمل الذى يقوم به؟ ما هى مهنته؟ أجاب معروف على أسئلة الملك وأخبره أنه أحد كبار التجار.

أراد الملك أن يختبر معروف فخلع خاتما من أصبعه به حجر ثمين وسأله عن نوع الحجر الكريم وقيمته.

وضع معروف الحجر بين أسنانه وأطبق عليه بفمه فكسره. ثم نظر باحتقار إلى الحجر المكسور قائلا للملك:

- يا مولاى العظيم، ما هذا الحجر غير الكريم؟ إنه لا يصلح لشىء على الإطلاق. فهو حتى لا يساوى ألف جنيه ذهبى. أنا أملك أحجارا من الماس الحقيقى الصافى كل حجر منها يساوى مائة ألف جنيه ذهبى.

وكان الملك قد اشترى خاتمه بالفعل بألف جنيه ذهبى مما جعله يصدق على الفور بأن معروف من كبار التجار. وأخذ الملك يفكر فى كيفية الحصول من معروف على الأحجار الكريمة التى يساوى كل منها مائة ألف جنيه ذهبى.

سأل الملك الرأى والنصح من وزرائه ومستشاريه. ثم قرر أن يزوّج ابنته الوحيدة جاهونار إلى معروف حتى يستحوذ على ثروته وأحجاره الثمينة.

ذهب الوزراء إلى معروف وأبلغوه برغبة الملك. فخاف الإسكافى وصار يراوغ ويماطل متحججا بأن بضاعته وقوافله مازالت فى الطريق بعد، وفى حقيقة الأمر كان معروف مرعوبا من أن يفتضح أمره لدى الملك فقال للوزراء:

لنؤجل الزفاف بعض الوقت حتى تصل قوافلى وتجارتى إلى خوتان.

بيد أن الوزراء أصروا على مطلبهم لتحقيق رغبة الملك حتى وافق معروف مكرها على الزواج بجاهونار ابنة الملك. وقامت الأفراح والليالى الملاح بمناسبة الزفاف الميمون. واستمرت الاحتفالات أربعون يوماً وليلة.

أما على فقد أعاد إليه معروف الأموال التى اقترضها منه. ورغم ذلك كان على كل يوم يلح على معروف أن يجعله وزيرا بحكم مصاهرته للملك. وكان يهدده بفضح أمره وإفشاء سره لدى الملك الذى يظن أن معروف تاجر من كبار التجار وليس مجرد إسكافى بسيط.

عاش معروف ثلاثة شهور مع جاهونار. والملك كل يوم لا يكف عن السؤال عن الأحجار الكريمة التى يساوى كل منها مائة ألف جنيه ذهبى. حتى جاء يوم جلس فيه معروف مع زوجته وأخذ يتظاهر بالقلق والخوف على بضاعته وقوافله وقال:

– سأرحل لأعرف ماذا حدث لقوافلى وتجارتى ومتى يصلون إلى المدينة.

وهكذا، قرر معروف الفرار من الموت المحقق الذى ينتظره بيد الملك.

خرج معروف من المدينة وسار كيفما تقوده ساقاه. ومشى كثيرا حتى تعبت قدماه وأدماهما السير. وحل به الجوع والإنهاك حين رأى فلاحا بملابس رثة يحرث الأرض بالقرب من الطريق فطلب منه معروف خبزا وبعض اللبن.

– يا بنى، إن منزلى يقع على الربوة هناك، سأذهب وأحضر لك خبزا ولبنا منه. فانتبه لثيرانى الموجودة هنا حتى أعود.

ذهب الفلاح وفكر معروف قائلا لنفسه: "سأساعد هذا الفلاح الطيب وأقوم ببعض الأعمال له بينما يعود".

جمع معروف القطيع وأخذ يحرث الأرض. دار فى المكان ثم عاد ونظر نحو القطيع وفجأة وجد أحد الثيران قد انحشر فى حفرة أسفل حجر ثقيل ولم يستطع الحركة من مكانه. حاول معروف إنقاذه بشتى السبل. وظل يلهث ويتأوه وهو يحاول دفعه من الحفرة لكن جميع محاولاته ذهبت أدراج الرياح.

"يا للمصيبة، يا لى من رجل تعيس الحظ، ماذا أقول للفلاح المسكين عندما يعود؟" فكر معروف وهو مهموم.

صار معروف يندب حظه ويحاول بكل قوته إخراج الثور المحشور من الحفرة اللعينة. حتى اكتشف أن الثور قد انحشر أسفل قطعة كبيرة من المرمر الثقيل. وأخذ

معروف يحفر الأرض من حول الحجر الرخامى حتى يستطيع تحريكه. وأخيرا نجح فى رفعه بصعوبة شديدة وزحزحه جانبا. نظر معروف بغيظ إلى مكان الحجر فشاهد حفرة مظلمة بداخلها سلالم رخامية. قرر معروف أن يتوكل على الله ويجرب حظه. فهبط السلالم وهو يزر عينيه ويغلقها. وعندما شعر بقدميه تلامسان الأرض فتح معروف عينيه. ونظر حوله فوجد المكان منيرا كالنهار، وليس به مصابيح منيرة أو شموع مشتعلة. اعترت معروف دهشة كبيرة ولم يفهم السر وراء ذلك. ثم تلفت حوله فرأى ممرا به أحجار ضخمة من الماس. وأدرك أن بريقها الوضّاء هو الذى ينير المكان ويحيله إلى نهار. تقدم معروف فى الممر فوجده يضم عشرين حجرة أبوابها من الياقوت الأحمر، وعلى جدرانها ستائر من الحرير.

دلف معروف إلى إحدى الغرف فوجد بها صناديق متراصة. ولكل صندوق مفتاح معلق فى ثقب بالحائط. فتح الإسكافى أحد الصناديق ونظر بداخله فوجده مملوءا حتى قمته بالذهب واللؤلؤ والياقوت الأحمر والماس والياقوت الأصفر وغيرها من الكنوز والأحجار الكريمة.

ظل معروف يسير تحت الأرض ويدخل حجرة بعد الأخرى حتى وصل إلى الحجرة الأخيرة. دخل إليها وتطلع فيها فلم يجد فيها صناديق ولا ذهبا مثل بقية الغرف الأخرى. بل رأى فقط تاجا ملكيا مرصعا بالجواهر والماس معلقا على الجدار. وفوق التاج يتدلى كيس ذهبى بداخله خاتم فضى يتوسطه فص كبير من الزمرد الرائع.

أخذ معروف الخاتم ووضعه فى أصبعه ومسحه بيده حتى يزيل الغبار من على حجر الزمرد. وفى الحال زلزل المكان صوت فرقعة هائلة. وكاد معروف أن يسقط ميتا من الرعب الذى أصابه وتجمدت جميع حواسه من الخوف. فأطبق جفونه على عينيه ووقف مرعوبا يفكر فيما يجرى حوله. ثم استجمع شجاعته وفتح عينيه ببطء ليرى بنفسه. وكاد أن يصعق من الهلع والخوف. فقد وقف أمامه مارد هائل الحجم ، طويل القامة ، يخرج من جبهته قرنان من الزجاج. سجد المارد ثلاث مرات أمام معروف وقال له فى خضوع:

– مولاى وسيدى، بماذا تأمرنى؟ هل ألقى لك بالجبال من عروشها فى البحر؟ أم أسوى لك المدن بالأرض؟

– من أنت؟ وماذا تكون؟ سأل معروف المارد بصوت مرتجف.

– إن اسمى رعد كوسيف يا سيدى، وأنا ملك الجان الذين يعيشون فى جبال الكافس، لدى جيوش جبارة وسبعمائة ألف من الجند والعسكر. وأنا خادم مطيع لمن يرتدى فى أصبعه الخاتم ذو الفص الزمردى. فإذا أمرتنى يا مولاى أن ألقى بأعتى الجبال فى البحر فأنا فاعل. أو شئت أن أسوى لك أعظم المدن بالأرض فأمرك مطاع وأوامرك نافذة فى الحال. أجاب المارد الجبار وهو يركع أمام معروف فى خشوع.

لملم معروف شتات أفكاره وقال للمارد:

– إذن فلتجهز لى بسرعة تسعة آلاف فرس من أفضل الخيول، وتسعة آلاف مثلها من الجمال. وضع عليهم كل الصناديق والذهب الموجود هنا. وأقم لى بين الحقول موكبا ملكيا مهيبا رائعا يرافقه عشرة آلاف من الجند والعسكر، يرتدون الدروع والصديريات والخوذات، ويحملون معهم الأقواس والرماح والسيوف المشغولة بالذهب، فى أبهى ملبس لم تشهده عين من قبل فى العالم أجمع.

– سمعا وطاعة يا مولاى، أوامرك سوف تنفذ فى الحال. أجاب رعد كوسيف وغطى عينيه بكفه واختفى عن الأنظار فى الحال.

صعد معروف السلالم الرخامية وخرج من الحفرة إلى الأرض. ونظر حوله فرأى رعد كوسيف قد أعد كل ما طلبه ووقف فى انتظار أوامره.

ارتدى معروف أفخر الثياب وجلس على عرش الموكب الأسطورى المصنوع من الذهب الخالص والأحجار الكريمة. ومن حوله سارت كتائب الجند والعسكر المهيبة بأسلحتهم وثيابهم الرائعة، وهم فى هيئة رائعة كأفضل حاشية على الأرض لأعظم ملوكها.

والآن فلنسمع ما جرى للفلاح بعد أن عاد من بيته حاملا اللبن وقطع الخبز. نظر الفلاح على البعد فرأى الموكب المهيب يختال فى حقله مع آلاف الجياد وقوافل الجمال المحملة بالبضائع والمتاع. ارتبك الفلاح وداخ وكاد أن يفقد صوابه من فرط الدهشة والذهول.

عندما رأى معروف الفلاح أمر بإحضاره. وظن الفلاح أن معروف ما هو إلا أحد الملوك العظام فسجد أمامه فى خشوع والتمس منه العذر والمغفرة على الطعام المتواضع الذى أحضره له من بيته. قام معروف من عرشه وعانق الفلاح قائلا :

- أيها الوالد العظيم، إن لقم الخبز واللبن التى تكرمت بإحضارها لهى عندى أغلى من جميع الكنوز التى أمامك. اطلب منى ما تشاء وأنا ألبى لك أمنيتك.

- مولاى، إن هذه الأرض التى أحرثها وأزرعها ليست ملكا لى، بل أستأجرها من أحد الملاك. وهذا المالك يقوم دائما بإهانتى وإذلالى ويذيقنى من صنوف الأذى والعذاب ألوانا، كما أنه ينتزع لنفسه تسعة أعشار المحصول الذى أزرعه ولا يترك لى سوى العشر. ورغم أننى أكدح طوال العام مع أسرتى إلا أننا نتضور جوعا ونسير حفاة عراة، فساعدنى يا مولاى أن أحيا مع أطفالى حياة كريمة خالية من العوز والفقر.

فرك معروف خاتمه بيده فظهر له فى الحال رعد كوسيف وانحنى على الأرض يقبلها أمامه فى خضوع وقال:

- بماذا تأمرنى؟ هل ألقى لك بالجبال من عروشها فى البحر؟ أم أسوى لك المدن بالأرض؟

أمر معروف المارد بأن يحضر له مالك الأرض الذى ظلم الفلاح. وفى الحال لبّى الجنى أمر معروف، فأحضر له المالك الذى وقف يفكر أن معروف ما هو إلا ملكا من أكابر الملوك، فخر أمامه ساجدا فى خشوع.

- أيها الجشع اللعين، لماذا تظلم هذا الفلاح المسكين وتعذبه؟ أجب؟ هتف معروف فى المالك الذى ارتعدت أوصاله من الرعب.

غاصت الأرض تحت أقدام المالك ومادت به وخرس عن النطق من الخوف. ولم يستطع أن يجيب على سؤال معروف. وأمر الإسكافى بقطع رقبة المالك حتى يكون عبرة لأمثاله من الظالمين. كما أمر بمنح الفلاح الأرض التى يزرعها وتمليكها له بصك مختوم وموثق بالتوقيعات اللازمة. ثم قال للفلاح الواقف أمامه:

– يا والدى المحترم، الآن قد أصبحت الأرض ملكا لك ملكية خالصة ، ولن يقدر أحد بعد الآن أن يطردك منها أو يغتصب منك زرعك، ولن تتعرض للأذى والمهانة، ولك منى عشرة صناديق مملؤة بالذهب، فلا تسلك سلوكا بغيضا مثل المالك الظالم وتغتصب حقوق الآخرين. بل وزع الذهب على المحتاجين وشاركهم فيما رزقك الله، واترك لأسرتك ما يكفيها، وسوف تحيا حياة راضية هنيئة.

ولنعد الآن إلى ملك خوتان ونسمع ما كان بأمره. بعد أن علم الملك باختفاء معروف أمر أعوانه وحراسه بالبحث عنه واقتفاء أثره أينما ذهب. وأن يعثروا عليه بالطول أو العرض حتى لو كان مختبئا تحت الأرض. ويحضروا له الهارب الوغد إلى قصره فى خوتان مكبلا بالأغلال والأصفاد. وأقسم الملك قائلا:

– الويل منى لهذا الوغد الذميم واللص اللئيم، سأذيقه من العذاب ألوانا، لم يذقها بعد إنسان حتى يكون عبرة لمن يجرؤ على خداعى بعد الآن.

وانطلق أعوان الملك وحراسه يمتطون جيادهم ويبحثون عن معروف فى كل مكان فى البلاد حتى عثروا عليه بعد وقت قصير. وشاهدوا بأعينهم ما لم يروه فى حياتهم من قبل. فقد أصابهم الذهول من مظاهر الأبهة والعظمة المحيطة بالموكب الملكى الرائع . والقوافل المزينة بنفائس الأحجار والذهب. ترجل الحراس من على خيولهم وطلبوا السماح بالمقابلة، ودخلوا محفل معروف، فسجدوا أمامه راكعين وفى ظنهم أنه ملك الملوك.

– أهلا بكم وسهلا ، أى ريح طيبة أرسلت لى حراس ملك خوتان؟ وما العون الذى تطلبونه منى؟ سألهم معروف.

قبّل الحراس الأرض فى خشوع ثلاث مرات وقالوا:

– أيها الملك المبجل، إن ملك خوتان حما جلالتكم قد خرج إلى الطريق لمقابلتكم، وقد أرسلنا فى المقدمة رسلا لنكون فى استقبال عظمتكم.

نادى معروف فى الحال على خازنه وأمره بمنح كل رسول منهم ألف جنيه ذهبى.
شكر الحراس معروف على سخائه وكرمه وامتطوا جيادهم وعادوا إلى خوتان يخبرون الملك بما شاهدوه ورأوه.

مضى معروف فى طريقه إلى خوتان. وقبل الدخول إليها أمر بأفخر الثياب للجميع، وأجمل الجياد للفرسان، وتحميل الجمال بأثمن البضائع واللؤلؤ والذهب والأحجار الكريمة والماس والياقوت والزمرد. وعندما تم له كل ذلك أمر الركب بالدخول إلى المدينة.

كان الحراس قد حكوا ووصفوا كل ما رأوه من ثراء وعظمة لموكب معروف حتى ذهل الملك وسكت عن الكلام.

فى اليوم التالى وصل الموكب المهيب إلى أسوار مدينة خوتان. وسار أجمل الفتيان والفتيات فى ثياب فاخرة وزينة باهرة فى مقدمة الموكب الملكى الاحتفالى. تليهم كتائب مهيبة لا تنتهى من الجند والعسكر . ثم قوافل لا ترى آخرها من الجمال المحملة بالذهب والأحجار الكريمة. وفى مقدمة الجميع سار معروف على فرس أصيل رائع الجمال تربع عليه فى ثياب وزينة رائعة الجمال. يحيط به الحراس والحاشية.

لما رأى ملك خوتان ثراء معروف والأبهة والقوافل التى تصاحب موكبه أصابته الصدمة والحسرة وكاد أن ينفجر ويموت من الحسد والغيظ. حتى إنه ظل بقصره لا يغادره ورفض الخروج لمقابلة صهره معروف والترحيب به. أما عن التاجر على فقد فر هاربا على غير هدى من خوتان عندما شاهد موكب معروف.

بعث معروف برسله فى أرجاء المدينة ينادون على جميع المظلومين والفقراء، والمحتاجين والمعدمين. ثم أمر معروف رعد كوسيف بأن يوزع عليهم جميع ثرواته. ومنح الفقراء من الذهب والأحجار الكريمة والماس ، فسعد الجميع وعاشوا فى هناء ورخاء.

* * *

ابنة الراعى



عاش فى قديم الزمان أحد الرعاة. وفى يوم من الأيام ماتت زوجة الراعى وتركت له ابنة وحيدة. وبعد مرور فترة قصيرة تزوج الراعى من امرأة أخرى.

وجاءت الزوجة الجديدة إلى المنزل ومعها ابنتها المدللة. فكانت كل يوم تطعمها بأطيب المأكولات والفطائر. أما ابنة الزوج فكانت تلقى لها بفتات الطعام وتجبرها على القيام بكل الأعمال المنزلية الصعبة.

كانت الفتاة قد ورثت عن أمها بقرة ودجاجة مع ديكها.

وفى كل يوم كانت زوجة الأب تدفع بالفتاة إلى الحقل وتعطيها حملا من القطن وتقول لها: "اخرجى ارعى البقرة واغزلى من هذا القطن خيطا".

كانت الفتاة تخرج إلى الحقل فتختار لها ركنا به تضع فيه مغزلها. وتظل تغزل الخيط طوال اليوم. وعندما ينتصف النهار تخرج كسرة من الخبز تغمسها فى الماء وتأكلها بسرعة كى تعود من جديد إلى عملها حتى غروب الشمس. ولم يسعف الوقت الفتاة أن تغزل سوى أقل من نصف كمية القطن التى تحملها. فكانت زوجة الأب تضرب الفتاة المكسينة بقسوة حتى يزرقّ جسدها، ثم تجرها من شعرها وهى تسبها بأقذع السباب.

ولم يقدر الراعى على الوقوف ضد زوجته أو الدفاع عن ابنته.

وفى أحد الأيام كانت الفتاة تجلس بالحقل وهى تغزل الخيط وتنظر إلى البقرة من وقت لآخر. وفجأة هبت رياح قوية حملت القطن ودفعته بعيدا. وأخذت الفتاة تركض خلف القطن. رفعت الرياح القطن إلى قمة تلة عالية ودفعته إلى داخل كهف هناك. واندفعت الفتاة إلى الكهف فرأت أمامها امرأة عجوز بيضاء الشعر تجلس وعلى وجهها ابتسامة ودودة. كانت هذه العجوز واحدة من الجنيات الطيبات.

عقدت الفتاة يديها إلى صدرها وقالت للعجوز:

- مرحبا يا جدتى.

- مرحبا بك يا ابنتى مرحبا. اقتربى منى هنا اقتربى. لماذا أراك مهمومة هكذا؟

حكت الفتاة للجنية الطيبة عن سبب حزنها وهمها. فقالت لها الجنية:

- لا تحزنى يا فتاتى الصغيرة وأطعمى بقرتك بالقطن الذى تعطيه لك زوجة أبيك. ومن ضرعها اسحبى الخيط ولفيه حول البكرات.

ثم مسدت الجنية بيديها على رأس الفتاة فى حنان وقالت لها:

- وإذا طلبوا منك القيام بعمل آخر صعب عليك فتعالى إلىّ وأنا أجعله سهلا عليك.

كادت الفتاة أن تطير من السعادة وركضت مسرعة إلى البقرة فأطعمتها حمل القطن الذى معها. وبعد ذلك أخذت تسحب الخيط من ضرع البكرة حتى انتفخت البكرات كلها بالخيوط التى خرجت دقيقة متساوية.

وفى لحظة كانت الفتاة قد جمعت كمية كبيرة للغاية من الخيوط فحملتها وذهبت مسرعة إلى زوجة أبيها. ونظرت المرأة إليها بحقد وصرخت فيها:

- ما الذى أخرك فى العودة هكذا؟ هيا نظفى الزريبة وامسحى الأرض بسرعة.

ومنذ ذلك الحين استطاعت الفتاة أن تدبر أمرها فى العمل. فمهما كانت الكمية التى تعطيها لها زوجة الأب من القطن، كانت الفتاة تغزلها كلها وتعود لها ببكرات الخيط المتساوى الدقيق. ولم يعد هناك مبرر لسب الفتاة أو ضربها. ودهشت زوجة الأب من قدرة الفتاة على غزل الكميات الكبيرة من القطن بهذه السرعة فقررت أن تراقبها.

نظرت المرأة فى ذهول أمامهما. يالها من معجزة لا تصدق. فالفتاة تسحب الخيط من ضرع البقرة. أى سحر تقوم به هذه الفتاة؟

- إذن فالسر كله فى هذه البقرة - قالت زوجة الأب.

وأخذت المرأة تقنع زوجها وتلح عليه:

- اذبح لى هذه البقرة ولا تبخل بها علىّ فإنى أتوق إلى أكل اللحم البقرى منذ فترة.

وأخيرا وافق الراعى قائلا:

- حسنا.

وقام الراعى بذبح البقرة. ثم سلخها وشفى لحمها عن عظامها.

أصاب الفتاة الحزن والغم لما جرى. فذهبت إلى الجنية الطيبة وحكت لها ما حدث مع البقرة. مسدت الجنية على رأس الفتاة وقالت لها:

- لا تبكى يا فتاتى الصغيرة ولا تحزنى. واذهبى إلى البيت واجمعى عظام البقرة وجلدها ودمها وضعيهم فى مكان أمين لا يعرفه أحد. وسوف يأتى اليوم الذى تجدى فيهم نفعا وعونا لك.

ذهبت الفتاة إلى بيتها وفعلت مثل ما قالت لها الجنية الطيبة.

وفى يوم من الأيام قامت زوجة الأب وصارت تزين ابنتها وتعطرها، وألبستها أحسن الثياب كى تذهب معها إلى حفل كبير يقيمه الملك فى قصره. وقبل أن تخرج خلطت زوجة الأب كمية من الأرز مع كمية أخرى من العدس فى وعاء. ثم وضعته أمام الفتاة وقالت لها:

– أريدك أن تفصلى الأرز عن العدس وتضعى كلاً منهما فى جانب من الوعاء. وعليك أن تنهى ذلك العمل قبل عودتى.

ثم قامت المرأة بعد ذلك فلكزت الفتاة فى ظهرها وخرجت مع ابنتها.

كانت الفتاة تحتفظ بديك ودجاجة تركتهما أمها قبل موتها. وعندما جلست المسكينة أمام الوعاء تبكى وتندب حظها العاثر، اقترب الديك والدجاجة من الوعاء وأخذا يلتقطان الحبوب بمنقاريهما. لكنهما لم يبتلعا شيئا من الحب وإنما صارا يفصلان الأرز عن العدس. وأخذا ينقران فى الوعاء بسرعة حتى فصلا كل الكمية الموجودة.

فرحت الفتاة فرحا كبيرا وهرعت إلى الجنية الطيبة فحكت لها ما جرى. مسدت الجنية على رأس الفتاة وقالت لها:

– انتظرى هنا بعض الوقت يا فتاتى كى تتعرفى على بناتى الجنيات الحسان الأربع. ويمكنك الذهاب معهن إلى الحفل فى قصر الملك فقد سمحت لهم بالخروج. لكن قبل ذلك اذهبى إلى المكان الذى وضعتِ به عظام البقرة وجلدها وسوف تجدين هناك مفاجأة بانتظارك.

وهنا ظهرت الجنيات الأربع الحسان وانحنوا باحترام يحيين الجنية الأم.

خرجت ابنة الراعى إلى بيتها مع الجنيات. وكشفت الحفرة التى وضعت بها عظام البقرة وجلدها. وإذا بالجلد قد أصبح معطفا مطرزا بالخيوط الذهبية، وتحولت الحوافر إلى حذاء رائع الجمال، والدم صار ثوبا مدهشا من الحرير. أما العظام الأخرى فأصبحت حليا من الماس والأحجار الكريمة.

ألبست الجنيات الفتاة وجعلنها فى أبهى زينة وأروع هيئة. وبدا وجهها منيرا كالبدر فى ليلة مقمرة. فكان جمالها فاتنا حتى إن الأقلام تعجز عن وصفه، والحكايات تصمت عن قصه.

ذهبت الفتاة إلى الحفل تصاحبها بنات الجنية. واعتقد العاملون بالقصر أن الفتاة ما هى إلا أميرة من الأميرات جاءت من إحدى البلدان البعيدة. فاستقبلوها بحفاوة كبيرة. وأجلسوها فى صالة كبار الضيوف والزوار. أما زوجة الأب وابنتها فظلتا واقفتين عند الباب ولم يدعوهما أحد للدخول.

وتسابق الجميع بالقصر فى تقديم أشهى المأكولات والحلوى إلى الفتاة. فبدلا من الخبز قدموا لها الفطائر المسكرة، وجلبوا لها الشربات والعصائر الحلوة لتشرب منها بدلا من الماء.

وبعد انتهاء الوليمة قامت الفتاة وهى تحمل بقايا الفطائر وألقت بها إلى زوجة الاب عند الباب وهى تقول لها:

– تذوقى من هذه الفطائر.

ولم تتعرف زوجة الأب على الفتاة وأخذت منها بقايا الفطائر شاكرة، وصارت تأكلها بنهم مع ابنتها.

وبعد انتهاء الحفل رافق العاملون بالقصر الفتاة إلى الخارج بكل احترام وتقدير.

ركضت الفتاة مهرولة كى تعود إلى البيت بسرعة. ومن فرط عجلتها فقدت فى الطريق فردة حذاء من قدمها.

وعندما عادت زوج الأب مع ابنتها إلى البيت كانت الفتاة قد سبقتهما إليه وجلست فى الفناء كما لو أن شيئا لم يحدث.

وأخذت زوجة الأب تتحدث مع ابنتها أمام الفتاة حول الحفل فى تباه وتفاخر:

– كم من الأشياء المدهشة رأيناها اليوم فى القصر. والمرح والبهجة يسودان المكان، والولائم الفاخرة الزاخرة بكل أصناف الطعام. فلم نترك صنفا إلا وأكلنا منه. وظهرت هناك إحدى الأميرات جمالها كالبدر تماما. وحديثها يخرج من فمها مثل السكر، بل أحلى من العسل. وأنت تجلسين هنا عاطلة لا تفعلين شيئا. فأين الأرز والعدس؟ ماذا فعلتى بهما؟

حملت الفتاة الوعاء وبه الأرز والعدس منفصلان كل منهما فى جانب. فكادت أنفاس المرأة الشريرة أن تتوقف من شدة الغيظ. ولم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة.

فى صباح اليوم التالى عثرت إحدى النساء فى الطريق على فردة الحذاء الجميلة. فاصابتها الدهشة وقالت:

- ما هذا الحذاء الرائع؟ إننى لم أر فى حياتى من قبل حذاء فى مثل جماله.

ذهبت المرأة إلى القصر وانحنت أمام الملك ثم وضعت فردة الحذاء تحت أقدامه. فقال الملك:

- لابد أن صاحبة هذا الحذاء من أجمل الجميلات.

ثم أصدر الملك أوامره لكل عمال القصر:

- أريدكم أن تبحثوا فى كل أنحاء البلاد وأركانها حتى تعثروا على الفتاة الحسناء صاحبة هذا الحذاء.

كلف عمال القصر اثنتين من العجائز بالمرور على البيوت كلها كى تقيس الفتيات بها فردة الحذاء. لكنهم لم يجدوا صاحبة الحذاء فى جميع البيوت. حتى قالت إحداهما للأخرى:

- لقد بحثنا فى كل البيوت ولم نترك منزلا واحدا.

- لقد نسيت منزل الراعى فنحن لم نذهب إليه بعد.

- إذن، لنذهب إليه على الفور.

عرفت زوجة الاب أن العجوزتين قادمتان إليها. فدفعت بالفتاة إلى حجرة الكرار وأغلقت الباب عليها حتى لا يراها أحد. وزينت ابنتها وألبستها أحسن الثياب.

وجاءت العجوزتان تحملان فردة الحذاء. وجربت ابنة زوجة الأب أن تضعها بقدمها بكافة الطرق بلا جدوى. وقفت العجوزتان وقالتا:

- هذا يكفى. هيا بنا نذهب.

وخرجتا من المنزل. وقبل أن تبتعدا عنه طار الديك والدجاجة وهبطا على الأرض بالقرب منهما وقالا:

- لماذا العجلة؟ لماذا العجلة؟ فمازالت هناك فتاة بالمنزل لم تروها.

قالت إحدى العجائز للأخرى فى دهشة:

- كيف يمكن للدجاج أن يتكلم؟ لابد أن هناك أحد فى المنزل لم نره.

وعادوا مرة أخرى إلى المنزل. وفتحوا باب حجرة الكرار ورأوا الفتاة الجميلة تجلس كالبدر. وجعلوها تقيس الحذاء فكان مطابقا لقدمها كما لو كان مصنوعا لها خصيصا.

أسرعت العجوزتان إلى الملك لتخبراه بالنبأ السعيد وقالت إحدهما:

- أبشر يا مولانا الملك ومر لنا بالهدايا والعطايا. فقد عثرنا على الفتاة الحسناء. ويالها من جميلة ملفوفة القوام. فخداها مثل التفاحتان، وشفتاها مكتنزتان يحيطان بفم صغير كالخاتم. وعيناها نجمتان تتلألآن فى سماء مظلمة. فهى حقا فاتنة الجمال.

أغدق الملك على العجوزتين بالهدايا الثمينة ومضى يعد العدة للعرس والزفاف.

أما زوجة الأب الشريرة فكان الحقد يأكل قلبها والغيظ يتملكها. وأخذت تطارد الديك والدجاجة وهى تصرخ وتقول:

- سوف ألقنكما درسا لا تنسياه.

ثم أمسكت بالطائرين المسكينين وقطعت رأسيهما.

وجاء يوم الزفاف الموعود. فأخذت زوجة الأب تزين ابنتها وتدهن وجهها بالمساحيق والألوان وتكحل عينيها ورموشها. ثم ألبستها أفخر الثياب وعطرتها بالعطور، وفعلت كل ما فى وسعها حتى يعجب الملك بابنتها. وبعد أن انتهت من عملها تسللت بحذر إلى الفتاة ابنة زوجها. ثم انقضت عليها وأمسكتها وانتزعت عينيها ورمت بهما فى صندوق. وساقت الفتاة إلى مستنقع تغطيه الأعشاب الطويلة الكثيفة وعيدان البوص وألقت بها هناك. وبعد ذلك ذهبت مع ابنتها إلى قصر الملك وقدمتها على أنها العروس المنتظرة.

شاهد الملك عروسه وتنهد فى حسرة. فقد كانت قبيحة الهيئة كريهة المحيا حتى إن الملك لم يرغب فى النظر إليها. وفكر فى نفسه قائلا:"قدرى البائس أن أحظى بمثل هذه العروس القبيحة".

لكن الملك لم يستطع إلغاء الزفاف. وأصبحت الفتاة القبيحة زوجة للملك.

كان هناك خياط عجوز يعيش بالقرب من بيت الراعى. وذات يوم خرج العجوز ليقطع بعض عيدان البوص كى يلف عليها الخيط. فذهب إلى المستنقع ورأى الفتاة المسكينة ترقد فى ركن به وهى تبكى بمرارة. فاقترب العجوز منها وسألها:

- لماذا تبكين هكذا أيتها الفتاة الصغيرة؟

وحكت الفتاة للعجوز حكايتها وكل ما جرى معها. فقال لها العجوز:

- ليس لى ابن ولا بنت. وأعيش أنا وزجتى العجوز بمفردنا. تقوم هى بغزل الخيط وأنا أقص القماش وأخيط الثياب. ونعيش من هذا العمل. فكونى ابنة لنا وشاركينا حياتنا.

وأخذ الخياط الفتاة معه إلى منزله. ففرحت زوجته العجوز بها فرحا كبيرا. فقد كانت الفتاة لطيفة مطيعة دمثة الخلق. لا يرغب المرء فى ابنة أفضل منها. وكانت الفتاة عندما تضحك تخرج أزهار الربيع من ثغرها. وعندما تبكى تسقط من عينيها حبات من اللؤلؤ الرائع.

عرفت الجنية أن الفتاة تقيم فى بيت الخياط فذهبت إلى هناك كى تراها. وضحكت الفتاة فخرجت الزهور من ثغرها. وقالت الجنية للخياط:

- اجمع هذه الزهور وسر بها بالقرب من قصر الملك وقل مناديا:"الزهور الزهور، جئت كى أبيع الزهور". وإذا خرجت لك زوجة الملك وسألتك عن ثمنها قل لها:"أنا لا أبيع الزهور بالمال، وإنما مقابل زوج من العيون".

فعل الخياط مثلما قالت له الجنية. فذهب بالقرب من القصر وصار ينادى بصوت عال قائلا:

- الزهور الزهور، جئت كى أبيع الزهور.

وخرجت زوجة الملك إلى الشرفة وسألت:

- كم تساوى هذه الزهور؟

- الزهور تساوى زوجا من العيون - قال الخياط.

وهنا تذكرت زوجة الملك أن عينى ابنة الراعى موجودتان بالصندوق. فأحضرتهما وأعطتهما للخياط مقابل الزهور.

عاد الخياط إلى منزله. وفى المساء حضرت الجنية وأخذت العينين فأعادتهما إلى وجه الفتاة ودهنتهما بمرهم سحرى.

وفى الصباح استيقظت الفتاة لتجد عينيها تتفتح وترى ما حولها وهما يشعان بالبريق والنور. فبكت الفتاة من الفرح فخرجت من عينيها لؤلؤة ثمينة سقطت فى عبها. وضحكت الفتاة فصارت أزهار الربيع تخرج من فمها.

أخذ الخياط كل يوم يجمع اللآلئ الثمية والزهور ويخرج لبيعها. وسرعان ما صار من الأثرياء. فبنى الكثير من المنازل الجميلة. وحفر القنوات لتصل المياه إلى السهول القاحلة فأحياها وزرعها لتصبح مروجا خضراء. وجفف المستنقع وحوّله إلى حديقة غناء.

وفى أحد الأيام خرج الملك بتفقد الأحوال فى مملكته. فرأى السهول القاحلة وقد تحولت إلى حدائق وحقول خضراء تغرد فيها البلابل والطيور. وفوق التلال ظهرت بيوت جميلة يسكنها الناس. فسأل الملك فى دهشة وقال:

- من الذى عمّر هذه الأراضى وحولّها إلى هذه الجنة الفيحاء؟

- كل هذا من صنع الفتاة الجميلة ابنة الخياط العجوز - أجاب الناس.

صار الملك يفكر ليل نهار فى ابنة الخياط: "لو أننى أستطيع النظر إليها ولو لمرة واحدة لكنت مت وأنا غير آسف ولا حزين".

وفى يوم خرجت الفتاة إلى الصيد ترافقها أربعون فتاة. وسار الجميع يمتطون جيادا سوداء فاحمة حتى وصلوا إلى شاطئ النهر. وكان الملك وقتها يصطاد على

الشاطئ الآخر، وعندما رآها الملك صعق من جمالها الباهر حتى إنه غاب عن الوعى وسقط من فوق جواده

أسرعت الفتاة إلى الملك وجلست بجانبه حتى أفاق من إغمائه. وساعدته فى العودة إلى القصر. وفى طريق العودة قالت الفتاة للملك:

– أرجو يا مولاى أن تشرفنى وتقبل دعوتى لك ولجميع الوزراء وأهل القصر بالحضور إلى منزلى.

– حسنا وأنا أقبل الدعوة – قال الملك.

وفى اليوم المحدد للدعوة أمرت الفتاة بذبح أربعين خروفا والإعداد لوليمة من أطيب المأكولات والأطعمة. واستقبل الملك فى أجمل صالات المنزل. ومدت الولائم الفاخرة له وللحاشية التى جاءت معه. وفى منتصف الليل دخلت الفتاة وعلى وجهها خمار يغطيه وتحمل بيدها قيثارة. وجلست أمام الملك وضيوفه وأخذت تعزف عليها وتحكى حكايتها على أنغامها. وبعد أن انتهت من السرد رفعت الخمار عن وجهها وتلألأت عيناها كالنجوم تشع بالنور والضياء.

اندفع الراعى إلى ابنته وأخذ يعانقها والدموع تنهمر منه وقال:

– اغفرى لى يا ابنتى الحبيبة. لقد كنت أعمى ولم أدر بشىء مما كان يجرى حولى.

أما الملك فقد تملكه الغضب وأمر بقطع رقبة زوجته وأمها الشريرة. لكن ابنة الراعى توسلت إليه ورجته قائلة:

– لا داعى لقتلهما يا مولاى. من الأفضل أن تطردهما وتنفيهما من هنا. كى تعيشا وحيدتين بقية عمرهما.

وافق الملك على طلب الفتاة وطرد زوجته وأمها من البلاد.

وهكذا تحققت أمانى ابنة الراعى وأحلامها.

* * *

البساط السحرى



فى زمن من الأزمنة القديمة، فى مدينة نور العباد عاش رجل عجوز مع زوجته العجوز. وعاشا الاثنان معا سنين طويلة دون أن يرزقا بأبناء أو بنات. وعندما بلغ الرجل الخمسين من عمره وبلغت زوجته الأربعين من عمرها رزقهما الله أخيرا بولد.

كان ميلاد الابن إيذانا بميلاد مسئوليات وهموم جديدة فى حياتهما. تمثلت تلك المسئوليات فى توفير طعامه وشرابه ووضعه بفراشه للنوم، والعناية به، ومداعبته وتسليته. خلاصة الأمر أن العجوزين انشغلا كلية بتربية ابنهما.

ومر الزمن حثيثا وكبر الولد. وعندما بلغ عمر الدراسة أرسلوه إلى الشيخ المعلم ليقوم بتلقينه العلوم. وبدأ الشيخ يعلمه القراءة والكتابة. وأصبح الولد فى كل صباح

يضع كتابه وكراسته وقلمه الخشبى فى حقيبته، ويحملها على كتفه ويخرج إلى المعلم ولا يعود إلى المنزل إلا فى الظهيرة.

كان الولد ذا عقل راجح وموهبة ظاهرة. واستوعب دروسه جيدا. واستطاع فى زمن وجيز أن يلم بأسرار العلوم كافة. وصار يطلّع بنفسه على مختلف الكتب والمؤلفات العلمية. وكان يلجأ إلى معلمه أو لغيره من العلماء والعارفين إذا صادفته كلمة أو تعبير غير مفهوم له ليفسرو له معنى الكلمة أو التعبير. وعندما بلغ الولد العشرين عاما من عمره أصبح شابا ملما بكافة العلوم والمعارف المختلفة.

فى أحد الأيام قابل الشاب رجلا كهلا وصار يحاوره ويناقشه لمدة طويلة. قال الكهل للشاب الكثير من المواعظ والنصائح والتعليمات. وفسر له معانى الكلمات السحرية والتعاويذ التى تصنع المعجزات والعجائب. ثم أعطاه هدية تذكارية عبارة عن بساط صغير. أخذ الشاب الهدية من الكهل وشكره وقال:

- أشكرك كثيرا أيها الوالد. وسوف يذكرنى دائما هذا البساط بك وبمواعظك الحكيمة.

حينئذ أضاف الكهل قائلا إن البساط يتميز بقوة مذهلة خارقة. وقال له نصيحة أخرى:

- لقد أصبحت الآن شابا ناضجا كل النضج. وحان الوقت كى تتخذ لك زوجة. فاطلب من والديك أن يزوجاك من ابنة الملك. وإذا وضعوا العراقيل أمامك واقترحوا لك زوجة أخرى فلا تقبل. وقل لهما: كلا، لن أتزوج سوى ابنة الملك، فاذهبا واخطباها لى.

أخذ الشاب البساط من الكهل يتفحصه ثم التفت إليه فلم يـر للكهل أثرا كما لو كانت الأرض انشقت وابتلعته.

كان ذلك البساط السحرى بالفعل يتميز بقدرة سحرية مذهلة: فيكفى أن ترغب فى الذهاب إلى أى مكان أو طرف فى العالم، فينقلك البساط إليه فى لمح البصر. لتحقيق ذلك ينبغى أن تجلس عليه وتقول له:

- يا بساطى يا بساطى

اسمع تلك الكلمات

مثل خصلة فى الرياح

طر بى فى النور المباح

وفى هذه اللحظة سوف يطير البساط إلى أعالى السماء ويذهب إلى أى مكان فى العالم أو أى مدينة ترغب فى الذهاب إليها. وبعد الوصول إلى المكان المطلوب يكفى أن تقول له:

يا بساطى السحرى

كن كريما كن سخى

ولتصبح منديلاً مطوى

وحينئذ سوف يتحول البساط إلى منديل صغير.

بعدما افترق الشاب عن الكهل لم تتح له الفرصة أن يجرب البساط السحرى ولو لمرة واحدة كى يتأكد من صدق رواية الكهل له.

وفى المساء بعدما تناول الشاب طعام العشاء قال لأبيه وأمه:

– أنتما أحب الناس إلى قلبى، فقد ربيتمانى، وأطعمتمانى وسقيتمانى، وأصبحت بفضلكما شابا يافعا. والآن لى عندكما رجاء وطلب آخر ، أن تزوجانى.

– حسنا يا بنى – قال العجوز والعجوزة – من الغد سوف نبحث لك عن عروس.

– ومن التى تفكرون أن تخطبوها لى؟

– سوف نختار لك فتاة جميلة حسنة الأخلاق والتربية، من أسرة كريمة ذات حسب ونسب لتصبح عروسا لك.

– كلا – قال الابن رافضا – أريدكم أن تخطبوا لى ابنة الملك.

– ما هذا الذى تقوله يا بنى؟ نحن أناس معدمون، فهل يعقل أن مولانا الملك يقبل أن يناسب رجلا فقيرا مثلى؟ كما أنه سوف يطلب مهرا ضخما لابنته. فمن أين لنا تلبية طلبه وإحضار مثل هذا المهر؟ إنك تتمتع بقسط وافر من الذكاء والفراسة ولابد أنك تدرك بذكائك ماذا يمكن أن يصيبنا من جراء هذه الفكرة الحمقاء.

- أنا أدرك كل ما تقوله يا والدى. وعلى الرغم من ذلك أريدك أن تخطب لى ابنة الملك ولنرى ما الذى سوف يجيب به عليك. وسوف أستطيع أن أدبر أمرى - قال الشاب.

- يا بنى، إن الملك سوف ينادى على السياف لى فور أن يسمع طلبى لخطبة ابنته.

- لا تخشى شيئا يا والدى. اذهب إليه واسمع لما يقوله ردا على طلبك.

- حسنا يا بنى. وافق العجوز.

فى اليوم التالى حضر الشاب فى المساء وسأل والده:

- أخبرنى يا والدى، هل ذهبت إلى الملك؟

- كلا يا ولدى، لقد تملكنى الخوف ولم أذهب - أجاب العجوز.

ومر اليوم الثانى ولم يستطع العجوز أن يذهب من شدة خوفه. فقد كان يرتعد من فكرة الوقوف بين يدى الملك المهيب. لكن العجوز قام فى اليوم الثالث فعزم أمره واتجه إلى القصر. وبعد أن وصل إلى فناء القصر أخذ يغسله بالمياه ثم عاد إلى منزله. وفى اليوم التالى كرر العجوز ما فعله سابقا وصار يغسل الفناء. وفجأة خرج إليه خدم الملك وأمسكوا به وجرجروه أمام الملك.

- من أنت أيها العجوز؟ وما الذى أتى بك هنا؟ وماذا تفعل عندى؟- انهال الملك بالأسئلة على العجوز بصوت جهورى مخيف.

- يا ملك العالم المبجل، أيها السلطان العظيم، لقد أتى عبدك الفقير كى يقوم بخدمتكم ويموت تحت أقدامكم. إن لدى ابن شاب وهو عبدكم الصغير الضعيف، وقد جئت كى أ..خ..ط..ب.. ا..بنت..كم ..له.

وهنا تجمد العجوز من الرعب ووقف كالتمثال المتحجر ولم ينطق بكلمة أخرى.

أما الملك فقد أصابته الدهشة والذهول. واحمر وجهه من الغضب. وجحظت عيناه من محجريهما من الحنق والثورة وصرخ قائلا:

– أين الجلادين؟

فى لمح البصر وقف ثلاثة من السيافين أمام عرش الملك. وسجدوا راكعين أمام الملك وقالوا فى صوت واحد:

– إن سيوفنا تصلصل فى انتظار إشارتكم لها، فليرتعد الأشرار الجبناء من سيوفنا البتارة. من الوغد الذى جرؤ على إغضابكم واستنفاذ صبركم يا مولانا المعظم؟ أشيروا عليه فتدنو ساعته وتطير رقبته.

أمر الملك بصوت مخيف قائلا:

– أمسكوا بهذا العجوز، فقد جاء ليموت فى قصرى. فهو يعتقد أن فناء القصر تنقصه النظافة. آمركم بقطع رأس هذا الوغد، وليراها الجميع حتى يكون عبرة لكل من يدس أنفه فى المكان غير المناسب.

أمسك الجلادون بالعجوز وساقوه إلى باب القصر.

كان فى القصر وزير ذو عقل راجح حكيم. أراد الوزير أن يعرف الذنب الذى اقترفه الرجل العجوز. فصرخ الملك ثائرا على الوزير وقال:

– ما الذى تريد معرفته أيها الوزير؟ هل تريد منى أن أزوج ابنتى لابن هذا العجوز المخرف؟

– يا حاكم العالم – قال الوزير وهو يركع أمام الملك بإجلال – لماذا تريقون دم هذا العجوز الفقير؟ أليس من الأفضل أن تضعوا له شروطا ومطالب صعبة المنال؟ سوف يعجز عن تحقيقها وحينئذ سوف يكف عن المجىء إليكم.

– إذن فلتفكر أنت أيها الوزير فى مطلب صعب المنال وتخبره به – وافق الملك على نصيحة وزيره.

استوقف الوزير الجلادين وحرر العجوز من السلاسل التى ربطوه بها وقال له:

– اذهب على الفور أيها الوالد إلى بيتك، واطلب من ولدك أن يسافر إلى قرية بيت كورجان حيث يوجد فى الجانب الشرقى منها مخبز كبير يقع تحت الأرض. فى هذا

المخبز يعيش رجل عجوز مع زوجته العجوز. وهما لا يخرجان معا من المخبز. بل يخرج كل منهما بمفرده تاركا الآخر بالمخبز. ومن يخرج منهما تراه يرتدى الرداء نفسه الذى يرتديه الآخر. أريد من ولدك أن يخبرنا لماذا يعيش العجوز وزوجته فى هذا المخبز وليس فى منزل عادى مثلهما مثل جميع الناس الشرفاء؟ ولماذا يخرج كل منهما وهو يرتدى الرداء نفسه؟ هل السبب فى ذلك أنهما يمتلكان ملابس متماثلة؟ أم لأنهما لا يملكان سوى رداء واحد؟ وإذا نجح ابنك فى تفسير كل تلك الأمور فسوف يزوجه الملك من ابنته.

عاد العجوز إلى بيته وقص على ابنه كل ما جرى.

فى صباح اليوم التالى طلب الابن من والديه أن يباركاه فى رحلته ويتمنيا له سفرا موفقا. وخرج إلى الطريق فبسط المنديل وما إن نطق بالتعويذة السحرية حتى أصبح البساط السحرى جاهزا. ثم حلق به عاليا وفى لمح البصر كان الفتى قد وصل إلى قرية بيت كورجان. وسرعان ما عثر على المخبز الكبير فى طرف القرية. اقترب الفتى من المخبز وجلس قبالته منتظرا. وعند الظهيرة خرج من المخبز رجل عجوز ذو لحية بيضاء يرتدى رداء قديما. خرج العجوز فقضى حاجته ثم توضأ بالماء واختفى ثانية داخل المخبز. مر وقت قليل حتى خرجت العجوز من المخبز وهى ترتدى الرداء نفسه الذى كان العجوز يرتديه. وقضت هى الأخرى حاجتها وتوضأت ثم عادت ودخلت المخبز.

مرت ساعة فثلاث فأربع والفتى مازال جالسا فى مكانه لم يتحرك. وعندما حان وقت صلاة العصر خرج العجوز ذو اللحية البيضاء وتوضأ مثلما فعل من قبل. ثم عاد ودخل المخبز. ولم يمر وقت طويل حتى خرجت المرأة العجوز وتوضأت ثم عادت إلى المخبز.

فى اليوم التالى عند الظهيرة، جلس الفتى فى المكان نفسه قبالة الفرن يراقب المدخل. وعندما خرج العجوز اقترب الفتى منه وانحنى أمامه باحترام وسأله عن سبب بقائه بالمخبز مع العجوز. ولماذا يرتديان الرداء نفسه عند خروجهما منه.

- دعنى فى حالى يا بنى - قال العجوز ذو اللحية البيضاء - ولا تشغلنى عن أمورى المهمة. فليس من الجيد أن أترك الصلاة من أجلك.

لكن الفتى تعلق بالعجوز بقوة ولم يتركه.

- لابد أن تخبرنى أيها الوالد، فأنا لن أذهب من هنا حتى أعرف - أصر الفتى.

رفض العجوز أن يحكى شيئا. لكن الفتى استمر فى إلحاحه. وعندما رأى العجوز أن الفتى لن يتراجع عن طلبه فكر قليلا وقال:

- سوف أطلب منك شيئا لو استطعت القيام به فسوف أحكى لك عن كل شيء. وإن لم تستطع فلا تعذب نفسك وتتعبنى معك.

- ما الذى تريد منى أن أفعله؟- سأل الفتى.

- فى مدينة كارابولاك عند المقابر يوجد كوخ صغير. فى هذا الكوخ يعيش حارس عجوز يبكى طوال الليل والنهار. اذهب إلى تلك المدينة واسأل الحارس العجوز إن كان له أقارب يعيشون بالمدينة. ولماذا يبكى ليل نهار؟ وعلام يقتات؟ وإذا عرفت كل شيء فسوف أكشف لك عن جميع أسرارى.

جلس الفتى فوق بساطه السحرى وطار به إلى مدينة كارابولاك. وبحث بين المقابر حتى عثر على العجوز فى كوخه فدخل عليه وحياه. دعاه العجوز بلطف إلى الجلوس وصار يتطلع إليه بفضول.

- مرحبا بك يا بنى - حياه العجوز - من أين قدمت؟ ولماذا أتيت؟

إنى أعيش فى مدينة نور العباد. وقد سمعت عنك الكثير وجئت هنا كى أتحقق من صدق ما يقولونه. فأرجو أن تخبرنى لماذا تبكى طوال الوقت؟ وتجيبنى على سؤالين أو ثلاثة على الأكثر.

- كفى يا بنى - قال العجوز - لا تقطع على بكائى واتركنى فى حالى. ولا تصدع لى رأسى بأسئلتك الكثيرة. فكلها معروفة لى. لقد جاء إلىّ الكثيرون مثلك من قبل ولم ينجح أحد منهم فى معرفة شيء. ويرحل الجميع من هنا كما وصلوا.

- أيها الوالد، لا تقارنى بمن جاءوا من قبل. فأنا لن أرحل من هنا ما لم أحصل على الإجابات التى أريدها - أصر الفتى.

وإزاء إصرار الفتى وعزمه قال العجوز:

- حسنا يا بنى، إن لى طلبًا لو استطعت تنفيذه سوف أجيبك عن كل الأسئلة.

- قل لى ما الذى تريده وأنا ألبيه لك - قال الفتى.

- يعيش أحد الخبازين فى مدينة أكبولاك - قال العجوز - ويوجد فى مخبزه عشرون موقدًا للخبز. فى كل يوم من الصبح إلى الظهر تشتعل المواقد على أرغفة الخبز. وهو لم يبع ولا مرة رغيفا واحدا لأحد. وبعد الغذاء يشرعون فى تنظيف المخبز ويجمعون أرغفة الخبز التى خرجت من المواقد عبر اليوم ويحملونها على عربات الكارو. وفى كل يوم يقومون بتحميل عشرين عربة على الأقل. ويجلس صاحب المخبز فى أول عربة. ثم يعطى الإشارة لبقية العربات أن تتحرك. وتمضى العربات على الطريق حتى تصل إلى شاطئ النهر. وما إن تصل العربات إلى الشاطئ حتى يأمرهم صاحب المخبز أن يلقوا بالخبز فى النهر. وعندما يفرغون من إلقاء كل الخبز فى الماء يعودون ثانية إلى المدينة. ومنذ سنوات والخباز لا يفعل شيئا سوى ذلك الأمر. وفى هذا المخبز يعمل يوميا عدد من الخبازين يتراوح ما بين سبعين إلى ثمانين خبازًا. وجميعهم يقبضون رواتب وأجور. كما يتطلب الفرن يوميا مائة جوال من الدقيق لأجل الخبيز. فاذهب إلى تلك المدينة واسأل الخباز عن الفائدة التى يجنيها من رمى هذه الكمية الكبيرة من الخبز كل يوم فى مياه النهر.

فرد الفتى بساطه السحرى وانطلق به إلى مدينة أكبولاك فوصلها فى لمح البصر. وبحث فى المدينة حتى وجد الخباز. فوقف بالقرب من المخبز يراقب عمل الخبازين داخله. كان الخبازون يحملون أرغفة الخبز الطازجة فوق عربات الكارو. ثم جلس صاحب المخبز فوق العربة الأولى وانطلقت القافلة تسير صوب النهر. وركب الفتى فى العربة الأخيرة من القافلة. وما إن وصلت القافلة إلى النهر حتى أمر صاحب المخبز بإلقاء الخبز فى الماء.

في صباح اليوم التالي خرج الفتى إلى المخبز ودخله. فرأى الخبازين يقفون أمام المواقد العشرين يرصون الخبز. وفي وسط المخبز مصطبة فرد عليها بساط أحمر كبير يحمل وسادة ضخمة من الريش يجلس فوقها رجل بدين يبلغ الخمسين من العمر. كان هذا الرجل هو صاحب المخبز. صعد الفتى إلى المصطبة وانحنى أمام الرجل يحييه. فدعاه صاحب المخبز إلى الجلوس وطلب له الشاى. ثم قطع رغيفًا من الخبز الساخن إلى قطع صغيرة وقدمها على صينية إلى الفتى.

– تفضل أيها الضيف وكل بعضا من الخبز الساخن مع الشاى.

– لقد سمعت عنك الكثير في مدينتي – قال الشاب – ولذا جئت بنفسي كي أرى بعيني وأتأكد من صدق ما سمعته. وها أنا أرى أن ما سمعته هو الحقيقة بعينها. يقولون إنك تقوم بهذا العمل منذ خمس وعشرين عامًا مضت. فمن أين لك المال اللازم لهذا العمل؟ ولماذا تلقى بهذه الثروة في الماء؟

– للأسف أيها الفتى الشجاع، لو أنك تحتاج إلى المال أستطيع أن أعطيك منه ما تريد. ولو أنك طلبت مني أي شيء لفعلته لك، عدا الحديث عن هذا الأمر فلن أخبرك عنه ولن أنطق حتى بكلمة واحدة.

– اسمعني أيها الخباز، لقد قررت أن أعرف السر مهما كلفني الأمر. لكن هذا الأمر بالطبع لن يتحقق بدونك. حيث إن مفتاح بوابة أحلامي يقع بيديك. ويتوقف مستقبل كل شيء لي على إجاباتك. فأرجو أن تسعدني بالإجابة على أسئلتي.

حينئذ قال الخباز:

– إن لي مطلبًا واحدًا، لو استطعت تحقيقه فسوف أحقق لك رغبتك. وإن لم تحققه فالذنب ذنبك في هذه الحال.

– قل لي ما هو مطلبك؟– سأل الفتى.

– في مدينة خراسان يعيش رجل يعمل سرّاجا. طوال عام كامل من العمل يصنع هذا السراج سرجا واحدا فقط. وعندما ينتهي من صناعته يبيعه لقاء ألف درهم. ويعطيه الشارى النقود ويأخذ منه السرج ويرحل. فينظر السرّاج إلى المال، وفجأة

يمتقع وجهه، وينهمر العرق البارد على جبهته، وتشتعل عيناه سخونة ويقفز من مكانه ينادى على الشارى ويستوقفه. فيستعيد منه السرج ويعيد له المال."ماذا حدث؟" - يسأل الشارى فى دهشة وذهول."هناك جزء غير مكتمل فى السرج"- يجيب السرّاج."حسنا، فلتكمل الجزء الناقص، واحتفظ بالمال معك". "لا، لن آخذ المال"- يقول السرّاج ويحمل السرج إلى داره ويضعه على جزلة من الخشب، ثم ينهال عليها تمزيقا وتقطيعا بالبلطة. حتى لا يتبقى منها سوى مزق صغيرة. إن هذا السرّاج يعمل طوال عام كامل من أجل أن يصنع سرجًا واحداً. وفى لحظة خاطفة يحطم بيديه ما عمله. فلماذا لا يشفق على جهده الضائع؟ وما السر فى ذلك؟ فهو يحطم ما يصنع، ثم يصنع ثانية ليعود ويحطم ما صنعه. فإذا استطعت أيها الفتى أن تسافر إلى خراسان وتكشف سر هذا الأمر وتعرف لماذا يصنع الشىء ويدمره. حينذاك سوف أحقق لك رغبتك.

ودع الفتى الخباز ورحل. ثم خرج من المدينة وجلس على بساطه السحرى وفى لحظة وصل إلى مدينة خراسان. عثر الفتى على ورشة السرّاج ودخل إليها. وكان السرّاج فى هذه اللحظة قد انتهى لتوه من صنع سرجٍ لم ينقصه سوى بعض التشطيبات الصغيرة. بعد مرور يومين كان السرج جاهزا. وأخذ السرّاج يتفحصه وهو يبدى إعجابه ورضائه بما صنعته يداه. فقد كان السرج بالفعل رائع الجمال متقن الصنع. وكان الكثير من العابرين يتوقفون للفرجة على السرج وتثمينه.

وعند الظهيرة ظهر ابن أحد كبار التجار وسأل:

- أيها الوالد، كم يساوى هذا السرج؟

- ألف درهم.

- إن هذا كثير للغاية.

- إن كنت تستطيع تقدير الأشياء الثمينة فخذه نظير الألف درهم. وإن لم تأخذه فلن أخسر شيئا وليبق عندى السرج.

- فلتتنازل بعض الشىء وتقول ثمنا معقولا له - حاول الابن مجددا أن يساوم.

- هذا الثمن نهائى لا رجعة فيه. وإن كنت لا تستطع دفعه فلا تأخذ السرج.

فى النهاية دفع ابن التاجر ألف درهم واشترى السرج من الرجل. بعد ذلك رحل الشاب وأخذ السرج معه. قبض السرّاج على المال فى يده وامتقع وجهه واصفر واحمرت عيناه وقفز من مكانه يصرخ وينادى على الشارى. توقف ابن التاجر وعاد إلى السرّاج.

- خذ مالك وأعد إلىّ السرج - قال السرّاج.

- لماذ؟ - قال الشاب بدهشة.

- يوجد جزء فى السرج لم يكتمل، ويجب أن أكمله.

- حسنا، احتفظ بالمال معك حتى تكمله.

- كلا، خذ المال.

أخذ السرّاج السرج وعاد به إلى ورشته. وعندما رحل الشارى، حمل السرّاج بلطته ومزق بها السرج إلى قطع صغيرة.

وفى اليوم التالى بدأ السرّاج فى صناعة سرج جديد.

حينئذ دخل الفتى على السراج فى ورشته. وبعد تبادل التحية قال له:

- أيها الوالد العزيز، لقد سمعت عن أعمالك وأمورك هنا. ولم أصدق ما سمعت حتى جئت بنفسى ورأيت بعينى كيف أنك تصنع الشىء وتبيعه، ثم تستعيده مرة أخرى وتمزقه إربا. وتبدأ الآن ثانية فى صناعة واحد آخر. حتى يأتى اليوم الذى تمزقه فيه هو الآخر. أنت تعمل طوال عام كامل، ألا تشفق على جهدك الضائع؟

- لا تعطلنى عن العمل أيها الفتى واتركنى لحالى.

- كلا أيها الوالد، لن أتركك فى حالك حتى تحكى لى عن السبب.

- ليس لدى الوقت الكافى لأحكى لك عن هذا الأمر.

- أرجوك أن تحكى لى - توسل الفتى راجيا.

عندما رأى السرّاج أن الفتى يلح ولا يتراجع قال له:

- سوف أحكى لك بشرط واحد، وهو أن تحل لى لغزا لا أعرف له حلا.

- ما هو اللغز أيها الوالد؟ - قال الفتى.

يقولون إن مدينة شيرآباد بها ملك جبار يدعى سانوبار. منذ سنوات عديدة أعجبته بنت صغيرة عمرها خمس سنوات واسمها جول. فأقنع أسرتها أن تعطيها له كى يربيها. ووفر لها من المربيات الجيدات والخادمات أكثر مما تحتاج. ولم يبخل عليها بشىء فى سبيل تربيتها كى تصبح مثل الأميرات. وكبرت جول مثل الأميرات وبلغت أخيرا سن النضج والرشد. فتزوج الملك منها وأقام الأفراح فى كل البلاد. وبعد مرور الوقت صارت الأقاويل والنمائم تنتشر وتقول إن الملك سانوبار يحبس الأميرة جول المسكينة فى قفص من الحديد. فما السبب الذى جعله يعذبها هكذا؟ ولماذا لا يطلقها ويسمح لها بالعودة إلى أهلها؟ فاذهب يا بنى إلى مدينة شيرآباد وإذا نجحت فى الكشف عن هذا السر، سوف أكشف لك بدورى عن سرى أيضا.

قام الفتى فودع السرّاج. وخرج من المدينة. وجلس فوق بساطه السحرى ليصبح فى لمح البصر أمام مدينة شيرآباد. تقدم الفتى إلى المدينة فرأى أمامه قلعة شامخة. على أسوارها يقف حراس أشداء. والعسكر يسيرون من الأمام ومن الخلف وهم يحملون الحراب فى أيديهم والأقواس والسهام على ظهورهم.

عاش الفتى فى المدينة لعدة أيام. وصار يطوف بالأماكن المختلفة ويتسمع إلى ما يقوله ويردده الناس. وتعرف على حياة المواطنين فيها، وعلى الأمور الطيبة والسيئة التى تجرى بالمدينة. كل هذا وهو لا يكف عن التفكير فى طريقة تسمح له باختراق قصر الملك سانوبار.

ذات يوم تعرّف الفتى على طباخ البلاط الملكى. وبفضل تزكيته له استطاع الفتى أن يعمل مساعدا للطباخ فى مطبخ القصر. أخذ الفتى يعمل فى المطبخ باجتهاد ومثابرة شديدة لمعرفة كافة أسرار الطهى والمأكولات. وسرعان ما برع فى فنون الطهى بأشكالها. وكان يقوم بتنفيذ كل ما يطلب منه ولا يمتنع عن أى عمل يكلف به مهما كان شأنه. فكان يقطع الخضروات ويحمل الماء ويشعل الفرن. وبفضل مهارته وسرعة تلبيته

لكافة الأوامر، حاز الفتى على إعجاب جميع الطهاة وحبهم. حتى أصبح مساعدا لكبير الطهاة الذى كان يعد طعام الملك سانوبار. وعندما كان الفتى يقوم بالطهى وإعداد الطعام كان مذاقه أفضل من طعام كبير الطهاة نفسه. وفى نهاية الأمر كلفه كبير الطهاة بإعداد الطعام وطهيه. أما هو فاكتفى بالمرور فى المطبخ وإعطاء التعليمات.

وفى يوم من الأيام سافر كبير الطهاة لحضور زفاف أحد أقاربه. وقبل سفره كلف الفتى بإعداد الطعام للملك.

فى اليوم التالى أبدع الفتى فى الطهى واستخدم كل فنونه ومهارته. وقام بتقديم وجبات الإفطار والغذاء والعشاء فى المواعيد المتبعة بدقة متناهية. وكانت الأطباق التى يقدمها يتميز كل منها عن الآخر بمذاق مختلف ونكهة خاصة. بعد انقضاء اليوم عاد كبير الطهاة من سفره وقام بنفسه بإعداد الطعام للملك وبعدما تناول الملك طعام الغذاء طلب كبير الطهاة وقال له:

– من الذى قام بالأمس بإعداد طعام الإفطار والغذاء والعشاء؟

خاف كبير الطهاة من الملك وقرر ألا يقول الحقيقة فأجاب:

– أنا الذى أعددته بنفسى يا ملك العالم.

– اعترف ولا تكذب.

– أنا الذى طهوته – أصر كبير الطهاة.

– لا تكذب، بالأمس كان هناك طاه آخر.

– ارحمنى يا سيد الملوك واعفو عنى، وأنا سوف أعترف لك بالحقيقة – توسل كبير الطهاة راجيا.

– عفوت عنك – قال الملك.

– يا مولانا العظيم، منذ عام مضى التحق معنا للعمل فى المطبخ شاب. وأصبح يعمل معى الآن. ذلك لأنه مجتهد للغاية وموهوب فى عمل كل شىء، وقد تعلم كافة فنون الطهى وأصوله أكثر من أى أحد آخر.

– إذن بعد أن كان الفتى تلميذك الذى يتعلم منك، أصبح عليك الآن أن تصبح تلميذه وتتعلم منه. ذلك لأنه صار أفضل منك فى الطهى وإعداد الطعام. ابعث لى بهذا الفتى على الفور – قال الملك.

أسرع كبير الطهاة إلى المطبخ وقال:

– أبشر أيها الفتى الهمام، لقد أتاك الحظ وحالفك، فالملك بنفسه يريد أن يراك. وإذا قام بتعيينك كبيرا للطهاة فأرجوك ألا تنسنى. فأنا الذى قمت بتعليمك وتلقينك فنون الطهى.

– اطمئن بالا. فقد قدمت لى الصنيع وساعدتنى كثيرا ولن أنسى لك هذا أبدا – طمأن الفتى الطباخ وذهب إلى القصر. وعبر أثناء دخوله بحراس أشداء يقفون عند الباب وهم يحملون الحراب فى أياديهم. ثم مر بالحراس الشخصيين للملك، ومئات من العسكر والضباط الصارمين من مختلف الرتب. وسار بشجاعة فوق المشى الفاخر والبساط المخملى حتى وقف أمام الملك. جلس*سانوبار على عرشه الفخم وهو يرتدى تاجه الذهبى المزين بالألماظ والزمرد والأحجار الكريمة.

سجد الفتى أمام الملك ثلاث مرات، وقبّل الأرض تحت أقدامه. وتجمد وهو مطرق الرأس لأسفل.

– إذن أنت هو الطاهى الصغير؟ – سأل الملك.

– نعم يا مولاى – أجاب الفتى.

– هل لديك أهل أيها فتى؟

– لدى يا مولاى.

– هل هم طاعنون فى العمر؟

– نعم، لقد طعنوا فى العمر.

– لقد عرفت أنك تخدم هنا بإخلاص ومهارة.

– أنا أقوم بواجباتى فقط يا مولاى. أجاب الفتى.

– اطلب منى ما تصبو إليه روحك وأنا أحققه لك – قال الملك.

– يا مولاى، أنا مازلت فى مقتبل العمر، ولم أجرب حلاوة الحياة بعد، فما الذى يمكن أن أتمناه؟

– اطلب ولا تخجل، فلكل إنسان أمنية يرغب فى تحقيقها – أصر الملك.

– أنا مازلت شابا ولا أتعجل الثراء، لكن لدى طلب واحد، وهو أن تفسروا لى أمرا يستعصى علىّ فهمه. هذا إذا قبلتم – قال الفتى.

– أى أمر تريد أن أفسره لك؟– سأل الملك.

– لماذا تحبسون زوجتكم جول فى قفص من الحديد؟

– ما هذا الذى تقوله أيها الفتى؟ – ثار الملك غاضبا – لماذا تدس أنفك فى مثل هذه الأمور؟ اطلب ما شئت من المال أعطيك منه.

– ليس لى طلب يا مولاى سوى هذا الأمر – قال الفتى – فإذا كنتم تريدون تحقيقه فتكرموا علىّ واشرحوه لى. وليس لى أية رغبات أخرى سوى العمل فى مطبخكم الذى هو متعة كبير بالنسبة لى.

نادى الملك سانوبار على رئيس البلاط وقال له:

– خذ هذا الفتى معك واذهب به إلى قصر نازيدان.

سار الفتى مع رئيس البلاط فى حديقة القصر المغطاة بالنجيلة الخضراء مثل البساط الناعم. وتفوح فيها رائحة الأزهار الزكية من كل نوع ولون. وتقفز الطيور من غصن إلى آخر كما لو كانت ترقص مع بعضها رقصة مرحة رشيقة. وببغاوات بألوانها الزاهية تتعالى أصواتها بالغناء وهى تقلد أصوات الطيور. وتقف البلابل أزواجا خلف الأغصان الخضراء وهى تصدح فى هديل رائع محبب للنفس. كان المنظر يبعث على السرور والبهجة فى القلوب. وكانت الطيور أليفة بدرجة كبيرة. فقد اعتادت الناس حتى

إنها كانت تحط على رءوسهم وأكتافهم. ثم تسمع في أركانها خرير الماء ينساب فوق السواقى في خيوط مضيئة شفافة. وتفوح في الهواء رائحة الزهور وتمتزج بالهواء النقى العليل. هنا يمكن للمرء حقا أن يخلد للراحة وأن يستمتع بالهدوء والنقاء. هنا إن أتوا برجل ميت فلابد أن يبعث إلى الحياة ثانية ويبرأ من علته.

– يا لها من حياة رائعة هنا – قال رئيس البلاط للفتى – انظر إلى هذه الحديقة الباهرة. لو قضى بها المرء يومًا واحدًا يصغر عمره خمس سنوات.

عبرا الحديقة حتى وصلا إلى بوابة قصر نازيدان ودخلا منها. وهنا ارتعد الفتى من الهلع لما رآه وتجمد وجهه من الرعب وهو ينظر غير مصدق لما يشاهده. فكلما حرك رأسه إلى ركن اصطدمت عيناه برءوس مقطوعة معلقة تتأرجح في الهواء. كانت الرءوس في كل مكان. سأل الفتى بصوت متحشرج من الخوف:

– لمن هذه الرءوس يا سيدى الرئيس؟ من كانوا هؤلاء الناس؟ ولماذا قطعت رءوسهم وعلقت هنا؟

– هذه رءوس الحمقى من أمثالك – قال رئيس البلاط – من يدخل إلى هذا القصر مرة واحد يشيخ على الفور عشر سنوات. كما أن هذه الرءوس ليست لأناس عاديين من بسطاء القوم مثلك، بل إنها لكبار القوم والقادة وأبناء الملوك. كانوا كلهم مثلك يريدون معرفة سبب حبس الأميرة زوجة الملك في القفص الحديدى. لكنهم جميعا فقدوا رءوسهم، وظل السر دفينا لم يكشف عنه الستار أحد حتى الآن. فإذا تمسكت بطلبك فسوف يحكى لك الملك سانوبار ويشرح كل شيء. ولكن ما إن ينهى حكايته لك حتى يقطع سيافه رقبتك فورا ويعلقها هنا– وأشار رئيس البلاط بيده إلى صفوف الرءوس المقطوعة – وقد أرسلك الملك هنا كى ترى بعينيك ما الذى ينتظرك. "فلينظر بنفسه حتى يتراجع عن رغبته، كى لا تضيع حياته هباء".

خرج الفتى من قصر نازيدان المخيف. وسار مع رئيس البلاط فى حديقة قصر الملك الرائعة. ثم دخل إلى قصر الملك وانحنى أمامه صامتا فى خشوع. وقال الملك:

– إنى أشفق عليك أيها الفتى، فأنت مازلت صغيرا، ولا داعى أن تضيع عمرك هباء. فتنازل عن طلبك واطلب منى مالا أعطيك ما تريد منه.

واستمرت محاولات الملك فى إثناء الفتى عن طلبه بلا جدوى. فقد أصر على رغبته وقال:

– مولاى حاكم العالم، إذا كنت لا تريد أن تفسر لى فلا تتكلم، وأنا لن أطلب شيئا سوى هذا الأمر.

أسقط فى يد الملك وقال للفتى:

– لقد وعدتك وسوف أنفذ وعدى. ولك الحق فى طلب ما تريد. بشرط أن يكون طلب شىء واحد. حتى لو كان هذا الشىء هو نصف مملكتى فسوف أعطيها لك لو رغبت. أما لو أردت معرفة حكاية الأميرة جول فسوف أحكيها لك. لكنك رأسك سوف تطير وأنت واقف هنا فى مكانك. ولك حرية الخيار. إن اخترت الموت سوف تناله. ولن يعرف العالم سرى الدفين.

– وانا أقبل شروطكم يا مولاى – قال الفتى فى صلابة – ولى رجاء أخير أن تمنحونى قليلا من الوقت بعد أن تنتهى من الحكاية كى أشرب قدحا من الشاى. وبعد ذلك اقطعوا رأسى كما تريدون.

قبل الملك سانوبار طلب الفتى وبدأ يحكى وقال:

– لقد بهرنى جمال جول وحسنها عندما كانت فى السابعة من العمر. حينئذ أقنعت أهلها أن يتركوها لى كى أقوم بتربيتها. وأصدرت أوامرى لإحضار أفضل المعلمين لها. وعنما كبرت الفتاة تزوجتها. وأقمت الاحتفالات بالبلاد لأربعين يوماً ودعوت كل الناس إليها كى يحتفلوا بهذه المناسبة. ومنحت جول من حبى الكثير. وقضيت معظم أوقاتى بالقرب منها. وفى الأيام التى كنت مشغولا عنها فيها بشئون الحكم والدولة، كان الشوق إليها يستبد بى ولا أشعر بنفسى من التفكير فيها. وحتى فى رحلات الصيد التى أقوم بها كنت أصطحبها معى. ومرت ثلاث سنوات منذ زفافنا

ونحن على هذا الحال. وكنت أحتفظ بفرسين مميزين لركوبنا أثناء الخروج للصيد. وذات يوم عشية خروجنا للصيد، دخلت إلى الإسطبل لتفقد الفرسين. وإذا بهما قد أصابهما الهزال، وتبعثرت خصلات عرفيهما وبدا أنهما فى حالة رثة من الإنهاك والتعب. فناديت السائس وصرت أسبه:"أيها الوغد الذميم، لماذا لا تعتنى بأفراسى كما ينبغى؟ ولماذا أصابهم الهزال هكذا؟ ولماذا هما فى هيئة مزرية؟" وإذا به يجيب على فى هدوء ويقول:"كيف لهما يا مولاى ألا ينحفا وأنتم تمتطونهما كل يوم؟". "من هذا الذى يمتطى أفراسى سواى؟"- صرخت فى وجه السائس."لا أحد سواكم يا مولاى، فأنت تحضر هنا كل مساء وتأمرنى بإعدادها ثم تخرج بها"- قال لى السائس."أنت تكذب أيها الحقير- صرخت فيه غاضبا - لا تنبس بكلمة أخرى"."لقد أمرتم أن يخرج الفرسان بالدور، واحد فى يوم والآخر فى اليوم التالى، كل مساء تأخذون واحدا منهما ولا تعودون إلا فى الفجر، فلماذا تلقون باللوم على؟ وما ذنبى فى هذا؟"- قال السائس فى خوف. حينئذ أصابنى الذهول. وأخذت أفكر لبعض الوقت وقلت له:"أريدك اليوم أن تسرج الفرسين، وما إن يخرج هذا الرجل بأحدهما حتى تأتى وتوقظنى من النوم". واستيقظت فى الصباح على ضوء النهار وأنا مازلت نائما فى سريرى. فنهضت وذهبت إلى الإسطبل."لماذا لم توقظنى؟"- سألت السائس."لقد ذهبت إليك يا مولاى كى أوقظك، وصرت أدق على الباب وأدق بيدى ولم تستيقظ. لقد كنت مستغرقا فى نوم عميق، حتى إننى أخذت أضرب الباب بقدمى ولم تستيقظ "- قال السائس."لكن اليوم أريدك أن توقظنى مهما كلفك الأمر"- قلت له آمرا. وفى الليل حطم السائس باب الحجرة وحملنى من على الفراش وحينئذ فقط أفقت من النوم. وفى هذه اللحظة وقعت من صدرى على الأرض خرزة مستديرة حجمها مثل حجم عقلة الإبهام. فأخذتها من على الأرض ووضعتها بجيبى. قفزت فوق الفرس وسألت السائس عن الاتجاه الذى مضى به الشخص الغريب، ثم انطلقت مسرعا خلفه. كان القمر بدرا فى تلك الليلة. وعندما لمحت الفارس يركض أمامى جذبت اللجام وأبطأت من سرعة فرسى وصرت أتبعه.

خرجنا إلى الطريق الغربى من المدينة. وكانت إحدى حدائقى الخاصة تقع بالقرب من هذا المكان. ورأيت الفارس يتجه نحو تلك الحديقة. عبر الشخص المجهول من بوابة الحديقة. وترجل من على فرسه وربطه. ثم دخل إلى المضيفة. وهنا فقط عرفت فى

الغريب شخص زوجتي جول. فربطت أنا الآخر فرسي وسرت خلفها. كنت قد وضعت أربعين عبدا من الزنج لحراسة الحديقة يترأسهم قائد اسمه كاخراتون. فرأيتهم يجلسون في بهو المضيفة يلتفون حول كاخراتون الذي جلس على منصة كالعرش. وكانوا جميعا يشربون النبيذ في أكواب من الفخار. وما إن دخلت عليهم جول حتى اندفع كاخراتون يسبها بأقذع الشتائم."لقد نومت سانوبار بالكاد - أخذت جول تدافع عن نفسها وتبرر له تأخيرها - وأنا الآن خائفة وأشعر أن هناك من كان يتبعني على الطريق"."لو أنك قد وضعت فوق صدره الخرزة السحرية التي أعطيتها لك، فإنه لن يستيقظ أبدا حتى لو قطعته إربا - قال كاخراتون وهو يضحك - هيا اجلسي وصبي لنا النبيذ في الأقداح"."إنني اليوم أشعر بالقلق وروحي غير مستقرة، وأخشى أن يظهر سانوبار هنا على حين غرة"- قالت جول."قلت لك صبي لنا النبيذ - صرخ كاخراتون - لو أن سانوبار هذا جاء إلى هنا لأصبح في عداد الأموات، حتى لو كانت له ألف روح وروح. آه لو يجرؤ على الظهور هنا لكان وضع نهايته بنفسه، ويكون القدر قد ساقه إلى حتفه". قال كاخراتون كلامه متفاخرا بنفسه. أما جول فظلت تردد وتقول:"لكن الخوف قد تملك مني يا بطلي الحبيب"."قلت لك اجلسي وصبي النبيذ لي ولك ولجميع من هنا". وسارت جول إلى كاخراتون وجلست بجواره. ثم صارت تتمايل في دلال وغنج وهي تصب له النبيذ وتقدمه له ولبقية العبيد. أما أنا فتسمرت واقفا عند مدخل المضيفة أراقب ما يجري وأنا شاهر سيفي على أهبة الاستعداد. فقد كدت في هذه اللحظة أن أحترق من الغيظ وأنا أتحرق شوقا إلى قتل الأوغاد والانتقام منهم. "إني أشعر بشيء ثقيل يجثم على صدري اليوم ومازال الخوف يتملكني"- قالت جول. حينئذ أمر كاخراتون أحد العبيد أن يخرج ويستطلع الأمر حول المكان. وخرج العبد من المضيفة. وما إن أطل برأسه من الباب حتى هويت عليها بسيفي فقطعتها لتتدحرج على الأرض. وعندما رأت جول أن العبد قد تأخر في العودة ازداد خوفها وقالت:"هل رأيت بنفسك؟ إنه لم يعد بعد". وحتى يهدئ من روعها أرسل كاخراتون العبد الثاني. فقطعت رأسه هو الآخر. ثم خرج الحارس الثالث والرابع ثم الخامس فقطعت رءوسهم واحداً بعد الآخر حتى قتلت الأربعين عبداً جميعا. ولم يبق في المضيفة سوى جول وكاخراتون الذي أدرك أخيرا أنني أقف خلف الباب. فصرخ مناديا:"أين أنت إذن يا سانوبار؟ هيا اظهر وجرب حظك معي". وهنا فتحت باب المضيفة، ودخلت إليه ودارت بيننا معركة حامية.

وكان القتال عنيفا لأبعد الحدود. خاصة أنه قتال حتى الموت. فتارة أحاصره فى ركن من الأركان، وتارة أخرى يضيق هو علىّ الخناق حتى ألتصق بالباب. ثم نجحت فى النهاية أن أنتهز الفرصة وأهوى على رقبته لتطير رأسه أمامى. وبعد ما انتهيت من كاخراتون أخذت جول وحبستها فى قفص من الحديد. والآن أيها الفتى تستطيع أن تودع العالم الأبيض فسوف أنادى على السياف فورا - أنهى الملك سانوبار حكايته بتلك العبارة.

وقف الفتى وانحنى راكعا:

- أيها الملك العظيم، لقد وعدتنى بقدح من الشاى قبل أن تقطع رأسى.

- حسنا، وأنا عند وعدى لك.

ثم أخرج الفتى منديلا مطويا وفرده فتحول إلى البساط السحرى. فجلس عليه. وفى هذه اللحظة دخل الخادم يحمل صينية عليها إبريق الشاى ومن خلفه الحراس الأشداء يتقدمهم السياف المهيب. نطق الفتى مسرعا بالتعويذة السحرية:

- يا بساطى يا بساطى

اسمع تلك الكلمات

مثل خصلة فى الرياح

طر بى فى النور المباح

ارتفع به البساط على الفور وخرج من النافذة إلى الفضاء الرحيب. حتى اختفى فى لمح البصر عن عين الملك والسياف والحراس.

هبط البساط على الأرض بالقرب من أسوار مدينة خراسان. نطق الفتى بالتعويذة الأخرى فتحول البساط إلى منديل مطوى وضعه الفتى فى جيبه وانطلق إلى ورشة السرّاج.

- مرحبا - قال الفتى وهو يدخل إلى الورشة.

أجلسه السرّاج فى مكان مريح. ووضع أمامه صينية عليها قطع من الحلوى والفطائر وإبريق الشاى الساخن. ودعاه إلى الأكل والشرب. وأخذ الفتى يحكى للسرّاج

حكاية زوجة الملك ساتوبار. ولماذا وضعها الملك فى قفص من الحديد ومازالت حبيسة به حتى الآن.

– لكن يا بني كيف استطعت أن تنجو بنفسك من أيدى ساتوبار؟ لقد سمعت أنه لا يسمح لأحد أن يعرف سره. وإذا عرف أحد بالسر يأمر الملك سيافه بقطع رأس من سمع سره على الفور.

– لقد نفذت طلبك يا والدى. ولا داعي للحديث عن كيفية نجاتى من سياف الملك ساتوبار. فاحك لى الآن عن سبب تمزيقك للسروج التى تصنعها – قال الفتى.

– حسنا يا بنى، سوف أحكى لك. فلم يعد لى مخرج من هذا الأمر. أنت اليوم ضيف علىّ فلتبقى وتبيت عندى. وسوف نجلس معا ونتحدث وتشاركنى همى الكبير – قال السرّاج وأدخل الفتى إلى حجرة يستريح بها. وفى المساء جلسا معا يتناولان طعام العشاء. وبعدما انتهيا من الطعام بدأ السرّاج يقص حكايته:

– لم يطلق الناس علىّ اسم السرّاج من فراغ. فإن صناعة السروج هى مهنتى الأصيلة. ورثتها وتعلمتها عن أبى. وعندما مات أبى وأمى بقيت وحيدا مع أختى الصغيرة. كانت أختى تقوم بشئون المنزل وأنا أعمل فى صناعة السروج وأجنى المال اللازم لطعامنا. وهكذا مضت بنا الحياة ثلاثة أعوام بعد موت والدينا. حتى جاء يوم عدت فيه من العمل إلى المنزل ورأيت الفناء مكتظا بأجمل الشبان والفتيان ذوى القوام الرشيق المتناسق وهم يرتدون أفخر الثياب والزينة. أصابتنى الدهشة من المنظر وهرعت إلى داخل الفناء فرأيته مكتظا بالنسوة. فبحثت بينهم عن شقيقتى حتي عثرت عليها وقلت لها:" ماذا حدث؟ ومن أين أتوا كل هؤلاء القوم؟"."لقد حضروا من أجل الزفاف"– قالت شقيقتى."أى زفاف؟ ومن الذى سوف يتزوج؟"– سألت فى دهشة."زفافك أنت، فاليوم سوف يزوجونك"."ومن التى سوف تتزوجنى؟". "تعال معى". قالت شقيقتى وجعلتنى أتبعها إلى الحجرة البعيدة بالمنزل. ثم أرغمتنى على ارتداء ملابس احتفالية جديدة. واغتسلت وتزينت فى أبهى صورة. ثم ساقتنى النسوة إلى حجرة أخرى مرتبة لأبعد الحدود. ودفعونى خلف ستارة لأجد نفسى وجهًا لوجه مع عروسى. تجمدت أمامها كالتمثال ولم أستطع أن أرفع عينى من عليها. فلم أر فى

حياتى مثل هذا الجمال الرائع الذى تعجز الكلمات عن وصفه. ولم أصدق عينى وأنا أنظر إليها." هل يعقل أن يوجد مثل هذا الحسن الباهر فى العالم؟" - أخذت أفكر. لكن الوقت لم يتسع لمزيد من التفكير. فأقيم حفل الزفاف مثلما تقتضى الأصول. احتفل بنا الضيوف والأصدقاء. وسرعان ما بدأت الضوضاء تخفت تدريجيا. وتفرق الضيوف إلى بيوتهم. وبقيت أنا وعروسى بمفردنا. ومنذ هذا الوقت أصبحت أعيش مع زوجتى الشابة حياة سعيدة طيبة. بعد مرور عام على زواجنا أنجبت زوجتى ولدا. وكدنا نطير من السعادة أنا وهى. وصرنا نحمل الوليد ونهدهده وندلله ولا نريد أن نتركه من أيدينا. وأصبحت حياتنا السعيدة مبعثا لحسد الآخرين. كانت الأمور بالمنزل تمضى فى أحسن حال فلم نتشاجر أو نتخاصم أبدا. وعندما أتم ابننا عامه الثانى، وضعت زوجتى الابن الثانى لنا. وبعد مرور عامين تشاجرت مع زوجتى لأمر تافه. وفى ثورة من الغضب الأعمى ضربتها على خدها فخرجت تاركة المنزل. وعندما عدت فى المساء إلى البيت نظرت إلى الفناء فلم أجد أحدا. كان المنزل خاويا غارقا فى السكون. وشقيقتى تجلس وحيدة فى ركن بالحجرة وتبكى بشدة."ماذا جرى؟ ولماذا تبكى؟ أين زوجتى؟ أين أبنائى؟ لماذا البيت خاو هكذا؟" - سألت وأنا فى حالة من القلق." أه يا أخى العزيز، لماذا ضربتها؟ لقد رحلت مع الأطفال...". إلى أين رحلت؟"."رحلت إلى المكان الذى جاءت منه". أجابت شقيقتى وصارت تولول وتبكى بحرقة. خرجت بسرعة أفتش عنها فى كل مكان وركن. سألت عنها جميع الجيران والمعارف. فلم يطلعنى أحد عن مكانها لأن أحدا منهم لم يرها على الإطلاق. ومرت عدة أيام وأنا أبحث عن زوجتى الضائعة وأبنائى. فى أول الأمر بحثت فى حينا كله، ثم فى الحى المجاور، والأحياء الأخرى كلها. سألت عنها التجار المسافرين. ذهبت إلى المكاتب والدواوين. سألت الموظفين من أصغرهم إلى رئيس البلاط والوجهاء أيضا. ولم يدلنى أحد منهم إليها. كما لو أنها تبخرت فى الهواء. وظللت أبحث وأفتش، وأنتظر وأنتظر. ولم أصل إلى شىء حتى يومنا هذا. ومنذ ذلك الوقت وأنا أصنع السروج حتى تلهينى عن وحدتى وتصبرنى على بلوتى. فأظل أعمل فى الورشة من الصباح إلى المساء. وعندما أبيع السرج وأقبض ثمنه أتذكر على الفور زوجتى وأطفالى. وتمر أمام عينى لحظات السعادة الأسرية التى قضيتها معهم. وأتألم كثيرا عندما أرى تلك السعادة قد ولت بلا عودة تاركة فى قلبى جرحًا لا يندمل. فأعيد

المال إلى صاحبه كالمجنون، وأمزق السرج إلى أشلاء ومزق صغيرة حتى يهدأ قلبى بعض الشيء. ثم أبدأ فى صناعة سرج آخر حتى يلهينى العمل عن مصيبتى وشوقى الحارق.

بهذ العبارة انتهى السرّاج من حكايته. فودعه الفتى وخرج من المدينة. ثم جلس فوق بساطه السحرى وفى لحظة كان قد وصل إلى مدينة أكبولاك. وحتى لا يضيع وقته ذهب على الفور إلى الخباز. وكان الخباز كعادته يجلس داخل المخبز يتابع العمل فى الأفران. تبادل الفتى التحية معه وأخبره بأنه ذهب إلى خراسان وعرف حكاية السرّاج. أجلسه الخباز فى مكان مريح ودعاه إلى شرب الشاى. وحكى الفتى حكاية السرّاج. وبعد أن سمع الخباز الحكاية سأل الفتى قائلا:

– كيف استطعت أيها الفتى أن تكشف السر وتلين قلب هذا الرجل العنيد؟ إن الجميع يقولون عنه إنه صلب الرأى لا يفتح قلبه لأحد أبدا ولا يكشف سره لمخلوق.

– على الرغم من هذا فقد نجحت فى جعله يكشف سره لى – قال الفتى – والآن أتى دورك لتحكى لى قصتك.

أسقط فى يد الخباز ووجد نفسه مضطرا إلى أن يقص حكايته على الفتى.

– كان أبى رجلا فقيرا للغاية – بدأ الخباز يحكى – وكانت حياتنا قاسية. فقد كنا نحصل على كسرة الخبز بصعوبة بالغة. وعندما مات أبى لم يكن لدينا أى شىء. لا مال ولا متاع. ومن شدة الفقر والعوز لم أستطع أن أتعلم أى حرفة أو صنعة. ولم يبق لى إلا أن أعمل أجيرا لمن يطلبنى. وذات يوم وقفت بالسوق أنتظر مع الأجراء أمثالى وأنا أمنّى نفسى أن يطلبنى أحد للعمل عنده. وفجأة دخل السوق ابن أحد التجار وهو يمتطى فرسا أشهب له عرف أبيض يتدلى فوق جبهته. كان ابن التاجر يرتدى ملابس وجيهة وحزامًا من الذهب يلتف حول خصره. وعلى رأسه غطاء من الفراء الفاخر. وحذاء جلدى أنيق يحشر قدميه بداخله. وكان سرج الفرس مطعمًا بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. توقف ابن التاجر بفرسه ودار بعينيه فى السوق وهتف يقول:"إنى إحتاج إلى عامل يعمل عندى لمدة عام، والعمل المطلوب ليس صعبا، فهو سوف يقضى أحد عشر شهراً وأنا أطعمه وأرعاه، ثم يعمل فقط فى الشهر الثانى عشر من العام، فهل يوجد

أحد منكم جاهز لهذا العمل؟ من فيكم يقبل؟" هرولت مسرعا إلى ابن التاجر وقلت له:"أنا أذهب معك يا سيدى". نظر السيد فى وجهى وقال:"فلنذهب". ثم لكز فرسه ومضى إلى الأمام وأنا أركض خلفه. وفى الطريق سألنى السيد عن جميع أحوالى. وعندما عرف أننى لا أعرف سوى العمل والكفاح اغتبط وأصبح راضيا عنى. ثم توقف أمام أحد المنازل الكبيرة. فترجل عن فرسه ودخل إلى فناء المنزل وأنا أسير خلفه كظله. أدخل السيد الفرس إلى الإسطبل وربطه فى المربط ثم دلف إلى المنزل وأنا معه. وفتح باب حجرة كبيرة وقال لى:"هذه هى حجرتك التى سوف تعيش فيها. فى الصباح تفطر زبدا وشايا، وفى الغذاء لحم الضأن، وفى العشاء حساء الخضروات. خذ راحتك وكل حتى تشبع". ثم وضع أمامى صينية عليها أطباق الطعام وأحضر لى قدحا من الشاى بالزبد وخرج من الحجرة. أكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت. ثم أخذت أنتظر السيد كى يأتى ويكلفنى بعملٍ ما أقوم به. لكنه لم يحضر حتى موعد الغذاء. فإذا به يحمل إلىّ وجبة كبيرة من لحم الضأن ويضعها أمامى. ثم خرج ولم يظهر إلا فى المساء. فأحضر لى حساء الخضروات وخبزا. أكلت حتى الشبع ورقدت للنوم. وهكذا مرت الأيام تتوالى يومًا بعد يوم وشهرًا بعد شهر. وظل ابن التاجر يطعمنى لمدة أحد عشر شهرا دون أن يكلفنى بأى عمل أقوم به فعشت فى هناء وراحة. وفى اليوم الأول من الشهر الثانى عشر دخل السيد حجرتى فى الصباح الباكر وقال:"لقد حان الآن وقت العمل، فاخرج إلى فناء المنزل واربط الفرس بالعربة". فربطت الفرس إلى العربة. وحملت فوقها اللباد والقش والأوانى وقربة كبيرة. جلس السيد فى العربة وأمرنى قائلا:"اجلس على الحصان وأسرع بنا على الطريق". وسرعان ما عبرنا بوابة المدينة وخرجنا إلى الطريق الكبير وعند الظهيرة وصلنا إلى شاطئ البحر فأمر السيد بالتوقف. فقمت بحل الأربطة ورفعت عريش العربة وحررت الحصان منها. وسقته إلى مكان عشبى وربطته بجواره. ثم فردت اللباد ومن فوقه وضعت غطاء ليجلس عليه السيد. ونقلت كافة الأغراض من العربة إلى ركن بعيد عن المكان. كان يوجد بالشاطئ موقد قديم. فقمت بإشعاله وأعددت الطعام للسيد وجلست أتطلع إلى البحر. ثم رأيت السيد يقدم لى طبقا من الطعام بنفسه ويدعونى لأكله وهو يقول:"هيا كل حتى تشبع". فصرت آكل وأنا لا أشك فى أمره. وبعد قليل فقدت الوعى ولم أعد أتذكر شيئا.

ومر عليّ زمن لم أعرف طوله حتى أفقت وشعرت بنفسي أختنق بدون هواء، وأن هناك شيئًا ما يضغط على جسمي كله. فأخذت أقاوم متخبطا وأدفع بيدي وفجأة انفجر شيء ما وخرجت برأسي إلى الخارج. فرأيت أنني جالس في القربة. تنفست بعض الهواء حتى عدت إلى نفسي، ونظرت حولي فوجدتني ملقى على الشاطئ في القربة والأمواج تتكسر من خلفي. وهنا أدركت أن ابن التاجر قد دس لي مخدرا في الطعام، ثم وضعني داخل القربة وألقى بي في عرض البحر. ولم أدر كم من الوقت بقيت في البحر والأمواج تحملني به. وقفت على الشاطئ أتطلع حولي وإذا بي أراه مفروشا بالأحجار الكريمة المتنوعة التي كانت تتلألأ ببريقها تحت أشعة الشمس. وأخذت في جمعها وحشرها في القربة حتى امتلأت عن آخرها. فربطتها بقوة من طرفها وصرت أعبئ جيوبي بالألماظ والياقوت وغيرها من الأحجار الثمينة. ثم انشقت فجأة السماء من فوقي عن طائر عملاق صار يحلق فوق رأسي، ثم هبط على الشاطئ والتقط القربة وارتفع بسرعة مرة أخرى محلقا في الفضاء. وبقيت وحيدا على الشاطئ المهجور. مرت الأيام عليّ وأنا في وحدة قاتلة. وحتى لا أموت من الجوع كنت اصطاد الأسماك وأنظفها جيدا ثم أجففها على الصخور تحت أشعة الشمس الحامية. ومضت ستة أيام وليال وأنا على حالي من العذاب الذي لم تلح له نهاية. رقدت على الشاطئ وأخذت أبكي بمرارة. وعندما هبط الليل رحت في نوم عميق. ورأيت في نومي مناما به رجل مسن ذو لحية بيضاء وابتسامة عريضة ودودة ووجه طيب الملامح وهو يقترب مني. ثم قال لي بحب وحنان: "قم يا بني وكفكف دموعك، واذهب إلى الشاطئ الآخر عبر هذا الجسر هناك". قمت من نومي ونظرت فرأيت بالفعل جسرا ممتدا بلا نهاية. استجمعت ما بقي لدي من قوى وسرت على الجسر وأنا أجرجر أقدامي. وأخذت أسير وأسير حتى وصلت أخيرا إلى الشاطئ الآخر.

ونظرت إلى الخلف فوجدت الجسر يهوي في الماء وقد تحول إلى سمكة. وما لبثت السمكة أن غطست في قلب الماء واختفت عن ناظري. وحينئذ أقسمت في نفسي: "لو أن الحياة منحتني السعادة والنجاح، ولو أصابني قدر من الثراء، فسوف أهب كل ثروتي للسمك". وقضيت ليلتي على الشاطئ ثم ذهبت إلى المدينة بعد ذلك. وعرفت من الناس الأخبار التي تقول إن السيد ابن التاجر يفعل هذا كل عام ويلقي بأحد الفقراء مثلي في

عرض البحر. حتى يصل إلى الشاطئ ويجمع الأحجار الكريمة فى القربة. ويلتقطها الطائر العملاق ويلقى بها إلى ابن التاجر الذى يقف بانتظاره على الشاطئ الآخر ويأخذ القربة الثمينة إلى بيته. بعد وقت قليل ذهبت إلى السوق وبعت قطعة من الألماظ. واشتريت لنفسى ملابس جديدة ارتديتها كى أتنكر ولا يتعرف علىّ أحد وقضيت ليلتى بنزل فى المدينة. وفى صباح اليوم التالى خرجت إلى السوق وصرت أسير بين الناس والزحام أنتظر ظهور ابن التاجر ولم يحضر. ومرت الأيام يومًا بعد الآخر وفى اليوم الخامس ظهر السيد ابن التاجر على فرسه كما فى المرة السابقة يرتدى أفخر الثياب ويسير متمخطرا على حصانه يبحث عن عامل أجير يأخذه معه. وكما فعل فى العام الماضى هتف ينادى على أجير ليعمل عنده."أنا أذهب معك"- هتفت أقول. وأخذ السيد يتفرس بوجهى طويلا ولم يتعرف علىّ. وذهبت معه إلى منزله فوضعنى فى نفس الحجرة السابقة وصار يطعمنى حتى حان موعد العمل فى أول أيام الشهر الثانى عشر. فحملت العربة وخرجت معه إلى الشاطئ وأعددت الطعام. لكننى فى هذه المرة مكرت بابن التاجر ولم أمنحه الفرصة كى يخدعنى. فوضعت له فى الطعام مخدرا كنت قد اشتريته من المدينة لهذا الغرض. وأخذت أدعوه للأكل وأقول:"هيا يا سيدى كل من الطعام كل". وما إن تناول أول حفنة من الطعام حتى فقد وعيه. فوضعته فى القربة وربطتها جيدا. ثم ألقيت بها فى البحر. وفى اليوم التالى قبل غروب الشمس حلق الطائر العملاق على الشاطئ وألقى بالقربة وهى مملوءة بالأحجار الثمينة. أخذت القربة فوق العربة وذهبت إلى المدينة. وصلت إلى منزل ابن التاجر فتركت العربة بالفناء وأخذت القربة الثمينة وانطلقت مسرعا بها إلى حجرة زوجة ابن التاجر بالمنزل. وقفت بباب الحجرة وخبطت عليه بيدى فرد صوت نسائى يقول:"من هناك؟ وماذا تريد؟". قلت لها:"لا تخافى فأنا أعمل لديكم منذ عامين. وقد خدعنى زوجك فى العام الماضى وألقى بى فى البحر لألقى حتفى وأموت، لكن الله لطف بى وكتب لى عمرا جديدا. أما فى هذا العام فقد استطعت أن أنجو منه وألقى به هو نفسه فى البحر. والآن سوف أصبح مالكا لبيته وكل ثروته. لقد قتل زوجك الكثير من الفقراء المساكين. وإذا ذهبت أشكوك إلى القاضى أو الحاكم فسوف يحكمون عليك بالقتل لأنك كنت تعرفين كل ما يجرى وتلتزمين الصمت. ولو رضيت أن تصبحى زوجتى فسوف تظلين بالمنزل معززة مكرمة.

وإن لم تقبلى فالباب أمامك يفوت جملا". أجابت الزوجة قائلة:"حسنا، أعطنى مهلة للتفكير فى هذا الأمر. لكن لا تجعل منى شريكة لزوجى فى جرائمه. فالزوجات لا يستطعن إلا الخضوع لأوامر أزواجهن. بعد مرور عدة أيام أعطت المرأة موافقتها على الزواج منى وعشت معها فى المنزل كزوج وزوجة. وأرشدتنى إلى البدروم الذى وضع فيه زوجها السابق كل ثروته من الألماظ والزمرد والياقوت. "ما الذى يلزمنى من كل هذه الثروة الطائلة؟ وماذا أفعل بها؟" فكرت فى الثروة وتذكرت ما أقسمت به فوق الجسر. فبنيت هذا المخبز وصرت كل يوم أطعم السمك بالخبز. فالثروة التى أملكها لا حدود لها. وهى تكفى لأبنائى وأحفادى من بعدى. وقد أصبح لدى طفلان ولد وبنت.

بهذه العبارة اختتم الخباز مغامرته.

ودع الفتى الخباز وخرج من المدينة. وانطلق فوق بساطه إلى مدينة كارابولاك.

وصل الفتى إلى كوخ الحارس عند المقابر وحكى له حكاية الخباز.

بعد ما سمع الحارس حكايته قال:

– حسنا أيها الفتى، لقد نجحت فى سعيك، ولم يعد لى مفر من أن أقص عليك حكايتى. ينبغى أن تعرف بأننى لم أكن حارسا للمقابر طوال الوقت، بل إننى كنت فيما سبق تاجرا أتجر فى مختلف البضائع والأشياء ولم أترك مدينة ولا بلدا إلا وسافرت إليها. فاشتريت الكثير وبعت الكثير. وكانت رحلتى تطول أحيانا وتستغرق من خمسة إلى ستة أعوام. وذات مرة كنت مسافرا مع إحدى القوافل فى مدينة من المدن القريبة وبقيت هناك لمدة عام تقريبا. حتى جاءنى مرسال من زوجتى تخبرنى بأننى قد رزقت بطفلة. فسعدت كثيرا بذلك الخبر وبأن زوجتى كانت بصحة وعافية بعد فترة الحمل. وأنهيت أعمالى على وجه السرعة وانطلقت عائدا إلى بيتى. وكدنا أنا وزوجتى أن نطير من السعادة بطفلتنا الصغيرة الرائعة. لكن فرحتنا لم تكتمل ومرضت ابنتى عندما أتمت الأربعين يومًا وانتشرت القروح فى جسمها. وتدهورت حالتها يومًا بعد يوم وصارت القروح تزداد ولم تفلح كافة الأدوية فى علاجها. لم تترك الأم طبيبا أو جراحا أو حكيما، أو مشعوذا أو ساحرا إلا وذهبت إليه بابنتنا المريضة. حتى المنجمين ذهبت إليهم. وقد فعلوا جميعا كل ما يمكن عمله. فقرأوا التعاويذ لطرد القوى الخبيثة من

جسمها، وحرقوا الأبخرة والعطور، وتلوا الصلوات. لكن كل هذا لم يفلح فى شىء مع الطفلة. ولقيت الأمرّين مع زوجتى بسبب مرض طفلتنا واختفت البهجة والسعادة من حياتنا. وصرنا كلما نقابل أحدا نسرع بسؤاله قائلين: ألا تعرف حكيما جيدا أو ساحرا ماهرا؟ ومرت الأيام والشهور حتى صارت أعواما انقضت فى سرعة وهدوء. وعلى الرغم من مرض ابنتنا إلا أنها كانت تنمو وتكبر حتى أتمت عامها السابع عشر. وفى أحد أيام الجمعة دعانى بعض أقاربى لحضور عرس عندهم. وعند عودتى سرت فى طريق المقابر كى أختصر المسافة إلى البيت. وبينما أسير بالقرب من إحدى المقابر رأيت جمجمة ملقاة على الأرض. فانحنيت عليها أتفحصها وإذا على جبهتها كتابة تقول: "هذه الرأس سوف تقتل أربعة عشر إنسانا". أمسكت بالجمجمة فى يدى وفكرت قائلا لنفسى: "كيف يمكن لهذه الجمجمة المتحجرة أن تقتل أربعة عشر إنسانا؟". ثم دسست الجمجمة داخل ملابسى وانطلقت إلى البيت وأعطيتها لزوجتى وقلت لها: "خذى هذه الجمجمة واطحنى عظامها فى الجرن حتى تصبح مسحوقا، ثم ضعيه فى كيس واربطيه". وخرجت الزوجة لتحضر الجرن بينما فكرت فى نفسى: "أليس من الجائز أن تخاف زوجتى من أن تطحنها؟". وأخذت مطرقة وهويت بها على الجمجمة حتى انسحقت إلى قطع صغيرة من العظم. وعندما عادت وضعت بنفسى العظام فى الجرن فطحنتها زوجتى ووضعتها فى كيس خبأته فى صندوق. بعد زمن قليل اجتمع التجار فى المدينة وعزموا أمرهم على السفر لإحدى المدن البعيدة للتجارة وعرضوا علىّ السفر معهم فى رحلتهم. فكرت قليلا ثم وافقت على السفر. وقمت بتوديع زوجتى وابنتى ورحلت مع القافلة. وسرنا على الطريق طويلا طويلا حتى وصلنا أخيرا إلى إحدى المدن الكبيرة. أقمنا فيها عدة أسابيع للبيع والشراء وانتقلنا إلى المدن الأخرى. وأخذنا نبيع ونشترى، ونشترى ونبيع، وننتقل من مدينة لأخرى ومن طرف لآخر حتى مرت علينا سنوات كثيرة. وكنا كثيرا ما نتذكر مدينتنا وأسرنا التى تركناها. لكن أحدا لم يعرف ماذا يجرى فى بيته. ولم يكن هناك من يستطيع أن ينقل لنا أخبار الأهل والبيت. لكن ما جرى فى منزلى كان يثير الدهشة والعجب. فبعد سفرى بوقت قصير قامت زوجتى ذات يوم وفتحت الصندوق لتاخذ منه ملابسى وتتحسسها بيديها فيهدأ شوقها إلىّ. وفجأة وقعت عيناها على الكيس الذى يحتوى على عظام الجمجمة المطحونة. فنظرت إليها

وهى تفكر قائلة:"ماذا يوجد فى هذا الكيس؟". ثم فتحته وتناولت منه قليلا فى يدها وتذوقته فوجدت مذاقه عاديا. ثم أعطت حفنة لابنتها فأكلتها وطلبت المزيد فأعطتها الأم. فى اليوم التالى بدأت القروح فى الاختفاء من جسم الابنة. فأعطتها زوجتى المزيد من المسحوق لتأكله. فتحسنت الابنة أكثر وأخذت قروحها فى الشفاء. وصارت الجروح والقروح تشفى بالتدريج وتختفى من جسم الابنة حتى تلاشت ولم يعد لها أثر على الإطلاق. ومرت ثلاثة شهور استردت الابنة بعدهما صحتها وازداد وزنها. أخذت الأم تراقب وزن الابنة الذى كان يزداد وساورتها الشكوك حول هذا الأمر. وعندما فحصتها تأكدت ظنونها. فقد أصبحت الابنة حاملا. وأصابت الدهشة الجيران من حولها. حتى جاء الوقت لتصبح الابنة أما. وسارت الأمور على ما يرام ووضعت ولدا. وبعد مرور يومين من ولادته أخذ الولد يتمتم ببعض الحروف ولم يمض وقت طويل حتى استطاع الكلام. وأصبح نموه يقاس بالساعات لا بالأيام. وتعلم بنفسه الكتابة والقراءة مما أذهل الجيران. وازدادت دهشتهم من حديثه الذكى وعباراته الجميلة. وكان يعرف الكثير الذى لا يعرفه الشيوخ والحكماء عندهم. فكانت إجاباته الحكيمة الفطنة مثارا لدهشة الجميع وإعجابهم. وعند عودتى مع القافلة إلى المنزل، كان الولد قد بلغ التاسعة من عمره. وكان بعض الناس قد خرجوا إلى الطريق لاستقبالنا وعرفت منهم أن لى حفيداً لا يضارعه أحد فى الذكاء والنبوغ. فتملكنى الغضب من زوجتى التى لم تأخذ رأيى فى زواج ابنتنا. وسرت صوب البيت وأنا على هذه الحال من الغضب والثورة. وعندما وصلت إلى الطريق الذى يقع به منزلنا رأيت صبيا يركض نحوى ويتعلق برقبتى وهو يهتف بفرح:"جدى العزيز". اختفى غضبى وتبخر فى هذه اللحظة وخفق قلبى بالحب للصبى الحفيد. فعانقته وضممته إلى صدرى. وسرت معه إلى فناء المنزل وهو يحكى ويقص لى عن الأمور التى تغيرت فى المنزل. وصرت أسمعه فى صمت وأنا فى دهشة من حديثه الذى لا يناسب سوى الراشدين وليس صبيًا صغيرا مثله. كما حكى لى الحفيد عن المناظرة التى قامت بينه وبين الحكماء فى مدينتنا، وكيف أوقعهم فى حيرة وبلبلة بأسئلته الذكية التى وضعها لهم. فى اليوم الخامس لوصولنا طلب الملك من التجار أن يمثلوا فى القصر بين يديه. وكان على كل منهم أن يعد هدية للملك. فأعددت أنا الآخر هدية ثمينة وبينما كنت أستعد للذهاب إلى الملك تعلق بى الحفيد وقال:"خذنى

معك يا جدى الحبيب إلى الملك". "لا يجوز لك الذهاب إليه يا حفيدى العزيز – قلت له – إن ضيوف الملك جميعا من علية القوم والقادة الكبار فكيف آخذك له؟". وظل الحفيد يرجو ويتوسل ويقنعنى أن أصطحبه إلى القصر حتى وافقت وأخذته معى. بعد ما سلمنا الهدايا إلى رئيس البلاط، دخلنا جميعا إلى البهو الملكى الفاخر. ودخل الملك يرافقه الوزراء وعلية القوم وجلس على العرش. ركعنا جميعا تحية له. وأخذ الملك بعد ذلك يستفسر عن رحلتنا والبلاد التى سافرنا إليها. وأخذ التجار يتحدثون واحداً بعد الآخر عن الأماكن التى سافروا إليها وما الذى شاهدوه من العادات الغريبة والشعوب التى زاروها. وكان أحد التجار قد أحضر للملك سمكة حية فى إناء زجاجى. وأخذ الجميع ينظرون إلى السمكة ويتابعون حركتها فى الماء بفضول وإعجاب. وعندما اكتفى الجميع من الفرجة عليها نادى الملك على الحارس وقال: "خذ هذه السمكة المدهشة إلى جناح الحريم ودع الفتيات والنساء أيضا يستمتعن بالفرجة عليها". وخرج الحارس يحمل السمكة إلى جناح الحريم. لكنه عاد بها ثانية بعد دقائق قليلة. دهش الملك وقال: "لماذا عدت بالسمكة بهذه السرعة؟". "إنهم يا مولاى يقولون إن الذكور يحرم عليهم دخول قسم الحريم وإن هذه السمكة ذكر ولا يسمح له بالدخول عندهم"– أجاب الحارس. وما إن سمع حفيدى كلمة "ذكر ولا يسمح له" حتى أخذ يقهقه من الضحك. أصابت الدهشة الحضور ونظروا نحو الصبى يتساءلون: "من الذى يضحك؟". وانتفض الملك فى غضب. وأشار أحد التجار إلى حفيدى قائلا: "هذا الصبى". نادى الملك فى ثورة: "أحضروا السياف ليقطع رأس هذا الصبى". ودخل السياف على الفور. "مولاى ملك العالم – قال الصبى – إنكم تستطيعون قطع رأسى فى أى وقت، لكن ألا تريدون معرفة سبب ضحكى؟". "هيا إذن أخبرنى عن سبب ضحكك"– قال الملك الغاضب. "لا أستطيع القول إلا فى أذنك". "إذن اقترب منى وقل لى". وسار الحفيد إلى العرش وهمس ببعض الكلمات إلى الملك فى أذنه. وفى هذه اللحظة أمر الملك السياف أن ينصرف. وعاد حفيدى ليجلس فى مكانه بجوارى. وأخذ الخدم يمدون الموائد ويحملون مختلف الأطباق من الحلوى والأطعمة الشهية والخمور والمشروبات المتنوعة. بعد انتهاء الوليمة أهدى الملك الجميع الهدايا القيمة. "أما حفيدكم فسوف يبقى عندى ليحل ضيفا علينا"– قال الملك متوجها إلىّ بحديثه. فوضعت يدى إلى صدرى وانحنيت راكعا. وشكرت الملك

على الشرف الذى أولانى إياه. ثم خرجت من القصر. لا أدرى متى ولا كيف وصلت إلى المنزل. لكن كل ما أعرفه أننى تركت مشاعرى بالقصر وأصبحت لا أفكر إلا فى حفيدى المحبوب. ولم يغمض لى جفن حتى طلع صباح اليوم التالى فذهبت إلى القصر. وقادونى إلى مجلس الملك لأجد حفيدى يجلس معه إلى مائدة الشاى. ودعانى الملك لاحتساء قدح من الشاى معهما. وفى هذا اليوم أنعم الملك على حفيدى بالعطايا الثمينة والمنح والهدايا التى لم أرها من قبل ولا فى منامى. وكانت كل ثروتى التى جنيتها من التجارة طوال سنوات عمرى تعادل بالنسبة لهدايا الملك وعطاياه قطرة فى بحر كبير. شكرت الملك ودعوت له وعدت مع حفيدى إلى المنزل وأنا أكاد أطير من السعادة والفرح. فى البيت أخذ الحفيد يقص على ما جرى فى اليوم السابق مع الملك:" قلت للملك فى أذنه إن سبب ضحكى يا مولاى سوف أشرحه لكم فى المساء إذا طلبتم من جدى أن يسمح لى بالبقاء معكم". وظل الحفيد مع الملك بمفردهما. حتى اقترح عليه الصبى أن يلعبا معا لعبة الشطرنج. وظل الملك يلعب معه حتى ساعة متأخرة من الليل. حينئذ وقف الحفيد وقال للملك: "والآن يا مولاى تسلح وأعطنى أنا الآخر سلاحا". فتسلح الملك وأعطى الصبى سيفا. ثم ذهبا إلى الحجرات الداخلية فى القصر. قاد الصبى الملك إلى حجرة الابنة الكبرى. وعندما دخلاها لم يجدا أحدا بها. وأشار الصبى إلى باب سحرى بقاع الحجرة. فتحه الملك وهبطا منه إلى أسفل على سلالم أوصلتهم إلى حجرة أخرى نظر إليها الملك فى ذهول وهو يرى ابنته الكبرى تنام مع رجل ضخم قبيح الوجه. وهنا قال الحفيد للملك:"إن هذا الرجل الضخم مسموح له بدخول جناح الحريم بينما السمكة الصغيرة غير مسموح لها بالدخول. هذا الذى جعلنى أضحك يا مولاى". أمر الملك بقتل كل من بالحجرة. وبعد ذلك أصبح كثيرا ما يدعو حفيدى إلى القصر. وهنا ينبغى التنويه بأننى كنت التزم بالصلاة فى مواعيدها التزاما شديدا. وذات مرة دخل علىّ الحفيد وقاطعنى فى الصلاة فقلت له:"اخرج والعب بالفناء لبعض الوقت حتى أنتهى من الصلاة ثم نخرج معا ونزور أحد الأماكن". وقد كذبت على الصبى كى يخرج من الحجرة ويدعنى أكمل صلاتى. خرج الصبى من الحجرة وما إن بدأت فى تلاوة إحدى سور القرآن حتى عاد ثانية وأعاقنى عن مواصلة الصلاة. فاستطعت بالحيلة أن أخرجه من الحجرة إلى الفناء. لكنه عاد من جديد ودخل

الحجرة ولم يجعلنى أكمل الصلاة مرة أخرى."حتى لو كان أذكى من بالأرض لكنه طفل وسوف يظل طفلاً بعد"- فكرت فى نفسى قائلا. ومن الخطأ تركه يفعل ما يحلو له حتى لا يفسد من التدليل. ومن الضرورى أن ينال عقابه على شقاوته. ينبغى تهديده وتخويفه كى لا يعود إلى معاكسة الآخرين بالأفعال الطفولية. فقمت بصفعه حتى دار مرتين حول نفسه، ثم تحول فجأة إلى الجمجمة المتحجرة التى عثرت عليها قديما عند المقابر. وكانت هذه هى الكارثة التى حلت بى. فدفنت الجمجمة هنا فى المقابر وصرت أجلس لحراستها. ومنذ ذلك الوقت وأنا أتعذب من الألم والحزن وأحدث نفسى قائلا:"لماذا ضربته؟ ما الذى فعلته بحفيدى المحبوب؟ فهو لم يفعل شيئا يستحق عليه أن أضربه". وبعد ذلك تركت مالى وتجارتى لأحد عبيدى المخلصين كى يقوم بإدارتها والعناية بأسرتى وبشئون المنزل. أما انا فقررت أن أظل هنا أبكى حفيدى حتى آخر أيام حياتى.

بعد أن سمع الفتى الحكاية الحزينة من الحارس. قام بوداعه. وخرج من المدينة حيث جلس فوق بساطه وطار مسرعا إلى مدينة بيت كورجان. وعندما وصل إلى المخبز الكبير تحت الأرض نادى على العجوز. وحكى له حكاية حارس المقابر الذى كان فى الماضى تاجرا. وعندما انتهى الفتى من حكايته قال العجوز:

- منذ زمن بعيد ونحن نعيش فى هذا المخبز المهجور. وإذ يبدو هذا المخبز للناظر صغيرا من الخارج إلا أنه رحيب من الداخل. ونحن نرتدى رداء واحدا بسبب فقرنا الشديد. فنخرج كل يوم من المخبز نسعى فى الأرض كى نحصل على كسرة من الخبز. ومضت حياتنا على هذا المنوال فى شقاء وفقر بلا نهاية. ونحن الآن نعيش آخر سنوات عمرنا ولا نملك إلا العيش فى هذا المخبز. فنرتدى ثوبا واحدا لنخرج بالدور نبحث عن كسرة خبز نقيم بها قوتنا.

قام الفتى فودع العجوز. وانطلق فوق بساطه السحرى عائدا إلى مدينته نور العباد. واستقبله والداه بالأحضان والقبلات الحارة. وانهمرت دموعهما من شدة السعادة برؤيته. نال الفتى قسطا من الراحة. وبعد ذلك جلس وحكى لوالده عن مغامراته الشيقة التى قام بها فى مختلف البلاد والمدن البعيدة.

فى اليوم التالى جلس الفتى إلى طاولة بالحجرة وأمسك بقلم وورقة وأخذ فى الكتابة. وظل الفتى أياماً وأياماً يكتب ويكتب بالتفصيل عن كل ما حدث له وكل ما لقيه فى المدن والبلاد التى زارها. وفى النهاية كان الفتى قد كتب كتابا كبيرا يضم بين جنباته سير أولئك الناس جميعا الذين التقى بهم الفتى، بداية من العجوز والعجوزة الفقراء فى المخبز وحتى الملك سانوبار. وكشف الكتاب عن أسرار هؤلاء الناس التى لم يكتشفها أحد قبل ذلك.

عندما انتهى الفتى من كتابة كتابه. أعطاه إلى والده كى يذهب به إلى الملك.

ذهب العجوز إلى الملك وركع أمامه فى إجلال وخشوع. نظر الملك إلى وزيره متسائلا وسأل قائلا:

– ماذا تريد أيها العجوز؟ ومن تريد أن تشكو لنا؟

أخرج العجوز الكتاب من طيات ملابسه وأعطاه إلى الملك. فنظر الملك بدهشة وقال:

– ما هذا الكتاب أيها العجوز؟

– هذه حكاية العجوزين اللذين يعيشان فى المخبز. وقد أرسله لكم يا مولاى ابنى عبدكم الضعيف – أجاب العجوز.

صار الملك يتصفح الكتاب ونظر إلى بعض الفقرات ثم قال للعجوز:

– عد إلى بيتك الآن أيها العجوز. واحضر هنا بعد أسبوع. وسوف أقرأ هذا الكتاب وأعطيك الجواب.

بهذه الكلمات ترك الملك العجوز يعود إلى منزله. وبدأ مع وزيره يقرآن الكتاب بعناية وتركيز حتى انتهيا منه. وبعد تفكير طويل قال الوزير:

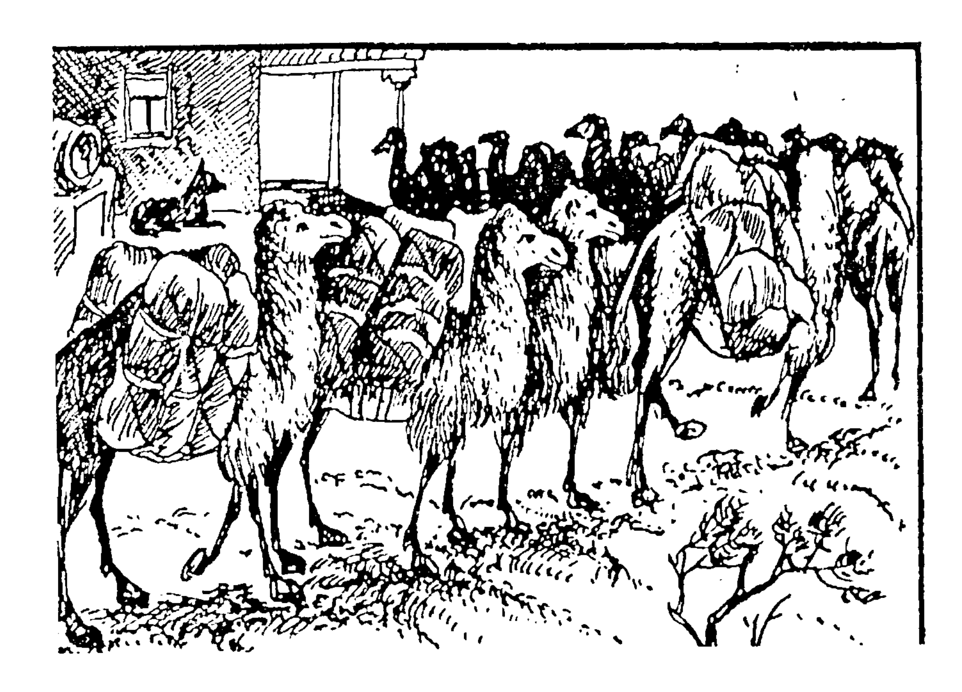
– يا مولانا العظيم، أظن أن هذا الفتى غاية فى الذكاء والفطنة. فمن يقدر على كشف كل هذه الأسرار لهو على قدر كبير من الحكمة ورجاحة العقل. ولا يهمكم فقره فهو غنى بعقله. ونصيحتى لكم يا مولاى أن تزوجوه من الأميرة ابنتكم.

وأيد الوزراء الآخرون رأى الوزير الحكيم. حينئذ وافق الملك على أن يزوج الفتى من ابنته الأميرة. وبعد مرور أسبوع مَثُلَ العجوز أمام الملك الذى أخبره بالموافقة على إتمام الزواج. وأخبر العجوز الفتى بالنبأ السعيد كى يستعد للزفاف.

أقام الملك الاحتفالات بالزفاف لأربعين يومًا وليلة. وبعد ذلك تزوجت الأميرة ابنة الملك من الفتى ابن العجوز الفقير. وتحققت أمانى الكل بالسعادة والرخاء.

* * *

الزوجة الفطنة



قديما فى زمن من الأزمنة الغابرة عاش أحد التجار. وكان يسافر وهو يحمل البضائع مرتين فى العام للتجارة مع مختلف المدن والبلدان البعيدة. وحظى الرجل باحترام الجميع وتقديرهم لذكائه وفطنته. ولذا انتخبه التجار شاه بندر التجارة.

وفى أحد الأيام أعلن الشاه بندر وقال:

- فلنرحل إلى المدينة الفلانية للتجارة.

أخذ الشاه بندر يستعد للرحيل. وحمّل ثمانين جملا بالبضائع المختلفة. وسرعان ما احتذى حذوه أربعون تاجرا، وخرج الجميع إلى الطريق نحو المدينة. وسارت القافلة

التجارية الكبيرة تقطع الأودية والصحراوات لمدة أربعين يومًا وأربعين ليلة وهم يجدون في سيرهم.

قال التجار للشاه بندر:

- أيها الشاه بندر، هيا نأخذ قسطا من الراحة، حتى تستجمع جمالنا قواها للسير.

- حسنا أيها التجار، فلنسترح هنا. أجاب الشاه بندر عليهم.

أنزل التجار البضائع من فوق الجمال، وأطلقوها للرعى. كان الوقت ربيعا وكانت الأعشاب الرطبة تمتد كالبساط وتغطى أرض الوادى بعد أن ارتوى من الأمطار الكثيفة. أكلت الجمال من العشب حتى شبعت. كما أن التجار أيضا نالوا قسطهم من الراحة، وأكلوا وشربوا حتى شبعوا. وفجأة لاح لأنظارهم دخان يتصاعد من أحد الأماكن.

- لابد أن هناك أحدًا يعيش فى ذلك المكان - قال الشاه بندر - هيا بنا نذهب نستطلع الأمر ونتعرف على السكان.

حزم الشاه بندر أمره وانطلق مع أصدقائه يستطلعون المكان. وما إن وصلوا حتى شاهدوا كوخا وحيدا من أكواخ الرعاة. لم يكن صاحب الكوخ بالمنزل وإنما كانت العجوز زوجة الراعى هى التى استقبلت الضيوف الوافدين. أعدت العجوز طعاما للضيوف. وأثناء تناولهم الطعام دخلت الحجرة ابنة الراعى وهى تنظر حولها وهمست للأم تقول:

- واحدة يا أمى.

وتخرج الفتاة لبعض الوقت ثم تعود وتهمس مرة أخرى لأمها:

- اثنتان.

وتمضى برهة صغيرة فتقول ثانية:

- ثلاث.

انتهى التجار من تناول الطعام وشربوا الشاى. ودخلت الفتاة إلى الحجرة من جديد وقالت لأمها:

- أربع.

وصارت تكرر ما تفعله لسبع مرات.

- عم تحكى لك ابنتك أيتها الخالة وهى تدخل بين الحين والآخر؟- سأل الشاه بندر.

ـ يا ضيوفى الأعزاء، ما الذى يمكن أن تقوله لى ابنتى؟ نحن نعيش فى واد مقفر. نرتزق من غزل الخيوط. وابنتى تدخل علىّ لتخبرنى أنها قد غزلت سبع بكرات من الخيط خلال هذا الوقت.

أصابت الدهشة الشاه بندر فقال:

- إنه لشىء مذهل، أن تغزل الفتاة سبع بكرات من الخيط أثناء تناولنا الطعام. إنها إذن كنز ثمين وليست مجرد فتاة.

ثم سأل العجوز قائلا:

- ألم تتزوج ابنتك بعد أيتها الخالة؟

- كلا لم تتزوج بعد - أجابت العجوز على الشاه بندر.

حينئذ فكر الشاه بندر أنه لن يجد أصلح من تلك الفتاة زوجة له. وقرر أن يرسل من يخطبها له. وحينما عاد مع أصدقائه إلى مكانهما بالوادى سألهم وقال:

- أريد منكم النصح والرأى ،لقد قررت أن أرسل أحدا ليخطب لى ابنة الراعى، فما رأيكم يا إخوانى؟

- إذا كنت تريد نصيحتنا فلا تتحدث الآن عن هذا الأمر - قال التجار - فأنت لا تستطيع أن تصحب معك العروس الشابة فى رحلتك الشاقة البعيدة. انتظر حتى نصل إلى المدينة ونبيع بضائعنا، ثم نعود إلى هنا ثانية. حينئذ تستطيع أن تخطبها.

سمع الشاه بندر نصيحة التجار وأعجبه ما قالوه فرد عليهم:

- إذن هيا بنا نحّمل البضائع فوق الجمال، ولننطلق فى طريقنا.

مر أربعون يومًا وليلة حتى وصلت القافلة إلى المدينة فباع التجار بضائعهم واشتروا غيرها. ثم رحلوا فى طريق العودة.

بعد أربعين يومًا وليلة وصلوا إلى نفس المكان السابق بالوادى. فأطلقوا الجمال ترعى بالوادى. وقاموا بطهى الطعام لأنفسهم. فأكلوا وشربوا حتى شبعوا. وهبط الليل ومن بعده أتى الصباح. وأشرقت الشمس تنير العالم بخيوطها. حينئذ جمع الشاه بندر حوله أصدقاءه التجار ودار بينهم الحوار التالى:

- إذن، من فيكم أيها الأصدقاء سوف يذهب ليخطب لى ابنة الراعى؟

- أنا سوف أذهب - هتف يقول أحد التجار واسمه كركن باى. وخرج إلى بيت الراعى ليخطب ابنته للشاه بندر. أرسلت العجوز فى طلب زوجها فحضر إلى البيت. وجلسوا جميعا وقال كركن باى:

- ألا تسألنى يا جد عن سبب حضورى إليك؟

- أهلا بك وسهلا يا بنى، ما الذى أستطيع أن أفعله لك؟ - سأل الراعى.

- جئت إليكم كى أخطب ابنتك إلى شاه بندر التجار - أعلن كركن باى - فهو يريد مصاهرتك بعد أن نفذ سهم حب ابنتكم إلى قلبه.

- إذا اراد شاه بندر التجار أن يصاهر راعيا بسيطا مثلى فأنا بالطبع موافق - أجاب الراعى.

- ما دام الأمر هكذا - قال كركن باى - فما المهر الذى تطلبونه لابنتكم؟

- ماذا أقول لك؟ إن ابنتى هى الوحيدة لدى، فليرسل لى العريس إذن أربعين جملا محملين بالبضائع والمتاع، أما عن أمور الزفاف فليتدبرها بنفسه كيفما شاء - أجاب الراعى.

- وأنا سوف أذهب إليه وأبلغه بطلباتكم - قال كركن باى وعاد إلى الشاه بندر وقال:

- لقد خطبت لك الفتاة، لكنهم يطلبون منك فى المقابل مهرا لها.

– وما هو المهر التى اتفقت عليه معهم؟ – سأل الشاه بندر.

– لقد طلب الراعى أربعين جملا محملين بالبضائع، أما أمور الزفاف فتدبرها بنفسك.

– عدوا أربعين من الجمال، وحملوها بمختلف البضائع وأرسلوها فورا إلى بيت الراعى – قال الشاه بندر للتجار.

وأرسل الشاه بندر مع الجمال عدداً من الأغنام والزبد والأرز إلى منزل الراعى. ثم أقام الأفراح احتفالا بالعرس والزفاف. وأخذ عروسه الشابة ومضى على الطريق.

بعد مرور أربعين يومًا وليلة عادت القافلة إلى الوطن. وتفرق التجار كل منهم إلى منزله.

ذهب الليل وقدم الصباح. وأشرقت الشمس تنير العالم كله. ودعى الشاه بندر جميع الأهل والأصدقاء والمعارف للاحتفال بزواجه. وظل الاحتفال قائما لعشرة أيام وعشر ليال.

وعاش الشاه بندر مع زوجته الشابة فى سلام ومحبة.

لكنه فكر ذات يوم فى نفسه قائلا:

"لقد دفعت مهرا ضخما للغاية لابنة الراعى، فقد بهرتنى قدرتها الفائقة على الغزل ودفعتنى إلى الزواج منها".

خرج الشاه بندر إلى السوق واشترى خمسمائة كيلو جرام من القطن ونقلها إلى كرار المنزل وقال:

– اسمعينى جيدا أيتها الزوجة، سوف أسافر إلى بلاد بعيدة للتجارة، ولن أعود إلا بعد مرور ستة أشهر. من الآن وحتى عودتى اغزلى الخيط من هذا القطن، كى أرى مهارتك التى بهرتنى ـ قال الشاه بندر ما قاله وسافر.

صارت ابنة الراعى تؤجل العمل يوما بعد يوم. وتملكها الكسل والتراخى. ومضت الأيام يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع حتى لم يبق سوى شهر واحد لعودة الشاه بندر."قريبا سوف يعود زوجى وأنا لم أفعل شيئا بعد"– فكرت ابنة الراعى فى خوف.

وذهبت إلى الكرار فأخذت كمية من التيل ونثرتها على الأرض. ثم أحضرت البكر والنول. وبدأت فى غزل القطن. لكنها سرعان ما شعرت بالجوع. فذهبت تطهو لنفسها الطعام. وكان من الصعب على الفتاة أن تأكل وتعمل فى نفس الوقت. فكانت تارة تلعق الطعام من أصابعها وهى تمسك بالخيوط، وتارة أخرى تلعق ملابسها من الطعام.

فلنتركها بعض الوقت تلعق أصابعها وملابسها ولنرى ما جرى مع ابن ملك المدينة.

منذ زمن طويل جلس ابن الملك يأكل اللحم. فعلقت فى حلقه قطعة من العظم.

أرسل الملك فى طلب الحكماء والأطباء. لكن أحدا منهم لم يستطع إخراج العظمة المحشورة فى حلق الفتى. وظل الفتى يعانى من الألم الشديد ولم يقدر على الشرب أو الأكل وساءت حالته وتدهورت صحته.

كان حوش منزل شاه بندر التجار يطل على قصر الملك. وجلس الفتى ابن الملك فى شرفة القصر ينظر إلى زوجة الشاه بندر وهى تغزل بيديها وتلعق بلسانها ملابسها وأصابعها من الطعام. ضحك الفتى من هذا المنظر حتى إنه صار يقهقه من الضحك وطارت فجأة العظمة من حلقه إلى الخارج.

فرح الملك فرحا كبيرا وسأل الفتى:

– ما الذى أضحكك على هذا النحو يا بنى؟

– هاهاها – ضحك ابن الملك – تجلس امرأة ما هناك وهى تغزل هاهاها.. وتغزل ثم تلعق ملابسها بلسانها.. هاهاها. وفجأة خرجت العظمة من حلقى من شدة الضحك.

نادى الملك على رئيس البلاط وأمره قائلا:

– ابحث عن المرأة التى تغزل الخيط أمام قصرى وأحضرها هنا على الفور.

أحضر رئيس البلاط زوجة الشاه بندر إلى الملك.

– اطلبى منى ما تشائين أيتها المرأة أنفذه لك – قال الملك للزوجة.

– إذا كان الأمر هكذا يا مولاى – قالت زوجة الشاه بندر - فأنا أريد غزل الخمسمائة كيلو جرام قطن التى لدينا فى المخزن إلى خيط.

أمر الملك بإحضار النساء وقال لهن:

- أريد منكن أن تغزلن هذا القطن فى ستة أيام لا تزيد دقيقة واحدة.

جلست النساء ليل نهار يغزلن القطن. وكانت زوجة الشاه بندر تجمع بكرات الخيط المغزول وترتبها فى المخزن بنظام ودقة. وسرعان ما عاد الشاه بندر من رحلته. وفتح باب الكرار ليضع بداخله البضائع التى جلبها معه. وإذا به يرى أن المكان قد امتلأ عن آخره ببكرات الخيط المغزولة. فرح الشاه بندر فرحا كبيرا ودخل على زوجته فألقى عليها التحية وأخذ يمدحها وقال:

- خذى اللحم الذى جلبته معى وضعيه فى مكان بارد حتى لا يفسد. واطهى لنا منه هبرة كبيرة فى الغذاء.

نقلت الزوجة اللحم إلى مكان رطب ظليل. وأخذت تعجن دقيقا للخبز. وعندما بدأت تفرد العجين رأت خنفسة سوداء كالليل تزحف بجانبها. فقامت وانحنت ساجدة فى خشوع أمام الخنفساء. وعندما رآها الزوج على هذا الحال أصابته الدهشة وسألها:

- ما معنى هذا الذى تفعلينه؟

- هذه عمتى الوحيدة وأنا أحبيها - أجابت الزوجة.

- ولماذا عمتك لونها أسود غطيس هكذا؟ - سأل الشاه بندر.

- لقد اسود لون عمتى بهذه الصورة التى تراها لأنها ظلت طوال عمرها تعمل فى غزل الخيوط، ومن كثرة العمل أصبحت سوداء هكذا - أجابت الزوجة.

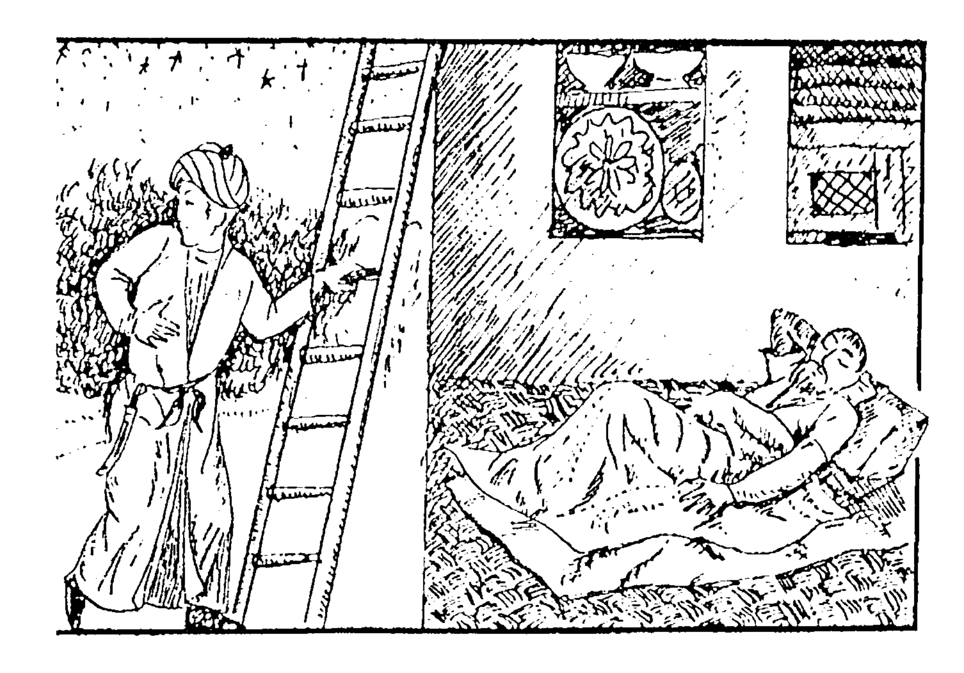
فكر الشاه بندر لبعض الوقت ثم قال:

- من الآن فصاعدا أريدك أن تكفى عن غزل الخيط. فأنا لا أرغب فى أن تصبحى سوداء مثلها. وإذا رأيتك تغزلين ثانية سوف أطردك من المنزل.

ومنذ ذلك الحين لم تضطر الزوجة الفطنة إلى أن تغزل الخيط ثانية.

* * *

الملك الأحمق



في زمن بعيد عاش رجل فقير وقع بيته القديم وانهار. فقرر الرجل أن يبنى لنفسه بيتا جديدا.

بنى الرجل البيت ولم ينقصه سوى السقف. لكن الرجل الفقير نفذت نقوده فطلب من البنَّاء أن يغطى السقف بحصيرة من الخوص. وقال لنفسه: "سوف أكمل بناء السقف بنفسى عندما يرزقنى الله".

وعاش الفقير فى البيت الذى لم يكتمل.

وفى منزل قريب منه عاش أحد اللصوص. وعندما رأى اللص البيت الجديد الذى بناه الفقير فكر قائلا فى نفسه: " لابد أن هذا الفقير قد اغتنى وأثرى من حيث

لا ندرى حتى يبنى لنفسه بيتا جديدا مثل هذا البـيت، ولابد أن عنده ما يستحق السرقة .."

فى المساء تسلق اللص منزل الفقير وزحف إلى سطحه. وما إن مشى أول خطوة على السقف حتى انهارت به الحصيرة وسقط فى البيت فوق الرجل الفقير النائم.

صحا الفقير من نومه وحاول الإمساك باللص الذى سقط عليه، لكن الظلام كان حالكا فى المكان وفر اللص هاربا من البيت.

تملك الغيظ من اللص وثار على الفقير. فذهب فى اليوم التالى يشكوه إلى الملك:

– من أنت؟ وما هى شكواك؟ سأل الملك.

– أيها الملك المبجل الحكيم، لقد ذهبت لأسرق أحد المنازل. وتسلقت السقف فإذا به من الحصير. فوقعت وكادت قدمى أن تنكسر. فأرجو يا مولاى أن تعاقب صاحب هذا البيت جزاء له على فعلته!

أمر الملك بإحضار الفقير صاحب البيت.

– هل وقع هذا الرجل فى الليل من فوق سقف بيتك؟ سأل الملك.

– نعم يا مولاى، ولحسن الحظ أنه قد وقع فوقى وإلا انكسرت قدمه. أجاب الفقير.

– مادمت قد اعترفت أمامى يجب شنقك فى الحال. أمر الملك.

احتج الفقير متوسلا:

– أى ذنب اقترفته أيها الملك؟ إن اللص هو المذنب الذى ينبغى شنقه.

– اخرس ولا تنطق بكلمة. كيف تجرؤ وتعلمنى ما الذى ينبغى فعله؟

رأى الفقير أن الأمر يزداد سوءا وأن الملك الظالم يفتقر إلى العدل والعقل فقال :

– أيها الملك العظيم، إن الذنب ليس ذنبى والخطأ ليس خطئى، بل هو ذنب البنّاء الذى وضع حصيرة مهترءة فوق السقف.

- إذن، أطلقوا سراحه واشنقوا البناء أمر الملك.

قبض الحراس على البناء وساقوه إلى المشنقة.

- إن لى طلبًا واحدًا يا مولاى. قال البناء متوسلا.

- قل، ماذا تريد وما تبتغى ؟ قال الملك.

- أنا لست مذنبا يا مولاى، بل المذنب هو صانع الحصير، الذى صنعها رقيقة مهترءة، ولو أنه اهتم بعمله وصنعها قوية ومتينة لكان الشخص يسير عليها دون أن تتمزق.

أمر الملك بإطلاق سراح البناء والقبض على الصانع الذى شغل الحصيرة.

- أنت الذى صنعت الحصيرة؟ سأل الملك.

- نعم يا مولاى. أجاب الصانع.

- اشنقوه فى الحال، هذا هو المجرم الحقيقى إذن. أمر الملك.

- اسمح لى أيها الملك بكلمة قبل أن تشنقنى، لقد كنت دائما أصنع حصيرا متينا وقويا، حتى بدأ جارى فى تربية الحمام منذ فترة قريبة، وكان حمامه يطير ويدور فى السماء فأخذت أنظر إليه وأتابع طيرانه، وبسبب ذلك صنعت حصيرا ضعيفا مهترئا. المذنب إذن هو جارى مربى الحمام. قال صانع الحصير.

أطلق الملك سراح الصانع وأمر بالقبض على مربى الحمام وشنقه.

- مولاى الحاكم، إنى أهوى تربية الحمام ومشاهدته وهو يحلق فى السماء، وليس فى هذا ذنب ولا خطيئة، بماذا يفيد شنقى؟ من الأفضل للناس أن تشنق اللص بدلا من رجل فقير مثلى. قال مربى الحمام.

- حقا، إن المذنب فى كل هذا هو اللص. أحضروا اللص واشنقوه فى الحال.

قبض الحراس على اللص وساقوه إلى حبل المشنقة. لكن اللص كان طويلا والمشنقة قصيرة. وكلما حاولوا شنقه كانت قدماه تلامسان الأرض فى كل مرة. ذهب الحراس إلى الملك وقالوا:

– مولانا حاكم العالم، إن اللص له قدمان طويلتان للغاية، تلامسان الأرض كلما حاولنا شنقه. فما العمل يا مولاى؟

ثار الملك وقال فى غضب:

– ألهذا الأمر التافه البسيط تسألوننى؟ إذا كان اللص طويلا هكذا ، فلما لا تبحثون فى أنحاء البلاد عن رجل أقصر منه؟ ألا تستطيعون شنق رجلا أقصر طولا من هذا اللص الطويل؟ هل من المعقول أن هذا الأمر البسيط لا تستطيعون حله أيها الحمقى الأغبياء؟

خرج الحراس إلى الطريق فشاهدوا رجلا قصير القامة يسير وهو يحمل كيسا من الدقيق فوق ظهره. قال الحراس فيما بينهم: " هذا الرجل القصير يصلح تماما لنا، فأوامر الملك لابد أن تطاع".

أمسك الحراس بالرجل القصير وقادوه إلى المشنقة. قال الرجل محتجا:

– ما الجرم الذى فعلته؟ لماذا تريدون شنقى؟

وفى هذه اللحظة دخل الملك المولع بالشنق. فصرخ القصير مستنجدا:

أرجوك أيها الملك أن تسمع رجائى، أنا رجل مسكين أجمع الحطب من الجبال لأبيعه فى المدينة. أسعى وأحمل الأثقال على ظهرى لأطعم أولادى، فأى ذنب ارتكبته؟ ولماذا أمرتم بشنقى؟

– أيها الغبى الأحمق، كيف لى أن أعرف إن كنت مذنبا أم لا؟ إنما المطلوب هو شنق رجل واحد، لقد أردت شنق اللص لكنه طويل القامة تلامس قدماه الأرض كلما حاولنا شنقه، أما أنت أيها القصير فطولك مناسب تماما للمشنقة. قال الملك وهو يسب القصير.

- يا مولاى الحاكم، ليس من العدل أن تشنقوا قصيرا بريئا مثلى وتتركوا اللص المذنب حرا طليقا. وإذا كان السبب فى ذلك أنه طويل، فأمروا أن يحفر الحراس الأرض بعض الشيء أسفل المشنقة.

فكر الملك طويلا طويلا ثم قال:

- هذا رأى مصيب، أطلقوا سراح القصير واشنقوا اللص بعد أن تحفروا الأرض تحت أقدامه.

أخذ اللص يحث الحراس ويتعجلهم إلى الحفر قائلا:

- أسرعوا أسرعوا بالحفر وإلا فسوف يصبح الوقت متأخرا، هيا اشنقونى بسرعة.

- لماذا تطلب الموت بسرعة هكذا أيها اللص؟ سأل الملك فى دهشة.

- يا مولاى الحاكم، لقد مات ملك فى الجنة منذ لحظة، لكنه أوصى قبل أن يموت وقال: "أول إنسان يموت بعدى يصبح ملكا عليكم فى الجنة"، ولهذا أتعجل الموت حتى يشنقوننى بسرعة وأصبح ملكا فى الجنة قبل أن يسبقنى أحد آخر، هيا اشنقونى بسرعة أرجوكم. صرخ اللص فى الحراس يتعجلهم مرة أخرى.

فكر الملك فى حسد وطمع: "ليس سهلا أن تصبح ملكا فى الجنة، هذا منصب جدير بى وليس بهذا اللص الذميم، أنا الذى سيصبح ملكا فى العالم الآخر". وأمر الملك الحراس:

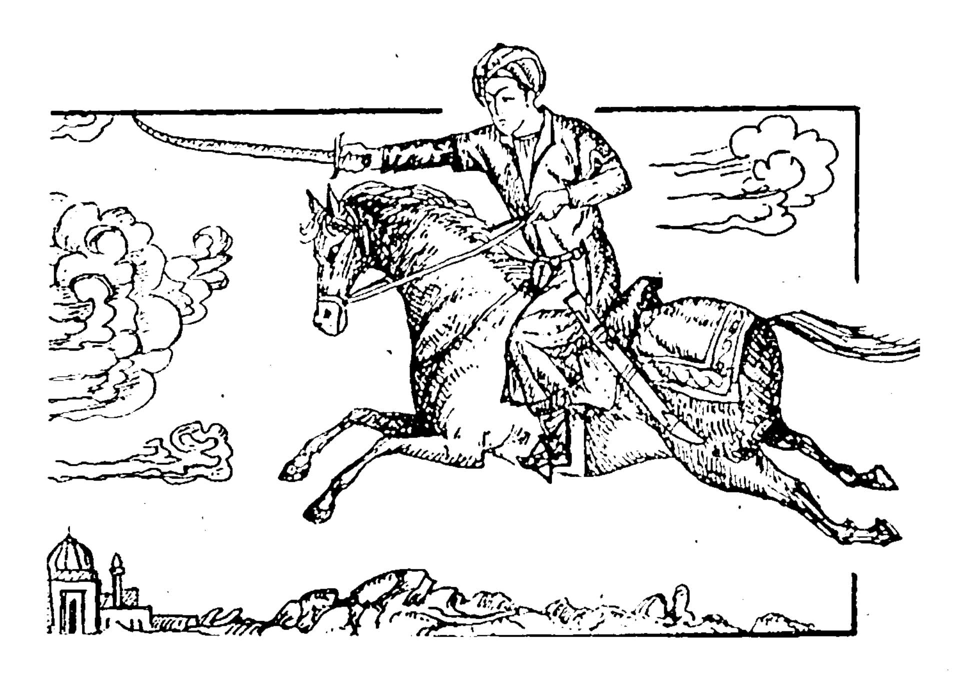
- أطلقوا سراح اللص واتركوه لحال سبيله، واشنقونى أنا!

أوامر الملك يجب أن تطاع. أطلق الحراس سراح اللص وشنقوا الملك الأحمق.

وهنا انتهت الحكاية.

* * *

بطل بلاد الشمس الجسور



قديما فى زمن قد لا يذكره أحد عاش رجل عجوز مع ابنه الوحيد رستم الذى بلغ من العمر عشرة أعوام. وكان العجوز يعيش فى فقر مدقع وبؤس شديد. فكان يرتدى الخرق والملابس المهلهلة. ويعصف به الجوع فى الكثير من الأيام. وفى أحد الأيام ذهب العجوز مع ابنه إلى جاره الغنى سالم باى وسأله وهو يبكى بمرارة قائلا:

- أيها الوالد العزيز سالم باى، اصنع لنا معروفا وساعدنا. وفى المقابل سوف أعمل لديك مع ابنى رستم ولن نبخل بجهدنا من أجلك.

نظر سالم باى إلى العجوز. ثم أخذ يتفحص الولد بعينيه من رأسه إلى أخمص قدمه وقال:

- أنا لا أرمى بالخبز على قارعة الطرق. وأنت لم تسدد لى بعد دينك القديم. وقد أصبحت عجوزا للغاية وسوف تموت إن آجلا أم عاجلا. وحينئذ لن أسترد مليما من دينى وتضيع نقودى هباء.

وقف العجوز فى دهشة وذهول وقال وهو يرتعد:

- عن أى دين تتحدث أيها السيد سالم باى؟ أنا لم آخذ منك شيئا من قبل.

جحظت عينا باى إلى الخارج وأخذ يصرخ بصوت عال:

- اخرس يا عديم الضمير. هل ترفض أن تسدد دينك لى؟

ثم انهال باى بالعصا فوق جسد العجوز حتى وقع على الأرض والدموع تجرى على خديه. وانتاب الذعر رستم الصغير فارتمى على والده يعانقه وهو يبكى. واستجمع العجوز ما تبقى له من قوة ونهض يسأل الباى ثانية:

- سامحنى أيها السيد لو أننى نسيت. وأرجوك أن تذكرنى بهذا الدين. وتخبرنى متى أعطيته لى؟

قال باى:

- إنك مدين لى من رأسك إلى أخمص قدمك أيها اللص عديم الضمير. من الذى أقرضك المال لدفن زوجتك بعد موتها؟ من الذى أعطاك الحصان والعربة كى تنقل الشيخ المقرئ إلى المقابر؟ ومن الذى أعد الطعام فى منزله للمعزين الذين أتوا للعزاء وتجاوز عددهم المائة رجل؟ ثم جلست مع ابنك وأكلتم من الطعام الذى أحضرته وقتها.

أخذ العجوز ينتفض من الغيظ. فلم يسمع فى حياته من قبل أن أحدا فى العالم يستطيع الكذب بهذه الوقاحة. وفكر فى نفسه: "لكن ما باليد حيلة. لو أننى اعترضت على كلامه فسوف أموت من الجوع". وكظم العجوز غيظه وقال:

- اعطف علينا يا سالم باى. وارحم عذاب ابنى الصغير.

وفى هذا الوقت وصل الشيخ المقرئ إلى سالم باى. وما إن رآه سالم باى حتى قال له:

- لقد وصلت فى الوقت المناسب كى تحكم بيننا أيها الشيخ.

- ما الذى حدث؟ - سأل المقرئ - أنا رهن الإشارة أيها الوالد سالم باى.

- هل تتذكر العزاء الذى أقمته بمنزلى فى العام الماضى للمرحومة زوجة هذا الرجل العجوز؟ والطعام الذى أحضرته من بيتى للمعزين؟

فطن المقرئ لهدف سالم فأكد على كلامه قائلا:

- بالطبع أتذكر. كما أتذكر المرحومة نفسها جيدا. وأذكر كيف قمت بواجبك إزاء المعزين حينذاك.

- هاه، هل سمعت قول الشيخ أم لا؟ - قال باى - أسدى لك صنيع الجار لجاره وأنفق عليك المال. وفى النهاية ترفض أن تسدده لى يا معدوم الضمير.

وصار المقرئ يوبخ العجوز وقال:

- خسئت أيها الرجل. كان من الواجب عليك أن تقدم لسالم باى فروض الشكر والثناء بدلا من أن تسرقه. إن ما أنفقه عليك سوف يظل دينا فى رقبتك.

وظل العجوز يبكى ويولول وهو واقف وقال:

- لم تكن تنقصنى سوى هذه المصيبة. ألا يكفيكم أننى وابنى الصغير لم نذق الطعام منذ أيام؟ فمن أين آتيكم بالمال الذى تطلبونه؟

أخذ المقرئ يهدئ من روع العجوز وقال:

- يا لك من أحمق مخرف أيها العجوز. لا داعى للبكاء والعويل. فإن والدنا سالم باى لن يطالبك الآن بسداد كل المال. وإنما سوف تسدده تدريجيا على دفعات. فحين يكبر ابنك يسدد هو الدين بأن يعمل بقيمته لدى سالم باى.

أدرك العجوز أنهم لا يطلبون منه أن يدفع شيئا فى اللحظة والتو فوافق على الأمر مكرها وقال:

- حسنا، سوف أسدد له دينه على النحو الذى اقترحته.

لكن المقرئ اعترض وقال:

- إن كلمة "حسنا" وحدها لا تفى بالغرض المطلوب.

وأحضر المقرئ ورقة وريشة وسأل سالم باى:

- بكم يدين لك هذا العجوز أيها السيد؟

- خمس عشرة قطعة ذهبية - قال سالم باى.

صعق العجوز لدى سماعه الرقم المزعوم. فهو لم ير بعينيه فى حياته من قبل قطعة ذهبية واحدة. ما بالك بخمس عشرة قطعة. وسجل المقرئ المبلغ الذى قاله سالم باى على الورق. وأرغم العجوز على أن يبصم بأصبعه أسفلها. ثم جعل رستم هو الآخر يبصم على الدين للتأكيد عليه. ثم قال المقرئ للعجوز:

- والآن يمكنك الذهاب أيها العجوز. فقد ضمنت لابنك عملا وخبزا له فى المستقبل.

ذهب العجوز مع ابنه يسألان باى عن قطعة خبز فخرجا من عنده مدينان له حتى رأسيهما.

عاد العجوز إلى بيته ورأى جاره صديق الإسكافى يجلس بجوار الباب. فحكى العجوز لصديق عن سالم باى وما جرى معه وكيف قام باى بالاحتيال عليه. وتنهد العجوز بحزن:

- أين أستطيع أن أجد العون والحماية؟

- نعم أيها الأخ - قال الإسكافى - لقد كنت أمامهم كالفريسة التى وقعت بالشباك، وليس بمقدورك أن تفعل شيئا. فإن حاكم المدينة نفسه رجل سفاح مستبد ملعون. وهو صهر لسالم باى فى نفس الوقت. لذا فلا مفر لك سوى الاستسلام لقدرك.

رقد العجوز للنوم على فراش عار من الأغطية وضم إلى صدره ابنه رستم. كان الجوع والألم يعصفان به. وطافت بذهنه خيالات سوداء ولم يجد النعاس طريقه إلى العجوز.

اقتحم الحجرة فجأة ثلاثة رجال. اقترب أحدهم من العجوز وضربه بقدمه وهو ينادى عليه بصوت أجش:

– انهض أيها الوغد اللئيم.

قام العجوز وهو خائف يرتعد وقال:

– ماذا تريدون منى؟

فرد عليه أحد الرجال بصوت صارم وقال:

– هيا اترك المنزل واغرب بوجهك من هنا على وجه السرعة.

فكر العجوز أن هناك خطأً ما فى الأمر فقال بصوت واهن يستعطفهم:

– ما هذا الذى تقولونه؟ ولماذا تريدون منى الخروج من بيتى؟

صرخ الرجل الثانى بصوت أعلى وقال:

– لا تحاول خداعنا بهذا الكلام الأجوف. فنحن حراس من مركز شرطة المدينة وقد جئنا لتنفيذ أمر القاضى. فأنت بعت منزلك فى العام الماضى لسالم باى وقبضت منه ثمنا له خمسة عشر قطعة ذهبية، لهذا ينبغى عليك ترك المنزل فورا.

– ما هذا الكلام الذى تقولونه؟ – هتف العجوز فى حزن – فأنا لم ولن أبع منزلى لأحد أبدا. ولا أفكر فى بيعه.

– إذا كنت لم تبعه كما تدعى فما هذه الورقة إذن؟ – قال الرجل الثالث وهو يلوح فى وجه العجوز بورقة – هذا عقد بيع مذيل ببصمتك أنت وابنك. وقد أمرنا الحاكم أن نلقى بك وبابنك فى حفرة بالسجن إن لم تخرجا طوعا من البيت وتسلماه لنا.

ترك العجوز بيته مكرها وخرج منه مع ابنه. وأشفقت على حاله زوجة جاره الإسكافى. فمنحته شطيرة خبزتها له من الذرة ودعت له بالتوفيق فى طريقه.

احتضن العجوز ابنه رستم وانطلق نحو الجبال.

سارا طويلا يقطعان السهول والوديان والصحروات. وكان رستم بين الحين والآخر يسأل والده قائلا: "إلى أين نحن ذاهبان يا والدى؟" فينظر إليه العجوز ولا ينطق بكلمة. فلم يكن هو نفسه يدرى إلى أين هما ذاهبان. وظلا يسيران حتى خارت قواهما تماما. وأخيرا وصلا إلى غابة. فجلسا أسفل شجرة يستريحان. أسند العجوز ظهره إلى الشجرة يستريح وراح فى نوم عميق. ما لبث أن استيقظ بعد فترة وفتح عينيه متجمدا من الفزع والرعب. فقد رأى دبة آتية من أحراش الغابة تسير ومعها صغيرها وتتجه ناحية العجوز. ضم العجوز ابنه رستم إلى صدره وفكر أن نهايتهما قد دنت. وصرخ رستم بصوت عال من الخوف. فقد كانت أول مرة له يرى فيها دبا. لكن الدبة اقتربت منهما بهدوء ولطف وأمسكت بيد رستم وساقته إلى ابنها الدب الصغير. ثم عادت إلى العجوز الذى فقد وعيه من الصدمة فحملته الدبة بين يديها وخرجت به إلى كهفها.

انقضى الليل وأشرقت الشمس بنورها. وعاد العجوز إلى وعيه وفتح عينيه ينظر حوله. فرأى رستم يجلس مع الدب الصغير يأكلان العسل.

لم يصدق العجوز نفسه وفرك عينيه بيديه وهو يفكر: "هل هذا الذى أراه حلم أم علم؟". ونادى العجوز على ابنه. وما إن سمع رستم صوت والده حتى فرح وقال:

– هيا انهض يا والدى لتأكل العسل معنا.

– ومن هذا الذى تجلس معه؟

– هذا صديقى. وقد حملتك إلى هنا أمه وقالت لى: "دع والدك يرتاح ولا توقظه. وسوف أترك معك ابنى الدب الصغير يؤنسك. ويمكنكم أن تأكلوا من هذا العسل الذى احضرته. أما أنا فسوف أخرج إلى الغابة".

لم يدر العجوز إن كان ما قاله رستم حقيقة أم خيالا. لكنه فجأة رأى الدبة تقف عند مدخل الكهف وهى تحمل خبزا ولبنا. انتفض العجوز واقفا من المفاجأة وانحنى أمام الدبة فى خشوع. وضعت الدبة الخبز واللبن أمام العجوز وقالت له برقة:

– تفضل اجلس لتأكل. فقد أحضرت لك بعض الخبز واللبن. وبعد ذلك سوف نتحدث معا.

جلس العجوز يأكل وعلامات الدهشة بادية على وجهه من وداعة الدبة التى نظرت إليه وقالت له:

– لا تندهش يا والدى. فإن لى العديد من الأصدقاء الرعاة الذين يرعون مختلف القطعان للسادة الملاك. وقد أحضرت منهم الخبز واللبن لكما.

اطمأن العجوز بعد أن سمع كلمات الدبة وأكل حتى شبع. ثم أخذ يقص عليها كل ما جرى له والمصائب التى وقعت فوق رأسه. وبعد أن استمعت الدبة لحكايته اقترحت عليه قائلة:

– ما قولك لو عشت معنا فى هذا الكهف؟ ولن يستطيع أحد أن يطالك بسوء فى هذا المكان. كما أن ولدينا قد تصادقا معا.

وهكذا عاش العجوز مع ابنه رستم فى كهف الدبة. وكان العجوز يخرج إلى الغابة لجمع الحطب. وفى الليل تقوم الدبة بجر الحطب إلى بوابة المدينة. وفى الصباح يذهب العجوز إلى المدينة ويبيع الحطب الذى جرته الدبة. أما رستم فقد قضى وقته فى اللعب واللهو مع الدب الصغير.

كبر الصغار وصارا يلعبان معا لعبة المصارعة. وكان الرعاة يعجبون برستم وهو يصارع الدب لقوته ومهارته فى القتال. وبعد مرور خمس سنوات أصبح رستم أقوى الفتيان على الإطلاق. ولم يستطع أحد منهم أن يهزمه أبدا. وأصبح الرعاة يطلقون عليه اسم: إيك بالفن – بمعنى البطل الدب.

وذات يوم خرج رستم مع أبيه إلى المدينة لبيع الحطب. وعند عودتهما قبل الغروب لمحا على الطريق أحد السادة يسير على جواد أشهب رشيق. والسيد يرتدى ثيابا

فاخرة مطعمة بالذهب والأحجار الكريمة. ومن خلفه يسير عدد من الناس. نظر العجوز إلى السيد وهتف يقول بخوف:

- انظر يا رستم إلى هذا السيد. إنه سالم باى بشحمه ولحمه الذى خدعنا وسلبنا منزلنا.

وما إن أنهى العجوز عبارته حتى سمع رستم صوتا يصرخ:

- انجدنى يا رستم.

وهنا رأى رستم صديقه الدب مربوطا إلى ظهر أحد الجمال التى تسير فى ركب سالم باى. فقد هجم رجال سالم على الكهف أثناء غياب العجوز ورستم. وأسروا الدب فى هذه الأثناء.

قفز رستم فوق الجمل وحل وثاق الدب من الحبال وحرره. فالتف الرجال والصيادون حول رستم ليمسكوا به. وما إن اقترب أحدهم منه حتى رفعه رستم من خصره فى الهواء وطوحه بعيدا على الأرض. فوقع الرجل بلا حراك. وخاف الآخرون ولم يقتربوا من رستم الذى انقض على سالم باى. لكن سالم استطاع أن يناور بفرسه وفر هاربا منه.

وذاع صيت رستم فى طول البلاد وعرضها. وأصبح الناس يتحدثون عن قوته وبأسه الشديد فى كل مكان. أما سالم باى فكان مرعوبا لا ينام من الخوف.

لكن حاكم المدينة صهر سالم باى لم يعجبه الأمر. فأصدر أوامره بالقبض على الفتى الجسور الذى استطاع أن يحرر الدب من أيدى سالم باى ومن الصيادين الذين كانوا معه. وطلب أن يحضروا هذا الفتى إليه. لكن أحدا لم يرغب فى القيام بتنفيذ هذا الأمر. فكان كل من يرسلهم الحاكم للقبض على رستم يعودون ويقولون: "لم نجد له أثرا فى أى مكان". وعرف سالم باى من أحد الرجال أن رستم هو ابن العجوز الذى خدعه سالم وسلبه منزله. فازداد خوف سالم عندما عرف ذلك وهرول إلى صهره الحاكم يطلب منه المساعدة. وكان الحاكم هو الآخر قد أصابه الخوف والهلع. لكنه جمع مئات

الرجال وخرج على رأسهم إلى الغابة كى يوقع برستم. وفى الطريق أعلن الحاكم للحراس قائلا:

- من ينجح فيكم فى الإمساك برستم حيا، سوف أزوجه من ابنتى وأجعله مساعدا لى.

وساروا طويلا حتى وصلوا إلى أطراف الغابة فتوقفوا. وقال لهم الحاكم:

- استريحوا هنا قليلا، وفى الليل اخرجوا متسللين للقبض على رستم أثناء نومه. لأننا لو خرجنا وراءه الآن سوف تصله أصواتنا ويفر مختبئا إلى الجبال فلا ندركه.

كان رستم نائما بجوار صديقه الدب عند مدخل الكهف. وفجأة دخلت الدبة وصارت توقظهم. فسألها رستم:

- ماذا جرى أيتها العزيزة؟

- يريدون الإمساك بك - قالت الدبة - لقد جاء الحاكم مصطحبا معه مئات الحراس.

- وما الذى تنوين عمله؟

- أنوى إنقاذك منهم.

- لا، هذا ليس حلاً. فإلى متى سوف أظل هاربا منهم؟ من الأفضل أن نواجههم ونطردهم من هنا.

- لقد جاءوا بأعداد غفيرة وكلهم يمتطون الجياد. وأنت هنا وحدك. حتى والدك خرج إلى المدينة لبيع الحطب. فاهرب قبل فوات الأوان.

لكن رستم رفض أن يهرب. فسألته الدبة:

- حسنا. لكن ما الذى سوف تفعله؟

- سوف أحارب الأعداء.

هز الدب صديق رستم رأسه واحتضنه.

مضى فرسان الحاكم عبر الأحراش الكثيفة يقطعون الغابة. وترددت في المكان أصواتهم ووقع حوافر خيولهم.

وانتظر رستم وصديقه الدب اقتراب الأعداء منهم. ثم صارا يقذفانهم بالأحجار التي انهالت على رءوسهم. وأخذت الدبة هي الأخرى تقذف بالأحجار على الفرسان. وحميت المعركة وأخذ الفرسان يقعون واحداً بعد الآخر من فوق جيادهم. والآخرون ينقلبون على جنبهم من سيل الصخور التي أمطروهم بها.

وأخيرا نفذت الصخور والأحجار من يدي رستم. وعندما رأى الحاكم أن سيل الصخور المنهمر قد توقف. دفع برجاله ثانية إلى الكهف. فصار رستم يقذفهم بغصون الأشجار كي يفسحوا له طريقا بينهم. وأخذت الدبة هي الأخرى تقذفهم بالجذوع السميكة وتسقطهم على الأرض فتتكسر ضلوعهم. رأى الحاكم رجاله يصرعون فولى هاربا ومن خلفه من بقي من الأتباع، تاركين وراءهم عشرات الخيول والكثير من السلاح. وأخذ رستم والدب يجمعان السلاح والجياد وينقلانها إلى الكهف. وذاع خبر هزيمة الحاكم في كل مكان.

كاد الحاكم أن يجن من الغيظ لما جرى في الغابة. وأخذ يصرخ ويتوعد رستم. ثم أعلن للجميع أن من ينجح في القبض على رستم سوف يمنحه ذهبا بقدر وزن رستم نفسه.

كانت هناك امرأة عجوز شمطاء. بلا شعر على رأسها ولا أسنان في فمها. عوراء قبيحة الهيئة. سمعت المرأة عن المكافأة التي أعلنها الحاكم فذهبت إليه وقالت له:

– إذا سمحت لي أيها الحاكم فسوف أقبض لك على هذا البائس رستم.

– أخبريني إذن ماذا يلزمك لأجل القيام بهذه المهمة؟ – قال الحاكم للمرأة الشمطاء.

– أن تحضر لى خمسة؛عشر رجلا تثق فيهم. بشرط أن يكونوا جميعا جُرداً بلا لحى أو شوارب أو شعرة واحدة على وجوههم. وأعطهم زادا يكفيهم لشهر. وأعدك أننى سوف أنجح بعد ذلك فى الإمساك برستم.

فعل الحاكم كل ما طلبته منه العجوزة الشمطاء.

جعلت العجوزة الرجال الجرد يرتدون ملابس النساء ويتنكرون فى هيئتهن. ثم خرجوا إلى الغابة وأخذوا فى الشجار والضرب فيما بينهم. واستمروا فى الضرب والصراع حتى ازرقت وجوههم وظهرت الكدمات عليها، وتحطمت أنوفهم.

ركض رستم والدب نحو الضوضاء يستطلعان الأمر. فضربت المرأة الشمطاء رأسها بالصخر وشجته. ثم مزقت ملابسها وجلست تولول وتبكى:

– من يخبرنى بمكان رستم؟ أين قاهر الأشرار؟ ليته يأتى كى يسمع شكوانا ويرى بنفسه مصيبتنا التى حلت بنا. إن رغبتى الأخيرة قبل أن أموت هى أن أراه وأقص عليه كل ما جرى لنا.

ظهر رستم أمامها وقال:

– لا تبكى أيها الأم. فأنا رستم الذى تبحثين عنه. من الذى أصابك بهذه الجروح؟

وهنا التف حول رستم الرجال المتنكرون فى ملابس النساء. وارتموا على الأرض يقبلون أقدامه ويستنجدون به. وتكلمت المرأة الشمطاء:

– نحن نساء مساكين استطعنا بالكاد أن نفلت من ظلم الحاكم الشرير. فبعد هزيمته النكراء فى الغابة أمامك. جمع كل الفقراء وأمر أن يضربوا بالعصى والشوم. وبعد أن ضربنا الحراس أخذوا رجالنا وأطفالنا إلى السجون. وطردونا من بيوتنا وشردونا. فلم يبق لنا سواك كى تدافع عنا وتحمينا من الظلم والعدوان.

– كفوا عن البكاء – قال رستم – وامكثوا هنا حتى أدبر لكم الأمور.

أشار لهم رستم إلى المكان ليقيموا به. وأحضر لهم طعاما ليأكلوا. وعندما هبط الليل استعد الجميع للنوم. ثم وصل فجأة الإسكافى صدِّيق وقال لرستم:

- مرحبا يا رستم. مالى أراك اليوم كئيبا هكذا؟ أتريد أن أقص عليك حكاية؟

- قص وسوف أستمع إليها - قال رستم.

قال الإسكافى:

- فى زمن من الأزمنة عاش رجل يعمل إسكافيا. عاش الرجل حياة صعبة ومر بأوقات عصيبة. وكانت له ابنة واحدة على قدر كبير من الجمال والذكاء وحسن الخلق. فأرسل الكثير من الأثرياء والسادة الخطاب إليها على الرغم من فقر أبيها الإسكافى وتواضع حاله. لكن الرجل لم يقبل بكل الخطاب والعرسان لأن ابنته كانت تحب ابن جارهم الذى كانت تلعب معه فى طفولتها. لكن الولد غادر المدينة بعد أن استولى الأغنياء الأشرار على منزل أبيه. ومضت السنون وكبر الولد حتى أصبح شابا يافعا قويا لا يضارعه أحد فى بأسه ولا فى شجاعته. وكان للشاب قلب كبير يرق لحال جميع الفقراء. وأصبح اسمه يتردد على ألسنة الناس بفخر وإعجاب. وسمع عنه الإسكافى وابنته وفرحا بأخباره. وظنا أنه سوف يعود قريبا إليهما. لكن الوقت مضى ولم يعد الفتى الجسور إلى ابنة الإسكافى.

جلس رستم يصغى باهتمام حتى قال صديق عبارته السابقة فهتف رستم قائلا:

- إن فتاك الجسور هذا إنسان عديم الضمير.

واصل صديق الإسكافى حكايته وقال:

- عرف الحاكم بأمر ابنة الإسكافى وبجمالها. وعلى الرغم من أنه متزوج بأربع نساء، إلا أنه أرسل الخطاب والهدايا الثمينة لخطبة الفتاة ابنة الإسكافى. فرفض والدها خطاب العريس صاحب المقام الكبير. فأمر الحاكم بربط الإسكافى وإلقائه فى النهر وأحرق منزله. ثم خطف الفتاة وأخذها عنوة إلى بيته. واستطاع الجيران أن ينقذوا الإسكافى من الموت وينتشلوه من النهر. أما الفتاة فصارت تتحمل أنواع العذاب وتتذرع بالصبر فى انتظار أن يخلصها فتاها الموعود. وخرج والدها كى يعثر على الفتى صاحب القلب الكبير ويقص عليه حكايته ...

أراد صديّق أن يكمل الحكاية لكنه توقف عن السرد بعد أن دخل عليهم أحد الرجال المتنكرين وقال بصوت نسائي:

– إن أمنا تحتضر يا رستم. وقد طلبت أن تراك قبل أن تموت.

ذهب رستم إلى العجوز الشمطاء التي أخذت تتظاهر بالموت وأشارت له أن يقترب منها كي تقبله وتعانقه. وانحنى رستم عليها يقبلها فدست في أنفه نشوقا مخدرا قوى المفعول. وعندما وقع رستم على الأرض فاقدا للوعي نادت العجوز على بقية الرجال المتنكرين:

– هيا بسرعة نفذوا ما أقوله لكم.

أوثقوا رستم بالحبال المتينة. وذهبوا به إلى المدينة.

كاد الحاكم أن يطير من السعادة والفرح. فقام بوضع الأبسطة والمفارش الملونة على الحوائط. وجمع الناس وجعلهم يصطفون في صفوف أمامه. وجاءوا برستم وهو مقيد مخدر في حالة يرثى لها. وقال الحاكم للناس:

– سوف أوزع عليكم جميعا الهدايا والعطايا ولن أبخل على أحد منكم بها. فإنني أريدكم أن تفرحوا مثلى.

وظهر سالم باى وقال مخاطبا الناس:

– غدا ينبغى أن يجتمع الناس في ميدان السوق. فسوف نشنق هذا الوغد وندفنه أمام الجميع.

قال سالم باى ما قاله وهو يقف متفاخرا بنفسه . يدفع بصدره إلى الأمام ويبرم شاربه.

لكن العجوز الشمطاء اعترضت قائلة:

– إنك تخطئ في قولك هذا يا سالم باى. أولا ليس من الصواب أن يظهر هذا الفتى أمام الناس. وثانيا ينبغى أن تشدد عليه الحراسة قبل أن يفيق من المخدر فيقطع حباله ويريكم ما لا تحبون أن تروه.

التفت الحاكم إلى المرأة وسألها:

– أخبريني برأيك أيتها الأم. وسوف آخذ به على الفور.

– من الأفضل أن يمضى الأمر على النحو التالى – قالت العجوز – يوجد فى جبل الشيطان حفرة عميقة ليس لها قاع ولا قرار. نلقه فى هذه الحفرة المسكونة بالعفاريت والديناصورات التى تبحث عن طعام لها.

ضحك الجميع يقهقهون:

– لو أن الشيطان نفسه رآى وجهك أيتها العجوز لمات من الرعب.

وفعلوا ما اقترحته عليهم العجوز. فذهبوا بالفتى المسكين رستم إلى جبل الشيطان، وألقوا به فى قلب الحفرة التى ليس لها قرار.

كان رستم أثناء حياته بالغابة قد تعلم العزف على المزمار. وكان يعزف دائما عليه عند طلوع الفجر. فكان الرعاة عندما يسمعونه فى نومهم يدركون أن تباشير الصبح قد هلت. فيخرجون لرعى قطعانهم. وفى هذا الصباح ساد السكون المكان ولم يُسمع صوت المزمار. وظن الجميع عندما رأوا نور الصباح أنهم قد استيقظوا مبكرا من نومهم. أما والد رستم فقد انقبض قلبه فى هذا الصباح وشعر بثقل يجثم على صدره. فقام من نومه مفزوعا وهرع إلى المكان الذى اعتاد رستم النوم فيه. فلم يجد سوى طاقيته ملقاة على الأرض. تملك القلق من العجوز فصرخ بكل قوته:

– ر س ت م.

سمع الرعاة صوت الأب وهو ينادى. فهرعوا إليه من كل الأنحاء وأخذوا جميعا ينادون على رستم. وفجأة عثر العجوز على علبة صغيرة ملقاة على الأرض بها بقايا النشوق المخدر. وكان لها غطاء فضى محفور عليه اسم مالك العلبة. وصرخ العجوز وهو يرفع العلبة بيده قائلا:

– ها هو الخائن الذى غدر بابنى رستم. انظروا أيها الأصدقاء. انظروا من خطف رستم. إن من كانوا هنا بالأمس ليسوا نساء كما بدا لنا. بل إنهم هم الأشرار الذين تآمروا على رستم. وها هى العلبة الدليل على ذلك. فأنا أعرف صاحب هذه العلبة جيدا. وقد رأيتها عنده ذات مرة. إنه بورى الأجرودى قريب سالم باى.

أمسك العلبة أحد الرعاة العارفين بالكتابة وأخذ يتهجى الحروف المنقوشة عليها وقال:

- إن العجوز يقول الحقيقة.

أما رستم فبعد أن قضى ليلته في الحفرة، أفاق من غيبوبته. وشعر أن يديه وقدميه موثقتان بإحكام. وكان الظلام دامسا من حوله. وعلى البعد في هذا الظلام كانت تسمع أصوات عويل وأنين. أخذ رستم يحاول أن يتحرر من الحبال ويجذب يديه منها بلا جدوى. لكنه استجمع كل قواه ونجح أخيرا في قطعها. وبعد أن تحرر منها مضى رستم ناحية مصدر صوت الأنين الذى سمعه. فوجد مدخلا لنفق آخر لكنه كان مسدودا بالحجارة. أزاح رستم الحجارة من على المدخل وسار بالنفق فرأى على الأرض عظامًا متناثرة. وعلى الحوائط رسومات لأناس مسحورين وفتيات معلقين بالسلاسل. وسار رستم حتى عثر على حجرة في عمق النفق. دخلها فرأى مصطبة من الحجر مفروشة بجلد الحيوانات وفرائها. وحولها مصابيح خافتة. وخلف هذه الحجرة كانت هناك حجرة أخرى.

فى تلك الحجرة كانت هناك فتاة شابة في السابعة عشرة من العمر. شعرها مجدول فى أربعين ضفيرة مربوطين بأربعين عموداً من الحديد. وكانت ساقاها مغمورتين حتى الركبتين فى وعاء فخارى كبير به ماء متجمد. ويداها مصلوبتين على عوارض خشبية. وكانت الفتاة قد خارت قواها تقريبا من المعاناة وأصبحت أنفاسها تخرج بالكاد من صدرها. وكان لها وجه آية فى الجمال يشع نورا أجمل من نور القمر نفسه. وما إن رآها رستم حتى أصابته الدهشة وفكر: "من تكون هذه الفتاة؟ ولماذا تتعرض لكل هذا العذاب؟". وسرعان ما أخرج قدميها من وعاء الماء المثلج، ونزع السلاسل من ضفائرها وحرر الفتاة المسكينة.

كانت الفتاة خائرة القوى حتى إنها تهاوت على الأرض. وكانت تبدو للناظر ميتة لولا أن صدرها كان يعلو ويهبط بالكاد.

وفجأة دخل الحجرة كائن مخيف الهيئة بدرجة مذهلة. أحدب الظهر، ذو لحية منكوشة، مقوس القدمين. ويدين إلى درجة أن عرضه كان أكبر من طوله. ومن خلفه

دخل رجل عجوز فى السبعين من العمر. ذو أنف مدبب طويل كالعصا التى يحملها فى يده. وعلى جبهته خصلتان نحيلتان من الشعر وبقية رأسه صلعاء تماما. كان الرجل البدين ذو الهيئة المخيفة معروفا فى أوساط المجرمين والقتلة. أما العجوز فكان من الخبثاء المنافقين، يشجع المجرمين على نهب الناس وسرقتهم. وقد ساعد العجوز المجرم البدين فى خطف الفتاة. وبعد أن أعجب البدين بجمالها الباهر قرر أن يتزوجها. لكن الفتاة رفضت الزواج منه. فصار يسومها العذاب كى تستسلم له. ودخل الخبيث معه كى يقنعها بالعدول عن رفضها. وعندما شاهدا رستم قال المجرم البدين:

– يا للعجب، من هذا الذى حول حجرة الشر والتعذيب إلى حجرة العطف والحنان؟

وأخذ يقهقه من الضحك. لكن رستم ظل صامتا. فاقترب البدين منه وصرخ فيه:

– قل لى من أنت أيها الغر وإلا سوف تموت فورا ولن نعرف حقيقتك بعد ذلك.

رفع رستم قبضته دون أن ينطق بكلمة واحدة. وهوى بها على صدر المجرم. وانهال باللكمات واحدة بعد الأخرى حتى وقع البدين فوق العجوز الخبيث. وحاول البدين النهوض من فوق العجوز لكن كرشه منعه حتى فطس العجوز من الثقل ومات تحته. وبعد محاولات نجح البدين فى النهوض. فأخرج سيفه من جرابه وهجم على رستم وهو فى حالة من الهياج والغضب. لكن الفتى الجسور رفع وعاء الفخار الكبير وألقى به على رأس البدين. ثم انتزع من يده السيف وصرعه به.

فى هذا الوقت بدأت الفتاة تعود إلى وعيها. وارتعشت رموشها الطويلة رعشات بطيئة. وصارت تلعق بلسانها شفتيها الجافتين. حمل رستم قدح ماء وأخذ يسقيها منه. شربت الفتاة جرعات قليلة. ونظرت إلى رستم بامتنان وقالت:

– من أنت أيها الفتى؟ وما الذى أتى بك إلى هنا؟ هيا اهرب من هنا بسرعة قبل أن يعرفوا أنك ساعدتنى فيذيقونك الويلات والعذاب مثلى.

نظر رستم إلى الفتاة وقال:

- لقد أصبحت الآن حرة. ولن يمسك أحد بسوء بعد الآن.

لم تصدق الفتاة ما قاله رستم فقالت له:

- لا تحاول أن تصبرنى على بلوتى. فقد انقضت أيامى السعيدة ولن تعود أبدا. فمنذ سنوات طويلة لم ينج أحد بعمره من الذين وقعوا فى براثن هذا الوحش المجرم. حتى إنهم يطلقون عليه اسم"الشيطان المخيف" من فرط وحشيته ودمويته. وفى بلادى يخشى الجميع ذكر اسمه. حتى إن الناس يرهبون به الأطفال الصغار. ولا يستطيع ألف من الشجعان أن يصمدوا أمام سيفه البتار.

حمل رستم سيف المجرم الذى انتزعه منه وقتله به ورفعه أمام الفتاة قائلا:

- هل تقصدين هذا السيف؟

أصاب الرعب الفتاة وقالت بصوت مرتعش:

- كيف حصلت على هذا السيف؟

حينئذ أشار رستم إلى المكان الذى تكومت فيه جثتا المجرم والعجوز الخبيث. وما إن شاهدت الفتاة القتيلين حتى تبدلت ملامحها إلى السرور والفرح. وعقدت يديها أمام صدرها وأسدلت رموشها الطويلة فوق جفونها وقالت:

- المجد لك دائما يا بطل بلاد الشمس الجسور.

سمع رستم هذه العبارة وقال للفتاة فى دهشة:

- لماذا تطلقين علىّ اسم بطل بلاد الشمس الجسور؟

- لست وحدى التى تسميك بهذا الاسم، بل إن كل الناس يسمونك به. ألست أنت رستم الحطاب؟ لقد كان جدى يحكى لى عنك دائما. وانا أسمى زهرة الفجر. فهيا بنا نذهب من هنا كى يراك كل الناس ويعرفوا عن شجاعتك وبطولتك الكبيرة.

وذهبت زهرة الفجر مع رستم متجهين إلى المدينة.

عند طلوع الفجر وصلا إلى أسوار المدينة. وقد تجمع عدد غفير من الناس أمام

البوابة والبعض منهم منخرط فى عويل وبكاء، والبعض يمزق ملابسه، وآخرون يضربون رءوسهم فى الصخور. وأناس يحاولون تهدئتهم قائلين:"ليس بمقدوركم أن تفعلوا شيئا، فاصبروا على ما أصابكم". وعلى البعد منهم توجد تلة مرتفعة عن الأرض يقف عليها صبى فى العاشرة معصوب العين مربوط مع خروف يقف بجانبه. وفجأة حاول بعض الأشخاص اختراق الحشود والصعود إلى الصبى. لكن الناس منعوهم وأمسكوا بهم.

لم يدرك رستم شيئا مما يجرى حوله فسأل الفتاة:

– اشرحى لى يا زهرة الفجر ما الذى يجرى هنا؟

التفتت زهرة الفجر إلى رستم وسقطت الدموع من عينيها كحبات اللؤلؤ وقالت:

– ليتنى ما ولدت فى هذا العالم ولا سمعت كل هذا العويل والنشيج. لقد مر الآن عامان على مدينتنا والناس فى كل يوم يقومون بهذا الطقس.

أصابت رستم الدهشة مما سمعه وقال:

– أخبرينى يا زهرة الفجر عن سر هذا الطقس اليومى.

– منذ سنوات مضت قدم إلى مدينتنا تنين مخيف وعاش هنا. فأهلك عائلات كثيرة، والتهم قطعان الخراف والإبل. ولم يستطع أهل المدينة التخلص منه. وهو يعيش خلف هذا التل. وفى كل يوم بعد طلوع الفجر يخرج التنين جائعا من وكره ويهجم على المدينة. لهذا يتركون له أحد الأطفال مع خروف فوق التل كى يلتهمهما، فيشبع ولا يهاجم الناس بعد ذلك بل يعود إلى وكره. وأصبح الناس فى مدينتنا يقدمون له هذا القربان فى كل يوم. حتى أصبح هذا العرف قانونا على الناس. وفى مثل هذا الوقت من العام الماضى قدموا له شقيقتى تشيرا جول والتهمها. واليوم يقدمون له طفل أحد المواطنين البائسين. ولهذا تجمع أهل الصبى يبكونه ويولولون على مصيره.

وهنا ارتفع الصراخ فجأة بين الناس فى خوف وهلع. وصرخت زهرة الفجر:

– ها هو التنين يزحف إلى الصبى – وسقطت الفتاة على الأرض مغشيا عليها.

نظر رستم أمامه فرأى تنينا أسود قبيح الشكل يزحف نحو الصبى فاغرا فاه. شعر الخروف بالتنين فصار يرفس محاولا الهرب وأخذ الصبى يصرخ مستنجدا. ركض رستم مسرعا إلى التل. واقترب التنين من الصبى حتى كاد أن يلامسه. وفى هذه اللحظة هوى رستم بسيفه على رقبة التنين بكل قوته فأطاح برأسه حتى طارت فى الهواء.

قفز الصبى على رستم وتعلق برقبته. وصاح الناس يهللون فى سعادة وفرح. وخرج من بين الحشد رجل عجوز ذو لحية بيضاء وسأل رستم قائلا:

– لقد أنقذتنا من شر هذا الوحش. ومسحت أحزاننا وكفكفت دموعنا. وزرعت النور والأمل فى قلوبنا. فمن أنت أيها البطل الشجاع؟

فى هذا الوقت أفاقت زهرة الفجر من إغمائها وذهبت إلى رستم. وعندما رآها العجوز ذو اللحية البيضاء قفز من الفرح يحتضن الفتاة وهتف قائلا:

– حفيدتى المحبوبة، إنك مازلت حية. من الذى أنقذك من براثن "الشيطان المخيف"؟

أشارت زهرة الفجر إلى رستم بيدها وقالت:

– إنه نفس الشجاع الذى أنقذكم من التنين هو الذى حررنى من أسرى. واستطاع أن يقتل "الشيطان المخيف". وفتح لنا بذلك أبواب السعادة والفرح. إنه الفتى الذى مجدتم اسمه وتغنيتم به فى أشعاركم. إنه رستم الحطاب بطل بلاد الشمس الجسور.

أخذ الناس رستم إلى مدينتهم. وأقاموا الاحتفالات والأفراح لعدة أيام. لكن رستم كان سارحا طوال الوقت يفكر فى والده العجوز. وجلس مع جد زهرة الفجر فحكى له عن أصدقائه، وعن أعدائه الذين تنكروا فى هيئة النساء ومكروا به ثم أبعدوه عن أرضه. ثم سأل رستم العجوز وقال:

– أريد منك المشورة والنصح أيها الجد، كيف يمكننى العودة إلى أبى؟

أخذ العجوز يفكر طويلا. ثم راح يهز رأسه فى حيرة لأنه يعرف مدى صعوبة هذا الأمر وقال أخيرا:

- أيها الفتى الشجاع. لم يستطع أحد من قبل فى العالم كله أن يذهب من هنا إلى بلاد الشمس. لكن أجدادنا القدماء كانوا يقولون إن هناك جبالاً عالية تقع فى غرب مدينتنا وتسمى بالأربعين جبلا. وبين تلك الجبال يوجد درب يؤدى إلى بلاد الشمس. لكن هذا الدرب لا يعرفه أحد منا. وقد مات الكثير من الناس فى تلك الجبال. لأن الطريق إليها خطر للغاية. فهو مسكون بالضوارى والوحوش المفترسة. والأخطر من ذلك كله أنك لن تستطيع المرور بين تلك الجبال إلا بعد أن تتسلق أربعين صخرة زلجة ارتفاع كل منها مائة ذراع. لهذا فمن الأفضل لك أيها الفتى أن تكف عن التفكير فى هذا الأمل بعيد المنال. ولتبق معنا هنا معززًا مكرمًا من الجميع فإن فراقك سوف يحزننا.

عقد رستم يديه إلى صدره وانحنى أمام العجوز وقال:

- أيها الجد العزيز، إن أحب الأشياء إلى قلبى هى فعل الخير للناس. لكننى قد تركت خلفى أبى العجوز وأصحابى الذين قضيت معهم طفولتى وكبرنا معا. ولم أعد أعرف مصيرهم بعد أن أبعدنى الأشرار عنهم. ولن تهدأ روحى ولا قلبى حتى أطمئن عليهم.

أسقط فى يد العجوز بعد أن سمع كلام الفتى له. واضطر فى نهاية الأمر أن يوافقه على رحيله. وفى الصباح خرج الناس جميعا لوداع رستم، وعلى رأسهم رئيس المدينة الذى قبَّل رستم فى جبهته وأهداه قوسا ورثه عن جده وقال له:

- خذ معك هذا القوس فى رحلتك كى يذكرك بنا دائما.

ودع رستم أهل المدينة وانطلق فى طريقه.

عبر رستم الوديان والسهول حتى وصل إلى الجبال المخيفة التى حكى عنها العجوز. ونظر رستم إلى الجبال فرآها شاهقة العلو حتى إن قممها كانت تناطح السحب فى السماء. والطريق إليها مفروش بالصخور الملساء التى يصعب على أى أحد مهما بلغت مهارته أن يتسلقها. وقف رستم يفكر فيما يفعله. وفجأة تردد فى المكان

صوت زئير مرعب. وتلفت رستم حوله فرأى لبؤة تركض أمامه وفمها مفتوح. فقفز رستم مسرعا وشد قوسه مصوبا سهمه إلى اللبؤة. لمحته اللبؤة فتوقفت أمامه وقالت تتوسل:

– ساعدنى أيها الإنسان وأنقذ أطفالى من الموت.

وأخذت اللبؤة تتمسح فى قدم رستم. فمسد على رأسها بيده وقال لها:

– كيف أستطيع مساعدتك يا ملكة الوحوش؟ أخبرينى وأنا جاهز للعون.

قادت اللبؤة رستم عبر الجبال وسارت معه حتى وصلا إلى عرينها بالجبل. كان هناك عقرب هائل الحجم كالثور يقف أمام مدخل العرين. وبالداخل تكوم فى ركن شبلان صغيران وهما فى حالة من الفزع والخوف. شد رستم قوسه مصوبا سهمه إلى العقرب. فأصابه فى رأسه. ثم هجم رستم وأجهز عليه بسيفه. واندفع الشبلان من العرين إلى أمهما اللبؤة يقفزان فوقها وهما سعيدان بنجاتهما. أما رستم فكان التعب قد حل به فرقد وراح فى سبات عميق. تركت اللبؤة شبليها بجوار رستم ودخلت إلى العرين تعد الطعام. أخذ الشبلان يلعبان فى مرح. وسرعان ما وصل إلى العرين الأسد الأب وهو يحمل خروفا بفمه. وعندما رأى رستم هم الأسد بالانقضاض عليه وتمزيقه لكن الأشبال منعوه وقالوا:

– لا تمس هذا الإنسان بسوء أيها الوالد. فقد أنقذنا توا من الموت. ثم خرجت اللبؤة بعد ذلك من العرين وقصت على الأسد كل ما جرى وأشارت له على جسد العقرب الممزق. وفى المساء استيقظ رستم فرأى الأسود راقدة من حوله فى هدوء. فقام وانحنى يحيى أكبرهم الذى كان زعيما لكل الأسود فى الجبال. تقدم زعيم الأسود من رستم وربت بكفه على كتف رستم وقال له:

– أنت بطل عظيم أيها الفتى. فقد استطعت أن تقتل العقرب الذى هدد حياتنا وأطفالنا الصغار. فقل لى كيف أكافئك؟ وماذا تريد وأنا أحققه لك؟

انحنى رستم للأسد ثانية وقال:

– ليست لى سوى أمنية واحدة ، أن أرى والدى وأطمئن على أحواله.

- وأين يعيش والدك؟ - سأل زعيم الأسود.

- إنه يعيش فى بلاد الشمس - أجاب رستم.

سمع الأسد رغبة الفتى وأخذ يفكر طويلا مع الأسود الآخرين. ثم رفع زعيم الأسود رأسه وزأر فى الهواء بصوت مخيف. فجاء إليه أسد قصير القامة ذو قوائم قصيرة غليظة. وأمره زعيم الأسود قائلا:

- أريدك أن ترافق هذا الإنسان إلى المعبر الجبلى. ثم أره الطريق بعد ذلك. وعند عودتك أحضر معك علامة تدلنا على أنك صحبته إلى هناك دون أن يصيبه سوء.

وعندما تأهب الفتى لوداع الأسد قال له الزعيم:

- أيها البطل الهمام، عليك أن تدرك خطورة الطريق الذى تذهب إليه. لهذا ينبغى عليك أن تنفذ حرفيا كل ما يقوله لك الأسد الذى يرافقك. وإن لم تلتزم بما يقوله فسوف يحدث ما لا يسرك. وعندما تصل إلى بلاد الشمس أرسل لنا خبرا بذلك كى تطمئن قلوبنا عليك.

استمع رستم إلى كلمات الزعيم وجلس فوق ظهر الأسد المرافق له. وسارت الأسود الأخرى معه تودعه على الطريق.

طار الأسد وهو يحمل رستم فوق الجبل يقطع الطريق ويزأر بصوت مخيف يتردد صداه بين الجبال. وترددت أصوات أخرى تجيب على زئير الأسد. وأراد رستم أن يعرف لمن تلك الأصوات فسأل رفيقه وقال:

- لمن تلك الأصوات التى تجيب عليك يا ملك الوحوش؟

أجاب عليه الأسد بصرامة:

- هذا ليس الوقت المناسب لطرح الأسئلة أيها البطل. تمسك بعرفى ولا تنطق بكلمة وإلا هلكنا معا.

ومضى الأسد يقفز على الطريق مبتعدا. ورستم يستمع إلى مختلف الأصوات التى تتردد من حوله. من زقزقة طيور إلى عويل ونحيب ثم ضحك وقهقهة. ومن أصوات

رعد فى السماء إلى صوت غناء لكورس نسائى. وتملك الفضول من رستم فسأل الأسد مرة أخرى:

– فسر لى ما الذى تعنيه كل هذه الأصوات؟

– لا تتكلم برأس والدك الذى يعيش فى بلاد الشمس وأطبق فمك.

سكت رستم عن الكلام المباح. وساد الظلام المكان من حوله تماما حتى أصبح لا يرى شيئا مهما حاول أن يفتح عينيه. وفجأة قال الأسد لرستم:

– والآن أيها الهمام أريدك أن تغلق عينيك ولا تفتحهما مهما حدث حتى آذن لك.

أغلق رستم عينيه وتعلق متشبثا برقبة الأسد. وركض الأسد أسرع فأسرع. ثم زأر بصوت عال يصم الآذان لم يسمع مثله رستم من قبل. وانهمر العرق يسيل من جسم الأسد حتى بلل ملابس رستم تماما. وفجأة توقف الأسد وأمر رستم قائلا:

– هيا انزل الآن.

نزل رستم من فوق الأسد وهو مغمض العينين بعد.

– افتح عينيك الآن.

فتح رستم عينيه ليجد نفسه واقفا فوق قمة الجبل. ومن حوله الفضاء الرحيب. وعلى الرغم من أن المكان كان مهجورا إلا أنه بدا جميلا. فالعشب كان يغطى الأرض والأزهار تتلألأ فى كل ركن منه. وهدير المياه الشفافة مسموع وهى تجرى فوق السواقى. وسأل رستم:

– لمن هذه الأرض؟ ومن الذى يعيش هنا؟

لكن الأسد كان خائر القوى حتى إنه لم يستطع الكلام. فغطس فى المياه يستحم وانتعش حتى استعاد حيويته ثم اقترب من رستم وقال:

– سوف أكشف لك الآن السر أيها البطل. إن كل الأصوات التى سمعتها أثناء الطريق من صراخ وزقزقة وغناء وغيرها، ما هى إلا أصوات الناس الذين يعيشون فى بلاد الشمس. فهم يتناقلون الأخبار فيما بينهم عن طريق هذه الأصوات. فالبعض منهم

يبكى والآخر يضحك. وفى المكان الذى طلبت منك فيه أن تغلق عينيك حتى لا تشاهد ما يجرى لأصدقائك. أما هذه الأرض فهى أرض مسحورة. لم يطأها أحد من قبل غيرك الآن. وقد كنت دائما أحرس هذه الأرض أنا وأجدادى وأجداد أجدادى. حتى إن الأسود التى من فصائل أخرى لا تجرؤ على الاقتراب منها. وإن عاجلا أم آجلا سوف يظهر مالك هذه الأرض الحقيقى ليحول كل تلك القمم الشاهقة إلى بساتين وحدائق غناء.

أصغى رستم بعناية لكل ما قاله الأسد ثم سأله:

– ومن هو صاحب هذه الأرض؟ ومتى ينوى الظهور؟

– من الصعب أن أجيبك على هذا السؤال الآن. لكن أجدادنا كانوا يحكون قائلين: "إنه سوف يظهر عندما تشرق الشمس بنورها الذهبى على هذه الأرض المظلمة". والآن الوداع أيها الفتى الهمام فإن طريقى الآن لا يتقابل مع طريقك. فأنت سوف تمضى إلى الأمام خلف جذر هذه الشجرة ولا تحيد عنه.

وأشار الأسد إلى شجرة عتيقة لها جذور طويلة تمتد بين الصخور

– والآن ينبغى أن أعطيك شيئا ما لتثبت لزعيمكم وصولى هنا سليما. فكيف السبيل إلى هذا؟ سأل رستم الأسد.

سار الأسد مع رستم إلى الشجرة التى أشار له عليها من قبل. ثم أشار إلى أعلاها وقال:

– تسلق هذه الشجرة وسوف تجد أعلاها تجويفًا صغيرًا مملوءًا بالطين. هذا الطين من أرض بلاد الشمس. فاقذف لى بعضا منه آخذه معى.

فرح رستم وطرب قلبه عندما عرف أن بلاد الشمس قد أصبحت قريبة منه. وتسلق الشجرة وفعل ما طلبه الأسد. فأخذ الأسد بفمه بعض الطين واختفى.

وسار رستم فى طريقه متتبعا الجذر الممتد بين الصخور وهو يكاد يحلق من السعادة. وعند الفجر لاحت أمامه أطراف الغابة الحبيبة المعروفة إليه جيدا. وظل رستم

يسير خلف الجذر حتى دخل الغابة ووصل إلى الشجرة التى كان والده يجلس أسفلها فى المساء للراحة بعد العمل. ورأى رستم الدبة تجلس تحت الشجرة والدب الابن يحتضنها من الخلف. وما إن رات الدبة رستم حتى صرخت وقفزت نحوه تعانقه والدموع تنهمر من عينيها. وقالت له:

– مصيبة حلت بنا يا رستم. فقد أتى رجال الحاكم وأحرقوا الغابة وقبضوا على والدك وكل الحطابين الآخرين وساقوهم إلى السجن. ويقول الرعاة إن الحاكم قد أعلن بين الناس أنه سوف يشنق اليوم فى المساء والدك وأصدقاءه.

وقبل أن يحل المساء احتشد جمع غفير من الناس فى الميدان الكبير الذى نصبت فيه المشانق. وحضر الكثير من الفقراء الذين أرادوا المساعدة ولم يقدروا. وأيضا حضر الوجهاء فوق جيادهم يرتدون ملابس احتفالية أنيقة كما لو أنهم فى عرس. والكل يترقب كيف سيشنقون هؤلاء البؤساء. وبالقرب من المشانق كانت هناك أقفاص حديدية بها أطفال وأبناء الرجال الذين عارضوا الحاكم واحتجوا على ظلمه. وقد بدت عليهم آثار التعذيب والجوع حتى أصبحوا مثل الهياكل العظمية. وكانت من بينهم زهرة ابنة صديق الإسكافى.

وانطلق فجأة صوت النفير يدوى عاليا. فظهر العسكر يحملون العصى والهراوات ويفسحون طريقا بين الحشود. ومن بينهم سار الجلادون يسوقون إلى المشانق والد رستم العجوز ومعه سبعة وأربعين حطابا مع زوجاتهم. وما إن شاهد الأطفال المحبوسين فى الأقفاص آباءهم وأمهاتهم يساقون إلى الموت، حتى ارتفعت أصواتهم بالصراخ والعويل الذى تردد عاليا فى الميدان. وكان الحاكم يجلس مزهوا بنفسه على منصة مرتفعة بالميدان. ومن حوله يجلس الوجهاء والسادة والقادة والحراس.

وسار سالم باى أمام المنصة وهو يمتطى فرسا رماديا ويقرأ على الناس أمر الحاكم بشنق هؤلاء الحطابين الأوغاد. وهنا ارتفع صوت النفير مرة أخرى. وبدأ الجلادون يضعون المشانق حول الرقاب.

كان سالم باى سعيدا إلى أبعد الحدود. وأخرج من ملابسه علبة تبغه الفضية ليأخذ منها بعض التبغ. وفجأة لم يشعر إلا بيدين قويتين ترفعانه من كتفيه وتلقيان به من فوق حصانه إلى الأرض.

وعندما أراد الحراس الإمساك بتلك اليد التى أوقعت سالم باى على الأرض وجدوا أنفسهم هم الآخرين واقعين بجانبه. وحاول الجلادون أن ينفذوا أمر الشنق فسقط فوق رءوسهم جذع شجرة ضخم أطاح بهم جميعا. وظهرت الدبة فحررت الحطابين من المشانق. وهتف صوت بين الحشود يصرخ قائلا:

– انظروا إنه رستم هو الذى أوقع سالم باى من على حصانه.

وصار الجميع يهتفون ويصيحون:

– رستم مازال حيا. لقد جاء رستم.

وساد الهرج والمرج فى الميدان الكبير واختلط الحابل بالنابل. وعندما هدأت الحال رأى الناس جثث ثلاثين جلادا على الأرض ومائتين من الحراس مقتولين. كما شاهدوا الأقفاص الحديدية خالية ومكسورة وبينها جثة سالم باى. وصار الأطفال يعانقون أمهاتهم وآبائهم ويتعلقون برقابهم من الفرحة.

حمل الرجال أطفالهم على الأكتاف وهتفوا بحياة رستم. واتجه الجميع صوب الغابة يتقدمهم رستم ووالده وصديق الإسكافى وابنته.

سار الإسكافى صامتا لبعض الوقت وهو يبتسم بين الحين والآخر ثم قال لرستم:

– هل تذكر ما حكيته لك فى الغابة حتى جاء ذلك الرجل المتنكر فى ملابس النساء وقطع علىّ حكايتى؟

أجاب رستم قائلا:

– ولن أنسى ما حكيته لى طوال حياتى. والآن يمكنك أن تكمل الحكاية بينما نحن فى الطريق.

نظر الإسكافى إلى ابنته زهرة التى احمر وجهها من الخجل وأطرقت برأسها. ثم قال:

– ولم تكن تلك الفتاة التى أخلصت لحبيبها وظلت تنتظره، وتحملت كل صنوف العذاب فى سبيل حبها له، لم تكن هذه الفتاة سوى ابنتى زهرة التى تسير بجوارك.

نظر رستم إلى زهرة التى احمرت وجنتاها حتى أصبحت بلون الرمان. وتملك رستم شعور عجيب لم يجربه من قبل. فمضى فى صمت ولم يتكلم. وفجأة نطق وقال لصديق:

- لكنك لم تقل لى حتى الآن، من هو ذلك الفتى الذى تتكلم عنه؟ وأين هو؟

ابتسم صدّيق وقال:

- إن صاحب هذا السؤال هو نفسه الفتى الذى تنتظره زهرة.

توقف رستم ونظر إلى والده الذى ابتسم لصديق علامة الموافقة.

كانت رياح الصباح تصفر حول الأغصان. وتستعد ظلال الأشجار لاستقبال الأهل والأصدقاء. وفى القريب سوف يغمر الفرح الغابة ويسودها السرور. فقد ظهر أخيرا بطل بلاد الشمس الجسور ليعيش الناس فى عهده حياة حرة سعيدة.

* * *

غلام باتش



يحكى أنه فى قديم الزمان فى بلد من البلدان، كانت للفقراء عادة أن يبيعوا أولادهم إذا ما اشتد عليهم الفقر. وفى هذه البلدة عاشت امرأة فقيرة مع ابنها الصغير. كانت المرأة تعيش حياة بائسة لا تجد قوت يومها ولم تستطع إطعام ابنها الوحيد. وفى نهاية الأمر اضطرت المرأة أن تربط ابنها بحبل فى رقبته وأخذته إلى السوق.

كان ملك هذه البلاد له ابنة وحيدة قد أتمت عامها الثامن فى ذلك الوقت. وذات يوم طلبت الابنة من والدها وقالت:

– اشتر لى يا أبى ولدا عبدا من السوق، كى يسلينى ويصبح رهن إشارتى.

نادى الملك على خادمه وقال له:

- اذهب على الفور إلى السوق. وابحث هناك عن ولد صغير حلو المحيا جميل الطلعة ويبدو عليه الذكاء، وعندما تجده اشتره وأحضره إلى هنا.

خرج الخدم إلى السوق يبحثون بين الناس ويتطلعون إلى الوجوه كي يختاروا أفضل ولد. حتى وقع نظرهم على ابن تلك المرأة الفقيرة فهتفوا قائلين:

- هذا هو المراد.

ذهب الخدم إلى المرأة وسألوها:

- أيها الأم ، كم تريدين مقابل هذا الولد؟

خفق قلب الأم بشدة فلم تكن تريد بيعه. لكن ما باليد حيلة. واضطرت أن تقول ثمنا:

- ألف قطعة ذهبية.

نظر خدم الملك إلى الأم ورأوا نظراتها الحزينة إلى ابنها، وسمعوا صوتها المرتجف الباكي فأشفقوا عليها وأعطوها ثلاثة أضعاف ما طلبت من المال.

أخذوا الولد من المرأة وذهبوا به إلى قصر الملك. وشعرت الأم بقلبها يكاد يقفز من صدرها لفرط حزنها الشديد وأحست أن ملاك الموت قد انتزع روحها من جسدها الضعيف. وظلت المرأة المسكينة جالسة فى مكانها على الأرض لساعات طويلة وهى تبكى وتولول وتندب حظها ومصيرها البائس. وأخيرا صارت تجرجر قدميها وسارت إلى المنزل حتى وصلته وهى لا تشعر بنفسها من الحزن.

ولنترك المرأة تتجرع أحزانها ولنذهب ونرى ماذا حدث لابنها الصغير.

أحضر الخدم الولد أمام الملك ليشاهده ففرح به كثيرا. كما سرت ابنته ورأت فيه ما كانت تريده بالضبط من والدها.

عاش الولد بالقصر. ولم يكن أحد يعرف اسمه الحقيقى فأطلقوا عليه اسم غلام باتش. بمعنى الولد العبد. واعتاد الولد الاسم الجديد.

بدأت ابنة الملك فى الذهاب إلى المدرسة. وقرر الملك أن يرسل معها غلام باتش كى يسليها ويدرس معها هو الآخر. وأصبح الاثنان لا يفترقان ويساعد كل منهما الآخر. وكبرا معا ونشأت بينهما صداقة حميمة. ودون أن يشعرا بدأ نور الحب يتوهج فى قلبيهما.

كان الملك له وزير مقرب يلتمس منه النصح والمشورة. وكان للوزير ابن بالغ. وكان الملك لا يأخذ قرارا أو يصدر أمرا إلا بعد التشاور مع وزيره. واستغل الوزير مقامه لدى الملك فتحدث معه عن ابنته وعن ابنه. وصار يلمح إلى زواجهما. وازدادت رغبة الوزير فى ذلك عندما طغى جمال ابنة الملك وأصبح غلام باتش شابا جميل الطلعة مفتول العضلات.

"يا للأسى"- فكر الوزير فى نفسه وهو يرى أن الفتاة الجميلة لا تفارق الفتى العبد أبدا. وأصابه القلق والضيق من هذا. فدعا الملك إلى وليمة فاخرة فى حفل أقامه على شرفه.

وفى أثناء الحفل مضى الوزير يتحدث مرة ثانية عن ابنة الملك وقال:

- لقد ولدت ابنتكم يا مولاى فى العام نفسه وفى الشهر نفسه الذى ولد فيه ابنى. وقد أصبحا الآن بالغين. أليس من الجيد لو أننا تصاهرنا؟

- أيها الوزير الحكيم، ليس لى فى العالم سوى ابنة واحدة فقط، هى كل فرحتى فى سنوات عمرى الباقية. وهى مازالت تدرس بعد. فانتظر حتى أتحدث معها وأعرف شعورها. فإن كانت لا تعارض الزواج من ابنك فسوف أقبل عرضك فورا.

قص الملك على زوجته ما قاله له الوزير وقال لها:

- إذا تحدثت مع ابنتنا فى الأمر فقد تخجل من الحديث معى فى هذا الأمر. لذلك أريدك أن تتحدثى أنت معها وتسأليها رأيها فى عرض الوزير.

ذهبت الزوجة إلى الابنة وسردت عليها الحديث الذى دار بين الملك والوزير. فكرت الفتاة قليلا ثم قالت:

- أولا أنا مازلت صغيرة على الزواج، ثانيا أنا لم أنتهى من دراستى بعد. وإن توقفت عن الدراسة الآن فسوف أنسى كل مادرسته من قبل. لذلك دعونى أتمتع بحريتى لمزيد من الوقت.

عادت الأم إلى الملك وأخبرته بم قالته الابنة. فلم يعترض الملك على رأى ابنته بل إنه وافق على إجابتها الذكية. وأخبر الوزير بأنه لا يستطيع أن يحرم ابنته من حريتها ومن تقرير مصيرها بنفسها. فلم يرد الوزير بشىء والتزم الصمت.

عرف غلام باتش بالحديث الدائر بين الملك والوزير. وكان الفتى أكثر التلاميذ ذكاء وفطنة ومهارة. ولهذا كان دائما مثار إعجاب الجميع ومديحهم. وكان البعض يقولون بلا كياسة إن الملك اشترى عبدا فعلمه وجعله مثل ابنه. والبعض الآخر يقول: "يبدو أن الملك سوف يزوج ابنته من هذا العبد".

علم غلام باتش بكل الأقاويل التى تدور. وتحدث بعد ذلك إلى الفتاة. لكنها طمأنت قلبه وأبعدت الشكوك عن نفسه قائلة:

- أيها الصديق العزيز الحبيب. لقد اشتريتك أثناء الطفولة. وقد نشأت وترعرعت أفضل منى. فلقنوك كافة العلوم وتعلمت مختلف الحرف وأتقنت الضرب بالسيف وركوب الخيل حتى أصبحت أمهر من أبناء الملوك والأمراء. وأعدك أننى سوف أظل بجانبك طوال العمر. ولن أحنث بوعدى أبدا.

بعد مرور بعض الوقت عاد الوزير مرة أخرى وتحدث مع الملك حول زواج ابنته من ابنه. فذهب الملك إلى ابنته وقال لها:

- اسمعينى يا ابنتى الحبيبة، لقد طلبك الوزير مرة أخرى لابنه كى يتزوجك. فما قولك فى هذا الأمر؟

إن إجابتى على هذا الطلب سوف تتلخص فى التالى: على من يتقدم لخطبتى أن يطوف بلدان العالم، ويزور كل مدنها وأركانها. ويسافر إلى كافة البقاع والأصقاع. ليرى ماذا يجرى فى تلك العوالم. ثم يعود بعد ذلك ليصبح إنسانا حكيما مجربا واسع الأفق والبصيرة. وسوف يصبح هذا الإنسان هو الجدير بأن أربط مصيرى به إلى الأبد.

نقل الملك إلى وزيره قرار ابنته الأميرة. كما عرف أيضا بهذا القرار جميع رجال الدولة. ومن ضمنهم ابن قائد الجيوش الذى كان يمنى نفسه ويحلم أن تميل مشاعر الأميرة نحوه فى يوم من الأيام.

اجتمع الوزير بقائد الجيوش وتوصل الاثنان إلى رأى مفاده:

إن الأميرة محقة كل الحق فيما قالته ولو قالت غير ذلك لتعقدت الأمور. فلو أننى أرسلت أخطبها لابنى لكنت غضبت لذلك منى. ولو أنك أرسلت تخطبها لابنك لكنت أنا غضبت منك. أما الآن فإن سعيد الحظ الجسور هو الذى سوف يفوز بقلبها. فيا لها من فتاة فطنة ابنة الملك.

أخذ كل منهما فى إعداد ابنه للسفر. فألبسوهما وسلحوهما بكافة الأسلحة. وجهزوا لهما كمية من الزاد للطريق. وأعطوهما قدرا كبيرا من الذهب والأحجار الكريمة. وأحضروا لهما أجمل فرسين فى البلاد. وذهبوا بهما إلى الملك فى قصره. وقامت ابنة الملك أيضا فى الخفاء بإحضار كل ما يلزم لسفر غلام باتش هو الآخر. وجهزته بكل شىء. وأعطته سيف والدها. ثم لمست الأميرة السيف بخاتمها وقالت له:

– فى كل مرة تنظر فيها إلى السيف وأنظر أنا إلى الخاتم يتذكر كل منا الآخر. ولا تنس أبدا أنك لى وأنا لك. وسوف نحافظ على عهدنا ولن نحنث به طوال العمر.

بهذه الكلمات ودعت الأميرة الفتى وتمنت له حظا طيبا فى رحلته.

وقف ابن الوزير ومعه ابن قائد الجيوش أمام الملك الذى تمنى لهما التوفيق وقال:

– أيها الفتيان الشجعان، أتمنى لكما النجاح فى تخطى كافة الصعاب التى سوف تقابلانها فى الطريق. ولتفتح السعادة أبوابها لكما.

وانطلق الشابان فى طريقهما. وما إن خرجا من المدينة حتى انضم إليهما غلام باتش. فلم يعجبهما مرافقة مثل هذا العبد – كما كانوا يطلقون عليه – لكنهما لم يستطعا أن يفعلا شيئا إزاء ذلك الأمر. ومضوا جميعا فى طريقهم.

سار الفتيان طويلا، فقطعوا الوديان والجبال والسهول وعبروا الأنهار. حتى وجدوا أنفسهم فجأة أمام مفترق طرق يؤدى إلى ثلاثة اتجاهات مختلفة. ورأوا على الصخور كتابة تقول:

"إذا ذهبت إلى اليمين .. فمن الجائز أن تعود سليمًا".

"وإذا ذهبت إلى اليسار.. فهناك الكثير من الأخطار".

" وإذا ذهبت إلى الأمام .. فلن تعود أبدا أيها الهمام".

قرأ غلام باتش الكتابة ثم قال لرفيقيه:

- اسمحوا لى أيها الأصدقاء أن أذهب فى الطريق المكتوب عليه "إذا ذهبت إلى الأمام.. فلن تعود أبدا أيها الهمام".

- اذهب ما دمت تشعر بالرضا عن اختيارك. ونحن أيضا راضين له - أجاب الفتيان عليه وهما يتمنيان السوء له "نرجو ألا يعود أبدا".

ودع غلام باتش الفتيان ومضى فى طريقه ، طريق الذهاب بلا عودة. وظل يسير ليل نهار إلى الأمام دون أن ينحرف عن الطريق. حتى تعب حصانه وخارت قواه. وأصبح يحرك حوافره على الأرض بالكاد. فترجل الفتى من على حصانه وترك له العنان ليستريح. ثم سار بعد ذلك طويلا حتى وصل إلى أطلال قرية مهجورة.

ولم يجد الفتى فى أى بيت من بيوت القرية نفسا حيا أو حركة تنم عن الحياة. فخرج حتى وصل إلى شاطئ نهر عريض. وقف غلام باتش طويلا ينظر إلى صفحة الماء ويتصنت إلى صوت الهدير القوى الناجم عن تيار الماء. ثم لمح طاحونة أسفل الشاطئ فنزل إليها. دفع الفتى باب الطاحونة ودخلها. فرأى بها حجر رحى وصندوقًا لتخزين الحبوب. فوضع بعض التبن لحصانه وارتمى فى الصندوق وغلبه النعاس وراح فى نوم عميق.

رأى الفتى حلما فى منامه. قابله فى الحلم رجل عجوز قال له:"اسمعنى جيدا يا بنى، على الجانب الآخر من القرية يوجد جبل. فى هذا الجبل توجد مغارة يعيش فيها تنين مرعب. ينام هذا التنين طوال النهار. أما فى الليل فهو يخرج من كهفه ويهاجم

القرى والنجوع قرية بعد الأخرى. وينقض على الناس فيبتلع منهم ويلتهم من يجده فى طريقه. وهو السبب فى خراب تلك القرى بعد أن أكل الناس والإبل فيها. غدا بعد أن تستيقظ اذهب إلى الغابة واقطع بعض الأشجار والأغصان السميكة. ثم انقلها إلى مدخل الكهف واصنع منها شركا فوق المدخل. ادفن بالأرض نهايات الجذوع الكبيرة كى لا تظهر له. واربط أعلاها بحبال متينة تمدها من الجانبين. وضع أعلى الجذوع صخوراً كبيرة. وعندما يخرج التنين من كهفه تقطع الحبال بسرعة فتنهال فوق رأسه الصخور الكبيرة وتقتله".

استيقظ غلام باتش وهو فى حيرة من أمره لا يعرف إن كان قد رأى العجوز فى الحلم أم فى الحقيقة. لكنه فى نهاية الأمر نهض خارجا من الطاحونة. وامتطى فرسه وانطلق به صوب الغابة. وعند الظهر وصل إلى أطراف الغابة. فترجل عن حصانه وتركه يرعى فى المكان ورقد يستريح على الأرض.

بعد وقت قليل قام الفتى ورأى أمامه أحراشا كثيفة خضراء. فقد كانت الغابة واسعة مترامية الأطراف وبدت له مخيفة من رحابتها. وارتفعت فيها الأشجار الباسقة التى وصلت إلى أعالى السماء. وشعر الفتى فجأة أن هناك رياحًا عاتية تهب على المكان. وسرعان ما اشتدت الرياح وأصبحت كالإعصار العاتى. وأخذت تزمجر وتحمل معها أوراق الشجر والأغصان والرمال وتحملها إلى جرف الجبل تارة، ثم إلى داخل الكهف بالجبل تارة أخرى. وتعود بها إلى خارج الكهف ثانية. كما لو كان كل الشياطين والجان تجمعوا يرقصون معا رقصة جهنمية.

بعد أن هدأت العاصفة تسلق غلام باتش الجبل حتى وصل إلى مدخل المغارة. ونظر بداخلها فشاهد التنين نائما ينفث الهواء من منخاره مصدرا صوتًا مزعجًا. نظر غلام باتش إلى التنين بخوف وهبط إلى الغابة مرة أخرى. وشرع يقطع الأشجار والغصون السميكة. وينقل ما يقطعه إلى مدخل المغارة كى يصنع فخا كما نصحه العجوز فى المنام. عمل غلام باتش فى إقامة الفخ لعدة أيام متصلة. فدفن بالأرض نهايات الجذوع الكبيرة. وربط الجذوع الأخرى بالحبال فوق مدخل المغارة. ووضع فوق منتصفها كمية كبيرة من الصخور الضخمة. وربط جانبى الجذوع بحبال مدها إلى الأرض. وأخيرا اختبأ بعد ذلك فى ركن منتظرا أن يظهر التنين بفارغ الصبر. مر وقت

طويل حتى ظهوت فجاة رأس التنين وبدأ يزحف من كهفه. توقف التنين عند المدخل ولم يعبر الشرك المنصوب له. فصوب غلام باتش سهمه إلى رأس التنين وأصابه فى عينه. صرخ التنين من الألم وخرج من المدخل. وبسرعة قام غلام باتش بقطع حبال الشرك فتهاوت الصخور مثل الجبل المنهار فوق رأس التنين فسحقته وصرعته تحتها.

كان بعض الحكماء من الناس يقولون بأن مخ التنين يشفى الأمراض المستعصية. وكان الفتى يعلم بتلك الأقاويل. فأخرج سيفه وقطع رأس التنين. ثم أحضر زجاجة فارغة وملأها بمخ التنين. ودخل بعد ذلك إلى الكهف يستطلعه فرأى بداخله ثروة طائلة قد نقلها التنين سابقا. ففكر قائلا لنفسه: "كل هذه الثروة سوف أحتاجها فى يوم من الأيام". وسد باب الكهف بالحجارة.

مضى الفتى بهدوء على حصانه فى الطريق. وأخيرا وصل إلى مكان عامر بالناس. فاستقبلوه والتفوا حوله يسألون:

– أخبرنا أيها الفتى من أين أنت قادم؟ ولأين أنت ذاهب؟ وهل أنت أنس أم أنك جنى؟ لم ينجح إنسان من قبل فى عبور تلك الجبال والنجاة من أسنان التنين. فكيف عبرتها؟

قص الفتى غلام باتش عليهم كل ما حدث له وما فعله. حينئذ قال له الناس إنهم تابعين لملك تلك البلاد. وقادوه باحترام وتقدير إلى قصر الملك.

حكى الفتى للملك ما صار معه وما فعله بالتنين. فلم يصدقه الملك وأجاب عليه قائلا:

– يا لك من غر أحمق. لم أر من قبل شابا صغير العمر مثلك ويطلق تلك الأكاذيب والخيالات. فالمثل يقول: اكذب إلى الحد المعقول. استح ولو قليلا. لقد أرسلت ثلاث مرات بنفسى قبل ذلك العسكر والجند المدججين بالسلاح ليقتلوا التنين. ولم يعد أحد منهم فى كل مرة. فكيف استطعت بمفردك أن تصرع الوحش المرعب؟

ونادى الملك على قائد الجند وقال له:

– فليظل هذا الفتى هنا، حتى تذهب مع الجنود إلى مغارة التنين لتعرف ما جرى هناك. فإذا كان يقول الحقيقة فسوف أجزل له العطاء وأنفذ له كل ما يطلب. أما لو كان يكذب فلا مفر من قطع رأسه.

خرج القائد مع سرية من الجنود إلى الجبل. حتى وصلوا إلى المغارة فساروا بحذر وخوف يقتربون منها. وفجأة رأوا أمامهم جثة التنين ملقاة على الأرض.

عاد القائد إلى الملك وأخبره بمقتل التنين بالفعل. حينئذ عانق الملك الفتى وقال له:

– لقد أحسنت يا فتى، الشكر كل الشكر لوالديك اللذين أنشآ شابا رائعا مثلك.

وخرج الملك بصحبة الفتى إلى الميدان الرئيسى بالمدينة. وأمام حشد من الناس أغدق عليه الذهب والأحجار الكريمة.

وحين انتشر النبأ المدهش فى البلدان المجاورة. سافر ملوكها لتهنئة ملك هذا البلد بالتخلص من التنين الذى جلب الخراب من قبل على الناس.

وأثناء اجتماع الملوك لتبادل التهانى حكى أحد الملوك الضيوف عن مرض ابنه العضال الذى استمر منذ ست سنوات. وحتى الآن لم يجد له دواء ولا علاجا شافيا. وهنا سأل غلام باتش الملك الضيف وقال:

– أستطيع السفر معكم وعلاج ابنكم من مرضه. فأنا ضليع فى علوم الدواء.

التفت الملك الضيف إلى الملك وقال:

– اسمح لى يا مولاى أن أصطحب معى هذا الفتى. فقد يكون شفاء ابنى على يديه. وسوف أعيده بنفسى إليكم بعد ذلك.

سمح الملك للفتى غلام باتش بالسفر مع الضيف لعلاج ابنه.

وما إن وصل الملك إلى بلاده، حتى أخذ غلام باتش إلى ابنه. وبعد أن فحص غلام باتش الابن المريض خرج مع الملك وقال له:

– أريدكم أن تأمروا بتحضير حمام من البخار الساخن كى يجلس فيه ابنكم فى الصباح. وينبغى أن يكون الحمام ساخنا إلى أقصى درجة كى يعطى النتيجة المطلوبة.

وسوف أدهن له جسمه بدهان خاص أتمنى أن يشفيه من مرضه. وإن لم يشف فلا تغضب منى أو تلمنى.

وافق الملك وأمر الخدم بتحضير الحمام الساخن. وفى صباح اليوم التالى حمل الخدم ابن الملك إلى الحمام. وكانت الحرارة به عالية إلى درجة أن الخدم لم يتحملوها وصاروا يقولون فيما بينهم:

- هذا الفتى هل هو طبيب أم سفاح؟ إن هذه الحرارة لا يستطيع الإنسان أن يتحملها أبدا ولن يتحملها الأمير المريض وسوف يموت منها.

أخذ غلام باتش يدهن جسم الابن المريض بمخ التنين. وهو يأمر الخدم أن يقلبوه تارة على ظهره وتارة فوق بطنه. ثم طلب منهم أن يدعكوا الدهان بقوة فى جسم الأمير حتى يتشربه جلده تماما. وصار الخدم يفركون الجلد ويدعكون المرهم حتى فقد الأمير وعيه وسقط مغشيا عليه. لكنه ما لبث بعد قليل أن عاد إلى وعيه ووقف على قدميه وقد برأ من مرضه. فأخذوه إلى حجرة باردة وتركوه ليستريح.

فرح الملك وأصابه السرور لشفاء ابنه الأمير الصغير. فخرج إلى ميدان المدينة مع غلام باتش. وأمام حشد كبير من الناس أغدق عليه الذهب والأحجار الكريمة. وأقام احتفالا كبيرا فى البلاد بهذه المناسبة السعيدة. ومنذ هذا اليوم أصبح غلام باتش محببا وقريبا من قلب الملك.

- اطلب منى ما شئت يا بنى العزيز ولا تخجل. فلو طلبت كل ما أملك أعطيه لك عن طيب خاطر. ولو طلبت عرش المملكة أتركه لك على الفور وأجلسك عليه بدلا منى.

وقف غلام باتش وسجد أمام الملك فى خشوع واحترام وشكره قائلا:

- فلينعم شعبك بحكمك وعرشك يا مولاى. لو أن مكافأتى كانت مجرد دعواتكم الطيبة لى بالتوفيق فى طريقى لكنت ممتنا لكم من كل قلبى. ولكننى أطلب منكم لوقت قصير أن تمنحونى عشرة آلاف جمل، وعشرة آلاف من الإبل وسوف أدفع ثمن كل هذا. وأن يذهب معى جميع الفقراء والمعدمين والذين فروا من التنين وهجروا بيوتهم. وأكون لكم شاكرا هذا الصنيع مدى الحياة.

– أيها الفتى الجسور، إن ما تطلبه هو أقل القليل. فلتطلب منى شيئا أكثر وأنا ألبيه لك على الفور – قال الملك.

– لا أريد أكثر من ذلك يا مولاى. واسمح لى بالرحيل.

ورحل غلام باتش عائدا إلى الملك حاكم البلاد التى قتل فيها التنين. وعندما وصل إليها ذهب إلى الملك وطلب منه الإذن بالسفر والعودة إلى بيته. فقال له الملك:

– إلى أين تريد السفر يا ولدى العزيز؟ لقد أصبحت فى مقام ابنى حقا. وسوف أعمل ما فى وسعى لإسعادك. وإذا كان الملل قد أصابك فاذهب للفرجة على المدن الأخرى والنزهة فيها. أو اخرج للصيد والتريض فى الغابة.

لكن غلام باتش لم يقبل اقتراح الملك وقال:

– لقد اشتقت إلى أصدقائى ومعارفى.

– إذن فلتطلب منى شيئا لم يطلبه أحد من قبل.

– لو توافقون يا مولاى، فأنا أريد أن تمنحونى الأراضى الواقعة عند الجبل الذى قتلت فيه التنين. ويوجد بها القرية الخربة والبيوت المهجورة فأنا أريد أن أعيد بناءها.

قال الملك فى دهشة:

– أنت ترغب فى الحصول على أشياء بسيطة للغاية. لقد كنت أظنك سوف تطلب مملكتى كلها. لكن على أية حال سوف أحقق لك طلبك ومن الآن قد أصبحت الأرض ملكك.

وأمر الملك بإعداد صك ملكية لتلك الأراضى التى طلبها الفتى. وقام بختمه بخاتمه الملكى وأعطاه للفتى.

بعد ذلك سافر غلام باتش إلى الملك الذى عالج ابنه من قبل وطلب منه ما وعده به. فأرسل الملك المنادين والرسل إلى الطرق والميادين. وأعلنوا للجميع أن الملك يطلب من كل الفقراء والمعدمين والفارين من التنين المرعب، الذين هجروا بيوتهم وتركوا متاعهم وقريتهم أن يعودوا مع الفتى غلام باتش إلى قريتهم ثانية.

جمع غلام باتش جميع الفقراء والفارين. وأخذ قافلة الجمال والإبل وانطلق على رأس الجميع متجها معهم إلى الأرض الخربة المهجورة.

بعد أن وصل الجميع إلى المكان. أمرهم الفتى ببناء سور ضخم مثل الأسوار المحيطة بالقصور، ليحيط بالتل المرتفع الذى تقع به الأراضى. ثم أمر الناس ببناء منازل كبيرة واسعة فى صفوف متناسقة ونظام صارم دقيق. ثم أسكن جميع الفقراء والمعدمين بتلك المنازل.

أحب الناس الفتى حبا كبيرا . وعدّه العجائز ابنا من أبنائهم. كما اعتبره الشباب أخا شقيقا لهم. وسرعان ما كبرت واتسعت فى الوادى مدينة جديدة كاملة. ويومًا بعد يوم كانت المدينة تزداد اتساعا وجمالا وروعة. وأخذ غلام باتش يستخدم الثروة الموجود بكهف التنين أحسن استخدام. فجلب من المدن الأخرى الصناع والبناءين والنحاتين والرسامين. وبنى القصور والمدارس والحمامات وزينها بالنقوش والرسومات البديعة. وصنع الأبواب وأسقف البيوت من الخشب المحفور. كما أحاط المدينة بالبساتين والحدائق الغناء الجميلة.

وفى أحد الأيام ظهر فى المدينة شابان غريبان. وذهبا إلى الفتى وطلبا منه أن يعطيهما عملا يقومان به. نظر إليهما غلام باتش فبدت وجوههما مألوفة له. ثم تمعن النظر فيهما وأصابته الدهشة. فقد كانا يشبهان كثيرا ابن الوزير وابن قائد الجيش اللذين كانا يرافقانه فى الطريق من بلده.

ولم يتعرف الشابان الصغيران على حاكم المدينة غلام باتش، ولم يشكا حتى فى أمره. وأمر غلام باتش عماله أن ياخذوا الشابين إلى الحمام ويلبسوهما ثيابًا جديدة فاخرة. وفى المساء يقيموا لهما بالمضيفة وليمة من أطيب المأكولات وأشهاها.

وسارت الأمور كما طلب غلام باتش. وذهب إليهما بنفسه فى المضيفة وسألهما قائلا:

- هل تخبروننى من أين قدمتم أيها الأصدقاء؟

قص الشابان عليه ما جرى لهما فى رحلة البحث عن السعادة. وكيف أن ثلاثتهم ساروا فى الطريق حتى وصلوا إلى مفترق طرق فافترقوا عن غلام باتش. ومضوا فى

طريق مختلف عنه. حتى صادفهما شابان عابرى سبيل. اتضح لهما فيما بعد أن الشابان لاعبا قمار ماكران. استطاعا أن يجردانهما من كل ما يحملان من أموال وذهب فى لعب القمار. حتى خسرا كل شيء. وخجل الشابان من العودة إلى منزليهما وهما على هذا الحال فهاما على وجهيهما بالقرى والمدن حتى وصلا إلى هنا.

لم يقل غلام باتش لهما شيئا ولم يكشف لهما عن حقيقته. وفى اليوم التالى أرسلهما إلى العمل. وصار كل يوم يدعوهما إلى وليمة ليأكلا عنده.

وفى أحد الأيام دعاهما غلام باتش إلى منزله. وأثناء تناولهما الطعام سألهما قائلا:

- ألا ترغبان فى الزواج أيها الفتيان؟

فكر الشابان بعض الوقت ثم أجاب ابن الوزير وقال:

- لقد وضعتنا محل رعايتك واهتمامك. وغمرتنا بعطفك ومشاعرك الطيبة على الرغم من أننا غرباء عن هذه المدينة. والآن لا نستطيع إلا أن نقبل عرضك الكريم. فنحن الآن ندبر كل شئون المنزل من طهى وغسيل وغيره بأنفسنا. فإذا زوجتنا فلن ننسى لك صنيعك هذا أبد الدهر.

بحث غلام باتش بين بنات المدينة. حتى عثر على فتاتين قبلتا الزواج من الشابين. وأقام لهما زفافا كبيرا.

عاش الشابان فى هذه المدينة لبضعة أعوام. وأصبح لكل منهما عمله الخاص وأسرته التى يعيش معها. وأنجب كل منهما طفلين.

وذات يوم جلس ابن الوزير مع ابن قائد الجيش يتسامران ويشربان النبيذ. فقال ابن الوزير:

- إن حاكم مدينتنا هذا لهو رجل آية فى الكرم وحسن الأخلاق. فلم يرفض لنا طلبا ولا مرة. ما قولك لو أخبرناه بأننا تجار فى الأصل وأن التجارة كانت مهنتنا الرئيسية. ثم نطلب منه أن يقرضنا المال والجمال المحملة بالبضائع لنتاجر بها بين المدن الأخرى ونعود إليه بالربح المضاعف. هذا فى ظاهر الأمر. وأما فى حقيقة الأمر نترك هنا أطفالنا وزوجاتنا. ونرحل عائدين إلى بلدنا ومنزلنا. ولو بحث عنا فلن ينجح أبدا فى العثور علينا ولا حتى على أثر لنا بعد ذلك.

وكان هذا بالفعل ما قاما به. فذهبا إلى غلام باتش وطلبا منه أن يقرضهما المال ويعطيهما الجمال والبضائع. واستمع إليهما غلام باتش بعناية وقال:

– إن تفكيركما صائب أيها الفتيان. ولا مانع عندى أن أعطيكما كل ما تطلبان من المال والجمال. لكن لى شرط واحد عندكما. وهو أن أضع على قدم كل منكما وسمًا. ولو وافقتما على شرطى هذا فلكما كل ما تطلبان.

نظر الشابان كل منهما إلى الآخر. وبعد أن تشاورا فيما بينهما قررا أنه لا داعى للخوف من هذا الوسم:

– إن مدينتنا تبعد عن هنا مسافة كبيرة للغاية كى يصل إليها أحد. ومن أراد ذلك عليه أن يقطع أنهارا كثيرة وسهولاً وصحراوات لأيام طويلة. فكيف يمكنه العثور علينا؟ لن يذهب خلفنا أحد كل هذه المسافة أبدا.

وافق الشابان على شرط غلام باتش. فقام وسخن الختم على النار ووسم به كلاً منهما فى قدمه. وبعد ذلك أعطاهما الجمال المحملة بأثمن البضائع. والذهب والفضة وكل ما طلباه. ورحل الشابان فى طريقهما إلى مدينتهما.

مرت الأيام والليالى والشهور. وفى أحد الليالى رأى غلام باتش فى منامه ابنة الملك. ومرت أمامه سريعا فى الحلم فى صورة طيف وهى تقول:

– يقولون إن حماس الشباب يخرج منه الكثير من الوعود. وقد حنثت بوعدك الذى قطعته من قبل.

واختفت الفتاة بعد أن قالت هذه الكلمات. وانتفض غلام باتش فى فراشه وهو يتلفت حوله فى حجرته ولم ير أحدا. وكان ضوء النهار قد غمر المكان فى ذلك الوقت.

نهض غلام باتش واستيقظ. ثم خرج إلى الناس يتشاور معهم.

– لقد اشتد بى الشوق إلى الأقارب والمعارف فى بلدى. وأريد السفر إليهم. فما قولكم فى هذا الأمر – قال غلام باتش للناس. فأجابوه بالموافقة على سفره. وحينئذ قال لهم:

– أريدكم أن تصنعوا لى من الجلد الملون الجميل قصرا ومنازل وبيوت يمكن نقلها من مكان إلى آخر بسهولة ويسر.

شرع الصناع والحرفيون فى العمل بهمة ونشاط. وفى وقت وجيز استطاعوا أن يحيكوا مدينة جلدية كاملة. وكانت المدينة أكبر وأفضل بكثير من طلب غلام باتش نفسه.

حينئذ صار غلام باتش يجهز نفسه للسفر. فقام الصناع والعمال بفك المدينة وطيها. وبعد ذلك حملوها فوق الجمال. ثم حملوا الجمال الأخرى بالكثير من الزاد والأشياء الثمينة. ثم جمع غلام باتش نصف سكان المدينة ليسافروا معه. وقام بوداع الباقين من السكان ورحل فى طريقه إلى مدينته. وسارت القافلة الكبيرة طويلا طويلا. فعبرت وديانًا وجبالاً وأنهارا. حتى وصلت أخيرا إلى سهل واسع ممتد. فتوقف غلام باتش عنده ورأى أنه قد وصل إلى أرض بلاده وأصبح قريبا كل القرب من مدينته. فاتجه بالحديث إلى ناسه وقال:

- أيها الإخوة والأصدقاء. الليلة فى المساء أريدكم أن تنصبوا هنا القصر والمنازل والحمامات والأسواق وتمهدوا الشوارع والحارات. حتى يستيقظ الناس فى الصباح فيرون المدينة قائمة بأكملها كما لو أنها قد سقطت عليهم من السماء.

أظهر الناس الطاعة لحاكمهم المحبوب. وأخذ العمال والحرفيون والصناع يعملون بجد طوال الليل حتى أصبحت المدينة قائمة عند الصباح.

استيقظ ملك المدينة وأصابته الدهشة من شدة الضوء الباهر الذى ظهر فى الأفق. فنظر حوله وفكر فى نفسه: "هل يعقل أن الشمس اليوم قد أشرقت من الناحيتين؟". ثم أخذ يتطلع من نافذة الحجرة فى دهشة وقال:

- يا لها من معجزة. من أين يأتى هذا الضوء الباهر؟ هل هذا حلم أم علم؟

ونادى الملك على خدمه وأمرهم قائلا:

- اذهبوا واعرفوا لى مصدر هذا الضوء ومن أين يأتى.

خرج الخدم إلى الوادى. ورأوا أمامهم مدينة كبيرة كما لو أنها قد خرجت من باطن الأرض. بشوارعها ومنازلها وأسواقها التى اكتظت بالناس والخلق. ودخل الخدم إلى المدينة وساروا فى شوارعها المستقيمة يشاهدون بيوتها الجميلة وهم فى عجب

وحيرة مما يرونه. ثم توقفوا أمام القصر وصاروا يتفرجون على صناعته البديعة ومبانيه الرائعة. فقام عمال القصر باستضافتهم. وأقاموا لهم وليمة فاخرة من أطايب الطعام. وعزفت لهم الجوقة مقطوعة من الموسيقى الهادئة. وقدموا لهم بعد ذلك الكثير من الهدايا والعطايا. وقاموا بوداعهم بكل الاحترام والتقدير.

عاد الخدم إلى الملك وهم مبهورين بما رأوا هناك. فحكوا له وبالغوا فى وصفهم أضعافا مضاعفة.

بعد أن سمع الملك ما قاله الخدم عن تلك المدينة الرائعة، أمسك بالريشة والحبر وشرع فى كتابة رسالة:

-"من أين أتيت أيها الحاكم؟ ولماذا أقمت على أرضى دون أن تأخذ موافقتى على ذلك؟ أعطيك مهلة ثلاثة أيام كى تبعث لى بالرد على ذلك وتشرح لى بالتفصيل عن سبب حضورك إلينا. وهل أنت عدو أم صديق؟ وإن لم ترد علينا أثناء المهلة المحددة أو تعود من حيث أتيت، فسوف أزحف إليك وأقاتلك وتصبح أنت ومن معك فى عداد الهالكين".

ختم الملك الرسالة بالختم الملكى. ونادى على وزيره كى يحملها إلى حاكم تلك المدينة الجلدية.

جمع الوزير القادة والعلماء وانطلق معهم إلى المدينة.

ولنتركهم فى طريقهم ونذهب لنرى كيف تمضى الأمور مع غلام باتش.

بعد أن ودع خدم الملك، جلس غلام باتش فى قصره يفكر:" لقد أحسنت وفادة خدم الملك وأتباعه. وأعطيتهم الفرصة كى يشاهدوا المدينة وبيوتها الرائعة وشوارعها المستقيمة. وسوف يحكون للملك عن الروعة والجمال هنا. ومن المؤكد أنه سوف يحسدنى على كل ذلك"

وأرسل غلام باتش البصاصين وأتباعه المخلصين إلى الطرق والشوارع وقال لهم:

- لو رأيتم مبعوثين الملك من القادة وعلية القوم قادمين إلينا فى سلام، فأريدكم أن تقيموا لهم استقبالا رائعا لم يسبق له مثيل. افردوا لهم الأبسطة فوق الطرقات. وانثروا الفضة والذهب ابتهاجا بحضورهم وتقدموهم بكل إجلال إلى القصر. ومدوا لهم أفخر الموائد. أما الباقى فسوف أقوم به بنفسى. أما لو أن القادمين كانوا من العسكر

والجند المحاربين وفى نيتهم الحرب والقتال، فأريدكم أن تتسلحوا جميعا. من سن السابعة إلى السبعين، تأخذون كل ما تصل إليه أياديكم من الأسلحة والسيوف وتخرجون من المدينة فى صفوف متربصين بهم قبل أن يدخلها جنودهم.

خرج البصاصون يراقبون بوابة المدينة. وفجأة شاهدوها وهى تفتح وأخذ يخرج منها العلماء وعلية القوم والقادة. واتجه الجميع صوب المدينة الجلدية. وعلم غلام باتش بذلك فأصدر أوامره وخرج سكان مدينته جميعا لاستقبال الضيوف الأجلاء. ووقفوا صفوفا على جانبى الطريق وهم عاقدين أياديهم إلى صدورهم وكلما مر بهم الضيوف ينحنون لهم فى تقدير واحترام. وفردوا لهم الأبسطة على الطرق وعلقوا لهم الزينة فى كل مكان. وعندما اقتربوا من المدينة خرج إليهم غلام باتش على فرسه لاستقبالهم عند بوابة المدينة وقادهم إلى قصره. وشاهد الضيوف أثناء سيرهم البيوت الرائعة والشوارع الدقيقة والحرير الملون على الحوائط والنقوش الذهبية التى تزينها. وأخيرا القصر البديع الذى وصلوا إليه. فانبهروا بما رأوه حتى كادوا أن يفقدوا صوابهم غير مصدقين لكل هذا الجمال. وأخذوا يتحدثون فيما بينهم قائلين:

– لم يكن المكان هنا سوى أحد الوديان العارية القاحلة، أما الآن فأصبح مدينة كبيرة رائعة الجمال. فيا لها من معجزة. ولابد أن فى الأمر سراً لا يعرفه أحد. قد يكون هذا الحاكم ساحرا يقوم بالخوارق؟ وربما أنه عفريت من عفاريت الزمان؟ أيا كان فقد جئنا هنا بأقدامنا، ودخلنا وكره بأنفسنا. ويبدو أن نهايتنا سوف تكون فى هذا المكان.

استقبل غلام باتش الضيوف وأحسن وفادتهم وقال لهم:

– إنه لشرف كبير لى أنا العبد لله الفقير ابن الفقير أن أحظى بزيارة أمثالكم من علية القوم وكبار رجال الدولة الأجلاء.

وبعد ذلك قدم إليهم كل أنواع المأكولات الطيبة والمشروبات والحلوى والفواكه يحملونها إليهم على صوان من الفضة والذهب فتيان وفتيات آية فى الحسن والجمال. صار الضيوف يتناولون الطعام ويتذوقون من كل الأطباق. ثم قام أحدهم وقال:

– نشكركم على كل هذا الكرم والحفاوة التى غمرتمونا بها. وقد جئنا إليكم حاملين رسالة من مولانا الملك. ونرجوا أن تقرأوها وتجيبوا عليها.

قام غلام باتش من مكانه وهو ينحنى للضيف باحترام وأخذ منه الرسالة. فقرأها وشرع على الفور فى كتابة الرد التالى: "مولاى الملك العظيم. لقد استلمت رسالتكم وقرأتها. فما أنا إلا عابر سبيل أتنقل فى العالم بين البلدان والمدن بحثا عن السعادة. أنا العبد البائس الذى أفلت من يديه طائر السرور. وأظل هائما على وجهى ليل نهار لا أعرف الاستقرار. فاسمح لى بالبقاء هنا لعدة أيام فقط. وإن لم تسمح لى فسوف نرحل ونترك المكان. وإذا كنتم تبيتون النية على قتالنا فسوف نتخذ الاحتياطات الواجبة".

بعد ذلك طوى غلام باتش الرسالة وختمها بختمه. وأعطاها لمبعوث الملك. وأخبره شفاهة أن يبلغ الملك بدعوته إليه فى قصره. وهنا انتهى الضيوف من الوليمة. فقدمت لهم الهدايا من الذهب والأحجار الكريمة وغادروا القصر عائدين إلى مدينتهم.

عاد القوم إلى القصر فحكوا للملك عن كل ما رأوا وأعطوه رسالة الفتى. وأبلغوه بدعوته للملك فى قصره.

قرأ الملك الرسالة. ثم جمع أربعين من رجال الحاشية وخرج معهم إلى مدينة الجلد. فاستقبله غلام باتش وذهب معه إلى قصره بالمدينة. كان الملك مبهورا بما حوله. فلم ير فى حياته أو يسمع من قبل عن مثل هذه المدينة الرائعة والتى يمكن نقلها من مكان لآخر. وأخذ الملك لفترة طويلة يتفرس بوجه مضيفه حتى تعرف عليه فى نهاية الأمر وقال فى نفسه: "إنه الفتى العبد بشحمه ولحمه، يا ليتنى ربطت مصير ابنتى بهذا الفتى الرائع".

كان ابن الوزير ورفيقه ابن قائد الجيوش قد وصلا إلى المدينة منذ وقت طويل. وذهبا هما أيضا مع الملك إلى المدينة الجلدية. وكان الوزير وقائد الجيش مازالا يلحان على الملك أن يزوج ابنته بأحد ابنيهما. وكل منهما يقول للملك:

– لقد طاف ابنى ببلدان ومدن العالم. وأصبح على قدر كبير من الحكمة والعقل. كما أنه عاد بثروة كبيرة جمعها من أسفاره. ويمكنه الآن أن يتزوج من الأميرة.

ولم تعرف الأميرة بمصير غلام باتش وكانت تقول:

– عندما يجتمع الثلاثة معا هنا سوف أختار منهم من يناسبنى. أما الآن فلن أتزوج أحدا منكما.

وكان الوزير وقائد الجيش يتحدثان فيما بينهما عن ذلك ويقولان:

– لقد مرت سبع سنوات منذ سفر الثلاثة حتى الآن. وقد قام ابنانا بما ينبغى عليهما القيام به. وعادا بثروات كبيرة. أما غلام باتش فربما كان مصيره الموت. وإلا لعاد هو الآخر منذ زمن. فما الداعى إلى انتظار هذا العبد ابن الفقراء كل هذا الوقت؟ لابد إذن أن ملكنا بليد العقل أحمق من كل الملوك، ولابد أن ابنته حمقاء مثله.

والآن يجلس الجميع فى ضيافة غلام باتش يستمتعون بما يقدمه لهم من فاخر الطعام. وما تعزفه لهم الجوقة الموسيقية من ألحان. ولم يتعرف عليه أحد بعد من بين الحضور سوى الملك فقط. حتى نهض غلام باتش واقفا وانحنى أمام الملك وقال:

– مولاى ملك الدنيا العظيم، لو تسمحون لى بالحديث أريد أن ألقى بضعة كلمات أمامكم وأمام الضيوف الأجلاء.

سمح له الملك قائلا:

– قل كل ما فى نفسك أيها الحاكم.

حينئذ صار غلام باتش يحكى وقال:

– ذات يوم جاء إلىّ شابان صغيران وطلبا منى أن أعطيهما عملا يقومان به ويرتزقان منه. فأعطيتهما عملا وبيتا وأكرمتهما كثير الكرم. وبعد مرور عدة سنوات طلبا منى مالا وجمالا وبضائع كى يتاجرا بها بين المدن. فأعطيتهما الجمال والمال والذهب والأحجار الكريمة. ورحلا فى طريقهما. ومر وقت طويل ولم يعد أحد منهما. واليوم فقط رأيتهما هنا عندى بالقصر يجلسان بصحبتكم.

وأشار غلام باتش إلى ابن الأمير وابن قائد الجيش. فقفز والداهما من مكانيهما وهجما على غلام باتش وهما يصرخان بغضب:

– من تكون أنت؟ ولماذا دعوتنا هنا؟ وما الذى تريده فى النهاية؟ كيف تجرؤ على إهانتنا هكذا أمام الجميع؟

– لم أقصد إهانتكما بما قلته – صرح غلام باتش – ولدى الدليل على صدق كلامى.

– وأين هذا الدليل المزعوم؟ – قال الوزير.

– لقد زوجت الشابين بنفسى ومنحتهما البيوت حتى أنجب كل منهما وأصبح لديه أسرة وأطفال. وأسرتيهما معى هنا فى هذه المدينة. وقد تركت علامة عليهما يعرفانها بنفسيهما جيدا كل المعرفة. وإن لم تصدقونى أستطيع أن أواجههما بأسرتيهما وأطفالهما. أو فليخبرانكم بنفسيهما عن العلامة التى وضعتها لهما.

نظر ابن الوزير لابن قائد الجيش وصارا يتهامسان فيما بينهما:

– إن وضعنا قد أصبح سيئًا للغاية أيها الصديق. ما الذى جاء بنا إلى هنا؟ لقد انكشف أمرنا. فهيا نقل الحقيقة بأنفسنا حتى لا تسوء الأمور أكثر من ذلك.

بعد أن تشاور الشابان وقفا أمام غلام باتش وانحنيا فى خشوع وقالا:

– نحن رهن إشارتك. وكل ما قلته هو الحقيقة بعينها.

ووقف الشابان مطرقا الرأس من الخجل. أما الوزير وقائد الجيش فقد ابتلعا ريقهما بصعوبة شديدة وشعرا بمرارة فى حلقيهما رغم الحلوى التى كانا يأكلانها قبل ذلك. وشعرا بالندم على حضورهما مع الملك.

وبعد أن شبع الضيوف من الطعام والشراب وقف غلام باتش فحكى عن كل ما صار معه منذ خرج مع الشابين ليطوف العالم. وعرف الجميع حقيقة الحاكم الصغير.

بعد ذلك ودعه الملك وعاد إلى قصره.

فى اليوم التالى أرسل غلام باتش الخطاب إلى قصر الملك فى طلب ابنته الأميرة. فأخذ الملك يتشاور فى هذا الأمر مع كل من حوله من كبيرهم إلى صغيرهم. وصار الجميع يؤيدون الزفاف ويطلقون عبارات المديح والثناء على غلام باتش والبعض يقول: "فليجمعهما الحب ويعيشا معا حتى الكهولة". وتمنى لهما الجميع حياة سعيدة معا.

أقام الملك احتفالا كبيرا وأعلن لجميع الناس والشعب أن ابنته قد أصبحت خطيبة غلام باتش. ودعا غلام باتش ملك تلك المدينة وناسها الذين أنقذهم من التنين لحضور زفافه كما دعا الملك الذى عالج ابنه بمخ التنين. فحضروا إليه فى يوم عرسه حاملين له الهدايا الثمينة.

وقامت فى البلاد الأفراح وليالى الملاح بمناسبة زواج الأميرة والفتى الشجاع غلام باتش. وأخيرا وبعد طول فراق اجتمع قلبا المحبين. ورفرفت السعادة فوق روحيهما. وأصبح غلام باتش يساعد الملك فى إدارة شئون المملكة. ومرت الشهور والسنون وأخذت الأميرة تنجب طفلا بعد الآخر. حتى اكتظ البيت بأصوات الضوضاء والمرح.

وفى بعض الأحيان كان غلام باتش يتذكر مشاهد من طفولته البائسة. وبالأخص مشهد والدته المسكينة وهى تقوده إلى السوق وقد لفت حبلا حول رقبته كى تبيعه. وعندما كان يتذكر تلك اللحظات كان يشعر بقلبه ينقبض من الحزن والألم.

عاش غلام باتش حياة مديدة سعيدة. واستطاع أن يحقق كل ما كان يحلم به ويرجوه.

أما الآن وقد انتهت الحكاية. فلا أملك إلا أن أتمنى لنا ولكم ولجميع الأصدقاء الذين سمعوها أو قرأوها النجاح والسعادة دوما فى أعمالهم وفى حياتهم. وأن تنزل ويلات الخيبة والعار دوما فوق رءوس أعدائهم.

* * *

حسـن وزهـرة



فى سالف العصر والأوان بإحدى القرى الصغيرة عاش أحد الرعاة مع زوجته. وكان لديهما ثلاث بنات: نصيبة، وجولبهار، وزولفيا.

مرت الأيام والشهور والسنون حتى كبرت البنات: نصيبة بلغت الحادى والعشرين من عمرها، وجولبهار أصبحت فى التاسعة عشرة. أما زولفيا فبلغت الثامنة عشرة.

أدرك الراعى وزوجته أن البنات قد كبرن ولم يتقدم أحد بعد لخطبتهن. وصار الزوجان يفكران ليل نهار فيما يفعلانه لأجل البنات. حتى قال الراعى العجوز لزوجته العجوز:

– ما العمل يا زوجتى العجوز؟ لقد حاولنا كثيرا أنا وأنت بلا جدوى حتى خارت قوانا ولم يعد لدينا شىء وأحوالنا سيئة. لو كان لدينا أولاد بدلا من البنات لكانوا ساعدونا وأطعمونا. لو أننا نستطيع أن نزوج البنات لكانت الأحوال أفضل.

– ومن الذى يقبل الزواج من بنات فقراء مثلهن؟ – قالت الزوجة العجوز.

فكر الراعى قليلا ثم قال:

– أتعرفين أيتها العجوز، ينبغى عليك الذهاب إلى القرية والنداء على الناس قائلة: "أيها القوم، هيا ابعثوا لنا بالخطاب، وإذا أعجب أحد منهم ببنت من بناتنا فسوف نرتب له أمور الزفاف بشكل أو بآخر ونزوجها له.

استحسنت العجوز فكرة الزوج وخرجت بسرعة إلى القرية. وصارت تخبر كل من تقابله وتقول له:

– اسمع أيها الشاب، إن بناتى قد كبرن، فإذا رغبت فى الزواج تدبرنا لك أمر الزفاف واختر لك منهن من تعجبك.

لكن أحدا من الشبان والفتيان لم يقبل الزواج. وأخذت العجوز تضرب جبهتها بيدها فى يأس وعادت إلى منزلها.

وهكذا ظلت بنات الراعى بدون أزواج. وفى يوم قالت زولفيا لأختيها:

– لقد نضج التوت فوق الأشجار الموجودة فى الحدائق عند شاطئ النهر، فلنذهب إلى هناك ونلهو لبعض الوقت.

خرجت الفتيات إلى الحدائق. كانت أشجار التوت تمتلئ بالثمار الناضجة. والمنظر كان بديعا والبلابل تصدح بالغناء. وصارت الفتيات يجمعن التوت بالنهار وفى الليل تنام بنتان منهما فى الخوص والأخرى تجلس للحراسة.

لنترك الفتيات وهن منهمكات فى جمع التوت ولنذهب إلى مكان آخر.

كان فى هذه البلاد ملك قد تزوج من أربعين امرأة. ولم تنجح ولا واحدة منهن فى أن تنجب له أطفالا. وكان الملك يتحرق شوقا كى ينجب بنتا أو ولدا. وفى يوم نادى الملك على الحكماء والوزاء وجلس على عرشه وقال لهم:

- أيها الحكماء والقادة، أنا ملك الملوك أعيش وأتمتع بالحياة. وعندما أغادر الدنيا لن أترك شيئا يتذكره الناس لأننى لم أنجب ولدا ولا بنتا. لهذا أريدكم أن تبحثوا وتعثروا على عروس تصلح زوجة لى. ولا يهم إن كانت فقيرة أو معدمة. المهم أن تجدوها فى أسرع وقت.

تشاور الوزراء والحكماء فيما بينهم ثم تفرقوا فى كافة الأرجاء. أما الملك فنادى على زوجاته الأربعين وقال لهن:

- لم تنجب لى ولا واحدة منكن ولدا ولا بنتا، لذلك فإننى سوف أتزوج واحدة أخرى.

وأخذ الملك يفكر ويقول لنفسه:"لو رزقت بابن أو ابنة، فسوف أقيم احتفالا لم تشهده البلاد من قبل". أما الزوجات فصرن يتهامسن فيما بينهن. وقالت إحداهن:

- اسمعوا جيدا، مهما كانت العروس التى سوف يتخذها الملك زوجة له وسواء أنجبت له أم لم تنجب، فلا تصاحبها واحدة منكن.

خرج الوزير إلى القرية بجوار النهر. ونادى على جميع السكان - الوجهاء منهم والبسطاء - وأعلن قائلا:

- بما أن ملكنا لم ينجب بعد، فقد قرر أن يتخذ لنفسه زوجة جديدة. ولذا أريدكم أن تجدوا له فتاة يتزوجها، فقيرة كانت أو معدمة لا يهم.

وقف أحد الرجال من بين الناس وقال:

- هل تسمح لى بالحديث يا سيدى الوزير؟

- تحدث أيها الرجل - قال الوزير.

- منذ عشرة أيام مضت وهناك ثلاث فتيات يُقمن فى حدائق التوت. لا يفعلن شيئا سوى أنهن يأكلن التوت بالنهار وينمن فى الخوص بالليل. والفتيات جميعا على قدر من الحسن والجمال. فاذهب إليهن قد تعجبك إحداهن.

- إذن خذونى إلى أولئك الفتيات كى أشاهدهن - قال الوزير.

سار الوزير بين الخوص يسترق السمع إلى حديث الفتيات. قالت البنت الكبرى نصيبة تحدث أخواتها:

– لو أن الملك اختارنى زوجة، لحكت له ثوبا لا يضارعه ثوب فى العالم كله.

أما الأخت الوسطى جولبهار فقالت:

– لو أن الملك أخذنى زوجة، لطهوت له طعاما يجعله يترنح من حلاوته.

وقالت الأخت الصغرى زولفيا لأختيها:

– لو أننى أصبحت زوجة للملك، لأنجبت له ولدا وبنتا لا يوجد أجمل منهما فى العالم، وأسميتهما حسن وزهرة.

حينئذ دخل الوزير على البنات فوقفن احتراما له. ورأى الوزير أنهن يرتدين ملابس قديمة مهلهلة. فأمر أن يحضروا لهن ملابس جديدة وزينة يضعنها. وذهب الوزير إلى الملك وقال:

– لقد عثرت لك يا مولاى على ثلاث فتيات كن يقمن فى حدائق التوت. أكبرهم قالت: "لو أن الملك اختارنى زوجة، لحكت له ثوبا لا يضارعه ثوب فى العالم كله". والوسطى قالت: "لو أن الملك أخذنى زوجة، لطهوت له طعاما يجعله يترنح من حلاوته". أما أصغرهم فقالت: "لو أننى أصبحت زوجة للملك، لأنجبت له ولدا وبنتا لا يوجد أجمل منهما فى العالم، وأسميتهما حسن وزهرة".

فرح الملك بما قاله الوزير وأعلن قائلا:

– حسنا سوف أتزوج من الصغرى. اذهب إلى هناك واعثر على أهلها واخطبها منهم. ولنبدأ فى الإعداد للزفاف.

ذهب الوزير مرة أخرى إلى بستان التوت ونادى على الفتيات وقال لهن:

– إن الملك يريد الزواج من زولفيا. وقد أرسلنى كى أخطبها له من أهلكن. فأين هم؟

قالت زولفيا للوزير:

– قد نكون من الفقراء حقا لكن لدينا أهل يمكنكم أن تتحدثوا معهم.

أرسل الوزير أحد رجاله إلى الراعى العجوز. وبحث الرجل عن الراعى حتى عثر عليه فقال له:

– أيها الوالد، إن الملك يريد الزواج من ابنتك الصغرى التى تقيم مع أخواتها فى بستان التوت. فما قولك فى هذا؟

لم يصدق الراعى أذنيه وقال:

– لماذا تسخر منى وتسرد على تلك الأكاذيب؟ أى ملك هذا الذى يريد مصاهرتى؟

عاد الرجل إلى الوزير فى البستان وحكى له ما جرى مع الراعى. فجمع الوزير الناس – الوجهاء والبسطاء منهم – يتشاور معهم وقال:

– أيها الناس، لقد أرسلت مبعوثا إلى الراعى أخطب منه ابنته الصغرى زولفيا للملك فقال له "إنك تسخر منى". فما العمل برأيكم؟

وقف الرجل الذى أرشد الوزير إلى الفتيات من قبل وقال:

– أيها الوزير، هناك مثل يقول إن لغة الطير لا يفهمها إلا الطير. يعيش فى القرية راع آخر عجوز. ابعث به إلى الراعى كى يتحدث معه.

أعجب الوزير بكلمات الرجل ونصيحته. فأمر قائلا:

– أحضروا لى بسرعة هذا الراعى كى يتحدث مع العجوز.

أتوا بالراعى الذى أصابه الخوف وأخذ فى البكاء والتوسل وقال:

– ارحمنى يا سيدى، فأنا لم أقترف إثما ولا ذنبا سوى أننى أرعى الأبقار فقط.

حاول القوم تهدئته قائلين:

– لا تخف أيها الراعى، إن الوزير يريدك لأمر آخر.

نظر الوزير إلى الراعى. وما إن هم بالحديث معه حتى ازداد خوفه وأخذ يرتعد ويقول:

– ليحفظ الله أولادك فى سعـادة أبـد الدهـر أيها الوزيـر. أنا لم أقترف ذنبا. ولم أضرب فى حياتى بقرة من أبقارى سوى مرة واحدة فقط عندما حرنت إحداها ورفضت العودة إلى المنزل فضربتها برفق فوق قرونها.

ضحك الوزير وقال:

– حسنا أيها الراعى، إننى أغفر لك هذا الذنب وأكلفك بمهمة ، ولك يومان لأن تنفذها. أريدك أن تذهب إلى الراعى العجوز، وتخطب منه ابنته الصغرى للملك. ثم تعود إلىّ بعد يومين وتخبرنى بما جرى.

– حسنا أيها السيد حسنا – قال العجوز وأخذ ينحنى وهو يتراجع إلى الخلف – إن الراعى والد البنات صديقى الحميم. وسرعان ما اختفى من أمام الوزير.

فكر العجوز فى نفسه:"الحمد لله والشكر له، لقد نجوت منه بالكاد". ثم انطلق إلى الراعى والد البنات. وتحدثا معا فى شتى الأمور حتى جاء الحديث حول البنات فقال:

– إن الملك يريد الزواج من ابنتك الصغرى.

تملكت الدهشة من الراعى. لكنه فى النهاية صدق كلام العجوز.

وفى صباح اليوم التالى ذهب الاثنان إلى بستان التوت. وقال الراعى للعجوز:

– سوف أنتظر هنا واذهب أنت إلى الوزير.

ذهب العجوز إلى الوزير وقال له:

– لقد نفذت المهمة التى كلفتنى بها يا سيدى.

ضحك الوزير قائلا:

– لقد أحسنت أيها الراعى، وقمت بالمهمة مبكرا بيوم كامل.

وفى هذا الوقت جلس الوالد مع بناته يتشاور. فقالت زولفيا:

– إذا كان الملك يريدنى زوجة له فاطلب منه مهرا لى أربعين جملا محملين بأثمن المتاع وأغلاها. وأن يمنح شقيقتى ذهبا من أخمص قدميهما إلى رأسيهما ويلبسهما أفخر الثياب فى العالم.

قدم الملك كل ما طلبته زولفيا. وبارك الراعى العجوز ابنته. وذهبت زولفيا تعيش فى قصر الملك.

بعد ذلك، تقدم الخطاب إلى ابنتى الراعى نصيبة وجولبهار، واستطاع أن يزوجهما. فارتاح قلبه وسكنت روحه.

ومضت الأيام والشهور حتى انقضى العام. وأصبحت زولفيا فى انتظار الوضع. وفرح الملك وكان يخرج كل يوم للصيد. أما زوجاته فأخذن يدبرن المكائد والدسائس لزولفيا. وذهبن جميعا مع أكبر زوجة فيهن إلى والدها الوزير يشكون له:

– سوف تضع زولفيا قريبا طفلها. وحينئذ لن يرغب الملك حتى فى النظر إلينا.

نصحهم الوزير قائلا:

– لا تتحدثوا فى هذا الأمر مع أحد على الإطلاق. واجعلوا الساحرة الشمطاء تشم بعض الهواء. وهى سوف تتصرف فى الأمر.

وذات يوم طلبت زولفيا من الملك وقالت:

– لا تخرج اليوم للصيد.

لكن الملك الأحمق لم يستمع إليها وخرج فى هذا اليوم. ونادت زوجاته الأربعون على الساحرة الشمطاء. وجاءت لحظة الولادة. فوضعت زولفيا ولدا وبنتا فى جمال الشمس والقمر. لكن الساحرة أخذت الطفلين وخبأتهما فى جوال. ووضعت بدلا منهما جدياً ومعزة صغيرين. ثم حملت الجدى والمعزة إلى زولفيا وقالت:

– انظرى يا ابنتى ماذا وضعتى؟ لقد أنجبتى جديا ومعزة بدلا من أن تنجبى أطفالا. يا لك من تعيسة.

أخذت زولفيا فى البكاء. وعم السرور الزوجات الأربعين.

أما الساحرة الشمطاء فحملت الجوال وبه الطفلان وألقت به فى الطريق.

طلبت الزوجات الأربعون من أحد الرسل أن يذهب إلى الملك، وأعطوه التعليمات التالية:

– تقول للملك إن زوجته قد أنجبت، وعندما يفرح ويسأل عن المولود تقول له: "إنها قد وضعت له جديا ومعزة".

ذهب الرسول إلى الملك وأخبره بما قالته الزوجات الأربعون. وما إن سمع الملك هذه الأخبار حتى ثار وهاج من الغضب. وأمر بإلقاء زولفيا فى أحد السجون.

ولنحكى لكم الآن عن شىء آخر.

كانت هناك قافلة تسير على الطريق. وفجأة توقف قائد القافلة ورأى جوالا وبه طفلان. فأصابته الدهشة والذهول.

كان القائد يعيش بدون أطفال. فأشفق على الطفلين وأخذهما يعيشان معه. وسمى الولد حسن والبنت زهرة.

ومضى شهر بعد شهر وعام بعد الآخر حتى انقضت سبع سنوات.

كبر الطفلان حسن وزهرة. وفى يوم كان حسن يلعب مع أولاد القرية لعبة المصارعة ولم يستطع أحد منهم أن يهزمه. وأصبح بدنه يزداد قوة واشتد عوده مع مرور الوقت. حتى إنه بدأ فى مصارعة الشبان البالغين وتفوق عليهم. وبعد ذلك صار حسن فتى يافعا رشيق القوام قوى الجسم. وأطلق عليه الناس اسم البطل حسن.

أما زهرة فقد استطاعت أن تتعلم غزل السجاد وحياكته. وكانت تصنع سجاداً أجمل سبع مرات من كل السجاد الآخر فى السوق.

وذات مرة طلب حسن من والده قائلا:

– أرجو أن تعطينى فرسا جيدة وسيفا وقوسا، وعددا من الأسهم.

– حسنا يا ولدى – أجاب الوالد – وأعطى حسن كل ما طلبه.

وأصبح حسن يخرج للصيد فى كل يوم.

وكان الملك يخرج للصيد هو الآخر فى نفس هذا الوقت. لكن حسن كان يعود بالطرائد إلى البيت، بينما الملك يعود صفر اليدين.

وفى أحد الأيام جلس حسن مع والده يتحدثان. وحكى له الوالد كيف أنه منذ سنوات طويلة عثر عليه مع أخته زهرة وهما طفلان فى طريق بالصحراء.

أبدى حسن شكره وامتنانه للوالد وقال له:

- أنت أقرب إلى قلبنا من والدنا الحقيقى. وسوف نرد لك صنيعك الطيب.

وفى أحد الأيام الصافية خرج الملك إلى الصيد. وكان حسن هو الآخر يصطاد فى نفس هذا الوقت. واستطاع حسن أن يوقع بالكثير من الفرائس بينما لم ينجح الملك وأتباعه فى صيد أية فريسة. حتى صادف الملك حسن فاستوقفه وصار يسأله:

- ما الذى أتى بك إلى هنا أيها الفتى الجسور؟ ولماذا تصيد فرائسى؟ ومن هم والداك؟

أجاب حسن قائلا:

- لقد عثر علىّ أنا وأختى بالطريق قائد إحدى القوافل. أخذنا معه وربانا لأنه كان محروما من الأطفال. وقد مر علينا اثنا عشر عاماً ونحن نعيش معه. وأنا أقوم بالصيد بينما تغزل أختى سجاداً جميلا أروع سبع مرات من أغلى السجاد الموجود فى السوق.

لم يدرك الملك الأحمق شيئا من حكاية الصبى. لكن الوزير فكر فى نفسه:"إذن مازالا أبناء الملك فى عداد الأحياء، حتى إن هذا الصبى شديد الشبه بوالده الملك"

عاد الوزير إلى منزله وحكى للساحرة الشمطاء عن لقائه بالصبى. فقالت:

- إنهم أطفال زولفيا.

- ربما يكونون هم أطفالها - قال الوزير.

وانتاب القلق الوزير والشمطاء والأربعين زوجة من أن ينكشف أمرهم.

خرج الملك مرة ثانية للصيد. وبعد فترة توقف بالقرب من منزل قائد القوافل ليستريح بعض الشىء. فخرج القائد وقدم فروض الطاعة والولاء للملك وجلسا معا يتحدثان. وتطرق الحديث إلى حسن وزهرة. ونظرت زوجة القائد إلى الملك تتفرس فى

وجهه. وقد كانت المرأة تتمتع بقدر من الذكاء والفطنة. فلاحظت الشبه الكبير بين الملك وحسن فى الوجه والعينين المتماثلتين. فقالت للملك:

-- هل تسمح لى يا مولاى أن أقول فكرة قد طرأت ببالى الآن؟

- تكلمى - سمح الملك لها.

- يقولون إن لكم أربعين زوجة وليس لديكم أبناء. كما يقولون إن لديكم زوجة أخرى تدعى زولفيا قد أنجبت لكم معزة وجديا. وأنا أعتقد أن زوجاتك الأربعين قد مكرن بزولفيا ووضعن لها المعزة والجدى بدلا من الأطفال. ثم خدعوك وأخبروك بغير الحقيقة. فلم نسمع أبدا عن امرأة تلد جديا ومعزة. كما أن الشبه بينكم وبين حسن كبير إلى درجة مذهلة. وكم سنة مرت على زولفيا وهى فى السجن؟

- اثنا عشر عاما - قال الملك وهو يضرب جبهته بيده - يا لى من أحمق.

فقالت المرأة للملك:

- كما يمكنكم أن تسألوا زولفيا عن أمر الولادة وما الذى جرى وقتها.

فرح الملك وعاد إلى قصره مصطحبا حسن. وأحضر زولفيا من سجنها. وأخذت تحكى للملك عما جرى وقت الولادة. استمع حسن إلى حكاية أمه ثم نظر إلى والده وهتف:

- أمى الحبيبة - وأخذت الأم تعانق ابنها عناقا حارا.

استدعى الملك الأربعين زوجة وأخذ فى سؤالهن واستجوابهن. وهنا انكشفت له الحقيقة.

أقام الملك احتفالا ضخما كبيرا كى يعرف الناس جميعا أن حسن وزهرة هما أبناء الملك. واستمرت الاحتفالات لأربعين يوما وليلة.

ولم ينس حسن وزهرة طوال عمرهما أن يردا الجميل إلى قائد القوافل وزوجته اللذين احتضناهما وقاما بتربيتهما.

* * *

رستمزود وشيرزود



فى زمن بعيد عاش أحد الفقراء. وكان الفقير له ولدان أحدهما اسمه رستمزود والآخر شيرزود. ماتت زوجة الفقير ورحلت عن الدنيا مبكرا تاركة على عاتقه مسئولية تربية الولدين. وأصبح من الصعب على الفقير تدبير شئون الحياة بمفرده. لذا سرعان ما تزوج الرجل مرة أخرى من إحدى النساء.

كان الفقير يعمل أجيرا باليومية وكان يكسب القليل من عمله. لذا ظلت زوجته تسبه وتتشاجر معه طوال الوقت. فكانت تقول له:

– إذا بقيت تعمل باليومية مستقبلا فسوف نظل جوعى إلى الأبد إن شاء الله. من الأفضل لك أن تفعل الآتى: تخرج إلى الطريق مع حلول الظلام، وامكث على جانبه

منتظرا ظهور اللصوص. وعندما يمرون بجوارك قم وسر خلفهم. وسوف يرثون لحالك ويعطونك شيئا مما نهبوه. وما ستأخذه منهم سوف يكون بالتأكيد أكثر مما تكسبه طوال الشهر.

لم تعجب الفقير العجوز كلمات الزوجة له واقتراحها الذى صرحت به. لكن الزوجة ظلت تلح عليه حتى حل الظلام فدفعته خارج البيت. وقف الفقير مهموما على جانب الطريق يفكر فيما يفعله والحزن يلفه. بالقرب منه سارت عصابة من اللصوص. وما إن رأوه واقفا حتى هتفوا بفرح وسرور:

– يا لحسن الحظ، ها هو صيد ثمين ينتظرنا. فلنهجم عليه ونجرده مما يملك.

هجم اللصوص على العجوز ليجردوه من ثروته. لكنهم لم يعثروا على شيء معه عدا جلبابه المهترئ. فسأله اللصوص عن السبب الذى دفعه إلى الوقوف بالطريق فى هذا الوقت. أجاب عليهم الفقير قائلا:

– منذ سنوات عديدة وأنا أريد الانضمام إليكم. وأخيرا حالفنى الحظ وقابلتكم اليوم. فإن وافقتم خذونى معكم أو اتركونى أذهب لحالى.

فكر زعيم عصابة اللصوص لبرهة ثم قرر قائلا:

– حسنا، فلنأخذه معنا، يطهو لنا الطعام، ويعد لنا الشاى، ويحرس أغراضنا.

وهذا ما كان بالفعل. اصطحب اللصوص الفقير معهم وساروا طويلا طويلا. حتى وصلوا إلى قلب الغابة. حيث كانت أشجار التوت تنتشر فى المكان وتحيط بإسطبل كبير للخيل. قال اللصوص للعجوز:

– اسمع أيها الرجل العجوز، سوف تعيش معنا هنا، عندما نخرج للعمل تطهو لنا الطعام أثناء غيابنا وتعد لنا الشاى. ولا تخشى شيئا على الإطلاق، فالجو هنا آمن وهادئ. وعند عودتنا سوف نكافئك بسخاء.

قال اللصوص ذلك للفقير. وكان عددهم أربعين لصا. وامتطوا جميعا خيولهم، وانطلقوا مبتعدين عن المكان. أشعل الفقير حلقة من النار وامتطى الفرس الباقية فى الإسطبل وانطلق خلف اللصوص مقتفيا أثرهم.

سار اللصوص حتى وصلوا إلى مشارف إحدى القرى، فترجلوا جميعا من على جيادهم. ثم ربطوها ببعض الأشجار وتسللوا سيرا على الأقدام إلى داخل القرية.

كانت هناك دجالة عجوز تعيش بالقرية. وكان لديها ثروة طائلة جمعتها من أعمال السحر التى تقوم بها. وكان بيتها هو هدف عصابة اللصوص فى هذه الليلة.

اتجه اللصوص متسللين إلى منزل تلك الساحرة. وجمعوا منه كل ما هو نفيس وثمين فى أجولة وقفف حملوها فوق أكتافهم.

والآن نترك اللصوص وقد حملوا الغنائم المسروقة على أكتافهم، ولنذهب إلى الفقير العجوز ونشاهد ما الذى فعله. لقد سار خلف اللصوص، ثم تسلل هو الآخر خلسة إلى منزل الساحرة. وصار يدور بمقلتيه هنا وهناك فى أرجاء المنزل حتى وقعت عيناه على دف كبير فى ركن من الأركان. التقط الفقير الدف وتكوم معه مختبئا فى زاوية بالمنزل. انطلق الفقير يضرب الدف بكلتا يديه ضربات سريعة متلاحقة.

كانت الساحرة وزوجها العجوز يغطان فى نوم عميق عندما استيقظ الزوج فجأة على صوت الدف وخبطاته القوية تدوى فى أرجاء المنزل.

"لابد أن الجنيات من أصدقاء زوجتى هن اللائى يمرحن بالمنزل ويضربن على الدف والطبل.." فكر الزوج وأيقظ زوجته الساحرة وقال:

- استيقظى أيتها المرأة العجوز، إن جنياتك لا يحلو لهن اللهو الا أثناء الليل، ولا أستطيع النوم بسبب طبلهن وزمرهن، فاذهبى إليهن واطلبى منهن الهدوء أو الرحيل.

استيقظت الساحرة العجوز من نومها، وأشعلت المصباح. وأصابها الذهول عندما رأت منزلها وقد تم نهبه وسرقته بالكامل. صرخت العجوز تنادى وتستغيث وصرخ معها زوجها، وتعالت أصوات صراخهما حتى هرع الأهالى والسكان إليهما من كل صوب فى القرية ليستطلعوا الأمر. واضطر اللصوص إلى إلقاء الأجولة والقفف المملوءة بالمسروقات من على أكتافهم والتخلى عنها. وفروا من القرية مسرعين حتى لا يمسك بهم الأهالى.

أما الرجل الفقير فقد ظل فى مخبئه يضرب الدف بكلتا يديه حتى عثروا عليه فسألوه فى دهشة؟

- من أنت أيها الإنسان؟ أم يا ترى أنك من الجان؟

- أنا لست من الجان، بل أنا مثلكم إنسان.

- إذا كنت إنسان كما تدعى، فما الذى يجعلك تضرب الدف بسعادة ومرح، بينما الجميع هنا يولولون ويصرخون؟

- لقد كنت أضرب على الدف كى أحذر أهل المنزل من اللصوص الذين تسللوا إليه، وبدلا من أن توبخونى، الواجب عليكم أن تكافئونى. أجاب الفقير بثقة وحسم.

حينئذ قال الناس للساحرة:

- إنها الحقيقة أيتها الساحرة، لولا هذا الإنسان، لكنت فقدت كل ثروتك ومالك.

اعترفت الساحرة بفضل الفقير، وشكرته على ما فعل. وأعطته قدرا كبيرا مملوءاً بالجنيهات الذهبية والفضية مكافأة له. امتطى الفقير حصانه ورحل سعيدا. واستطاع أن يسبق اللصوص إلى الغابة. فأسرع بطهى الطعام وإعداد الشاى. وجلس ينتظرهم فى هدوء كما لو كان لم يغادر الغابة. أما القدر المملوء بالنقود فقد دفنه بالأرض فى مدخل الغابة.

"إذا أصابنى الضجر من العيش مع اللصوص، أو آذونى، آخذ القدر من مخبئه وأرحل عنهم عائدا إلى دارى.." فكر الرجل الفقير.

عندما هرب اللصوص من القرية تفرقوا فى مختلف الحقول. وهاموا فترة طويلة على وجوههم حتى تجمعوا أخيرا مرة ثانية. وساروا معا إلى الغابة وقد طلع الفجر عليهم. توقف اللصوص عند بعض الأشجار العالية التى تجمع عليها عدد كبير من الطيور. نظر زعيمهم إلى الطيور فوق الأشجار. وشد قوسه مصوبا سهمه إلى أحد الطيور فأصابه. سقط الطير جريحا على الأرض. أمسك اللصوص به وساروا نحو مقرهم بالغابة.

مـا إن رأى اللصـوص وجـه الفـقـير يطـل عليـهم حـتى صـرخ زعيـمـهـم فـيـه بغضب قائلا:

- إن كل ما جرى لنا هو بسببك أيها العجوز النحس، فلم يحدث لنا أبدا من قبل أن عدنا بخفى حنين مثلما حدث اليوم، وكل ما غنمناه هو هذا الطائر التعيس، إن قدومك إلينا قد جلب لنا النحس أيها العجوز.

لكن الفقير قدم إلى اللصوص الطعام الذى طهاه. وبعد ذلك سقاهم أكواب الشاى الذى أعده لهم. شبع اللصوص واستلقوا نائمين. وعندما استيقظوا من النوم رأوا الفقير قد أعد لهم الطعام والشاى مرة ثانية. فأصبح اللصوص راضين عن الفقير لما يفعله. وعندما انتهوا من تناول الطعام ارتدوا عماماتهم وخرجوا لزيارة الأصدقاء والمعارف.

وهنا ينبغى القول والتنويه بأن اللصوص كانوا أثناء النهار أناسا طيبين شرفاء، يسيرون بين الناس والخلق باحترام وتهذيب. أما فى الليل فهم يتحولون إلى سارقين أشرار.

عندما حل الظلام، عاد اللصوص إلى مقرهم بالغابة وصاروا يتشاورون ويتحدثون فيما بينهم:

"فى إحدى القرى المحيطة بهم يوجد جرن كبير للغلال، ويستحق أن نشد الرحال إليه الليلة حتى نعوض خسارتنا للغنيمة الضائعة".

وقبل أن يرحل اللصوص إلى غايتهم، طلبوا من الفقير أن يعد لهم قبل عودتهم الطعام والشاى.

ومثل ما جرى فى المرة السابقة ركض الفقير وامتطى فرسه. وسرعان ما مضى خلف اللصوص يتبعهم قبل أن يختفوا عن ناظريه.

وصل اللصوص إلى الجرن وكسروا الأقفال الموضوعة على أبوابه. وأخذوا يعبئون الدقيق والحبوب فى الأجولة ويحملونها على الجياد. وفى نفس هذا الوقت كان الفقير قد تسلل هو الآخر إلى داخل الجرن. وفى أحد الأركان عثر على بوق نحاسى قديم. فحمله إلى مخبئه بالجرن وصار ينفخ فيه وينفخ مصدرا صوتا عاليا يتردد فى الأرجاء.

كان صوت البوق عاليا لدرجة أنه أيقظ كل سكان القرية الذين هرعوا مسرعين إلى الجرن يستطلعون الأمر. وهناك هجموا على اللصوص وأوسعوهم ضربا وركلا. واستطاع اللصوص أن يفلتوا منهم بصعوبة شديدة وفروا من المكان يجرون أقدامهم بالكاد.

أما الفقير فظل ينفخ فى البوق النحاسى وينفخ.

- ألا تخجل من نفسك أيها الرجل؟ ألا تشعر بمصيبتنا؟ نحن جميعا نطارد اللصوص وأنت تجلس هنا تعزف وتنفخ فى البوق كما لو كنت فى حفل زفاف. صرخ الناس فى الفقير.

- لو لم أنفخ فى هذا البوق، لأصبح هذا الجرن خاويا كصحراء جرداء - قال الفقير- ولولاى لما وصلتم فى الوقت المناسب واستطعتم طرد اللصوص، والأولى بكم أن تكافئونى.

- حقا إنك مصيب فيما قلت - قال الناس لصاحب الجرن - هذا الرجل له الفضل عليك، فأعطه ما يستحق بما تسمح به قدرتك.

شكر صاحب الجرن الرجل الفقير. ومنحه عددا من اللآلئ الثمينة مكافأة له.

فرح الفقير فرحا كبيرا. وانطلق مسرعا إلى الغابة. وعندما تأكد أن اللصوص لم يصلوا بعد، أعد لهم بسرعة الطعام والشاى.

أما اللصوص فبعد هروبهم من القرية تفرقوا فى الحقول والوديان المجاورة. ولم يجتمعوا ثانية إلا فى الصباح. فاتجهوا صوب الغابة وهم فى حالة يرثى لها من الغضب والجوع.

تناول اللصوص الطعام وشربوا الشاى ثم استلقوا للنوم.

وهنا اقترح زعيمهم على أصحابه قائلا:

- أليس من الأفضل لنا أن نقتل هذا الفقير ونتخلص منه؟ إنه بالتأكيد المسئول عما حدث لنا، فهو فى الغالب يتبعنا ويبلغ عنا ويخوننا.

سمع الفقير الحديث الدائر بين اللصوص وانتظر حتى راحوا فى النوم. فحمل معه الطائر الجريح الذى أصابه زعيم اللصوص بالأمس فى الغابة وفر هاربا من المكان. ثم توقف فى الطريق عند أطراف الغابة وأخرج من الحفرة القدر المملوء بالجنيهات الذهبية والفضية. فحمله على فرسه وانطلق عائدا إلى داره بالمدينة.

كادت زوجة الفقير أن تجن من الفرح والسرور عندما شاهدت الجنيهات واللآلئ الثمينة التى أحضرها الفقير معه. فهى لم تر فى حياتها من قبل مثل هذه الثروة الطائلة. وعاشا فى رخاء وسعادة لسبع من السنين. أما الطائر فقد عالجه العجوز من جرحه حتى شفى ووضعه فى قفص يليق به. وأصبح الطائر يبيض كل عام بيضة واحدة. كان العجوز يأخذها ويحتفظ بها فى صندوقه.

فى أحد الأيام عزم العجوز على الذهاب إلى السوق. وطلب من زوجته أن تأتيه ببعض المال. فتحت الزوجة الصندوق فلم تجد به شيئا سوى السبع بيضات اللاتى وضعها الطائر خلال السبع سنوات. أخذ العجوز بيضة منهم وأخفاها داخل ملابسه واتجه إلى السوق. سار العجوز فى طريقه بالقرب من قصر الحاكم. ونظر فلمح قفصا ذهبيا معلقا عند بوابة القصر. اقترب من القفص وتوقف عنده فرأى بداخله بيضة تشبه البيض الذى وضعه الطير بالتمام. وظل العجوز واقفا بجوار القفص. ينظر تارة إلى البيضة التى معه داخل ملابسه، وتارة أخرى إلى مثيلتها بالقفص.

لاحظ الحارس عند البوابة الرجل العجوز وما يفعله فهرول مسرعا إلى الحاكم يخبره وقال له:

أيها الحاكم، هناك رجب عجوز يقف بجوار القفص، تارة ينظر إليه، وتارة أخرى ينظر داخل ملابسه.

– أحضر هذا الرجل إلىّ على الفور. أمر الحاكم. وعندما أحضروا العجوز إليه سأله الحاكم:

– أيها العجوز، ما الذى يجعلك تنظر تارة إلى القفص وتارة أخرى داخل ملابسك؟

- إنى أحمل معى بيضة كى أبيعها فى السوق، وإذا بى أرى مثيلتها بالتمام والكمال فى ذلك القفص الذهبى، فأصابتنى الدهشة من هذا الأمر.

حينئذ قال الوزير للحاكم:

- إن هذا العجوز يكذب أيها الحاكم، لقد اختفت من خزنة القصر لؤلؤة ثمينة، ونحن نبحث عنها منذ زمن طويل ولم نعثر لها على أثر حتى الآن، وها هى مع هذا العجوز. وكيف يمكن أن تكون مثلها لدى فقير معدم مثله؟ قال العجوز:

- أيها الوزير المحترم، إن لدى فى منزلى ست بيضات أخريات غير هذه البيضة. وإذا كنتم لا تصدقونى، فأرسلوا معى رسولا كى يراهم بنفسه ويتأكد من صدق روايتى.

أمر الحاكم وزيره بالذهاب مع الفقير للتأكد من صحة ما قاله.

وما إن اقترب الفقير من منزله حتى هتف ينادى على زوجته:

- هيا أحضرى لنا الست بيضات التى لدينا.

تيقن الوزير من صدق رواية الفقير. وحكى للحاكم عن البيض الذى رآه عند الفقير.

منح الحاكم ثوبا جديدا للفقير، وسأله عن الثمن الذى يريده لبيع بيضة واحدة. فأجاب الفقير قائلا:

- لا أعرف ثمنها أيها الحاكم، ادفعوا الثمن الذى تستحقه هذه البيضة.

اجتمع الحاكم مع حكماء القصر للتشاور معهم. وقرروا أن مجموع دخل البلاد طوال العام، لا يكفى ثمنا لهذه البيضة. حينئذ جمعوا ألف جمل وجمل، وحملّوها بالبضائع الثمينة. وأرسلوها مع الوزير إلى بيت العجوز. وقال الحاكم:

- من الجائز أن ينجح الوزير فى إقناع العجوز أن يبيعنى البيضة مقابل قافلة الجمال.

وكان هذا ما جرى. فأصاب العجوز قدراً كبيراً من الثراء والغنى. وصار يرتحل ويسافر للتجارة فى شتى أطراف البلاد. وذات مرة سافر لمدة شهر تاركا بيته. وكانت

زوجته قد اتخذت لها عشيقا يزورها. وعرف ابنا العجوز رستمزود وشيررزود بأمر زوجة أبيهما الولهانة فأصابهما الضيق والغضب.

وفى أحد الأيام عندما كان الابنان فى المدرسة وصل إلى البيت عشيق الزوجة. وفجأة لمح الطائر فى قفصه فاصفر وجهه واكفهر. وكاد أن ينفجر ميتا من شدة التوتر. وسأل الزوجة:

- لمن هذا الطائر؟

- إنه ملكنا - أجابت عليه زوجة العجوز.

- فلتذبحيه لى إذن، وتطعمينى من لحمه - قال العشيق.

- لا أستطيع أن أفعل هذا- قالت الزوجة - إن زوجى يعتبر الطائر أغلى من حياته. أطلب منى أى شىء آخر أحضره لك، عدا هذا الطائر.

- وتقولين لى إنك تحبيننى - قال العشيق غاضبا- كيف يمكننى أن أصدق كلامك وأنت تبخلين على بذبح طائر مثل هذا. مادام الأمر هكذا، فلن آت إليك ولن أريك وجهى بعد الآن.

- حسنا، اذبحه عندما تحضر لى غدا، وأنا سوف أعده لك كى تأكله - ردت عليه الزوجة.

كان العشيق رجلا ماكرا خبيرا بأمور الدنيا. فقد عرف أهمية هذا الطائر من النظرة الأولى إليه. يكفى أن يأكل الرجل جناح الطائر، ليعثر بعد ذلك كل يوم على كيس مملوء بالذهب أسفل وسادته. أما إذا أكل الرقبة، فسوف يمتلئ الكيس بالجنيهات الفضية بدلا من الذهبية.

فى اليوم التالى، عندما ذهب الولدان إلى مدرستهما، وصل العشيق إلى بيت العجوز. فقام على الفور بذبح الطائر. ووضعته الزوجة فى القدر لتطهيه.

عاد الابنان من المدرسة إلى البيت. ووجدا البوابة مغلقة. وفكرا أن زوجة أبيهما قد خرجت من المنزل وأغلقت البوابة. فتسلقا سور البيت وقفزا إلى فناء المنزل. ورأى الولدان القدر على النار يغلى وبداخله يسلق الطائر. وخشى الابنان أن يأكلا القطع

الجيدة منه فتغضب زوجة الأب. فنزعا منه فقط الجناحين والرقبة وأكلاهم. وبعد ذلك، خرجا إلى الطريق يلعبان مع أقرانهما.

كانت الزوجة وعشيقها داخل المنزل عندما حضر الولدان. لكنهما لم يعرفا بمجيئهما. ذلك لأنهما كانا مستغرقين فى لهوهم.

ولنترك الزوجة والعشيق جانبا لبعض الوقت، كى يتناولا طعامهما من الطائر. ولنرى ما صار من أمر التاجر العجوز.

بعد مرور بضعة أيام، عاد العجوز إلى البيت. وكان أول ما فعله أن سأل زوجته:

– أين ذهب الطائر؟

أجابت عليه الزوجة:

– لقد قام ابناك بذبحه، ولم أجد منه سوى الريش الذى جمعته.

نادى العجوز على ابنيه رستمزود وشيرزود، وصرخ فيهما بلهجة قاسية مرعبة:

– إذا كنتما قد ذبحتما طائرى الحبيب، فأنا أتبرأ منكما، وإن لم تكونا قد فعلتما ذلك فسيان عندى، اغربا عن وجهى واتركا هذا المنزل وليكن الحظ حليفكما.

وهكذا طرد العجوز ولديه من البيت.

حمل الابنان معهما أقواسا وسهاما، وابتعدا إلى حيث لا تدركهما العين. ظلا يسيران طويلا طويلا حتى وصلا إلى غابة كبيرة. فصنعا لهما كوخا من غصون الأشجار وفروعها وعاشا به. وأصبحا يقتاتان من الصيد والقنص.

فى أحد الأيام خرج رستمزود يصطاد غزالاً، وظل شيرزود بالكوخ. وسرعان ما حلق طائران وحطا على شجرة تقع فوق رأس شيرزود. قال أحد الطائرين للآخر.

– هل تعرف أيها الصديق، لو أصابنى أحد بسهم، فسوف يظل لأربعين يوما يهيم على وجهه تائها فى صحراء قاحلة، وأربعين يومًا يضيع فى أحراش مظلمة، وفى النهاية سوف يصبح ملكا على البلاد. وقال حينئذ الطائر الآخر:

- أما أنا إذا أصابنى أحد بسهمه، فسوف يظل نائما لأربعين يوما وأربعين ليلة، ثم يتعرض لمخاطر ومصاعب جمة لأربعين يومًا وأربعين ليلة آخرين. لكنه فى النهاية سوف يحقق كل أمانيه وأحلامه.

حمل شيرزود القوس بسرعة وشده مصوبا نحو الطائرين، فأصابهما على الفور بسهمين قاتلين.

نظّف شيرزود الطائرين من الريش ووضعهما فى قدر يسلقان لحين عودة أخيه وجلس فى انتظاره. ومر الوقت ورستمزود لم يصل بعد. ونضج الطائران فى القدر حتى إنه لم يعد بالإمكان التمييز بينهما. وطال انتظار شيرزود لأخيه، حتى اشتد به الجوع فأكل واحدا من الطائرين. وفجأة غلبه النعاس فاستلقى على الأرض وراح فى نوم عميق.

عاد رستمزود من الصيد ونظر حوله فرأى أخاه مستغرقا فى النوم. ثم لمح القدر وبه الطير الآخر المسلوق. جلس رستمزود وتناول الطير من القدر والتهمه. وفجأة شعر بقوى غير مرئية تدفعه إلى القيام والسير بغير هدى. وظل لمدة أربعين يوما وأربعين ليلة هائما على وجهه فى صحراء قاحلة. ثم سار لأربعين يومًا وليلة آخرين فى أحراش مظلمة. وأخيرا وصل إلى مدينة غير معلومة وتوقف عندها.

كان ملك تلك المدينة قد مات لتوه. وقام وزراء البلاط بإطلاق سراح طائر السعادة من القصر.

وسرعان ما حط طائر السعادة على كتف رستمزود. لم يرض الوزراء باختيار الطائر لأحد الغرباء الوافدين. فأمسكوا برستمزود وأغلقوا عليه حجرة بعيدة بالقصر. ثم أطلقوا طائر السعادة مرة أخرى. وظل الطائر يدور ويحلق طويلا فوق القصر حتى عثر على حجرة رستمزود، واندفع نحو زجاج نافذتها فكسره وحط على كتفه.

أسقط فى يد الوزراء ونصبوا رستمزود ملكا عليهم خلفا للملك السابق.

لنترك الآن ابن الفقير رستمزود يحكم البلاد التى أصبح ملكا عليها، ونرى ما الذى جرى لأخيه شيرزود.

أربعون يوما وأربعون ليلة انقضوا على شيرزود وهو غارق فى نومه. استيقظ بعدها ليجد نفسه فى حالة من الوهن والضعف الشديد ووقف بالكاد وهو يترنح من التعب. استجمع شيرزود قواه وانطلق يبحث عن أخيه. وهنا ينبغى الإشارة أن الشقيقين كانا ماهرين فى معرفة الأثر واقتفائه. وكانا دائما يعرفان آثار أقدام بعضهما البعض مهما انقضى من وقت عليها.

عثر شيرزود على آثار أقدام أخيه وأخذ يتبعها على الطريق. وسار شيرزود أربعين يوما وأربعين ليلة وهو يتبع الآثار. وعانى الكثير من الصعاب والمخاطر أثناء سيره. فكانت الحيوانات المتوحشة تهاجمه وتوشك على افتراسه. لكنه كان فى النهاية يصرعها بسهامه وينتصر عليها.

فى اليوم الحادى بعد الأربعين وصل شيرزود إلى أبواب المدينة التى اختير رستمزود عليها ملكا.

دق شيرزود بيديه على بوابة المدينة، فسأله أحد الحراس عن كنيته وما يبتغيه. فقال شيرزود مجيبا:

– لقد سرت طويلا طويلا، وعانيت الكثير من الصعاب، وأكاد أهلك من التعب، فاسمح لى بالدخول.

لكن الحارس لم يسمح له بالدخول. فاضطر شيرزود أن يقضى ليلته وهو يلتحف السماء غطاء له. وهنا ينبغى التنويه أن تنينا عملاقا يهبط على أسوار المدينة فى كل يوم عندما ينتصف الليل ليبتلع كل من يصادفه هناك. وينام التنين أثناء النهار فى كهفه.

لم يكن شيرزود يعلم شيئا عن هذا التنين.

وعندما انتصف الليل هبت على الأرض عاصفة مخيفة. واستيقظ الفتى من نومه ليرى التنين المرعب يطير نحوه والنار تخرج من عينيه. تمالك شيرزود نفسه ولم يرعبه منظر التنين فصوب سهمه إلى إحدى عينيه وأصابها. ثار التنين من الألم وتملكه الغضب وهجم على شيرزود يريد الفتك به. لكن الفتى وقف صامدا وصوب سهمه الثانى ناحيته وفقأ به عينه الأخرى. وأصبح التنين أعمى لا يرى وصار من السهل على شيرزود القضاء عليه. فكان هذا ما فعله. وانقض عليه بسيفه ليقطعه إربا إربا.

صنع شيرزود لنفسه حزاما من جلد التنين وذهب إلى البوابة. وأخذ يدق عليها بقوة وعنف. فقد استبد به الجوع والعطش. وكان متعبا إلى أبعد الحدود.

أصاب الحراس الضيق والغضب من دقات شيرزود المزعجة. ففتحوا له البوابة. وما إن عبرها ودخل إلى المدينة حتى انقضوا عليه وأثخنوه جراحا بالرماح. ثم جردوه من الحزام الذى صنعه من جلد التنين. ولفوه فى بالة من الخيش وألقوا به فى حفرة من الطين كان صناع الفخار قديما يأخذون منها الطين لصناعتهم. وفى الصباح سار الحراس إلى الملك وأخبروه بأنهم قد استطاعوا قتل التنين المرعب. فأغدق الملك عليهم بالمال والذهب مكافأة لشجاعتهم.

ولنترك الحراس يحتفلون بالمكافأة السخية التى أعطاها لهم الملك ولنذهب إلى مكان آخر بعيدا عنهم.

كان يعيش بالمدينة أحد صناع الفخار. ومنذ أن ظهر التنين يحلق فوق أسوار المدينة ويبث الرعب فى نفوس الناس، وصاحبنا لم يجرؤ على الذهاب إلى الحفرة الطينية الموجودة بجوار السور ليأخذ منها الطين اللازم له. وعندما عرف الرجل أن التنين قد مات أصابه السرور والفرح وقال لابنه:

– لقد هلك التنين يا بنى، هيا بنا نذهب إلى الحفرة الموجودة هناك ونحضر منها ما يلزمنا من الطين ونشرع فى العمل.

وما إن ضرب الرجل فى الحفرة بمعوله حتى شعر بشىء كبير يرقد فى قاع الحفرة.

– يا ولدى – قال الرجل – لقد اصطدم معولى بشىء ما، لابد أنه كنز مدفون هنا، هيا بنا نخرجه بسرعة.

وأخذ صانع الفخار يحفر مع ابنه حتى أخرجا بالة من الخيش طويلة وثقيلة الوزن. فرح الاثنان وحملاها إلى منزلهما. وبدأ يفضان الخيش ويفتحان البالة حتى شاهدا بداخلها شابا رائعا جسده مثخن بالجراح وهو يتنفس بالكاد.

– هذا هو إذن ما وجدناه – قال صانع الفخار لابنه – وقد كنا نظن أننا عثرنا على ثروة طائلة، فإذا بنا نزيد همومنا بهم جديد على رأسنا ولا نعرف كيف ينتهى.

فى أول الأمر فكرا أن يلفا الشاب فى البالة كما كان ويحملاه إلى الحفرة مرة أخرى، لكنهما أشفقا على حاله وقررا أن يبقياه لديهما فى المنزل.

هرع صانع الفخار إلى الطبيب وقال له:

– لقد تعثرت زوجتى وهى تسير وجرحت نفسها، فأعطنى بسرعة دواء لأعالج به جرحها.

أعطاه الطبيب الدواء. وصار الرجل يعالج به جروح الشاب شيرزود. وأخذ يطعمه بالطعام الجيد الشهى من دهن الأغنام حتى الحلوى المسكرة.

سرعان ما شفى الفتى وطابت جروحه. وأحب شيرزود الرجل صانع الفخار كأبيه وأحب زوجة الرجل مثل أمه. وما لبث أن أخذ يشارك أبناءهم العمل فى ورشة الفخار.

فى أحد الأيام سار بالقرب من ورشة الفخار اثنان من حراس البوابة السابقين الذين أصبحوا فيما بعد من كبار الموظفين. ولمحا الفتى يقف فيها فقال أحدهما للآخر:

– انظر هناك، أليس هذا هو الفتى الذى قتلناه ورميناه بالحفرة بجوار سور المدينة؟

– إنه حقا هو بشحمه ولحمه، فهو لم يمت إذن – قال الآخر بخوف – وإن لم ندفنه فسوف تحل المصائب فوق رءوسنا.

وأصدرا أوامرهما للحراس بالقبض على شيرزود.

– أخيرا عثرنا عليك أيها المجرم الشقى – قال الموظفان – وسوف تنال جزاءك.

ربطوا شيرزود من يديه وقدميه وساقوه فوق حمار إلى الزنزانة.

أخذ صانع الفخار يبكى مع زوجته بحرقة ومرارة. فقد أحبا شيرزود مثل أحد أبنائهما.

ولنترك الآن شيرزود المسكين جالس فى زنزانته المظلمة. ولنذهب لنرى ما يجرى فى المملكة المجاورة. فبعد أن سمع ملكها بمصرع التنين المرعب قرر السفر لتهنئة الملك الجديد بهذا الحدث السعيد. وعندما عرف رستمزود بوصول الضيف الكبير خرج لاستقباله مع حشد من المقربين. وعندما تقابل الملكان تعانقا فى حب ومودة خالصة. ودعا رستمزود ضيفه إلى القصر كى يحتفل به احتفالا لائقا. وأكرم ضيافته أربعين يوما أقيمت له فيها الاحتفالات والولائم. وقبل رحيل الملك الضيف قال :

- أيها الرفيق العزيز رستمزود، إن الطريق إلى بلادى يقطعه النهر الكبير. وفى كل مرة نعبره نضطر أن نلقى إليه بقربان فى صورة إنسان حى كى يبتلعه. وإن لم نفعل ذلك فإن مياهه تعلو وترتفع لتغرقنا ويبتلعنا جميعا هذا النهر الذى لا يشبع. لذا أرجو منك أن تعطينا أحد المساجين لديك المحكوم عليهم بالموت كى نلقى به قربانا للنهر. فهو فى جميع الأحوال سوف يموت.

وافق رستمزود على طلب ضيفه. وفرح الموظفان لهذا الطلب. فأخرجا من الزنزانة شيرزود المسكين وأعطياه لخدم الضيف الكبير.

سافر الضيف إلى بلاده. وكان أثناء الطريق ينظر إلى شيرزود ويتمعن النظر فيه. فقد نال الفتى إعجابه بهيئته الجميلة وقوامه المفتول وقوة جسمانه. وصار الملك يسأله ويستجوبه. لكن شيرزود التزم الصمت ولم ينطق بكلمة.

"لابد أن هذا الفتى قد ارتكب جريمة شنعاء حتى يلقوا به فى تلك الزنزانة"- فكر الملك ولم يسأل الفتى المزيد من الأسئلة.

فى وقت متأخر من الليل وصل الجمع إلى النهر. رقد الملك للنوم مع أصحابه على العبّارة. وربطوا شيرزود بالسلاسل إلى إحدى الأشجار حتى لا يهرب منهم. لكن شيرزود استطاع أثناء الليل أن يتحرر من السلاسل. فقام ودفع العبارة وعبر بها النهر إلى الجانب الآخر.

فى صباح اليوم التالى استيقظ الملك ومن معه ليجدوا أنفسهم على الشاطئ الآخر من النهر بينما جلس شيرزود جانبا وليس هناك أثر للسلاسل.

فكر الملك فى نفسه قائلا: "لابد أن هذا الفتى ليس عاديا ويملك الكثير من القدرات".

- يا صديقى العزيز- قال الملك لشيرزود - إن كنت قد أخطأت فى حقك فأرجو منك أن تصفح عنى.

اصطحب الملك معه شيرزود إلى المدينة وعينه قائدا للجيش.

كان للملك شقيقة حسناء اسمها الأميرة نصرت. وكان جلدها أملس ناعمًا شفافًا. فإذا شربت الماء تراه مرئيا وهو يتدفق من حلقها. وإن دخلت الأميرة إلى حجرة معتمة يتحول ظلامها إلى نور على الفور.

على أطراف المدينة عاش أسد متوحش كان يهاجم الناس ويفتك بهم. فأعلن الملك أن من يستطيع قتل هذا الأسد سوف يزوجه بأخته الأميرة نصرت.

وعرف شيرزود بذلك الأمر.

ذهب شيرزود إلى أمهر الحدادين فى المدينة وقال له:

- أريدك أن تصنع لى أكبر وأقوى هراوة حديدية.

أثناء ما كان الحداد يصنع له الهراوة. حكى له شيرزود عن نيته فى مصارعة الأسد المتوحش وجهًا لوجه.

وفى الطريق إلى عرين الأسد، صادف شيرزود الكثير من الضوارى والوحوش. فقتل منها ما قتل، وأخذ منها أحياء فى الأسر ما أخذ وسرعان ما وصل إلى عرين الأسد.

نظر شيرزود فرأى وحشا مخيفا أسود اللون يرقد نائما أسفل إحدى الأشجار. كان هذا هو الأسد المهيب بعينه. كانت الوحوش تفر منه فزعة بمجرد ظهوره، وتحلق الطيور فى الفضاء مرعوبة من هيئته.

أما شيرزود فمضى يقترب من الأسد بشجاعة وجسارة. قام الأسد من نومه بعد أن حمل الهواء إليه رائحة بشرية. ونظر كل من شيرزود والأسد فى عين الآخر. لم يتحمل الأسد نظرة الإنسان له فزأر واستجمع قوته وقفز فى الهواء ناحية شيرزود.

لكن الفتى الشجاع ضربه بالهراوة الحديدية على رأسه ضربة قوية وقفز فوق ظهره. وثب الأسد عاليا فوقع شيرزود على بعد بضعة خطوات منه. حاول الأسد أن يقفز ناحية شيرزود مرة ثانية. لكن قوته قد بدأت تخور. فتقدم شيرزود منه بسرعة وعالجه بضربة أخرى ساحقة بالهراوة على رأسه، سقط بعدها الأسد ميتا على الأرض.

سلخ شيرزود جلد الأسد وصنع لنفسه منه حزاما لفه حول خصره. ثم عاد إلى المدينة. وعندما رآه الحداد سالما بلا خدش ولا جرح اندفع إليه يعانقه من الفرح. وركض مسرعا إلى الملك يخبره بالنبأ السعيد. وأراد الملك أن يرى بعينيه الأسد المقتول ويتأكد من موته فخرج مع الحراس إلى عرينه. وحين رآه فرح فرحا كبيرا وأمر بإعلان الخبر السعيد.

خرج المنادون إلى الشوارع والميادين يهتفون معلنين:

– اسمعوا أيها الناس اسمعوا، لقد استطاع شيرزود الشجاع أن يقتل الأسد ويصرعه. وفى يوم كذا سوف يقام زفاف الأميرة نصرت أخت الملك على البطل شيرزود. والكل مدعوون لحضور الزفاف الميمون.

قامت الأفراح والليالى الملاح لمدة أربعين يوما وأربعين ليلة. بعدها تزوج شيرزود من الأميرة نصرت.

وبعد مرور وقت ليس بالكثير جلس شيرزود فى اجتماع بالقصر. وصدرت عنه أثناء الحديث تنهيدة حزينة من القلب.

– ما لى أسمعك تتنهد بحزن هكذا يا صهرى العزيز شيرزود؟– سأل الملك – ما الذى ينقصك هنا؟ أم أنك غير سعيد مع زوجتك نصرت؟ أم ترى أنها قد أغضبتك فى شىء ما؟

تنهد شيرزود بحزن وقال:

– أيها الملك العظيم، أريدك أن تعرف حقيقة أننى لست من المجرمين المحكوم عليهم. فقد كان لى شقيق يدعى رستمزود. ومضى وقت طويل على فراقى معه. وقد كان شقيقى أغلى علىّ من حياتى نفسها. وأنا أفكر به طوال الليل والنهار. أحلم برؤيته وعناقه ولا أستطيع نسيانه. فاسمح لى أن أكرس بقية عمرى للبحث عن شقيقى.

سمح الملك لشيرزود أن يخرج للبحث عن شقيقه.وعندما علمت بذلك الأميرة نصرت أعلنت قائلة:

– لا يجوز للمرأة أن تبقى بمفردها وتترك زوجها الحبيب يسافر بدونها. إن مكانى دائما بجوار زوجى.

واضطر الملك أن يوافق على سفر الأميرة نصرت مع شيرزود. كما أمر أن يصحبهما عدد من الجنود.

فى طريق السفر لعب الشيطان برءوس الجنود عندما رأوا جمال الأميرة وحسنها الباهر. وقرروا أن يقتلوا شيرزود ويأخذوها لأنفسهم. وفى يوم كان شيرزود يصطاد بجوار النهر حين فرش الجنود بساطا على الأرض وفوقه غطاء من المخمل. وعندما عاد شيرزود من صيده أراد أن يستريح فاستلقى على البساط. حينئذ أمسك الجنود بأطراف الغطاء ولفوا به شيرزود وهو على البساط وألقوا به فى النهر. لنتركه فى النهر لبعض الوقت كى نرى ما جرى للأميرة نصرت. فقد أمسك بها الأشرار، وقاموا بوضعها فى صندوق ونزلوا به إلى النهر كى يعبروا إلى الجانب الآخر. فى نفس هذا الوقت كان رستمزود يسير على الشاطئ مع جنوده عائدا من رحلة للصيد. ورأى بعض الرجال يحملون صندوقا يعبرون به النهر. اقترب رستمزود منهم وسألهم:

– ما الذى تحملونه فى هذا الصندوق؟

أجاب أحد الجنود منهم قائلا:

– إنها أشياء متنوعة.

وقال الثانى:

– متاع مختلف.

وقال الثالث:

– إننا نحمل زوجتى فى الصندوق.

عندما سمع رستمزود تلك الإجابات المتضاربة شعر أن هناك أمراً غير طبيعى. فأمر جنوده وقال:

– اقبضوا على هؤلاء المجرمين.

وفتح رستمزود الصندوق ليجد فيه الأميرة الحسناء. فأصابته الدهشة وقال:

- يا إلهى، لابد أن أولئك الأشرار قد فرّقوا بين هذه الجميلة وبين حبيبها. فأنا أيضا قد فرقت الأقدار بينى وبين شقيقى المحبوب. ولهذا فأنا أدرك وطأة الشعور بالفراق. وينبغى الحفاظ عليها حتى تعثر على حبيبها إن كان حيا.

قال رستمزود ما قاله واصطحب معه الأميرة نصرت إلى قصره. أما الأشرار فزج بهم إلى السجن. فلنتركهم فى سجنهم. ولنترك الأميرة تعيش فى قصر رستمزود ولنرى ماذا جرى لشيرزود. عندما لفه الجنود بالغطاء على البساط وألقوا به فى الماء، صارت الأمواج تحمله مع التيار تارة إلى أعلى وتارة أخرى إلى أسفل. وكان أحد الصيادين يعيش على النهر بالقرب من هذا المكان. ولمح الصياد بالماء شيئا تحمله الأمواج يصعد تارة معها ويهبط تارة أخرى تحت الماء. فربط الصياد ابنه بحبل متين ودفع به إلى الماء. سبح الابن حتى وصل إلى البساط الملفوف وأخرجه إلى الشاطئ.

فرد الصياد وابنه البساط وفتحا الغطاء الملفوف ليجدا بداخله البطل فاقد الوعى. أفاق الصياد وابنه شيرزود. وعندما عاد إلى الوعى لم يرغب أن يعرفا حقيقته فحكى لهما الحكاية التالية:

- اسمعوا حكايتى أيها الأصدقاء، فقد كنت فى الماضى مجرما من عتاة المجرمين. ولهذا ألقوا بى فى مياه النهر. وأنتم قد أنقذتمونى من الموت المحقق. فخذونى معكم إلى منزلكم وسوف أفعل كل ما تأمروننى به. وأكون لكم ابنا وأخا مخلصا.

وهكذا عاش شيرزود فى كوخ الصياد. فكان يخرج إلى الصيد ويعود بالفرائس والطرائد. أما الصياد فقد سعد بأن أصبح لديه ابنان يساعدانه. فقلت ساعات عمله. وأصبح يتردد على المقهى بالمدينة يحتسى الشاى ويسمع الأخبار الجديدة.

جلس الصياد فى أحد الأيام بالمقهى يشرب الشاى فإذا به يسمع المنادى يهتف ويقول:

- اسمعوا جيدا أيها الناس ولا تنسوا ما تسمعوه، من فيكم يستطيع أن يخبر الملك عن مصير أخيه فسوف يمنحه الملك ما يكفيه من الملابس الذهبية. وإذا رأى

أحدكم أخاه بعينيه فسوف يجزل له العطاء أكثر من ذلك. أما إذا استطاع أحدكم أن يسوق شقيقه إلى البلاط فسوف يمنحه الملك إحدى محافظات المملكة.

في المساء جلست أسرة الصياد حول العشاء. وقال الصياد لهم:

- أبنائى الأحباء، لقد سمعت أخبارا جديدة فى المدينة.

- احكى لنا عن هذه الأخبار يا والدى - قال شيرزود.

- سوف أحكيها لكم بعدما نفرغ من تناول الطعام - قال الصياد.

بعد ما انتهوا من تناول العشاء حكى الصياد لهما ما قاله المنادى فى المدينة وأضاف:

- آخ يا أولادى، لو كان بمقدورى أن أعرف مكان شقيق الملك، أو حتى أراه بعينى لأصبحت من السعداء المحظوظين.

- يا والدى ينبغى أن ترضى بما قسمه الله لك - قال شيرزود - فأنا وأخى نعمل بلا كلل. نصطاد الأسماك ونجلب الفرائس. فهل كل هذا قليل؟ نحن نستطيع أن نطعمك دائما.

- أنت محق فيما تقوله يا ابنى. فما قلته أنا كان مجرد ثرثرة فارغة. فلا تغضب منى.

بعد العشاء رقد الجميع للنوم. لكن شيرزود ظل طويلا لا يستطع أن يغفو. وأخيرا أيقظ الصياد وقال له:

- يا والدى، لقد استقرت كلماتك داخل روحى. أريدك أن تذهب فى الصباح إلى قصر الملك وتقول له: "لدى ابنة مقطوعة القدمين والذراعين، فهى لا تستطيع السير، بالإضافة إلى هذا فهى عمياء، ليس لها سوى لسان يتحرك. وهى تقول إنها تعرف مكان شقيقكم، فاسمحوا لى بإحضارها إلى القصر وسوف تحكى لكم كل ما تعرفه".

قام الصياد فى الفجر وذهب يدق أبواب القصر.

– هيا تكلم وقل ماذا تريد – قال الحارس.

– لن أقل شيئا إلا للملك نفسه فقط – أجاب الصياد.

ساقوا الصياد أمام الملك. فقال له كل ما حفّظه له شيرزود من قبل.

ثار فضول الملك رستمزود. وأرسل خدمه إلى كوخ الصياد. فقابلهم شيرزود على باب الكوخ.

– كيف يمكن لفتاة شابة أن تخرج مع غرباء لا تعرفهم؟– قال شيرزود للخدم. هذا لا يليق. اذهبوا وأحضروا محفلا فوقه الأغطية. نضع به الفتاة ونغطيها. وحينئذ فقط يمكنكم أخذها معكم.

عاد الخدم إلى القصر. وسرعان ما قدموا إلى الكوخ ثانية يحملون المحفل وبه الأغطية. ووضعوه داخل الكوخ. جلس شيرزود فى المحفل وقال للصياد:

– هيا ألق علىّ بالأغطية حتى لا يظهر منى شىء على الإطلاق.

وضع الخدم المحفل أمام الملك. وجاء الوزراء والقادة وكبار رجال الحاشية. نظر شيرزود من تحت الأغطية فرأى الملك وعرف فيه أخاه رستمزود. فصار يتحدث بصوت رفيع حاد وقال:

– السلام عليكم، أرجو منكم الصفح والمغفرة يا مولاى الملك ويا رجال المملكة الأفاضل إذا كنت سأحكى ما يثير غضبكم.

– حسنا حسنا، سوف نغفر لك فهيا تحدثى – قال الملك.

كان ياما كان فى إحدى المدن يعيش رجل فقير – وبدأ شيرزود يحكى – رزقه الله بابنين، أحدهما يدعى شيرزود والآخر اسمه رستمزود. وكانت زوجة أبيهما تريد أن يلعنهما الوالد ويطردهما من البيت...

وصار شيرزود يحكى ويحكى كل ما جرى بعد ذلك: كيف سار مع أخيه فى الغابة وعاشا بها. وكيف حط طائران وتحدثا معا. وقتلهما شيرزود وقاما بطهيهما. ثم أكل أحدهما وراح فى نوم عميق لأربعين يوما وليلة. وسار شيرزود للبحث عت شقيقه. وصل

إلى المدينة لكن الحراس لم يسمحوا له بالدخول. وكيف استطاع أن يقتل التنين المرعب. وكيف غدر به الحراس وجرحوه وألقوا به فى الحفرة. ونالوا مكافأتهم من الملك حتى صاروا من كبار الموظفين. ثم أنقذ صانع الفخار شيرزود وعالجه من جروحه. لكن الموظفين وهم الحراس السابقين أمسكوا به ثانية ورموه بالسجن.

فى هذه اللحظة خشى الموظفون افتضاح أمرهم. فقاموا كى يتسللوا إلى الخارج لكن رستمزود أمر أن يبقى الجميع ليسمعوا.

- إن تلك الفتاة فى المحفل إنما تقول الأكاذيب والافتراءات - قال الموظفون.

رد شيرزود عليهم وقال:

- يمكنكم أن تحضروا صانع الفخار إلى هنا كى تتأكدوا من صدق كلامى، وسوف يقول لكم بنفسه عما جرى.

أحضر أتباع الملك صانع الفخار ليمثل بين يديه.

- ما الذى رأيته أيها الوالد بعد مقتل التنين؟ - سأل الملك صانع الفخار.

- مولاى الملك - أجاب صانع الفخار- لقد عثرت مع ابنى على شاب ملفوف فى بالة من الخيش داخل الحفرة. فأخذناه إلى البيت وعالجناه. لكن موظفيك هؤلاء أتوا ذات يوم واتهموه بالإجرام وساقوه معهم. ولا نعرف حتى الآن مصيره بعد ذلك.

حينئذ أجلس الملك صانع الفخار فى موضع الترحيب وقال متوجها بحديثه إلى المحفل:

- هيا يا ابنتى، أكملى لى حكايتك.

- اسمعوا الآن ما الذى جرى لشيرزود بعد ذلك...

وأخذ شيرزود وهو داخل المحفل فوقه الأغطية يحكى عن الملك الذى جاء ضيفا وطلب قربانا بشريا يلقى به للنهر فأعطوه شيرزود. وكيف أنه استطاع أن ينقلهم إلى الشاطئ وأعجب الملك الضيف بمواهب شيرزود فاصطحبه معه وجعل منه قائدا لجيشه. ثم استطاع شيرزود أن يقتل الأسد المتوحش ويتزوج من الأميرة أخت الملك. وعندما اشتد الشوق بشيرزود إلى شقيقه طلب من الملك أن يسمح له بالخروج والبحث عنه. ثم كيف أنقذه الصياد وابنه من الموت المحقق.

سأل الملك الصياد الواقف فى القصر:

– هل هذا ما جرى بالفعل؟

– إنها الحقيقة التامة أيها الملك – أجاب الصياد – والشاب الذى أخرجناه من الماء هو نفسه الذى يجلس بالمحفل ويحكى لكم ما تسمعوه الآن.

هنا أزاح شيرزود الغطاء من فوقه وخرج من المحفل. تعانق الشقيقان عناقا حارا. ودارت رءوسهم كالسكارى من نشوة الفرحة.

بعد ذلك أمر رستمزود بقتل الموظفين الأشرار الذى غدروا بشقيقه. وأجزل العطاء بسخاء لصانع الفخار وللصياد. ورافقهم بنفسه حتى البوابة.

عندما أخبروا الأميرة نصرت أن زوجها المحبوب قد عاد. هرعت تركض إليه وارتمت على عنقه. واحتفل الناس بهذه الأحداث السعيدة أربعين يوما وأربعين ليلة.

* * *

مسافر بك



في زمن قديم بالقرب من مدينة أورجينشا عاش اثنان من الأصدقاء الفقراء - كولداش ويولداش. كان كولداش يرعى الإبل في الوادي طوال شهور العام. في الصيف والشتاء، في الحر والبرد. أما يولداش فكان أجيرا يطوف بالبيوت للقيام بأي عمل يطلب منه. وكانا الاثنان يعيشان معا في عشة متهالكة يستأجرانها من بعض الفقراء أمثالهما. وكانا لا يعودان إلى العشة إلا في وقت متأخر من الليل عندما كان التعب يحل بهما. فيجلسان حول النار يتسامران. وكانت لهما عادة أن يقص كل منهما على الآخر ما سمعه من أخبار في يومه وما رآه.

ذات يوم من الأيام رأى يولداش في منامه حلما: رأى نجمتين كبيرتين وأخرى صغيرة يسقطون من السماء في عبه.

أخذ يولداش يفكر فى هذا الحلم طوال اليوم. وفى المساء حكى كعادته الحلم الذى رآه لصديقه. فكر كولداش قليلا وقال:

– بعنى حلمك هذا يا يولداش.

أصابت الدهشة يولداش وقال:

– ما هذا الذى تقوله؟ هل فقدت عقلك؟ إن الأحلام لا تباع.

– يا صديقى العزيز – ألح كولداش – أرجوك بعنى هذا الحلم.

– ما دمت مصرا إذن سوف أبيعه لك. لكن ماذا ستعطينى فى المقابل؟

ضحك كولداش وقال:

– أنت صديقى وتعرف جيدا كل أملكه، ولن أخفى عنك شيئا. وليس لدى سوى عجل ومهر صغير بعد سنوات طويلة من العمل فى الرعى هما كل ثروتى أعطيهما لك. خذ الاثنين مقابل حلمك.

– حسنا وأنا موافق – أجاب يولداش.

– أعطيك العجل من أجل النجمة الكبيرة، والمهر مقابل الأخرى الكبيرة. أما النجمة الصغيرة فآخذها بلا مقابل.

بعد ذلك أخرج كولداش من جيبه سرة من الخبز وأعطاها ليولداش. وأمسك كل منهما بيد الآخر وصارا يهزا أياديهما طويلا وقال: "فليكن الحظ حليفك والخير وليفك".

ورد يولداش قائلا:

– وأنا أعطيك حلمى. وعندما يواتيك الحظ وتتحسن أحوالك فلا تنسنى.

فى المساء تجمع أهل القرية كبيرهم وصغيرهم فى المقهى. وانضم إليهم الصديقان. ثم وقف كولداش يتحدث إلى الناس وقال:

– أيها الإخوة والآباء، لقد قضيت سنين طويلة أرعى لكم الإبل والأغنام. ولم تشرد واحدة منهما ولا ضاعت منى. ولم أسرق منهما فى حياتى. ولم أحسد يوما أحدا منكم ولا نظرت إلى بناتكم أو أخواتكم نظرة معيبة. وأكلت معكم خبزا وملحا طوال هذه

السنين. والآن أريد منكم أن تباركوا طريقى. فسوف أرحل بعيدا عن هنا. ويمكنكم أن تأخذوا صديقى يولداش ليعمل راعيا لقطعانكم بدلا منى. وكما منحتونى ثقتكم تستطيعون أن تثقوا به مثلى.

أنهى كولداش حديثه للناس وانحنى يحييهم. ورأى المجتمعون الصدق فى كلامه. فأثنوا عليه وعينوا يولداش راعيا بدلا منه.

انحنى كولداش ثانية للناس وقال إنه شاكر لهم على العشرة الطيبة معه. وهنا أخذ الحاضرون يجمعون النقود من بعضهم البعض وأعطوها لكولداش وتفرقوا إلى منازلهم.

فى الصباح التالى ساق يولداش القطيع إلى المرعى وودع صاحبه كولداش الذى انطلق فى طريقه. ومضى كولداش يقطع الطرق المجهولة وغير المأهولة. ومر بوديان وصحراوات كثيرة. وسار فوق الصخور وعلى الجبال وبين الرمال. وعبر الأنهار الصغيرة والكبيرة. ولاقى كولداش فى طريقه الكثير من الصعاب والأهوال. ومر عليه سبعة عشر يوما وليلة وهو يجد فى سيره. وأخيرا بعد أن جف حلقه وتورمت قدماه وتشقق جلدهما وامتلأ بالجروح. وصل قبل الغروب إلى قصر منيف تحيطه الأسوار من كل جانب وكانت البوابة موصدة. وتخير كولداش مكانا بجوار السور رقد فيه لينام. لكن النعاس لم يجد طريقه إليه.

وفجأة سمع كولداش وقع حوافر الخيل تقترب منه. نظر حوله فلم ير شيئا. فقد كان المكان غارقا فى ظلام دامس. وصار وقع الحوافر يقترب منه شيئًا فشيئًا.

وهنا قفز أحد الفرسان من فوق كولداش وهو يجر معه فرسا أخرى. وتوقف أمام كولداش وهمس له يقول:

- ها هو الحصان. إنه سوف يأتى قريبا.

وأعطى الفارس لجام الحصان الآخر لكولداش واختفى فى الظلام.

تجمد كولداش فى مكانه يمسك بلجام الحصان ولا يدرك شيئا مما يدور حوله.

مر وقت قليل حتى ظهر فارس آخر أمام كولداش وقال له:

- هيا امتطى الفرس ولنرحل من هنا.

ارتبك كولداش ولم يدر ماذا يفعل أو يقول. وهنا صرخ الفارس فى غضب وقال:

- هيا أسرع خلفى.

استسلم كولداش لمصيره دون تفكير. فامتطى الفرس ومضى مسرعا خلف الفارس المجهول. وظل الاثنان يسيران طويلا فى الطريق دون أن ينطق أحدهما بكلمة. وتدريجيا أخذ نور الصباح ينبلج. واستطاع كولداش أن يرى ملامح رفيقه الفارس الذى بدا شابا جميلا ممشوق القوام. أما الفارس فقد انتابه الذهول عندما رأى وجه كولداش. وهنا أدرك كولداش أن الفارس قد أخطأ عندما أخذه من عند السور بدلا من رجل آخر.

أشرقت الشمس واستمرا يقطعان الطريق على فرسيهما. وامتدت الحقول الخضراء الواسعة من حولهما. وبين العشب الأخضر أخذت ترعى الجياد والأبقار والجمال والغنم وكان المزارعون يسوقون البهائم المحملة بالقمح والغلال.

قال الفارس المجهول:

- يا له من شىء رائع أن تكون مزارعا. تفلح الأرض وتحرثها. وتسبح فى بحر من عيدان القمح الخضراء التى تتمايل مع الرياح. فكم من المشاعر حينئذ تتملك روحك. أليس كذلك؟

لكن كولداش لم يتأثر بكلام الفارس. وتأكد الفتى المجهول أن كولداش ليس مزارعا.

ثم أخذ الفتى يحاور كولداش فى حذر كى يعرف هويته: هل هو من التجار؟ أم أنه من الحرفيين؟ أو يا ترى من العربجية؟ واستمع كولداش إلى محاورات الفتى وظل إزاءها هادئا. وفكر الفارس فى نفسه:"إن زميلى ليس مزارعا ولا تاجرا ولا حرفى، فمن هو إذن؟"

وهنا مر أمامهما قطيع كبير من الأبقار وأخذ يرعى فى الأرضى الواسعة. فقال الفارس لكولداش:

- إن رعى مثل هذا القطيع يبعث البهجة فى الروح.

وهنا انفكت عقدة لسان كولداش وانطلقت الكلمات من فمه كالسيل:

– أيها الفارس المحترم، لقد سألتنى من قبل عن أشياء كثيرة لا أعرفها فالتزمت الصمت ولم أتكلم. أما أمور الرعى فهى معروفة لى جيدا. وأستطيع أن أؤكد لك أن رعى الإبل لهو عمل ممتع لدرجة يصدق معها القول: من لم يرع غنما ولا دابة فى حياته، فهو لم يعش فى هذا العالم. وليس هناك أمتع من أن ترى الدابة التى ترعى أمامك وهى تكبر وتسمن مع مرور الوقت. وعندما تكبر العجول الصغيرة. وتراقبها وهى تلعب وتركض بين الحشائش. وعندما يثنى عليك الناس لأجل الأبقار السمينة المعافاة ويقولون لك:"لقد أحسنت في عملك، ونحن شاكرين لك". إن هذا كله لسعادة كبيرة للنفس.

تحدث الفارس فى نفسه قائلا: "إن ما جرى قد جرى. وليس هناك مجال للعودة". ثم جذب عقدة اللجام وقال:

– هيا أسرع الخطى خلفى.

سار الفارسان طويلا حتى أصابهما الجوع والتعب. فتوقفا فى الطريق وتناولا الطعام وأراحا الجياد وأطعماها. ثم انطلقا ثانية على الطريق.

وكان الفتى أحيانا يلقى بالأسئلة المختلفة على كولداش. وأحيانا أخرى يقص هو عليه بعض الحكايات الصغيرة.

كان الفارس المجهول شابا جميل الطلعة حلو الحديث. فكان كولداش يستمع إلى حديثه وملاحظاته الدقيقة بشغف واهتمام. حتى إنه كان مستعدا أن يصغى إلى حديثه بلا نهاية.

وكان من الواضح أن الفتى لم يكن يلقى بالأسئلة اعتباطا. بل لأنه كان يريد معرفة هوية كولداش. وإن كان كولداش شريفا أم لصا.

وذات مرة قال الفتى المجهول:

– إن لم يكن حديثى قد أصابك بالضجر فسوف أحكى لك حكاية أخرى.

– وأنا أسمعها بكل سرور – قال كولداش – أقول ذلك من كل قلبى. فإن حديثك يمتعنى ويبعث البهجة فى روحى.

أخذ الفتى يحكى قال:

- فى زمن بعيد عاش رجل عجوز حكيم. كان له ثلاثة من الأبناء. أكبرهم بلغ العشرين من العمر. والأوسط ثمانية عشر. والأصغر ستة عشر عاما. وفى يوم مرض العجوز مرضا شديدا. فأتوا له بالأطباء والحكماء لعلاجه. ولم تفلح معه كل الأدوية التى وصفوها له ولا التعاويذ والأدعية التى قرأوها لشفائه. وشعر العجوز بدنو أجله. فودع أمانيه فى الدنيا ونادى على أبنائه. فأوصاهم أن يلتزموا الشرف والأمانة فى حياتهم. وألا يعتمدوا على هبات الغير فى رزقهم بل على عملهم. ثم صار ينفرد بهم واحداً بعد الآخر. فقال لأكبرهم:

- اسمعنى يا ولدى جيدا. سوف أقول لك على سر. هناك فى البستان، أسفل شجرة الرمان العتيقة مدفون كيس ملىء بالذهب. خذه واحتفظ به. فإن أخويك مازالا صغيرين. ولا يدركان معنى النقود. أما أنت فأكبرهم الشقيق البالغ الحاذق. فتصرف بحكمة فى إنفاق المال على إخوتك. وساعدهم حتى يحصل كل منهما على عمل يعينه فى الحياة. وكن أبا لهم بدلا منى.

خرج الابن سعيدا من عند والده. وفكر قائلا لنفسه:"إن والدى يحبنى أكثر من شقيقى الآخرين. لقد ائتمننى على سره وخصنى بهذا السر وحدى".

بعد ذلك نادى العجوز على الابن الأوسط وقال له:

- اسمعنى يا ولدى العزيز، سأخبرك بسر لا يعرفه أحد. هناك فى البستان أسفل شجرة الرمان يوجد كيس مملوء بالذهب أريدك أن تأخذه. فإن أخاك الأكبر قد وجد عملا لنفسه ويستطيع أن يطعم نفسه بنفسه. أما شقيقك الأصغر فلا يفهم معنى المال ويحتاج للرعاية. فساعده حتى يشتد عوده ويستطيع الاعتماد على نفسه. وإن تطلب الأمر ساعد أيضا أخاك الأكبر. وينبغى عليك أن تأخذ بكلامه. وعليك احترامه مثلما كنت تحترمنى تماما. وتعاون معه فى تربية أخيك الأصغر وتعليمه.

وفكر الابن الأوسط هو الآخر فى نفسه قائلا؟:"إن والدى يحبنى أكثر من شقيقى. فقد اختصنى أنا وحدى بسره عن الذهب المدفون".

وأخيرا نادى العجوز على الابن الأصغر وقال له ملاطفا:

- يا ولدى الصغير، لقد اشتد علىّ المرض وقربت ساعتى. هناك أسفل شجرة الرمان كيس مدفون ومملوء بالذهب. أريدك أن تأخذه. فإن شقيقيك قد كبرا ويستطيعان الاعتماد على نفسيهما. أما أنت فما زلت صغيرا لا تستطيع أن تعول نفسك. وإن تطلب الأمر فساعد أخويك واستمع لنصحهما.

فكر الابن الأصغر مثل الآخرين وقال لنفسه:"إن والدى يحبنى أكثر من شقيقى. وقد خصنى دونهما بسره عن الذهب".

بعد مرور يومين مات العجوز وقام الأبناء بدفنه والترحم عليه. وبعد أسبوع سأل الابن الأكبر أخاه الأوسط:

- لماذا تبدو حزينا هكذا؟ هل هناك شىء جرى؟

- كلا لم يحدث شىء. وليس هناك سبب لحزنى سوى موت الوالد.

قال الأخ الأكبر حينئذ:

- قبل أن يموت الوالد أخبرنى عن كيس مملوء بالذهب ومدفون أسفل شجرة الرمان القديمة. واليوم حفرت الأرض أسفل الشجرة ولم أعثر على شىء. ربما إن الوالد قد أخبرك بهذا السر وأنت الذى أخذت الذهب؟

- نعم، لقد أخبرنى الوالد أيضا عن مكان الذهب. وقد حفرت أنا الآخر أسفل الشجرة ولم أجد شيئا. وهذه هى الحقيقة التى أقولها يا شقيقى.

- ما دام الأمر هكذا فلابد أن الوالد قد أخبر أخانا الأصغر بمكان الذهب.

نادى الشقيقان على الأخ الأصغر وسألاه عن الذهب فقال لهما:

- حقا، لقد أخبرنى الوالد عن الذهب. فحفرت أسفل الشجرة ولم أعثر على شىء.

فكر الابن الأكبر لبعض الوقت ثم قال:

– يا إخواني، إن والدنا لا يمكن أن يكذب. وقد دفن الذهب أسفل شجرة الرمان القديمة. وأخذه بعد ذلك واحد منا. وإن لم تعترفا فسوف نضطر جميعا للذهاب إلى القاضي. وسوف يعثر بالتأكيد على الذهب المفقود. سوف أعطيكم مهلة حتى الغد. ففكروا جيدا.

فى صباح اليوم التالى جمع الأخ الأكبر شقيقيه. لكن أحدا منهما لم يعترف بأخذ الذهب. فذهب ثلاثتهم إلى القاضى الذى أشار إليهم بالجلوس. وسألهم قائلا:

– فى أى أمر جئتم إلى يا أبنائى الأعزاء؟ إنى جاهز لخدمتكم.

وقف الابن الأكبر وتحدث للقاضى قائلا:

– سيدى القاضى، إننا نشكر سيادتكم لاستقبالنا. لقد حضرنا إليكم لأمر غير سار. فإذا سمحتم لى أحكيه لكم.

هز القاضى رأسه وبدأ الابن يحكى:

– نحن ثلاثة أشقاء. مات والدنا ورحل عن الدنيا منذ ستة أيام. وقبل وفاته انفرد بنا واحداً بعد الآخر وأخبرنا عن كيس مدفون أسفل شجرة الرمان ومملوء بالذهب. ولا يعقل أن يكذب والدنا وهو فى الرمق الأخير. وقد اتضح بعد ذلك اختفاء الذهب. ولابد أن واحدا منا هو الذى أخذه. ولا يريد أحد الاعتراف بذلك. وبما لديكم يا سيدى القاضى من الحكمة والفطنة تستطيعون معرفة الكاذب فينا كى يعترف بفعلته.

أمر القاضى بإحضار مائدة الطعام. ودعا الأبناء إليها. بينما بدأ يقص عليهم حكاية:

– فى وقت من الأوقات الغابرة عاش شاب جسور. وشعر بقلبه يميل نحو إحدى الفتيات. فقد كانا يدرسان بمدرسة واحدة. وهناك تعلق كل منهما بالآخر. وقررا أن يرتبطا للأبد. لكن الفتاة بعد أن أنهت دراستها تقدم لخطبتها عريس آخر وافق عليه والداها. وعندما اقترب يوم الزفاف ذهبت الفتاة إلى حبيبها وقالت له: "يبدو أن قدرنا قدر بائس. فما الذى تقدر أن تفعله بعد أن وافق والداى على زواجى من رجل آخر؟ وليس لنا سوى أن نقبل بالقوانين والعادات القاسية الظالمة. وإلا سوف يقذفنا الناس

بالحجارة والطوب. فلا يوجد مخرج آخر. ومن يدرى، فقد يأتى زمن يقدر فيه الشباب أن يتحكموا فى أقدارهم بحرية. وقد حضرت كى أطلب منك المغفرة".أجاب الفتى على الفتاة قائلا:"إن ما قلته هو الصواب، لكن لى رجاء عندك. إذا أعطيتنى وعدا بتحقيقه أخبرك به، وأودعك بعد ذلك". قالت الفتاة:"قل لى، وإن كان بمقدورى تنفيذ طلبك فسوف أنفذه لك"."عندما يأتى يوم زفافك، وبعد أن ينتهى الاحتفال به. أريدك أن تحضرى إلىّ حتى أودعك الوداع الأخير"- قال الفتى. وردت عليه الفتاة بالموافقة. وحان يوم الزفاف. وذهبوا بالفتاة إلى منزل الزوج. وأدخلوها إلى حجرة فاخرة مؤثثة بأفخم الرياش والمتاع حسب تقاليد ذلك الزمان. وحاولت الفتاة أن تخرج لوداع فتاها المحبوب لكنها لم تستطع. وبعد انتهاء الاحتفال بالزفاف. دخل العريس على الفتاة فى حجرتها فوجدها فى حالة من الحزن والوجوم. فسألها:"لماذا أنت غارقة فى الحزن هكذا؟ أليس اليوم هو يوم فرحنا معا؟". وهنا أخذت الفتاة تحكى لعريسها عن كل ما جرى. وعن الشاب التى كانت تدرس معه وأحب كل منهما الآخر. وكيف أن والديها زوجاها من رجل لا تحبه. وقالت له أيضا عن عهدها لحبيبها أن تودعه فى يوم الزفاف وأنها لم تستطع الخروج لوداعه.قال الزوج:"ما دمت قد قطعت وعدا على نفسك فينبغى عليك الالتزام به والخروج لوداعه". خرجت الفتاة مسرعة إلى بيت الفتى. وعندما وصلت إليه نظر إليها فى دهشة وسألها:"كيف صدقك زوجك وسمح لك بالخروج إلىّ؟" وحكت الفتاة له أنها قد اعترفت بالحقيقة له كاملة. ولهذا فقد سمح لها. حينئذ قال الفتى: "إذا كان زوجك قد صدقك وسمح لك بالخروج لوداعى، فينبغى علىّ بدافع الرجولة والشهامة أن أتخلى عن حبى لك من الآن، فلا يمكننى أن أخدع رجلا مثله. فاذهبى إليه واقضى بقية عمرك معه حتى تشيخى. وأتمنى لكما السعادة فى حياتكما". وخرجت الفتاة من بيت الفتى. لكنها وقعت بأيدى عصابة من المجرمين. وعندما شاهد جمالها زعيمهم قرر أن يأخذها زوجة له. وفى طريقهم سألها عن سبب خروجها بمفردها فى وقت متأخر من الليل. فحكت الفتاة له كل شىء. أصابت الدهشة زعيم العصابة وقال:

"بما أن زوجك وفتاك قد أظهرا تلك الشهامة الكبيرة فلن نكون أقل منهما نحن العصابة. هيا أخبرينى أين منزل زوجك كى نرافقك إليه حتى لا يتعرض إليك أحد آخر فى الطريق". وقام اللصوص بمرافقة الفتاة إلى منزل الزوج كما أمر زعيمهم.

بهذه العبارة توقف القاضى عن الكلام.

كما أن الفتى المجهول توقف هو الآخر عن الحديث وسأل كولداش قائلا:

- والآن أريد أن أعرف رأيك، من له الحق فى الحصول على الفتاة؟ الفتى الجسور الذى أحبها؟ أم الزوج؟ أم أن زعيم العصابة هو الذى يستحقها؟

أجاب كولداش قائلا:

- إن شهامة الزوج قد فاقت الجميع. وربما أن الفتى العاشق لم تكن نيته طيبة إزاء الفتاة. لكن سلوكه أصبح شهما بسبب موقف الزوج. وحتى رئيس العصابة نفسه لم يستطع سوى أن يحترم ويقدر ما قام به الزوج. فترك الفتاة ولم يمسها بسوء.

هز الفتى المجهول رأسه موافقا على رأى كولداش وأخذ يواصل سرده:

- اسمح لى أن أكمل لك حكاية الكيس المملوء بالذهب.

سأل القاضى بدوره الأبناء الثلاثة عن أكثر الرجال شهامة فى تلك الحالة.

قال الأخ الأكبر:

- أكثرهم شهامة هو الفتى العاشق. ذلك لأن الفتاة ذهبت إليه مرتين. وكان سلوكه كريما فى المرتين ولم يفكر فى استغلال الموقف لصالحه.

ثم قال الأخ الأوسط:

- الزوج هنا هو الأكثر شهامة من الآخرين. فقد سمح للفتاة قبل أن يعرفها جيدا بالذهاب إلى حبيبها لوداعه.

وأخيرا قال الأخ الأصغر:

- إن أكثرهم كرما وشهامة هو زعيم العصابة. لأن اللصوص عادة ما يقتلون الإنسان من أجل حفنة قروش. وعندما واتته الفرصة مباشرة إليه، تركها ولم يتعرض إلى شرف الفتاة أو يمس شعرة فى رأسها بل أمر بتوصيلها إلى منزل الزوج معززة مكرمة.

حينئذ وقف القاضى وقال:

- إذن لقد انتهت قضيتكم وظهر الحق فيها. فإن اللص لا يدافع عنه سوى لص مثله. أيها الأخ الصغير. أريد منك أن توزع الذهب بينك وبين إخوتك كما أوصى والدك قبل موته.

أذعن الأخ الأصغر لحكم القاضى. وخرج الأشقاء وهم فى حالة من الدهشة لحكمة القاضى وفطنته. وذهبوا إلى منزلهم سعداء بحل القضية.

بعد أن أكمل الفتى المجهول حكايته رقد للنوم. وفى الصباح مضى قدما مع كولداش على الطريق. وظلا يسيران طويلا ليل نهار حتى وصلا إلى إحدى المدن الكبيرة. فتوقفا عند نزل بها. ومكثا بالنزل يستجمان لمدة ثلاثة أيام. بعد ذلك اشترى الفتى المجهول منزلا فى المدينة وفرشه بكل ما يلزم من الأثاث والمتاع ثم أمر كولداش قائلا:

- اخرج وادعُ رئيس الحى وعلية القوم ليحلوا ضيوفا علينا.

وعند عودة كولداش قال الفتى له:

- لقد أصبحت المضيفة جاهزة لاستقبال الضيوف. فأحسن استقبالهم. وبعد أن تضيفهم بالطعام والشراب اطلب منهم أن يعقدوا قرانك علىَّ كى تصبح زوجا لى وأصبح زوجة لك.

وهنا خلع الفتى المجهول الغطاء من على رأسه، فتدلت على أكتافه أربعون ضفيرة سوداء. وأدرك كولداش حينئذ أن الفتى المجهول ما هو إلا امرأة بارعة الحسن والجمال.

بعد مرور بضعة أيام على الزفاف الميمون. قالت الزوجة لكولداش:

- أريدك الآن أن تتخذ لك أصدقاء من حاشية الأمير وتحاول أن تكسب ودهم. فادعوهم إلى زيارتك. وعندما تتوثق العلاقات بينك وبينهم قد يدعونك بدورهم إلى زيارتهم. وربما تنجح بمساعدتهم فى العمل بقصر الأمير.

وبعد مرور شهرين التحق كولداش للعمل بقصر الأمير. وسرعان ما استطاع بذكائه وسرعة بديهته أن يحوز على احترام وتقدير المحيطين به. فأطلقوا عليه اسم مسافر بك. بمعنى السيد الرحال.

ويومًا بعد يوم تحسنت أمور كولداش وطابت أحواله. وكما ظهر له العديد من الأصدقاء، برز له أيضا الكثير من الأعداء. فقد حسده الكثيرون من العاملين فى قصر الأمير على المكانة التى احتلها فى القصر. ولم يعجبهم الصعود السريع لهذا الرجل الغريب المجهول النسب والأصل. فصاروا يتحدثون فيما بينهم ويقولون:

– كيف يمنح الأمير العديد من الهبات والعطايا لرجل غريب مثله مازال حديث العهد بالمدينة؟ ونحن عبر سنوات طويلة من الخدمة بالقصر لم نتلق مثل هذه المنح.

وصاروا يدبرون المكائد ويحيكون المؤامرات لمسافر بك.

وفى ذات يوم قالت الزوجة لكولداش:

– لقد تلقيت العديد من الهدايا والهبات من الأمير. ومن الواجب عليك أن تدعوه إلى المنزل مع رجال الحاشية.

أخذ مسافر بك بنصيحة الزوجة وقام بدعوة الأمير إلى منزله. وقبل أن يلبى الأمير دعوة مسافر بك أمر وزيره قائلا:

– أريدك أن تذهب لتعرف كيف يعيش مسافر بك. وفى أى منزل يقيم. وهل يحيا فى بحبوحة من العيش أم لا. ذلك حتى لا يصيبنا الحرج إذا ما زرناه.

تنكر الوزير فى ملابس بسيطة. وذهب إلى منزل مسافر بك. وصار يتلصص على فناء البيت عبر ثقب فى بوابة المنزل. وما إن رأى زوجة مسافر بك تسير فى الفناء حتى أصابته الدهشة والذهول ودخل مسرعا إليها وهو يقول:

– أخيرا عثرت عليك أيتها الحسناء. بعد أن استطعت خداعى والإفلات منى عند سور المدينة. أما الآن فلن أتركك وأقسم أنك سوف ترحلين معى.

وهجم على المرأة وأمسكها من يدها. لكنها استطاعت أن تتملص منه وهرعت إلى داخل المنزل تصرخ وتستغيث.

ظن الخدم أن الوزير ما هو إلا لصا مغتصبا. فانهالوا عليه ضربا بالعصى والشوم. وعاد الوزير إلى القصر وهو فى حالة يرثى لها يتنفس بالكاد مما لاقاه. وصار يتعطش إلى الانتقام لما جرى له. فذهب إلى الأمير وأخذ يحكى له عن جمال المرأة زوجة مسافر بك وحسنها الباهر، ثم أضاف قائلا:

– ومثل هذه الحسناء لا يجوز أن تكون إلا زوجة للأمير.

حينئذ جلس الأمير يفكر مع وزيره ويخططان لانتزاع زوجة مسافر بك. وطال التفكير والنقاش حتى توصلوا إلى فكرة شيطانية. وفى الصباح دعا الأمير مسافر بك للمثول أمامه فى القصر وقال له:

– لن أستطيع تلبية دعوتك. ذلك بسبب مرض ابنتى المفاجئ. ولن يشفيها شيء سوى لبن النمور. وأريد منك أن تخرج وتأتنى به.

عاد مسافر بك إلى المنزل وهو فى حالة من الحزن. فقالت له زوجته:

– اذهب إلى الأمير واطلب منه أن يمنحك مهلة أربعين يوما. وأن يعطيك أربعين خروفا.

وافق الأمير على طلب مسافر بك.

لكن مسافر بك لم يرحل من المنزل. بل جعلته الزوجة باقيا لمدة ثمانية وثلاثون يوما. وفى اليوم التاسع والثلاثين كتبت الزوجة شيئا ما على قصاصة من الورق وأعطتها لزوجها وقالت له:

– والآن عليك أن تغادر المدينة واتجه إلى الغرب. وعندما تعبر ثلاثة حقول سوف تجد طريقا ضيقا سر به حتى تصل إلى ميدان واسع. توقف بفرسك فى منتصف الميدان وأعط ظهرك إلى الناحية التى تغرب منها الشمس. ثم افرد القصاصة فى يدك. سوف تظهر أمامك لبؤة. فلا تخف واجعل فرسك يدور حولك وأنت واقف فى مكانك.

وحينئذ سوف تجد نفسك محاطا بعدد كبير من اللبؤات. فحافظ على رباطة جأشك ولا تخف منهم. بل اقبض على القصاصة فى يدك وأدر رأس الفرس ناحية الطريق التى وصل منها. ثم ارحل مباشرة إلى قصر الأمير وقل له: "مولاى الأمير، لقد خشيت أن أحضر لكم لبن النمور فتجدونه قليلا. لذلك جلبت معى اللبؤات بنفسها إلى هنا كى تأخذوا منها ما تريدون من اللبن".

ومضى مسافر بك ففعل كما نصحته زوجته.

وذهب بعد ذلك إلى القصر مصطحبا معه اللبؤات. فأصاب الأمير الهلع والرعب وصار بدنه يرتعش كورقة شجر فى مهب الريح. وركض مع وزرائه يختبئون فى أركان القصر من الرعب. ثم قال الأمير لمسافر بك:

– أنا شاكر لك ما فعلته، لقد طلبت منك ذلك الطلب كى اختبر قوتك وذكاءك، والآن بعد أن تأكدت منهما أريدك أن تخرج هذه النمور المتوحشة من قصرى.

بعد ذلك خرج مسافر بك من المدينة مع اللبؤات. ثم طوى القصاصة فاختفت اللبؤات على الفور.

اضمر الأمير الشر لمسافر بك. فنادى على الوزراء واجتمع بهم ليرى ماذا يفعل بشأنه. وبعد نقاش طال بين الأمير والوزراء اتفقوا على أن يأتى رئيس الخزانة إلى القصر فى الصباح التالى. ويعلن أن هناك بعض السبائك الذهبية قد سرقت من الخزانة. وحينئذ سوف يطلب الأمير من مسافر بك أن يعثر على الذهب المفقود.

فى الصباح قالت الزوجة لمسافر بك:

– إذا كلفك الأمير مرة أخرى بمهمة ثانية، فاطلب منه مهلة أربعين يوما. واطلب منه أيضا أن يعطيك أربعين خروفا.

ما إن وصل مسافر بك إلى قصر الأمير حتى دخل عليهم رئيس الخزانة وأعلن عن ضياع أربع سبائك ذهبية من الخزانة. فالتفت الأمير على الفور إلى مسافر بك وطلب منه العثور على السبائك المفقودة وقال له:

– ينبغى عليك أن تجد لى الذهب المفقود.

سجد مسافر بك فى خشوع أمام الأمير. وطلب منه أن يمنحه مهلة أربعين يوما. كما طلب أن يعطيه أربعين خروفا. فوافق الأمير على طلبه.

عاد مسافر بك إلى منزله. وعاش فى هدوء مع زوجته لمدة ثمانية وثلاثون يوما. وفى اليوم التاسع والثلاثين، كتبت له زوجته رسالة على قصاصة من الورق. وشرحت له أين يذهب بها ولمن ينبغى عليه أن يعطيها. وانطلق مسافر بك فى الطريق الموصوف. حتى وصل إلى المكان الذى أشارت به زوجته فإذا به حديقة رائعة الجمال. تغطيها الحشائش مثل البساط الأخضر، وتنتشر بها الأزهار من كل لون ونوع. وتصدح الطيور والبلابل فوق أغصان الأشجار فيها. وعلى الرغم من كل هذا الجمال، إلا أنه لم يكن هناك نبض بالحياة فى تلك الحديقة. فجأة سمع مسافر بك صوت غناء ينبعث من أحد الأركان. وظهرت أمامه فتيات آية فى الحسن والجمال. نادت عليه أكبرهن وسألته عن سبب حضوره فى هذا المكان. أخرج مسافر بك الرسالة من جيبه وفردها أمام الفتاة وهو ينحنى لها. فتناولتها الفتاة منه وقرأتها ثم قالت فى دهشة:

– أنت إذن صهرنا. لأن زوجتك هى شقيقتى التى هجموا عليها.

تقدمت الفتاة مسافر بك حتى وصلت إلى المضيفة. ودعته إلى تناول الطعام والحلوى. وأخذا يتحدثان حول الرسالة. وفى الصباح خرجت الفتاة الحسناء تصاحبها وصيفتان مع مسافر بك إلى طريق العودة.

وصل الجميع بصحة وعافية إلى منزل مسافر بك. فرحت الشقيقتان برؤية بعضهما البعض. وجلستا تتسامران وتضحكان.

فى اليوم الأربعين استيقظت الشقيقتان عند الفجر وخرجتا إلى فناء المنزل. فوقفتا فى منتصف الفناء وأخذتا فى قراءة تعويذة سحرية وهما يدوران ويدقان بأقدامهما على الأرض. وكلما خبطتا الأرض بأقدامهما تخرج سبيكة ذهبية. وظلتا على هذا الحال حتى امتلأ الفناء إلى آخره بالسبائك الذهبية.

خرج مسافر بك إلى قصر الأمير وهو يحمل فى يديه أربعة سبائك ذهبية. ومن خلفه يسير ست وعشرون خادم يحملون السبائك الذهبية الأخرى. دخل مسافر بك إلى

القصر تاركا خدمه بالخارج ووقف أمام الأمير فوضع أمامه السبائك الأربع. نظر الأمير إليها وقال:

- لقد أخبرتك بضياع أربع أزواج من السبائك وليس أربعة سبائك فقط.

سأل مسافر بك الأمير قائلا:

- أربعة أزواج فقط يا مولاى؟

- نعم، أربعة أزواج فقط - قال الأمير بوقاحة. وأكد جميع الوزراء على كذبه.

حينئذ نادى مسافر بك على الخدم الواقفين خلف الباب. دخل الخدم يحملون الذهب وقد انحنت ظهورهم من ثقله ووضعوه أمام الأمير. ثم قال مسافر بك:

- لقد أحضرت لكم ثلاثين زوجا من السبائك الذهبية يا مولاى الأمير. فهل تأمرني بشيء آخر؟

أطرق الأمير ووزيره رأسيهما إلى الأرض من الخجل وقال:

- كلا، ليس هناك أوامر أخرى. تستطيع الذهاب إلى منزلك.

وفى المساء اجتمع الأمير مرة أخرى بوزرائه وقال:

- إذا لم تجدوا طريقة لقتل مسافر بك، فسوف يقتلنى أنا حب زوجته.

وقام أحد الوزراء وقال:

- مولانا الأمير، لقد واتتنى فكرة جهنمية. فهل تسمح لى بقولها؟

سمح له الأمير بالحديث. فقال الوزير:

- غدا فى الصباح تجلس ونحن حولك جميعا مصطنعين الحزن والغم. وعندما يأتى إلى القصر مسافر بك ويراك على هذه الحال من الحزن سوف يسأل عن السبب. حينئذ تقول له: "لا أستطيع التخلص من هموم الدنيا وأحزانها التى ألمت بى. فقد رأيت مناما حطم قلبى وبعث الحزن فى نفسى. وعندما حكيته لوزرائى الأوغاد، لم يستطع أحد منهم أن يفسره لى. وقلت لنفسى إن مسافر بك هو الشخص الذكى الوحيد الذى

سوف يفسر لى هذا الكابوس المخيف حتى ينزاح الهم من فوق كاهلى. فقد رأيت فى منامى والدى ووالدتى، وجدى وجدتى. وعندما ركضت إليهم كى أتحدث معهم أشاحوا عنى بوجوههم ورفضوا الكلام معى. لذا أريد منك أن تذهب إلى العالم الآخر وتعثر على أهلى، وتسألهم عن سبب غضبهم منى ورفضهم الحديث معى. وإذا نجحت فى مهمتك فسوف تنال مكافأة سخية منى". هذه هى نصيحتى لك يا مولاى. لأن من يذهب إلى العالم الآخر بالطبع لا يعود منه أبدا. وبذلك يمكنك التخلص من الوغد الذميم مسافر بك.

لاقى اقتراح الوزير الخبيث استحسان الجميع وموافقتهم.

فى الصباح قالت الزوجة لمسافر بك:

– لابد أن الأمير سوف يطلب منك القيام بمهمة أخرى. وفى هذه الحال اطلب منه كما فى المرات السابقة أن يمنحك مهلة أربعين يوما وأن يعطيك أربعين خروفا.

عندما وصل مسافر بك إلى القصر، طلب منه الأمير أن يذهب إلى العالم الآخر ليعَرف السبب الذى أغضب منه والده ووالدته وجده وجدته.

سجد مسافر بك أمام الأمير وقال:

– بكل السعادة والسرور يا مولاى سوف أنفذ طلبكم. لكننى أطلب مهلة أربعين يوما وأرجو أن تمنحونى أربعين خروفا.

وافق الأمير على طلب مسافر بك وسمح له بالخروج.

عاد مسافر بك إلى منزله فبقى به تسعًا وثلاثون يوما. وفى مساء اليوم الأربعين خرجت زوجته مع شقيقتها وهما يلبسان ملابس قديمة. وأخذا يجمعان الرماد من كل ركن بالمدينة. وعادتا بعد ذلك إلى المنزل. فألبست الزوجة مسافر بك ثيابا مهلهلة. وصارت تلطخ وجهه وجسمه كله بالرماد. ثم كتبت رسالة باسم والد الأمير ووالدته وجده وجدته. وأحرقت أطرافها وأعطتها لمسافر بك فى يده. ثم لقنته ماذا يفعل أمام الأمير. وقالت له:

– والآن اذهب إلى الأمير فى قصره. وأرجو لك النجاح والتوفيق.

خرج مسافر بك إلى الشارع وهو يصرخ وينادى.

- العالم العالم .. ردىء هذا العالم. العالم العالم .. قذر هذا العالم. بائس هذا العالم. يعجز لسانى عن الكلام. وقلبى يكاد أن يتوقف عن الخفقان.

ودخل مسافر بك إلى القصر وهو يصرخ ويولول. ومثل أمام الأمير وهو على هذا الحال وأعطاه الرسالة قائلا:

- مولاى الأمير لقد كتب والداك وجدك وجدتك هذه الرسالة لك وشرحوا فيها سبب غضبهم عليك. فهذا عالم ردىء لا يصلح أبدا.

وظل مسافر بك طوال الوقت يردد العبارات التى كان يقولها فى الطريق.

- النعيم هناك فى العالم الآخر. أما هنا فعالم الأحزان. المتعة فى العالم الآخر. أما هنا فالعذاب والألم. أرجوك يا مولاى أن تسمح لى بالذهاب، فأنا أتعجل العودة إلى العالم الآخر ولا أستطيع أن أحيا فى هذا العالم بعد الآن.

أنهى الأمير قراءة الرسالة وانخرط فى البكاء. وأخذ يسأل مسافر بك فى لهفة عن العالم الآخر. وهل هناك صعوبة فى الذهاب إليه؟ لكن مسافر بك ظل يردد ما قاله:"العالم الآخر العالم الآخر. أريد العودة إلى العالم الآخر". وأخيرا سأله الأمير قائلا:

- هل يمكننى الذهاب إلى هناك أنا أيضا؟

أجاب مسافر بك على الأمير وقال:

- أصدر أوامرك بجمع كمية كبيرة من الحطب بطول مائة ذراع ووضعها بالميدان الكبير. وترص كمية الحطب جيدا صفوفًا فوق بعضها. كى يتسع المكان أعلى الحطب لأكبر عدد من الراغبين فى الذهاب للعالم الآخر. وبعد ذلك تجلس ومن يريد معك فوق الحطب من أعلى. ثم يشعل أحد النار فى الحطب من أسفل. حينئذ تجدون أنفسكم هناك لأربعين يوما. وتعودون بعدها ثانية إلى هنا مثلما عدت.

وأخذ مسافر بك يصرخ مرة أخرى ويقول: "العالم الآخر العالم الآخر". ثم خرج وغادر القصر عائدا إلى منزله.

أمر الأمير بجمع كمية من الحطب أكثر مما اقترحها مسافر بك. ووضعوها بالميدان. ثم عين الأمير بدلا منه مسافر بك حاكما على البلاد حتى يعود من رحلته. وانطلق مع الوزراء ورجال الحاشية والمستشارين إلى الميدان. وكان عددهم ثمانين رجلا. فجلسوا جميعا فوق جبل الحطب. وأشعل مسافر بك النار. وأرسل الجميع إلى العالم الآخر لكن بلا عودة.

جمع مسافر بك الناس من كل صوب وحدب. واختار منهم البسطاء الذين لم يكن لديهم جاه ولا مال. لكنهم كانوا على قدر كبير من الذكاء ورجاحة العقل. فعينهم وزراء ومستشارين له فى الحكم وأصبح أميرا. وصار مسافر بك يعمل ويجتهد من أجل رفاهية الناس وسعادتها.

ذات يوم جلس مسافر بك يداعب طفله شادمان الذى أتم العام من عمره. وجلست بالقرب منه زوجته وشقيقتها.

وفجأة تذكر مسافر بك كيف التقى بزوجته لأول مرة عند سور القصر. فقال لها:

– يا زوجتى المحبوبة، إننى حتى الآن لا أدرى كيف جمعنى القدر معك عند سور القصر. ولماذا كان الوزير يحمل لك كل هذه الضغينة ويحيك المؤامرات ضدنا؟

ابتسمت زوجة كولداش وقالت:

– أيها الزوج الحبيب، إن الرجال الحقيقيين أمثالك، هم فقط الذين يحتفظون بفضولهم كل هذا الوقت. والآن سوف أحكى لك عن كل شىء. لابد أنك لاحظت أننى أنحدر من نسل الجنيات. وقد نشأت مع شقيقتى فى بستان رائع الجمال. وعندما أصبحت فتاة بالغة رآنى ملك تلك البلاد التى سافرنا منها. وقرر أن يأخذنى كى أصبح واحدة من حريمه. فجاء أتباعه فى الليل وهجموا على منزلنا. ولم يهتموا بصراخى ودموعى وانتزعونى منه بالقوة إلى القصر. وحدد الملك موعدا للزفاف. ثم خرج فى رحلة إلى الصيد. وكان للملك وزير خبيث أخذ يتصنع العطف علىّ. فوعدنى أن

يساعدنى فى الهرب من جناح الحريم والعودة إلى منزلى وشقيقتى المحبوبة. وكنت من السذاجة فصدقته. وأحضر لى فى السر ملابس الفرسان. واشترى لى حصانا وضعه بالإسطبل واتفق مع السائس أن يخرج به عند السور. وقال إنه سوف يكون بانتظارى ليلا عند سور القصر. وفى الليل ارتديت ملابس الفارس وذهبت إلى الإسطبل وركبت فرسا بدلا من الفرس التى خرج بها السائس. ثم خرجت إلى السور والتقيت بك لحسن حظى ولقدرى الطيب. وقد أدركت الآن جيدا أن نوايا الوزير نحوى لم تكن طيبة. وكان ينوى أن يغتصبنى لنفسه. وحين رآنى فى هذه المدينة وعرف أننى قد تزوجت منك قرر أن يهدم سعادتى بكل الوسائل والطرق.

هتف كولداش وهو يضحك قائلا:

– ولم يهدم سوى نفسه حيث رحل بلا عودة. والآن قد فهمت تفسير الحلم.

– عن أى حلم تتكلم؟ – سألت الزوجة كولداش. فصار يحكى لها عن عمله السابق كراعٍ للإبل. وعن الحلم الذى اشتراه من صديقه يولداش. وكيف تحقق الحلم.

– لقد أدركت الآن أن النجمتين هما أنت يا زوجتى الحبيبة وشقيقتك. أما النجمة الصغيرة فهى هذا الولد الرائع شادمان الذى أنجبته لى.

– تفسيرك للحلم صائب – قالت الزوجة وشقيقتها.

وهنا تذكر كولداش صديقه القديم والوعد الذى قطعه كولداش على نفسه أن يساعده عندما تطيب أحواله. فقال لزوجته:

– ما رأيك لو أننى بحثت عن صديقى يولداش وعينته فى منصب هنا. ثم زوجته بعد ذلك من شقيقتك؟

أجابت الزوجة قائلة:

– سوف أفكر مع أختى بالأمر، ونرد عليك بعد ثلاثة أيام.

وأمر كولداش أحد أتباعه المخلصين بالبحث عن يولداش وإحضاره إلى القصر، بعد أن شرح له مكانه السابق وعمله.

وسرعان ما عثر رسول الأمير كولداش على الراعي يولداش. فجلس معه وأخذ يقنعه بالسفر معه. ووعده أن يعطيه أرضا يزرعها لنفسه وبيتا كبيرا يسكنه إذا ما ذهب معه. ولم يذكر له شيئا عن كولداش. وفي نهاية الأمر سافر يولداش مع الرسول بعدما اقتنع بكلامه.

أحضر الرسول يولداش إلى القصر أمام مسافر بك. ولم يتعرف يولداش على صديقه القديم الذى تغير مع الزمن والثراء والملابس الفاخرة. وقال مسافر بك بصرامة:

– من أى أرض أتيت؟ وما الذى أتى بك إلينا؟

– لقد أحضرنى هنا هذا الشخص الذى كان أمامكم. وقد وعدنى أن يمنحنى أرضا أزرعها ومنزلا أسكنه – أجاب يولداش فى خوف.

– وهل أنت خبير فى شئون الفلاحة والزراعة؟ – سأل كولداش.

– نعم يا مولاى، فأنا مزارع بالأجرة.

– أليس لك مهنة أخرى؟

– كلا يا مولاى.

– وهل كنت تعرف رجلا يدعى كولداش؟

– نعم كان لى صديق هو كولداش الراعى. لكن كيف عرفت يا مولاى؟

– هل رأيته منذ زمن طويل؟

– لم أره منذ عامين أو ثلاثة أعوام. لقد كان رجلا طيبا.

– وأين اختفى هذا الكولداش؟

– لا أدرى، لكنه رحل بسببى.

– وكيف هذا؟

– ذات يوم رأيت فى منامى حلما. كان فيه نجمتان وأخرى صغيرة سقطوا من السماء مباشرة فى عبى. وحكيت الحلم لكولداش الذى طلب منى أن يشتريه. وبعته له مقابل عجل ومهر صغير. ومن يومها رحل كولداش ولم أره ثانية.

– وإذا رأيته اليوم فهل تعرفه؟

– طبعا يا مولاى. فأنا لست أعمى. لقد عشنا معا سنوات طويلة تحت سقف واحد وغطاء واحد تدثرنا به أيام البرد. فكيف لى ألا أعرفه؟

– حسنا، هل كانت به علامات مميزة؟

– نعم، لقد كانت له على كتفه الأيمن شامة مستديرة. وعلى ذراعه الأيسر ندبة من عضة إحدى الأبقار له فى ذات يوم.

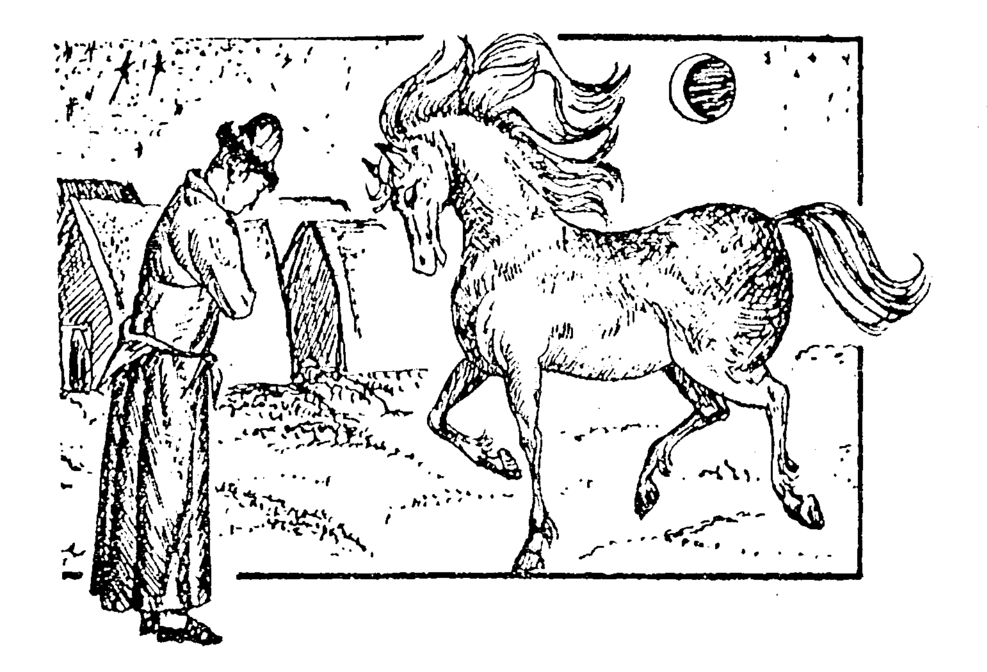
وهنا كشف كولداش عن الشامة بكتفه والندبة بذراعه. فقفز يولداش من مكانه وارتمى عليه يعانقه ويقبله.

بعد مرور شهر زوج مسافر بك صديقه يولداش من شقيقة زوجته. وأقام الأفراح بالزفاف الميمون.

واجتهد الصديقان من أجل سعادة الناس فى البلاد ورخائهم. وكانت زوجتيهما تساعدانهما فى تحقيق هذا الهدف النبيل.

* * *

وصية الأب



فى زمن من الأزمنة البعيدة عاش رجل له ثلاثة أبناء. وعندما شعر الرجل بدنو أجله نادى على ابنه الأكبر وقال له:

- عندما يحين أجلى وأموت، هل يمكنك أن تحرس قبرى لثلاثة أيام؟

- كلا، لن أفعل ذلك - أجاب الابن الأكبر.

حينئذ نادى الأب المحتضر على ابنه الأوسط وقال له:

- عندما يحين أجلى وأموت، هل يمكنك أن تحرس قبرى لثلاثة أيام؟

- كلا، لن أفعل ذلك - أجاب الابن الأوسط.

ثم نادى الأب بعد ذلك على ابنه الأصغر وسأله:

– عندما يحين أجلي وأموت، هل يمكنك أن تحرس قبرى لثلاثة أيام؟

– ليس فقط ثلاثة أيام. لكننى سوف أحرسه لمائة يوم إن طلبت – قال الابن الأصغر.

وسرعان ما ترك الوالد عالمنا الأرضى. وفى الليلة الأولى بعد موته خرج الابن الأصغر إلى قبره وصار يحرسه. وبعد منتصف الليل رأى أمامه حصانا أبيض فى أبهى زينة وأروع سرج فوق ظهره. ودار الحصان حول القبر ثلاث مرات. فسأله الفتى قائلا:

– لماذا درت ثلاث مرات حول المقبرة أيها الحصان؟

لقد كنت فيما مضى ملكا لوالدك. والآن جئت لأترحم عليه – أجاب الحصان الأبيض.

ثم نزع الحصان خصلة من عرفه وأعطاها للفتى قائلا:

– احتفظ بهذه الخصلة معك. وإذا احتجت للعون فاحرق هذه الخصلة وسوف أظهر لك على الفور.

وفى الليلة الثانية ذهب الفتى مرة أخرى لحراسة قبر والده. وبعد منتصف الليل ظهر أمامه حصان أسود. ثم دار الحصان ثلاث مرات حول قبر والده. فسأله الفتى:

– لماذا درت ثلاث مرات حول المقبرة أيها الحصان؟

– لأننى كنت ملكا لوالدك قبل موته. وكنت أذهب به إلى حيث يريد. وقد جئت كى أترحم عليه وعلى أيامه – أجاب الحصان الأسود.

ثم نزع الحصان الأسود خصلة من عرفه وأعطاها للفتى قائلا:

– احتفظ بهذه الخصلة معك. وإذا احتجت للمساعدة فاحرق هذه الخصلة وسوف أظهر لك فى لمح البصر.

واختفى الحصان فجأة،كما ظهر بعد ما قاله للفتى.

فى الليلة الثالثة خرج الفتى من جديد لحراسة قبر والده. وبعد منتصف الليل ظهر حصان رمادى وأخذ يدور حول المقبرة ثلاث مرات. أمسك الفتى بالحصان وسأله:

– ما الذى جعلك تدور ثلاث مرات حول المقبرة؟

– لأننى كنت ملكا لوالدك قبل موته. وكنت أقوم بخدمته أثناء حياته. وبعد موته جئت كى أترحم عليه – أجاب الحصان الرمادى.

ثم نزع الحصان خصلة من عرفه وأعطاها للفتى.

وفى اليوم الرابع خرج الفتى لحراسة قبر أبيه. وانتصف الليل ومر الوقت ولم يظهر له شىء. فأدرك الفتى أنه قد نفذ الوصية وأن مهمته انتهت.

فى تلك الأيام كان من المتعارف عليه أن يقتسم الأبناء تركة الأب المتوفى. وسرعان ما أنفق الأشقاء نصيبهم فى إرث والدهم. واضطروا إلى القيام برعى قطعان أهل القرية من الماشية والإبل. لكن الشقيقين الأكبر والأوسط لم يلتزما الأمانة فى العمل. فسرقا واحدة من الإبل وباعاها سرا فى السوق. لكن أمرهما انكشف لسكان القرية.

اجتمع الكبار من أهل القرية وقرروا طرد الأشقاء من قريتهم بما فيهم الشقيق الأصغر. فرحل ثلاثتهم إلى مدينة أخرى وقاموا هناك برعى الإبل وقطعان الماشية.

وفى أحد الأيام ترك الأشقاء أخاهم الأصغر مع القطيع فى المرعى، وذهب الآخران إلى المدينة يتعرفان إليها ويتسمعان أخبارها. وبينما هما سائران رأيا حشدا من الناس فى أحد الميادين. فذهبا يستطلعان الأمر. واتضح لهما أن الملك قد أمر ببناء برج عند سور القصر أعلاه عرش تجلس فيه ابنته الأميرة. وله سلم دائرى للصعود مكون من أربعين درجة. وأعلن المنادى يقول للناس:

– من منكم يستطيع أن يصعد درجات البرج إلى العرش راكبا جملا أو فرسا أو حمارا وأن يصل إلى ابنتى الجالسة على العرش بالبرج، ثم ينجح بعد ذلك فى انتزاع قدح الماء من يدها وشربه. وخلع الخاتم التى تضعه فى أصبع يدها. سوف أزوج ابنتى له. وأقيم لهما عرسا لأربعين يوما وليلة.

وصار الناس يصلون إلى المدينة زرافات وأفواجًا . من منهم فوق الجمال. وآخرون على الجياد أو على الحمير. والكل يحاول الوصول إلى الأميرة الجالسة فى البرج. لكنهم جميعا كانوا يقعون من فوق السلالم لتتكسر ضلوعهم ورقابهم على السور.

سمع الأخ الأصغر عن الأميرة التى فى البرج ولا يستطيع أحد الوصول إليها فسأل شقيقيه عنها. وحكى له الأشقاء عن ابنة الملك التى تجلس على عرش فى برج عال ويحاول الناس أن يصلوا إليها وينتزعوا قدح الماء والخاتم من يديها.

– وحتى الآن لم ينجح أحد فى الصعود إليها، والجميع يقع وتتحطم أجسادهم – أضاف أحد الأشقاء قائلا.

– حسنا – قال الأخ الأصغر – غدا سوف أذهب للفرجة على ما يجرى هناك، وأترك لكم القطيع ترعيانه.

– ما هذا الذى تقوله؟ – أجاب الشقيقان عليه فى خوف – لو أنك تركتنا وذهبت لمتنا من الجوع.

ولم يسمح الشقيقان لأخيهما الأصغر بالذهاب إلى المدينة، وفى اليوم التالى خرجا هما بدلا منه. وظل الفتى يرعى القطيع حتى حلول الليل. ثم جمعه وساق الشاردين منه إلى الحظيرة. وأخرج بعد ذلك خصلة الحصان الأبيض وأشعل النار بها.

فى لمح البصر ظهر الحصان الأبيض فى أبهى هيئة وزينة. وهو يحمل على ظهره ثيابا فاخرة أنيقة. لبس الفتى الثياب الفاخرة وامتطى الحصان وسار به منطلقا صوب قصر الملك.

وصل الفتى إلى البرج عند سور القصر. فلكز الحصان وهو يهتف قائلا:

– هيا اصعد بى إلى أعلى أيها الحصان.

وأخذ الحصان يصعد به السلم الحلزونى برشاقة ومهارة حتى لم يبق سوى درجتان ويصل إلى عرش الأميرة. فصرخ الناس المحتشدون حول البرج وشهقوا قائلين:

– انغز فرسك أيها الفتى نغزة أخرى. فلم يبق سوى القليل وتصل إلى العرش.

لكن الحصان لم يصل وقفز طائرا بالفتى على الأرض. وانطلق به فى لمح البصر مبتعدا عن القصر. وعاد الفتى أدراجه إلى بيته ورقد لينام كما لو أن شيئا لم يحدث. وبعد فترة عاد الشقيقان إلى البيت وصارا يقصان على أخيهم:

- لقد حاول اليوم أحد الفتيان الشجعان الصعود إلى الأميرة فى البرج. لكنه لم يصل إلى آخر درجتين من السلم. والأغرب من هذا أن جسمه لم يتحطم من الوقعة بل انطلق على فرسه سليما بلا خدش.

- ألا تتركانى غدا أذهب إلى المدينة للفرجة وتقومان برعى القطيع؟- طلب الأخ الأصغر من شقيقيه.

- ما هذا الذى تقوله؟ لو أنك ذهبت فلن نجد طعاما نأكله - أجاب الشقيقان.

فى صباح اليوم التالى خرج الشقيقان إلى المدينة تاركين الأخ الأصغر يرعى القطيع بمفرده. وبعد فترة جمع الفتى قطيعه. وأشعل النار فى خصلة الحصان الرمادى. وفى لمح البصر ظهر أمامه الحصان وهو يحمل على ظهره ملابس فاخرة مثل ملابس الأمراء. ارتدى الفتى الملابس الجميلة وامتطى الحصان وخرج إلى القصر. وما إن وصل إلى سور القصر حتى لكز حصانه وقال له:

- هيا اصعد بى يا حصانى بسرعة وأرنى مهارتك.

صعد الحصان الرمادى فى رشاقة وقوة سلالم البرج حتى وصل إلى الدرجة التاسعة والثلاثين ولم يكمل صعوده. وقفز عائدا إلى الأرض على قوائمه الأربعة. وسرعان ما انطلق به الفتى مبتعدا عن القصر.

وهتف الناس المحتشدون يقولون:

- يا له من جبان رعديد هذا الفتى. لقد كان على وشك الوصول إلى الأميرة لكنه لم يكمل المحاولة.

عاد الشقيقان إلى أخيهما وصارا يحكيان له قائلين:

– لقد ظهر اليوم شاب جسور على حصان رمادى. وكان حصانه أقوى وأفضل من حصان الأمس. وفى لحظة كان الحصان يحمل الفتى إلى أعلى البرج. وعندما لم يبق له سوى أقل القليل كى يصل إلى الأميرة، لم يكمل الصعود وهبط به إلى الأرض.

– اسمحوا لى غدا بالخروج إلى المدينة. واعتنوا بالإبل ليوم واحد فقط – قال الأخ الأصغر لشقيقيه. لكنهما اعترضا قائلين:

– ما هذا الكلام الذى تقوله؟ ألا تدرك ما الذى يمكن أن يحدث لنا لو أنك ذهبت؟

فى صباح اليوم الثالث خرج الشقيقان مرة أخرى إلى المدينة. فجمع الأخ الأصغر القطيع. وأمسك بخصلة الحصان الأسود فحرقها. وما إن بدأت النار تشتعل بها حتى ظهر أمامه الحصان الأسود يحمل ثيابا مطرزة بالذهب رائعة الجمال. لبس الفتى الثياب وانطلق على الحصان إلى قصر الملك. وما إن وصل إلى السور حتى صرخ فى حصانه:

– هيا احملنى إلى أعلى البرج أيها الحصان القوى.

أخذ الحصان الأسود يقفز برشاقة فوق الدرجات حتى وصل إلى عرش الأميرة. فانتزع الفتى قدح الماء من يد الأميرة. وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة. ثم خلع الخاتم من أصبعها. وحينئذ قفز الحصان وهبط إلى الأرض وانطلق بالفتى عائدا إلى المدينة.

عاد الشقيقان فى المساء إلى البيت وأخذا يقولان:

– لقد ظهر اليوم حصان أسود يتفوق على كل الجياد التى ظهرت من قبل. واستطاع أن يقفز على سلالم البرج ويصعدها إلى نهايتها. ونجح الفتى البطل راكبه فى انتزاع قدح الماء من يد الأميرة وشربه. ثم خلع خاتمها وأخذه. وبعد ذلك اختفى ولم يعد له أثر.

– أرجوكم أن ترعوا القطيع ليوم واحد فقط. حتى أستطيع أن أخرج إلى المدينة للفرجة على ما يجرى – طلب الأخ الأصغر. لكن شقيقيه أجابا وقالا:

– لقد انتهى الأمر ولم يعد هناك ما يستحق الفرجة، بعد أن استطاع الفتى الشجاع أن ينفذ شروط الملك.

فى صباح اليوم التالى. خرج المنادون يعلنون باسم الملك:

– من شرب فيكم قدح الماء الذى حملته ابنتى، وأخذ الخاتم من أصبعها، عليه المثول أمامى فى القصر.

ثم أمر الملك وزيره أن يضع زيرا مملوءًا بالماء فى القصر. ويجبر كل من يحضر على غسل يديه عند الدخول. حينئذ سوف يعرف من يضع فى يده خاتم ابنته.

ومنذ ذلك الحين دعى الناس جميعا إلى تناول اللحم والطعام فى القصر. وكان الوزير يجبر الجميع على غسل أياديهم قبل تناول الطعام. ويصب لهم الماء بنفسه كى يرى أصابعهم. لكن الخاتم لم يظهر بأيدى أحد من الناس. وسأل الملك وزيره:

– هل دعوت الجميع ولم تنس أحدا؟

– لم يبقْ سوى الرعاة الثلاثة الذين يرعون قطعان سكان المدينة – أجاب الوزير.

وأمر الملك بدعوة الأشقاء الثلاثة إلى الطعام. وعندما أخذ الوزير يصب لهم الماء رأى الخاتم فى أصبع الأخ الأصغر. فأصابت الدهشة الجميع خاصة الشقيقان الأكبر منه وسألا وهما مذهولين:

– كيف وصل خاتم ابنة الملك إلى أصبع شقيقنا الأصغر؟

وهنا قص الفتى عليهم ما جرى معه أثناء حراسته لقبر والده. وحكى عن الحصان الأبيض والرمادى والأسود الذين ظهروا له. وندم الشقيقان ندما كبيرا على رفضهما تنفيذ وصية والدهما قبل موته.

وأقام الملك الاحتفالات أربعين يوما وليلة. وزوج بعدها ابنته من الابن الأصغر الشجاع. وظل الشقيقان الأكبر يقولان:

– من لا يستمع إلى وصية أبيه، سوف تحل الخيبة عليه مثلما حلت علينا الآن.

* * *

أجِّل غضب اليوم إلى الغد



عاش فى الدنيا رجل فقير بائع للحطب. يرتزق ويعيش فقط من بيع الحطب. فكان طوال يومه يظل يطوف بالسهول والأدغال ليجمع منها الحطب، وفى الليل يذهب إلى السوق ويبيع ما جمعه مقابل ثلاثة دراهم يشترى بهم خبزا كى يطعم زوجته وابنه الوحيد. كان بائع الحطب يستيقظ فى الظلام قبل طلوع الشمس، ولا ينام إلا عندما يحل الظلام.

فى أحد الأيام وصل الفقير كعادته إلى السوق حاملا حزمة من الحطب فوق ظهره. وسرعان ما باعها وقبض ثلاثة دراهم ثمنا لها. فوضعها فى حزام ربطه حوله بطنه ثم ذهب إلى المخبز ليشترى خبزا بالدراهم.

فى الطريق إلى المخبز قابل الفقير رجلا عجوزا. فقال له العجوز:

- أعطنى درهما يا بائع الحطب وأنا فى المقابل أحكى لك حكمة ثمينة تحفظها.

أراد الفقير أن يستمع إلى الحكمة الثمينة وفكر فى نفسه:"معى ثلاثة دراهم، وأستطيع أن أعطيه درهما ويتبقى معى درهمان. وفى المقابل أستمع منه لحكمة ثمينة".

أخرج الفقير من حزامه درهما وناوله للعجوز وقال له:

- والآن احك لى حكمتك الثمينة.

- أجِّل غضب اليوم إلى الغد.

ثار الفقير وهاج وماج وانقض على العجوز يقول:

- ما هذا الذى تقوله لى أيها الثرثار العجوز؟ أتريد أن تخدعنى بهذه الكلمات التافهة التى لا تفيد؟ هذه الجملة لا تستحق عنها ولا فلساً واحداً. فهيا أعد إلىّ الدرهم الذى أخذته.

ارتفع الصياح وحمى الشجار بينهما حتى تجمع الناس حولهما. وبينما الفقير يشكو ويشرح للناس ما جرى له اختفى العجوز بين الناس والزحام.

لم ينم بائع الحطب طوال الليل من الحزن والغضب. وظل يفكر فى الدرهم الذى تعب وكدح طوال اليوم للحصول عليه ثم ضاع هباء فى النهاية. وقام من نومه مبكرا كعادته. فربط البلطة حول خصره وألقى بالحبال على كتفه وخرج إلى العمل.

أخذ الفقير يسير سارحا وهو يفكر فى الدرهم الضائع. وشرد عقله وهو يسير حتى تاه ووجد نفسه فى أرض غريبة لم يرها من قبل.

ظل الفقير هائما على وجهه يسير فى الجبال ويقطع السهول حتى وصل فى النهاية إلى مدينة أثارت لديه الدهشة والعجب. فقد كانت السماء قريبة من أرضها تكاد تلامسها. ويكفى أن تمد يدك وتختار ما شئت من النجوم لتأخذها وتضعها بجيبك. فتتحول النجمة إلى حجر من الأحجار الثمينة.

انبهر بائع الحطب وطار لبه بالمدينة المسحورة حتى إنه نسى بلده وزوجته وابنه الصغير وعاش أيامه بالمدينة المدهشة.

ومرت خمسة عشر سنة على حياته مرور الكرام وهو فى حالة من النشوة والمتعة بالمدينة دون أن يشعر بتلك المدة، بل يعتقد أنه لم يصلها إلا بالأمس القريب.

وفى أحد الأيام تذكر الفقير زوجته وابنه: "ترى كيف تسير أحوالهما؟ لابد أنها سيئة للغاية بدون وجودى معهما". وبعد ذلك ربط بلطته حول خصره وألقى بالحبال على كتفيه وانطلق عائدا إلى بلدته.

وصل الفقير إلى منزله فى وقت متأخر من الليل وقد أطبق الظلام على المكان. ونظر إلى الداخل عبر ثقب بالباب فرأى زوجته تطعم شابا يافعا وتناوله الطعام بيدها. أمعن بائع الحطب النظر فى الشاب الجالس أمام زوجته وصعق من الدهشة. فقد رأى نفسه يجلس بالداخل يتناول طعام العشاء. فيا لها من معجزة مذهلة.

أخذ بائع الحطب يراقب ما يجرى ويتطلع عبر الباب ثم شعر بجوع شديد يعصف به. وتذكر أنه لم يذق شيئا من الطعام طوال اليوم. ثار بائع الحطب وشعر بالغضب يستعر فى نفسه: "يا للعار المشين، كيف أرى نفسى جالسا أمام زوجتى وهى تطعمنى بيديها من أطيب الأطباق وفى واقع الحال أقف أتلوى من الجوع والبرد على عتبة بيتى؟ هناك أمر غريب لا أفهمه. ولابد أن هذا الشاب الجالس هناك هو مسخ لى".

أخرج الرجل بلطته وحملها متحفزا بيده. واستعد لاقتحام الحجرة وقطع رأس الشاب المسخ الغريب. لكنه فى هذه اللحظة تذكر كلمات الحكمة التى قالها له العجوز ذات يوم – "أجِّل غضب اليوم إلى الغد".

ابتعد الرجل عن الباب وتسلق سطح البيت. ورقد بجوار مدخنة الحجرة يتصنت إلى الحديث الدائر بين زوجته والشاب الغريب. فسمع الشاب يقول:

– أخبرينى يا أمى كم كان عمرى عندما رحل أبى من المنزل؟

– لقد كنت حينذاك فى الثالثة من العمر يا ولدى.

– ولماذا تركنا والدى بمفردنا ورحل عنا؟

– لا تذكرنى يا بنى بما جرى منذ زمن بعيد، فقد مضى على تركه المنزل خمسة عشر عاما حتى الآن.

- لكننى لا أتذكره يا أمى فكيف كان يبدو؟

- إنك تشبهه كثيرا حتى تكاد أن تكون نسخة منه.

- ترى هل يأتى يوم يحالفنى الحظ وأرى والدى؟

وانهمرت الدموع تجرى من عينى الشاب ومن بعده صارت أمه تبكى هى الأخرى.

رقد بائع الحطب يفكر:"لقد كنت على وشك أن أقتل ابنى الحبيب. ومن حسن طالعى أننى قابلت العجوز الذى قال لى حكمته:"أجِّل غضب اليوم إلى الغد"، والتى دفعت درهما واحدا ثمنا لها فأتت لى بفائدة تساوى الألوف من الذهب".

هبط الرجل بسرعة من على السقف ودخل إلى منزله. فسعدت به الزوجة والابن وكادا أن يطيرا من الفرح.

وعاشوا جميعا حياتهم فى هناء وسعادة.

* * *

السيد والقاضى



فى زمن بعيد من الأزمنة القديمة عاش أحد السادة من ملاك الأراضى. وكان يعمل لديه شاب أجير. وفى أحد الأيام ثار السيد لسبب تافه على الشاب الأجير وقام بسبه ولعنه. فغضب الشاب وترك العمل ورحل.

ورفض السيد أن يعطى الأجير أجرته عن العمل الذى قام بها لديه. فذهب الأجير إلى القاضى الذى سأله قائلاً :

- هل جئت تشكو أحداً؟

- نعم أيها القاضى لدى شكوى لكننى لا أستطيع قولها لك إلا ونحن منفردين.

فكر القاضى فى نفسه: "سوف يكون هناك مكسب من وراء هذا الشاب، فلأتحدث معه على انفراد".

صرف القاضى الحاجب والحراس حتى أصبح بمفرده وقال:

– والآن قل ما هى شكواك؟

– لقد عملت لدى السيد صاحب الأرض ولا يريد أن يدفع لى أجرتى. فأرجو منك يا سيدى أن ترغمه أن يدفع لى حقى من المال.

فكر القاضى قليلاً ثم قال:

– قبل كل شيء ينبغى عليك أن تخبرنى بالمقابل الذى سوف تدفعه لى حتى أنظر فى شكواك.

– إننى رجل فقير يا سيدى القاضى.

– نصف أجرك لى والنصف لك وإلا لن أنظر فى شكواك – أعلن القاضى – وسوف أستدعى صاحب الأرض بنفسى وأرغمه على أن يدفع لك. فعد فى صباح الغد.

فى صباح اليوم التالى حضر السيد صاحب الأرض إلى القاضى. فقام بتحيته وجلس أمامه فوق بساط مفروش على الأرض وقال:

– سيدى القاضى لابد أن تسب الشاب الأجير وتعاقبه، فقد عرفت أنه قد أتى إليكم. فلا تسمحوا لمثله أن يضيع وقتكم الثمين.

ولم يكمل السيد حديثه للقاضى حتى دخل الأجير فقال القاضى للسيد:

– أيها السيد صاحب الأرض، لابد أن تسدد دينك لهذا الفتى الأجير. ولن تخرج من هنا حتى تدفع له ما عليك من مال.

فطن السيد إلى الأمر وفكر فى نفسه:"لابد أن هذا الأجير قد وعد القاضى أن يعطيه شيئًا". وانتهز السيد لحظة لم يكن فيه الشاب ينظر إليه فرفع يديه متباعدتين فى الهواء كما لو كان يحمل شيئًا ضخمًا وغمز للقاضى بعينه.

فكر القاضى: "إنه يلمح لى بشىء كبير. فمن الأفضل أن أستغل الفرصة وأسانده وسوف أستفيد منه أكثر بكثير من هذا الأجير".

رفع القاضى رأسه ونظر فى عينى السيد الذى غمز له مرة أخرى ورفع يديه فى الهواء كما فعل فى السابق فخفق قلب القاضى وقال مخاطبًا الأجير:

– لعن الله أباءك وأجدادك أيها المخادع اللص، هيا اغرب عن وجهى واخرج من هنا بسرعة قبل أن آمر برميك فى السجن.

رحل الأجير غاضبًا من عند القاضى. وما إن خرج حتى قال القاضى للسيد:

– هيا اذهب وأحضر الشىء الذى أردت إحضاره لى.

غادر السيد المكان وذهب إلى السوق.

أما القاضى فجلس يحلم ويفكر وقلبه يكاد يخرج من صدره من شدة الفرح: "ما الذى يمكن أن يكون بهذا الحجم الكبير وتحمله اليدان بالكاد؟ لابد أنه قدر مملوء بالفضة أو بالذهب. متى يحضره إلىّ السيد صاحب الأرض؟"

ولنترك القاضى يجلس وهو يتحرق شوقًا فى انتظار الهدية ولنرى ماذا جرى مع السيد.

غادر السيد موقع القاضى متجها إلى السوق. وهناك قام بشراء شمامة كبيرة فى حجم الخروف. وحملها بكلتا يديه وذهب بها إلى القاضى.

دخل السيد على القاضى ووضع الشمامة أمامه. فقال له القاضى وهو يبتسم:

– أتذهب خصيصًا كى تحضر لى شماما؟ يا لك من رجل كريم أيها السيد.

– إن ما نعد به ينبغى أن ننفذه ياسيدى القاضى ونلتزم بعهدنا.

خفق قلب القاضى من السعادة. وقطع السيد الشمامة إلى نصفين أعطى أحدهما للقاضى وأخذ لنفسه النصف الآخر وقال:

– تفضل سيدى القاضى هنيئًا مريئًا.

وأخذ الاثنـان يأكـلان من الشمامة الكبـيرة حتى امتلأت معدتيهما وبقـى منها ما بقى. ثم قال السيد بعد ذلك:

- والآن بعد أن أكلتم الشمام وطردتم الأجير الأحمق اسمحوا لى بالانصـراف يا سيدى القاضى.

لكن القاضى قال:

- لا تماطل إذن أيها السيد وأحضر لى ما تريد.

- أنا لا أفهم عن أى شىء تتحدث سيدى القاضى.

- كيف لا تفهم؟ هل نسيت؟ لقد أشرت بيديك أنك سوف تحضر لى شيئا كبيرا. ولهذا التلميح قمت بسب الشاب الأجير وطرده من هنا.

- آه .. فهمت الآن يا سيدى. لقد كنت أقصد الشمام، فقد رأيت بنفسك كيف أننى حملته بكلتا يدى بالكاد. فماذا كنتم تنتظرون منى غير ذلك؟

- هيا ارحل من هنا - قال القاضى بغضب - واغرب عن وجهى. لقد أضعت علىّ مكسبا كبيرا من المال بعد أن صدقتك أيها المخادع.

نهض السيد وغادر المكان.

أما القاضى فسقط مريضا من فرط الإحباط الذى أصابه.

وهنا انتهت الحكاية .

* * *

الشيطان والفلاح



يحكى أن الشيطان قابل أحد الفلاحين. وقرر الاثنان أن يستأجرا من السيد المالك قطعة أرض ويقومان معا بحرثها وزراعتها. ومضت الأمور مثلما اتفقا معا. وبعد النقاش والحوار زرعا الأرض بالذرة. ونمت عيدان الذرة وترعرعت حتى نضجت الكيزان. وأخذ الاثنان يتحاوران ويتجادلان فى كيفية تقسيم المحصول بينهما بالتساوى والعدل. فقال الفلاح للشيطان:

- اختر يا صديقى من الأرض الجزء الذى يروق لك وخذ محصوله.

نظر الشيطان إلى الذرة فى الأرض فرأى أن الجزء السفلى هو الأكثر كثافة بالسيقان والأوراق. أما الجزء العلوى من المحصول فهو فقير من العيدان. ففكر فى

نفسه:"سوف أختار الجزء السفلى من المحصول فهو أكثر من العلوى وأغنى منه بالسيقان". وقال للفلاح:

– ختى تكون القسمة بيننا عادلة أيها الصديق أريد الحصول على الجزء السفلى من الذرة.

– حسنا، وأنا سوف آخذ الجزء العلوى من الذرة.

وذهب الفلاح إلى الحقل فجمع كيزان الذرة كلها وترك العيدان للشيطان.

فرح الشيطان كثيرا بالقسمة:"يا لحظى السعيد، لقد استطعت أن أخدع هذا الفلاح الأحمق، فكل نصيبه لن يزيد عن ست أو سبع أجولة من الكيزان، أما أنا فقد حصلت على هذه الكمية الهائلة من العيدان".

وأمسك الشيطان بالمنجل وأخذ يقطع ويجز أعواد الذرة والسيقان من الحقل.

فصل الفلاح حبوب الذرة عن الكيزان. ثم جمع الحبوب وذهب بها إلى السوق. أما الشيطان فجمع العيدان ووضعها على الحمار وذهب هو الآخر ليبيعها. واستطاع الفلاح أن يبيع حبوب الذرة مقابل قدر جيد من المال. أما الشيطان فلم يحصل إلا على قروش زهيدة بالكاد نظير العيدان التى باعها.

غضب الشيطان وقال للفلاح:

– يا لك من وغد معدوم الضمير. لقد خدعتنى أيها الفلاح.

أجابه الفلاح قائلا:

– إن أمرك لغريب حقا أيها الشيطان. ألم تختر وتأخذ بنفسك ما اخترته؟ هيا نزرع معا مرة ثانية. وعندما ينضج المحصول لك مطلق الحرية فى اختيار الجزء الذى يروق لك.

فكر الشيطان فى نفسه:"لابد أن أعوض خسارتى".

وقرر الشيطان والفلاح أن يزرعا الجزر فى العام المقبل. وقد كان هذا ما فعلاه.

وعندما نضج محصول الجزر قال الفلاح:

– لقد قلت إننى خدعتك فى العام الماضى. والآن فكر جيدا واختر الجزء الذى يعجبك من المحصول.

فكر الشيطان: "لقد اخترت فى العام الماضى الجزء السفلى من المحصول فلم أوفق، أما فى هذه المرة سوف أخذ الجزء العلوى كله". وقال الشيطان للفلاح:

– كل ما يعلو فوق الأرض فهو لى، وأنت لك يا صديقى كل ما يوجد فى باطن الأرض.

– حسنا، خذ سكينك واقطع ما شئت من الزرع.

وأخذ الشيطان كل العيدان الخضراء له. أما الفلاح فحفر الأرض وأخرج منها الجزر. ثم غسله وجمعه فى أجولة ذهب بها إلى السوق. وقام الشيطان هو الآخر بجمع العيدان والأوراق الخضراء ووضعها على حمار وخرج يبيعها.

استطاع الفلاح أن يبيع الجزر فى لمح البصر. أما الشيطان فأخذ يسير ويدور مناديا بين الناس ولم ينجح فى الحصول على قرشين لقاء عيدان الجزر. ثار الشيطان وهاج وهجم على الفلاح قائلا:

– لقد خدعتنى فى العام الماضى ثم عدت ثانية لتخدعنى فى هذا العام، فأنا لم أجن من العمل معك سوى الخسارة.

وخرج الاثنان من السوق يتشاجران وفجأة رأيا على الطريق كيسين مملوءين بالذهب أسفل إحدى الأشجار. فقال الفلاح للشيطان:

– انظر هناك كيسان مملوءان بالذهب، هيا نقتسمهما بيننا.

– كلا – قال الشيطان – لقد خدعتنى طوال العامين السابقين، ولن أتركك تحصل على الذهب.

– ما دمت لا تريد أن نقتسمه ما الذى تقترحه الآن؟– قال الفلاح.

– أقترح أن يأخذ كل الذهب لنفسه الأكبر منا فى العمر – أعلن الشيطان وسأل الفلاح بعد ذلك:

– كم تبلغ من العمر أيها الفلاح؟

– قل أنت أولا ثم أقول لك – أجاب الفلاح.

– حسنا – قال الشيطان – لقد تجاوز عمرى المائة والسبعين من السنين.

وهنا انخرط الفلاح فى البكاء. فدهش الشيطان وقال له:

– ما الذى يبكيك؟

تنهد الفلاح بحسرة وقال:

– ما إن قلت لى إن عمرك تجاوز المائة وسبعين حتى تذكرت المرحوم ابنى الصغير، الذى لو عاش لبلغ هذا العمر بالتمام والكمال. وقد هزتنى الأشجان والأحزان لذكراه.

– هكذا إذن – قال الشيطان فى دهشة – لو أن ابنك فى مثل عمرى فأنت فى عمر والدى وقد خسرت ثانية معك. والآن الرهان الأخير أن يجلس بالتناوب كل منا على كتفى الآخر ويغنى له ما يعرف من الأغانى. ومن يحفظ من الأغانى أكثر يصبح الذهب من نصيبه.

– حسنا – أجاب الفلاح – فليكن هذا هو الرهان كما تقول.

جلس الشيطان على كتفى الفلاح وصار يغنى له. وظل ثلاثة أيام وليال يردد الأغانى. وفى اليوم الرابع قال له:

– لقد انتهت الأغانى التى أعرفها، والآن جاء دورك فاجلس وابدأ الغناء.

قفز الفلاح على كتفى الشيطان وأخذ فى الغناء: "ترالالالا..ترالالالا". وظل الفلاح يغنى وهو جالس على ظهر الشيطان سبعة أيام. وفى اليوم الثامن قال الفلاح له:

- إياك أن يصيبك الضجر الآن، فما زلت أحفظ من الأغاني ما يكفي لأربعين يوما بعد.

ألقى الشيطان بالفلاح من على ظهره وسبه وفر هاربا. وهنا انتهت الصداقة بينهما إلى الأبد. وحصل الفلاح لنفسه على الكيسين المملوءين بالذهب.

* * *

العراف الأمى



فى زمن قديم عاش أحد الشيوخ العرافين. وكانت قراءة الكتب والتنبؤ بالغيب هى شاغله الرئيسى فى الحياة. وفى يوم من الأيام مات العراف. فقالت زوجة جاره لزوجها:

- لقد مات زوج صديقتى، فهيا نذهب إليها للقيام بواجب العزاء فى المرحوم.

وذهب الزوج مع زوجته إلى منزل العراف. وكان الزوج رجلا أميا بسيطا يعمل أجيرا لدى الناس، ويؤمن رزقه فى الحياة بالكاد. وكانت أحواله البائسة مصدر هم

وحزن لزوجته. وبينما جلست الزوجة بين المعزين رأت كتابا ملفوفا بمنديل موضوعا على رف بالحجرة. تناولت الكتاب وسألت زوجة الشيخ العراف:

- ما هذا الكتاب؟

صارت الزوجة تولول وتبكى وقالت:

- لقد تحركت المواجع والأحزان بسؤالك هذا يا صديقتى. فلم يكن هذا الكتاب يفارق زوجى فى ترحاله وأسفاره إلى المدن والقرى للتنجيم وقراءة الطالع . وكان يعود من أسفاره يحمل لنا الخير والهدايا. وبفضل هذا الكتاب لم نقع فى عوز أبدا. ما الذى يمكننى أن أقوله لك. إن هذا الكتاب بالنسبة لنا كان بمثابة البقرة الحلوب والمال والحصان والحرفة.

وأخذت الزوجة تثرثر طويلا وتندب حظها وقدرها العاثر المرير. حتى سألتها صديقتها وقالت:

- ومن الآن الذى يستخدم هذا الكتاب فى قراءة الطالع؟

أجابت زوجة العراف وقالت:

- لا أحد، فمنذ مات زوجى والكتاب لم يتحرك من فوق الرف حتى كساه التراب. فلا يوجد إنسان قادر على استخدامه. وابنى مازال صغيرا على ذلك.

وهنا قالت الصديقة:

- آه يا صديقتى، سوف أصارحك بمكنون صدرى وحقيقة أمرى. إن زوجى رجل أمى جاهل عاطل المواهب، كثيرا ما يظل أياما يهيم ويطوف بالشوارع دون أن يربح فلسا. أحيانا فى شهور الصيف فقط ينجح فى الحصول على عمل يسد به رمقنا بالكاد. فنحن نعيش فى فقر مدقع لا نملك متاعا ولا أى نوع من الحيوانات ونحيا بالكاد فى هذه الدنيا. فلو أنك توافقين على منحى هذا الكتاب السحرى أعطيه لزوجى. فربما يستطيع استخدامه فتتحسن أحوالنا ونحصل على قوتنا بفضله.

أصابت الدهشة زوجة العراف وقالت:

- ولماذا تريدين الكتاب لزوجك وهو أمى لا يعرف القراءة؟ لو كان يعرف القراءة لأعطيتك الكتاب.

احتجت الصديقة وهتفت تقول:

- ما هذا الذى تقولينه يا صديقتى؟ فلو كان زوجى يجيد القراءة لما سألتك أن تعطينى الكتاب السحرى ولأحضرت له كتبا أخرى وما احتجت لكتابك.

أخذت زوجة العراف تهدئ من روع جارتها وتطيب خاطرها. ثم أعطتها الكتاب وقالت لها:

- لا تحزنى وخذى الكتاب لك.

حملت الصديقة الكتاب إلى منزلها وأعطته لزوجها. دهش الزوج وقال:

- أنا أمى لا أعرف القراءة، فكيف يمكننى استخدام هذا الكتاب فى قراء الطالع والتنجيم بالغيب؟

أجابت الزوجة عليه قائلة:

- ليس عليك سوى أن تفعل ما ألقنه لك.

غضب الزوج وقال:

- سوف تلقين فوق رأسى بمهام لا أستطيع القيام بها.

لم تنصت الزوجة لاعتراض زوجها واستطردت تقول:

- لا تناقش الأمور على هذا النحو. فلا أحد يفعل شيئا حقيقيا فى وقتنا هذا. والناس تعيش كل على هواه. فاحمل الكتاب واخرج إلى ميدان المدينة واجلس هناك. وسوف تجد أن المغفلين أكثر من الهم على القلب. ولن ينسى الله عبده الفقير ويسوق إليك أحدهم. وقد يحالفك الحظ وتصيب فى قراءة طالع أحد الناس فتصبح من المشاهير الأثرياء.

ألبست الزوجة زوجها ملابس تليق بالمنجمين. ثم وضعت فوق رأسه عمامة كبيرة كى تكتمل هيئته ووقاره. وأعطته بعض العصى الرفيعة ووضعت حول رقبته عقدا من الخرز الكبير. وأخيرا دست له الكتاب تحت إبطه وودعته إلى خارج المنزل. سار الرجل المسكين ومشى حتى وصل إلى ميدان المدينة. ونظر فرأى عددا كبيرا من المنجمين والعرافين يجلسون هناك وقد التف حول كل منهم جمع غفير من الناس. فتشجع بعض الشيء وفكر فى نفسه:"لن أكون بمفردى فهناك الكثيرون من أمثالى".

عثر الرجل على مكان مريح فجلس به ووضع الكتاب أمامه. ثم قطب وجهه ونفخ خديه وحدق بعينيه وصار يحرك شفتيه متمتما كما لو كان يقرأ.

فلنتركه بعض الوقت وهو يحرك شفتيه ويتمتم ولنسمع ما جرى لأحد الفلاحين. كان الفلاح قد فقد حصانه وبحث عنه فى كل ركن ومكان حتى أعياه البحث فعاد إلى منزله يائسا محبطا. فقالت له زوجته:

- لا تيأس ولا تحزن فإن مدينتنا تعج بالعرافين. فاذهب إلى الميدان واسأل منهم واحدا كى يخبرك بمكان الحصان. وقد يرحمك الله وتنجح فى العثور عليه.

- إنك محقة فيما تقولين - قال الزوج وذهب إلى ميدان المدينة. وهناك رأى العراف الأمى جالسا تحت عمامة ضخمة وعيناه تبحلقان. فاتجه إليه وقال له:

- لقد ضاع حصانى وأريدك أن تعرف لى مكانه.

أجاب عليه العراف وقال:

- هبنى أولا بعض المال كى أبدأ فى العمل.

أعطاه الفلاح قطعة نقود من الفضة. وما إن رأى العراف القطعة الفضية حتى فرح وابتهج. وصار يتمتم ويلاعب عضلات وجهه وأمسك منديلا فى يده ونفخ فيه، ثم بصق بداخله وألقاه على الأرض. ووضع قطعة النقود فوق الكتاب. وبعد ذلك فتحه متصنعا القراءة به وهو يقلب صفحاته وقال:

- لقد عثرت على حصانك المفقود. تم العثور على الحصان وانزاح الغم من على كاهلك. عندما تخرج من هنا سوف ترى جسرا اسمه جسر شيت، اعبره وواصل السير

حتى ترى جسرا آخر، اعبره وانطلق حتى ترى جسر شوخ. أسفل ذلك الجسر سوف تجد حصانك المفقود فخذه وعد هنا ثانية كي تدفع لي بقية الأتعاب.

فرح الفلاح ووعد العراف قائلا:

– عندما أعثر على الحصان لك مني ربع ثمنه.

خرج الفلاح من المدينة حتى وصل إلى جسر شيت. وعبره وسار وسار فوصل إلى جسر آخر، عبره ومضى في الطريق يجد في سيره حتى وصل إلى جسر شوخ. نظر الفلاح أسفل الجسر فرأى حصانه واقفا كما قال له العراف. هتف الفلاح مناديا على الحصان: "وجدتك يا فرسي العزيز". وأخذ يمسد على رقبة الحصان ويداعبه ثم امتطاه عائدا إلى بيته.

قدر الفلاح ربع ثمن الحصان من المال وذهب إلى العراف وأعطاه له.

صارت أخبار العراف ومهارته في التنبؤ تنتشر في المدينة بين الناس وتتناقلها الألسن يوما بعد يوم حتى ذاعت شهرته في البلاد:

– هل سمعتم آخر الأخبار؟ لقد وصل إلى المدينة عراف جديد يقولون عنه إنه يعرف كل شيء. فيعثر لك في الحال على ما فقدته، وبإشارة من يده يتعرف على اللص والسارق.

كان العراف الأمي في غاية الفرح والسرور بالمال الذي يجنيه من عمله. لكن قلبه ظل غارقا في الوجل والخوف. وكان يفكر: "إن عاجلا أم آجلا سوف يفتضح أمري بين الناس لو عجزت عن معرفة مكان شيء ضائع منهم".

في أحد الأيام سرقت خزينة الملك. وهرب بها اللصوص ولم يتركوا أثرا خلفهم على الإطلاق. كاد الملك أن يفقد عقله مما جرى فنادى على الوزراء ورجال البلاط والشرطة وقال لهم:

– أمامكم خياران لا ثالث لهما. إما أن تعثروا على ما سرق مني أو أسلمكم جميعا إلى السياف ليجز رءوسكم.

بحث الوزراء ورجال الشرطة والبلاط عن الخزينة فى كل ركن ومكان بالبلاد لكنهم لم ينجحوا فى العثور على شىء. فذهبوا إلى الملك وهم يرتعبون من الخوف وخروا أمامه ساجدين يطلبون منه الصفح والمغفرة. حينئذ قال الملك:

– مادام الأمر هكذا أريد أن تحضروا لى كل العرافين بالمدينة. وإذا لم ينجحوا فى العثور على أموالى فسوف أعدمهم جميعا حتى لا يشغلوا الميدان هباء ولا يخدعوا الناس بعد ذلك. فأريح الخلق منهم ومن أكاذيبهم.

خرج رجال الملك وحراسه إلى الميدان فجمعوا كل العرافين وساقوهم إلى القصر.

أعلن الملك للجميع قائلا:

– أيها المنجمون والعرافون اصغوا لى جيدا جميعا. لقد سرقت خزينتى الملكية وأريد منكم العثور عليها. وإن لم تنجحوا فى هذا الأمر فسوف أعدمكم جميعا.

ووقف الجميع صامتين مطرقى الرءوس كمن نزل الطير على رءوسهم وهم خائفون من النظر إلى وجه الملك. فصرخ الملك فيهم متوعدا بصوت كالرعد:

– مالكم لا تتكلمون؟ هل ابتلعتم ألسنتكم؟

كان هناك الكثير من الأذكياء والحكماء بين المنجمين لكن أحدا منهم لم ينطق وظلوا واقفين منكسى الرءوس لفرط رعبهم من الملك.

وهنا ثار الملك وخرج عن طوره وهتف متوعدا:

– هل تظلون واقفين هكذا كالأحجار الصماء؟

وهنا ركع المنجمون والعرافون على أقدامهم وقالوا:

– أيها الملك العظيم، اقتلنا أو أحرقنا أو افعل بنا ما شئت لكننا عاجزون عن القيام بهذه المهمة الصعبة. أما هذا الإنسان – وأشاروا جميعا إلى العراف الأمى – فهو أفضل عراف ومنجم بيننا. وقد استطاع فى لمح البصر أن يعثر للفلاح على حصانه المفقود.

نظر الملك إلى العراف وأخذ يتفحصه بعينيه ثم أمره قائلا:

- إذن فلتعثر على الخزانة المسروقة.

حاول العراف التعيس بشتى السبل أن يتنصل من المهمة بلا جدوى. وقال الملك محذرا:

- إن لم يعثر على الخزانة فلن أسمح لأحد منكم بالخروج من هنا وسوف آمر بقتلكم جميعا.

بعد أن سمع العرافون والمنجمون تلك الكلمات فكروا: "لقد حانت ساعتنا وسوف نموت جميعا". وهجموا جميعا على العراف الأمي يصرخون قائلين:

- لابد أن تعثر على الخزانة، هيا اعثر عليها هيا.

لم يعرف الرجل التعيس ما الذى يمكن أن يفعله وفكر فى نفسه: "فى جميع الأحوال قد أصبحت الآن فى عداد الأموات، فلأحاول على الأقل أن أتمتع بالطعام الملكى قبل موتى".

وركع العراف أمام الملك فى خشوع وقال:

- أرجو منك يا مولانا أن تمنحنى فرصة لمدة أربعين يوما أختلى فيها بنفسى ولا أحادث أو أخالط أحدا كى أتفرغ للتفكير والتخمين. وبعد انتهاء المدة قد أنجح فى العثور عليها.

وقال العراف يحدث نفسه: "سوف تمر أيام المهلة ولن أعثر على شىء بالطبع لكننى أكون قد استمتعت بالطعام الملكى".

أعد الخدم والطهاة أربعين قدرا مملوءين بالطعام وحملوها إلى منزل العراف كى يكونوا زادا له أثناء فترة الاعتكاف. وقال العراف لزوجته:

- هل رأيت نتيجة أفكارك؟ لو أنك تركتنى لحالى لما سارت الأمور على هذا النحو. لقد انتهى بى التنجيم إلى حبل المشنقة. ألم يكن من الأفضل أن يتعب المرء

بعض الشيء ويسعى إلى عمل شريف يرتزق منه؟ سوف أموت بعد أربعين يوما يا زوجتي العزيزة. لم يبق لي في الحياة سوى أربعين يوما فقط.

قالت الزوجة:

– لن يتخلى عنا الله في هذه المحنة وسوف يوجهك إلى الطريق الصحيح. وقد صنعت خيرا بأن طلبت هذه المهلة.

وهنا قال العراف المسكين:

– ما دام الحال هكذا فهيا أحكمي إغلاق تلك القدور التي منحها لنا الملك. ولابد أن شيئا ما سوف يحدث خلال الأربعين يوما.

وبعد أن تحدث الزوج مع زوجته قاما بحمل القدور إلى حجرة الكرار وأخذا في رصها فوق الأرفف.

والآن فلنتركهما منهمكين في وضع قدور الطعام على الأرفف ولتسمعوا ما جرى مع سارقي الخزينة الملكية.

بعد أن سرق اللصوص الخزينة قاموا بوضعها في مخبأ بعيد عن الأعين. وصاروا يتقصون أخبار الملك وما يقوم به من خطوات لاستعادة خزانته وهم في حالة من الخوف والذعر. فأرسلوا جاسوسا منهم يتجول في الشوارع والطرقات ويلتقط الأخبار التي يتناقلها الناس. وعرف الجاسوس أن الملك قد جمع العرافين جميعا في قصره. وفرح كثيرا لما عرف أنهم رفضوا البحث عن الخزينة. لكن فرحته لم تكتمل عندما علم أن هناك عرافًا قد طلب مهلة أربعين يوما للعثور عليها. هرع الجاسوس إلى زعيم اللصوص وقال له:

– إنه نفس العراف الذي عثر على حصان الفلاح في لمح البصر، وقد طلب مهلة أربعين يوما لمعرفة مكان الخزانة. وسوف ينجح هذا الخبيث الداهية في العثور عليها.

وهنا تملك القلق والخوف من زعيم اللصوص فقال لجاسوسه:

- أريدك أن تراقب هذا الخبيث ليل نهار ولا تفارقه مثل ظله. وتتبع كل خطواته. وإذا رأيته يقترب من مكان الخزينة أخبرني كي أتخذ احتياطاتي.

بعد صلاة العشاء لف الظلام المكان. فتسلق الجاسوس سطح منزل العراف ورقد عليه يتصنت للحوار الدائر بين العراف وبين زوجته. وسمع العراف ينادي الزوجة بصوت عال:

- لقد حان موعد العشاء يا زوجتي.

حملت الزوجة من الكرار قدرا ووضعته أمام الزوج الذي أخذه وقال:

- لقد أتى أول واحد منهم.

خاف الجاسوس وارتعد بدنه وهرع إلى زعيمه وقال له:

- أقسم لك أن هذا العراف اللئيم قد عرف بأمري وبأنني راقد على سقف بيته.

ثار الزعيم عليه وقال:

- كيف يمكنه معرفة ذلك؟ إنما أنت الذي جبنت أيها الرعديد.

غضب الجاسوس وقال معترضا:

- إن لم تصدقني فابعث بواحد آخر.

لنترك زعيم اللصوص في شجاره مع جاسوسه ولنسمع ما جرى مع العراف الأمي.

بعد أن أعد مع زوجته أطباق الطعام الشهية من القدر الملكي، جلس العراف ليأكل لكن الطعام وقف في حلقه وقال بحزن:

- لقد ضعت ولم يبق لي في الحياة من الأيام سوى أربعين إلا يوما. لو أنني بقيت على حالي السابق ولم أعمل بالتنجيم لما كان هذا مصيري.

ومضت الليلة على هذا المنوال من الحديث الحزين.

وفى الصباح التالى خرج الجاسوس بقلب وجل إلى شوارع المدينة يتصنت إلى الأخبار ويستمع إلى ما يقوله الناس.

وعندما جاء الليل أرسل زعيم اللصوص لصا آخر إلى منزل العراف. وبعد صلاة العشاء تسلق اللص سطح المنزل وصار يتلصص على العراف ويتصنت عليه. وكان العراف فى هذا الوقت ينادى على زوجته ويقول لها:

- لقد حان الوقت.

أحضرت الزوجة قدرا جديدا من الكرار فقال العراف وهو يتنهد:

- لقد أتى الثانى.

كان العراف بقوله يقصد بالطبع القدر الثانى، لكن اللص الراقد على سقف البيت ظن أن العراف يقصد أن اللص الثانى قد وصل.

فكر اللص فى نفسه: "لقد عرف بأمرى". وفر من المكان مذعورا. وعندما قص على زعيمه ما جرى ثار الزعيم وقال:

- لا أحد منكم لديه عقل يفكر به. لن يستطيع هذا اللئيم أن يحزر مكان الخزينة أبدا. وأمثالكم من الأغبياء أصحاب القلوب الضعيفة غير جديرين بأن يصبحوا لصوصا.

حاول اللصوص تبرير مخاوفهم وقالوا:

- إنما نخشى أن يفتضح أمرنا ونجد أعناقنا تحت رحمة السياف. لهذا نحكى لك عما سمعناه. وإن لم تصدقنا فاذهب بنفسك غدا إلى منزله وسوف يعرف العراف بمجيئك وتتأكد حينئذ من صحة أقوالنا.

قال زعيم اللصوص:

- حسنا أيها الجبناء، سوف أذهب بنفسى غدا إلى منزل العراف لأرى ما الذى يفعله.

فى اليوم التالى انتظر الزعيم حتى هبط الليل وحان موعد صلاة العشاء فسأل اللصوص زعيمهم:

- سوف تذهب الآن إلى منزل العراف، فماذا نحن فاعلون حتى عودتك؟

أجاب زعيم اللصوص قائلا:

- انتظرونى هنا فسوف ألقى نظرة سريعة وأعود إليكم. لو اتضح لى أن العراف يستطيع العثور على الخزينة حينئذ نفكر فى مخرج لنا. أما لو رأيت أنه لن ينجح فى ذلك فسوف نقتسم محتويات الخزينة فيما بيننا اليوم.

وصل زعيم اللصوص إلى منزل العراف وتسلق سطح البيت وكمُن يتلصص ويتصنت لما يدور.

هتف العراف الأمى ينادى على الزوجة وقال:

- هيا اذهبى إلى حجرة الكرار.

خرجت الزوجة وأحضرت له فى هذه المرة قدراً كبيراً. نظر العراف إليه وقال:

- هاه ، لقد أتى أكبرهم اليوم.

ما إن سمع الزعيم تلك الكلمات حتى فكر: "لقد فطن العراف لمجيئى". هبط الزعيم من فوق السطح وركض مسرعا إلى أصحابه اللصوص وقال:

- لقد اتضح أن هذا العراف هو منجم حقيقى، فقد شم رائحتى على الفور وأخبر زوجته وقال لها:" لقد أتى أكبرهم اليوم". وينبغى أن ندبر أمورنا وإلا سوف يفتضح سرنا. فليذهب أحدكم إلى العراف ويقول له: "إن الخزانة موجودة بالمكان الفلانى فخذها ولا تكشف أمرنا لأحد، ومن اليوم فصاعدا سوف نقتسم معك كل ما نربحه من مال".

واقترح اللصوص قائلين:

- أليس من الأفضل أن نذهب إلى العراف جميعا؟

اعترض زعيم اللصوص وقال:

– لن يفيدنا فى شىء أن نذهب جميعا إليه فقد يكون الملك قد أرسل حراسه إلى منزل العراف ويستطيعون الإمساك بنا لو ذهبنا جميعا. فهذه أول مرة تُسرق فيها خزانة الملك. من الأفضل أن يذهب إليه رجل واحد أو رجلان منا ويخبرانه بمكان الخزينة ويعرضان عليه ما قلته. وينبغى علينا أن نتوخى الحذر ونبصق على الخزانة. فالمثل يقول: "ليس بالمقدور أن تأكل الكرز طوال العمر".

وانتهى النقاش بين اللصوص وأرسلوا واحدا منهم إلى العراف. وبينما هو فى الطريق إليه لنستمع قليلا لما يجرى مع العراف. فقد جلس مع زوجته يندب حظه ويولول وقال:

– يا للمصيبة يا للمصيبة، لقد مرت ثلاثة أيام من الأربعين يوما الباقين فى عمرى وبعدها سوف يعدمنى الملك. لقد أخذنا ثلاثة قدور من الأربعين.

وبعد منتصف الليل بقليل دق باب المنزل فجأة. فانتفض العراف مفزوعا وهتف بصوت عال قائلا:

– من هناك؟

سمع العراف صوتا خفيضا يقول:

– أنا.

اقترب العراف وزوجته من الباب وهما يرتعدان من الرعب وقالا:

– من أنت؟ هل تريد أن نفتح لك الباب؟

قال نفس الصوت (وهو صوت اللص):

– لا داعى لأن تفتح الباب فإنى فى عجلة من أمرى. اقترب منه وسوف أخبرك بشىء.

التصق العراف وزوجته بالباب وصارا يتصنتان. وقال اللص:

– فلتعلم أيها الوالد المنجم أننا نحن اللصوص الذين سرقوا خزينة الملك. ونحن لا نريد أن نلحق بك الأذى. بل نريد أن نصادقك ونصبح أبناء لك وتصبح أنت والدا لنا. ومهما حدث لا تفضحنا وسوف نكشف لك عن مكان الخزينة.

وهنا زال الخوف والرعب من بدن العراف وقال متوعدا بلهجة صارمة:

– إذا أعدتم خزانة الملك فهذا أمر طيب، وإذا لم تعيدوها فأنتم تعرفون بأنفسكم ما سوف يحل عليكم.

ارتعدت فرائص اللص من الخوف وصار يرجو العراف ويتوسل:

– ارحمنا أيها العراف، لقد وضعنا الخزانة فى كهف بالجبل الكبير. ولم نأخذ فلسا منها أو نلمس شيئا فيها. فقد كنا ننتظر حتى تهدأ الأمور. فلا تكشف أمرنا ونحن نعدك أن نقتسم معك مناصفة كل ما نجنيه من مال بعد ذلك.

قال العراف:

– حسنا سوف أذهب غدا إلى الكهف وأتفحص الخزينة. وإذا وجدت ما بها ينقص ولو فلسا فالويل لكم منى. أما أن تقتسموا معى ما تجنوه فهذا أمر لا أقبله منكم لأنه مال حرام لا أرتضيه على نفسى.

لم يحاول اللص أن يلح فى ذلك الأمر وقال:

– كما تشاء أيها العراف، لقد أخبرتك بمكان الخزينة والأمر متروك لك.

ولم يزد اللص حرفا على ما قاله وفر من المكان عائدا إلى أصحابه.

وما إن رأى العراف وزوجته أن اللص قد غادر المكان حتى اطمئن قلباهما وهدأت روحاهما.

– لقد مضت الأمور على أحسن حال – قال الزوجان وعادا إلى حجرتهما.

فى الصباح ومع ظهور أول خيط من النور قال العراف لزوجته:

– هل أذهب إلى الملك بنفسى أم أرسلك إليه؟

– يا لك من رجل ساذج، بالطبع ينبغى عليك أن تذهب إلى الملك بنفسك وقل له إنك قد عثرت على الخزينة المفقودة. وعندما يسألك عن اللصوص فكر فى شىء ما ولا تخبره بأمرهم فإنه لا يجوز أن تفضح سرهم. وعلى أيه حال فأنت لا تعرف أسماء اللصوص وهم لم يخبروك عنها.. ويكفيك فخرا أنك عثرت على خزانة الملك.

وظلت الزوجة طويلا تلقن زوجها وتحفظه ما ينبغى عليه قوله.

بعد ذلك قام العراف وخرج وهو يكاد يطير من فرط السعادة والفرح كما لو كان يسير على ستة أقدام والخطوة التى يخطوها أصبحت بمقام سبع خطوات.

أبلغ الخدم ملكهم بقدوم العراف فقال الملك:

- أحضروه هنا.

لم ينحن العراف كالعادة أمام الملك بل هتف على الفور وقال:

- هيا أعطنى مكافأة سخية أيها الملك، فقد عثرت على خزانتك.

خرج الملك هو الآخر عن وقاره من شدة السرور وقال سريعا:

- خذ كل ما تريد.

قام العراف بشرح طريقة الوصول إلى الخزينة ووصف الكهف الموجودة به.

جمع الملك جميع رجال البلاط والحراس وخرج معهم إلى الكهف. فوجد الخزانة سليمة كاملة المحتويات. وعندما قاموا بحصر ما فيها من الأموال الطائلة لم يجدوا فلسا واحدا ناقصا فيها.

حصل العراف الأمى على الكثير من الهدايا الثمينة وأجزل له الملك العطاء. وأقيم احتفال بالمدينة وخرج المنادون إلى الشوارع يدعون باسم الملك كل المنجمين والعرافين والمتنبئين إلى مأدبة عامرة بالقصر. وجلس العراف الأمى فى مقام كبير بجوار الملك.

فكر العراف الأمى فى نفسه: "بما أننى عثرت على الخزينة الملكية فأنا إذن زعيم على كل المنجمين والعرافين فى البلاد". وجلس العراف منتفخ الأوداج مزهوا بنفسه. وكان له الحق فى أن يزهو بنفسه بعد أن أصبح وهو العراف الأمى أهم رجل فى المملكة.

فى أحد الأيام خرج الملك للتريض فى الحديقة. وهناك رأى فراشة تحوم حول الزهور فحاول الإمساك بها لكنها أفلتت منه وطارت. ركض الملك خلفها محاولا اصطيادها ثانية لكنها أفلتت منه ثانية. وفى المحاولة الثالثة استطاع أخيرا أن يمسك بها.

اعترت الملك رغبة بداخله فى أن يمتحن العرافين والمنجمين ويختبرهم. فأحكم قبضة يده على الفراشة وقرر أن يسأل العرافين أن يحزروا ماذا يخفى بيده. وفكر: "من ينجح فيهم فى التخمين يصبح كبير العرافين ومن يفشل منهم أمنعه من التنجيم وأطرده خارج المدينة".

جمع الملك العرافين والمنجمين جميعا فى قصره وسألهم:

– ما الذى أخفيه فى يدى؟ إذا خمنتم الحقيقة فأنتم حقا من العرافين. أما إذا لم تعرفوا سوف أطردكم من المدينة لتعملوا خدما أو أجراء وتتركوا مهنة التنجيم ولا تخدعوا بعد ذلك الفقراء والبسطاء من الناس.

وقف العرافون والمنجمون ينظرون إلى بعضهم البعض وهم فى حالة من الرعب والخوف ولم ينطق أحدهم بكلمة. أخذ الملك ينظر إليهم وصرخ فيهم قائلا:

– ما لكم لا تنطقون؟ هل خرست ألسنتكم؟

شعر العرافون بكلمات الملك تزلزل الأرض تحت أقدامهم فكادوا أن يقعوا من الرعب فامتقعت وجوههم ووقفوا جامدين فى أماكنهم.

حينئذ صرخ الملك فيهم متوعدا للمرة الثالثة:

– هل ستصمتون إلى الأبد؟

وهنا خرج من العرافين أحد الحكماء الأذكياء وقال:

– أيها الملك العظيم والسلطان المهيب، اسمحوا لى بكلمة أقولها وهى: بالأمس القريب لم نستطع بعد تفكير وتمحيص طويل أن نعرف مكان خزانتكم المسروقة، فكيف يمكننا اليوم أن نحزر الشىء الذى تخفونه فى يدكم؟ لن يستطيع معرفة ذلك سوى نفس العراف الذى عثر على خزينتكم من قبل.

وهنا أشار الملك إلى العراف الأمى أن يتكلم. لكن العراف أطرق برأسه ينظر إلى الأرض فى صمت. صار بقية العرافين يتهامسون فيما بينهم:

– ما الذى يمكن أن يكون فى قبضة الملك؟ قد يكون فصًا من الماس أو حجرًا من الياقوت. ومن الجائز أنها لؤلؤة كبيرة.

أما العراف الأمى فجلس شاردا والخوف يتملكه يفكر: "ما الذى أقوله للملك؟".

كان الملك قد نفذ صبره فسأل العراف الأمى بصوت مرعب:

- هيا انطق وقل تخمينك.

أجاب العراف:

- قليل من الصبر يا مولاى، أعطنى فرصة للتفكير.

ابتسم الملك وجلس منتظرا.

ونظر الجميع إلى العراف وهم يقولون لأنفسهم: "أن لم يحرز الشىء الذى يقبض عليه الملك فى يده فلن نحرز نحن الآخرين ونصبح جميعا من الضائعين".

سأل الملك من جديد:

- ماذا يوجد فى يدى؟

فكر العراف الأمى: "لقد وقعت فى شرك لا فكاك منه فى هذه المرة مثل فراشة فى قبضة اليد". ثم قال العراف للملك:

- مولاى الملك، لقد أفلتت الفراشة فى المرة الأولى وفى المرة الثانية أيضا، أما فى المرة الثالثة فقد وقعت وانتهى أمرها.

ضحك الملك وبسط قبضة يده ففردت الفراشة أجنحتها وحلقت فى فضاء المكان.

- برافو، أحسنت أيها العراف الذكى - قال الملك.

وقف المنجمون والعرافون والوزراء ينظرون إلى الفراشة الطائرة وهم يهتفون جميعا فى صوت واحد:

- برافو، أحسنت أيها العراف، هذا هو المنجم الحقيقى.

وصار العرافون يمجدون ويشكرون العراف الأمى الذى أنقذهم من الهلاك. لكن بعضهم كان يحسده وهم يفكرون: "والآن سوف يصبح هذا العراف أكثر المقربين من الملك".

قال الملك:

– أيها المنجمون، بعد أن عثرتم على خزينتى وعرفتم ما كان بيدى أرى أنكم أناس صالحون تستحقون العيش بمدينتى.

منح الملك شهادة للعراف الأمى يشهد له فيها أنه كبير المنجمين والعرافين بالبلاد. وأجزل له العطاء هو وجميع العرافين والمنجمين الآخرين. وأمر الخدم أن يرافقوا العراف الأمى إلى منزله.

عاد العراف إلى منزله حيا سليما ومحملا بالهدايا الثمينة. وحكى لزوجته كل ما جرى له فى القصر بالتفصيل. فقالت له الزوجة:

– اشكر الله الذى كتب لك هذا المصير الطيب والحظ الحسن.

منذ هذا الوقت لم يعمل العراف الأمى بالتنجيم مرة أخرى. وامتنع للأبد عن هذا العمل. وعاش مع زوجته حياة سعيدة هانئة بفضل هدايا الملك وعطاياه. وتحققت كل أمانيه وأحلامه.

* * *

جـول وسـنبـول



فى زمن من قديم الزمان عاش أحد السادة وكان على وفاق ووئام مع زوجته التى أنجبت له ولدين. أكبرهما أسموه سنبول والأصغر جول. وذهب الولدان إلى المدرسة وصارا يتعلمان بشكل جيد. لكن جاء يوم ماتت فيه أمهما فأصبحا يتيمين.

لم يطق الأب أن يعيش وحيدا وقرر أن يتخذ له زوجة ثانية. فأرسل الخطاب إلى منزل أحد المعارف ليخطبوا له ابنة الرجل. وتم الزفاف وحضرت العروس الشابة إلى منزل السيد وأصبح للولدين زوجة أب. فى هذا الوقت كان الولدان قد كبرا وأصبح جول شابا بهى الطلعة جميل الهيئة فوقعت الزوجة الشابة فى غرامه. وذات يوم اعترفت الزوجة له بحبها. وعندما سمع الفتى اعترافها أصابه الفزع وقال لها:

- أنت زوجة أبى وأنا فى مقام الابن لك فكيف تقولين لى هذا الكلام ؟ ألا تخجلين من قولك هذا؟ لا أريد أن أسمع المزيد من هذا الكلام.

وتركها جول ومضى وهو فى حالة من الغضب والضيق. وعندما عاد الزوج إلى البيت أخذت الزوجة تشكو إليه وقالت:

- يا للفضيحة والعار. ابنك قد كان هنا لتوه وقال لى :"لقد وقعت فى غرامك". فيا لها من إهانة قاتلة لى ولك أيضا كلماته هذه.

ما إن سمع ما قالته الزوجة حتى كاد السيد أن يجن من الغيظ. فحمل السوط بيده وجلس ينتظر عودة جول من مدرسته.

وكان الشقيقان جول وسنبول عادة لا يفترقان عن بعضهما ويسيران دائما معا. لكن سنبول ظل بالمدرسة مع أحد رفاقه فى هذا اليوم. وعاد جول بمفرده إلى البيت. ولم يكد يخطو فوق عتبة المنزل حتى هجم الأب عليه وانهال فوقه ضربا بالسوط دون أن يعطيه فرصة للحديث أو الكلام. وبعد أن أشبعه ضربا قام بطرده من البيت.

وبعد مرور وقت قليل عاد سنبول إلى البيت وعندما لم يجد جول سأل زوجة أبيه:

- أين جول؟

- لا أدرى. اسأل والدك - أجابت زوجة الأب.

ذهب سنبول إلى أبيه وسأله:

- ألا تعرف يا والدى إلى أين ذهب جول؟

أجابه الأب:

- إن جول عديم الخلق والضمير. لقد قال كلاما غير لائق للأم ولا يجوز أبدا قوله. فقمت بضربه وطردته من المنزل شر طردة.

وعلم سنبول بما جرى مع زوجة الأب فقال لأبيه:

- أنت لم تفعل الصواب يا والدى. وإنى واثق أن جول برىء مما تقوله. ولا أستطيع البقاء بالبيت طالما أن جول غادره ولن يفرقنى شىء عن شقيقى سوى الموت. وسوف أعمل كل ما بوسعى على مساعدته فى محنته.

وخرج سنبول إلى المدينة يبحث فيها عن شقيقه. وظل يومين يسير ويدور فى كل الشوارع والأزقة حتى رآه فى أحد الحقول على أطراف المدينة. وكان جول نائما وهو فى حالة يرثى لها من التعب والجوع. فأيقظه سنبول من نومه وتعانق الشقيقان وهما يبكيان.

قال جول:

- لو لم تمت أمنا لما حلت بنا تلك المصائب، ولما طردنى والدنا من البيت.

أخذ سنبول قسطا من الراحة ثم قال لأخيه:

- سوف أذهب للبحث عن بعض الخبز وأنت انتظرنى هنا.

وذهب سنبول إلى القرية القريبة منهما بينما راح جول فى سبات مرة أخرى. وفجأة ظهر طائر أبيض ضخم وصار يحلق فوق جول ثم نزل وهبط فوق رأسه. سرق الطائر روح جول من جسمه وحلق ثانية فى الفضاء حتى اختفى. وعاد سنبول بعد قليل يحمل الخبز ورأى شقيقه ممددا بلا حراك ولا نفس. جلس سنبول يحتضن رأس أخيه وظل يبكى وينوح وهو مصدوم ملتاع لموته. وبعد ذلك أخذ يفكر فيما يفعله. ثم مضى يجمع الصخور ويضعها فوق جثمان شقيقه حتى لا تأكله الضوارى والوحوش. وبعد ذلك وقف والدموع تنهمر كالسيل من عينيه وقال:

- الوداع يا أخى الحبيب. لقد فقدنا أمنا ولم يعد لأبينا وجود فى هذه الدنيا. والآن حرمتنى الأقدار منك.

وسار سنبول وهو يبكى ويسير على غير هدى. وبعد مرور عدة أيام وصل إلى إحدى المدن. ورأى حشدا غفيرا من الناس مجتمعين فى ميدان المدينة. وقد كانوا جميعا فى ثياب احتفالية أنيقة يتطلعون إلى السماء نحو أحد الطيور. وأدرك سنبول أن هذا الطائر هو طائر السعادة الذى سوف يختار واحدا من الناس كى يصبح ملكا

على البلاد. فوقف جانبا متكئا بظهره إلى إحدى الأشجار. ودار الطائر فى الهواء دورة ثم الثانية وفجأة حط هابطا فوق رأسه. فالتف الناس حول المكان ورأوا الطائر يجلس على رأس سنبول. اقترب الوجهاء وعلية الناس منه وأعلنوا قائلين:

– هذا الفتى ليس واحدا منا بل إنه أحد الغرباء الفقراء العابرين من هنا. وقد أخطأ الطائر فى اختياره.

وأطلق الناس الطائر مرة ثانية فى الفضاء. فطار الطائر وحلق بعض الوقت ثم هبط من جديد فوق رأس سنبول. أخذ الناس سنبول إلى أحد المنازل البعيدة فى أطراف المدينة ووضعوه بالداخل وأغلقوا عليه البيت. وبعد ذلك أطلقوا الطائر مرة ثالثة. وحلق الطائر حتى وصل إلى المنزل الموجود به سنبول وهبط على سقفه. فأسرع الناس إلى البيت وهم ذاهلين:

– لقد أطلقنا الطائر ثلاث مرات وفى كل مرة يحط على رأس هذا الفتى. وطبقا لأعرافنا وتقاليدنا المتبعة لابد أن ننصب هذا الفتى ملكا علينا.

وجلس سنبول على العرش وأصبح ملكا على البلاد.

لنترك سنبول يحكم البلاد لبعض الوقت بينما تستمعون لحكاية أخرى. كان هناك صياد يعيش فى هذه المدينة. وكان الصياد يرتحل ويتنقل من مكان إلى آخر ومن مدينة لأخرى بحثا عن الفرائس. سافر الصياد حتى وصل إلى إحدى المدن فرأى طائرا كبيرا يقف فوق بعض الصخور. فشد الصياد قوسه وصوب سهمه إلى الطائر وأرداه قتيلا. واقترب الصياد من الطائر الميت ليأخذه فرأى الصخور تنزاح ويخرج من أسفلها شاب يافع. فقد كان هذا الطائر هو الذى سرق روح جول منه. وعندما قتله الصياد تركته الروح وعادت إلى صاحبها ثانية وبعث جول من الموت. سأل الصياد جول فى دهشة:

– من أنت أيها الفتى؟ وما الذى كنت تفعله أسفل هذه الصخور؟

– أنا وشقيقى يتيمان – أجاب جول – وقد تركنى هنا شقيقى الأكبر سنبول وذهب ليحضر خبزا فغلبنى النعاس ورحت فى النوم. ولابد أنه فى الطريق إلى هنا.

نظر الصياد إلى الفتى فرآه يشبه الملك الجديد سنبول لدرجة كبيرة ففكر فى نفسه:"قد يكون هذا الفتى شقيقًا للملك". ثم قال لجول:

- هيا اذهب معى وسوف أصطحبك إلى شقيقك.

ولم يخبر الصياد جول أن سنبول أصبح ملكا على البلاد. وأجلسه على حصانه وحمل الطائر ومضى فى الطريق نحو البيت. فوصلوا إلى المدينة فى وقت متأخر من الليل. دعا الصياد جول إلى منزله وجعله يغتسل وقدم له الطعام ليأكل وقال له:

- لقد تأخر الوقت يا بنى فابق هنا للنوم. وفى الصباح أصطحبك إلى أخيك سنبول.

وافق جول على اقتراح الصياد الذى أكرم وفادته وجهز له فراشا وثيرا فى المضيفة لينام عليه. لكن جول لم يستطع النوم فنهض وفتح الباب وتسلل فى هدوء إلى الخارج وهو يفكر: "لأتجول فى الشوارع وأشاهد هذه المدينة الجديدة". ومضى جول يتسكع فى الشوارع حتى رآه رجل من رجال الشرطة وفكر:"لابد أن هذا الفتى من اللصوص وإلا ما كان يتسكع بالشوارع فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل". فأمسك الشرطى بجول وألقى به فى الزنزانة. استيقظ الصياد بعد منتصف الليل وذهب إلى المضيفة يطمئن على جول فلم يجد له أثرا بالمكان. فخرج إلى الشارع يبحث عنه وقابل الشرطى فسأله قائلا:

- ألم تقابل بالصدفة شابا كان يسير بالشوارع منذ قليل؟

- قابلته وظننت أنه من اللصوص فقبضت عليه وألقيت به فى الزنزانة.

- كيف تفعل ذلك؟ إن هذا الفتى هو شقيق الملك. ولو عرف الملك بما فعلته لأمر بإعدامنا عقابا على فعلتك.

خاف الشرطى وقال للصياد:

- إذن ليس هناك حل سوى أن نتخلص من هذا الفتى. فهيا نضعه فى جوال ونذهب به إلى حمام البخار ونلقى به فى الموقد. فيحترق هناك وننجو أنا وأنت من الموت.

– أرى أنك مصيب فى قولك هذا وإلا فالويل لنا – أجاب الصياد.

ذهب الاثنان إلى الزنزانة ووضعا جول فى جوال وحملاه إلى الحمام. ثم ألقيا به فى الموقد ورحلا. وفى الفجر قدمت امرأة إلى الحمام لتأخذ بعض الفحم. وفتحت الموقد فرأت بداخله جوالا محترق الأطراف. فكرت المرأة بدهشة: "ما هذا الجوال الملقى هنا؟". وفتحته وإذا بداخله فتى رائع الجمال وقدماه محترقتان. لعنت المرأة الأشرار الذين ألقوا به فى الموقد. وأخرجته من الجوال وحملته إلى منزلها. وصارت تعالجه لمدة ثلاثة شهور حتى شفيت حروقه وتمكن من السير على قدميه ثانية. كانت المرأة تغزل الخيط وترسل ابنها إلى السوق كى يبيعه. وذات يوم خرج جول مع الابن إلى السوق يبيع معه الخيط. ومر الصياد بالسوق فلمح جول هناك. أسرع الصياد إلى الشرطى وقال له:

– إن الفتى الذى ألقينا به فى الموقد مازال حيا يرزق. وقد رأيته يجلس فى السوق يبيع الخيط.

ذهب الشرطى إلى السوق ورأى جول. فنادى على إحدى النساء وأعطاها بعض المال وقال لها:

– أريدك أن تذهبى إلى ذلك الفتى هناك وتسأليه: "بكم تبيع الخيط؟" ثم تصرخين بعد ذلك وتقولين: "النجدة أيها الناس". وعندما أقترب منكم وأسأل: "ماذا حدث؟" تقولين: "إن هذا الفتى قد أهاننى وأحط من كرامتى".

وكانت هذه المرأة دنيئة تفعل أى شىء لقاء المال. فأخذت المال من الشرطى وذهبت إلى جول وسألته عن ثمن الخيط ثم صرخت: "النجدة أيها الناس". وعندما اقترب منها الشرطى قالت له:

– لقد أهاننى هذا الفتى وأحط من كرامتى.

وهنا قبض الشرطى على الفتى وألقى به فى الزنزانة. كان هناك أحد التجار الأثرياء يدعى صابر باى. وعندما عرف الشرطى أن صابر باى يستعد للسفر إلى إحدى المدن للتجارة ذهب إليه وسأله:

– لقد سمعت أنك تستعد للسفر. وأنت فى العادة تضحى ببقرة أو بحصان تلقيه للتنين فى الطريق كى يبتعد عنك. وأنا عندى فى الزنزانة مجرم عتيد فى الإجرام. أريدك أن تأخذه معك وتلقى به إلى التنين بدلا من البقرة التى تضحى بها، فتريحنا منه حيث إنه مجرم لا يرتدع عن الإجرام.

– وهل تكافئنى بعد ذلك على صنيعى هذا؟ سأل التاجر.

– بالطبع يا سيد صابر باى – أجاب الشرطى.

وفى نفس هذه الليلة أخذ التاجر جول وهو مربوط بالحبال ووضعه على أحد الجمال. وتحركت القافلة على الطريق مع التجار الآخرين.

وفى الطريق كان جول يطعم الجياد ويسقيها ويطهو الطعام ويعد الشاى للتجار ويجمع الحطب ويشعل النار. وأعجب التاجر بنشاط جول وعمله. وعندما وصلت القافلة إلى مكان التنين ذبح صابر باى أحد الجمال وألقى به إليه.

وصلت القافلة إلى إحدى المدن البعيدة. وباع صابر باى كل البضائع التى أحضرها على أربعين جملاً وربح الكثير من المال فأعطى بعضا منه لجول وقال له:

– اخرج اليوم إلى المدينة وتريض بها. وغدا نسافر فى المساء إلى ديارنا.

خرج جول إلى المدينة وسار يتسكع فى شوارعها. ثم وصل إلى شاطئ النهر ورأى منزلا كبيرا جميلا هناك. وكانت المياه فى النهر صافية شفافة فنزل جول يستحم فيها. وعندما خرج من الماء وهمّ بارتداء ملابسه رأى تفاحة حمراء تسقط فى الماء. نزل جول فى الماء والتقط التفاحة. وعندما خرج إلى الشاطئ وقعت تفاحة أخرى فى الماء. ثم تفاحة ثالثة التقطها جول وهو يفكر: "من أين يسقط هذا التفاح؟". وارتدى ملابسه وإذا به يرى فتاة جميلة تقف خلف إحدى نوافذ المنزل وتلوح له بيدها أن يقترب منها. فاقترب جول من المنزل وخرجت الفتاة إليه واحمرت خجلا وسألته وعيناها إلى الأرض:

– من أين قدمت؟ وماذا تفعل هنا؟

وحكى جول للفتاة كل ما جرى له فقالت له:

- لقد أعجبت بك أيها الفتى وأنا التى كنت أقذف إليك بالتفاح. وأتمنى أن أربط مصيرى بك.

أجاب جول قائلا:

- لقد فتنت بجمالك وخفق قلبى له لكننى لا أصلح زوجا لك. فانت ابنة أحد السادة الأغنياء وما أنا سوى عابر سبيل من الفقراء.

- ابعث خطابك إلى والدى - قالت الفتاة - وسوف يطالبك بسبع قدور مملوءة بالذهب فقط لا غير مهرا لى.

- يا إلهى - أجاب الفتى - أنا إنسان فقير للغاية. لا أملك سبع قطع نحاسية ما بالك بسبع قدور ذهب.

- إذا كنت قد أحببتنى بالفعل وخفق قلبك لى كما تقول فابعث خطابك واترك بقية الأمور لى أتدبرها بمعرفتى - قالت الفتاة.

- فلتمضى الأحوال كما تشاءين وسوف أبعث الخطاب إلى والدك - قال الفتى.

- لكنك يجب أن تلتزم حرفيا بكل ما نتفق عليه. فخذ هذا المفتاح معك. وعندما يطلب منك والدى أن تحضر سبع قدور مملوءة بالذهب، اتجه إلى الضيعة الواقعة على هذا الطريق واذهب إلى المنزل الموجود بها. ثم ادخل إلى الفناء وافتح باب المنزل بالمفتاح. وسوف تجد أمامك السبعة قدور ذهب وهى ملك لى. فاحضرها إلى والدى وقل له: "هذا مهر ابنتك".

أخذ جول المفتاح من الفتاة وذهب إلى التاجر الذى سأله:

- هل شاهدت المدينة وتسكعت فى شوارعها؟

- لقد رأيت فتاة ووقعت فى حبها. وأنا أرجو منكم أن تذهب إلى والدها وتخطبها لى.

– هاهاها، الفتى الهمام وقع فى الحب والهيام، ماذا بك أيها الشاب؟ هل فقدت عقلك؟ كيف تريد الزواج وأنت مفلس لا تملك من حطام الدنيا ولا حفنة دراهم نحاسية؟

لكن جول أخذ يلح ويرجو:

– أتوسل إليك أن تنفذ طلبى ولا تقلق بخصوص فقرى. وأعدك أننى لن أخيب ظنك لدى والد العروس.

– ما دمت لن تخيب ظنى ولن تكسفنى أمام أهلها فسوف أخطبها لك.

نادى صابر باى على أحد التجار من أصحابه وذهب معه إلى منزل العروس. فقال له أبوها:

– إنى موافق أن أزوج للفتى ابنتى. لكنى فى المقابل أطالبكم بسبعة قدور مملوءة بالذهب مهرا لها.

تجمد صابر باى من الذهول عندما سمع بالمهر المطلوب. لكنه تظاهر بالهدوء وقال:

– حسنا أيها السيد لكننى سأذهب للتشاور بعض الوقت.

وخرج الخطاب بعد أن ودعوا الوالد. وذهب صابر باى وهو فى حالة من الغضب إلى جول الذى قال له:

– ماذ قال لكم والد العروس؟

– ماذا قال لنا؟– أجاب صابر فى غضب – لقد طلب منا سبعة قدور ذهب وبدونهم لا تفكر فى الزواج. أنا نفسى إذا بعت كل ما أملك فلن يساوى ما يطلبه من الذهب.

– لا تغضب يا سيد صابر – قال جول – فسوف نحضر له السبعة قدور التى يطلبها.

وقص جول على صابر باى كل ما جرى مع الفتاة. فذهبا معا إلى المنزل القائم بالضيعة. ودخلا إليه وأخذا منه القدور المملوءة بالذهب. ثم حملاها إلى منزل والدها.

تزوجت الفتاة من الفتى جول. وكانت فى كل صباح تعد الشاى والطعام والحلوى. وسعد بها جول كثيرا هــو وصــابر بــاى. وفى أحــد الأيام نامت الفتــاة مع جول ولم يستيقظا فى الوقت المعتاد لتقديم الشاى فدخل عليهم صابر باى يوقظهم. وما إن رأى الفتاة حتى انبهر بجمالها الشديد ووقع فى غرامها على الفور. وطافت بذهنه الهواجس: "كيف لهذه الحسناء أن تصبح ملكا لخادمى؟ أنا الذى أستحقها ، ينبغى التفكير فى طريقة للتخلص من جول كى تصبح الجميلة لى بعد ذلك".

بعد أن تناول طعام الفطور قال صابر باى لجول:

– ابدأ الآن فى إعداد الركب للطريق بينما أذهب إلى المدينة لبعض الأمــور. وغدا سوف نرحل فى الفجر.

شــرع جــول بالعــمل فى الوقت الذى ذهب فــيــه صــابر باى إلى أحد صناع الصناديق وطلب منه قائلا:

– أريدك أن تصنع لى صندوقا متينا، على أن تنتهى منه عند المساء وتحضره لى.

هجع الجميع فى المساء وذهبوا إلى النوم عدا صابر بــاى الذى جلس فــى انتظار وصول الصندوق. وفى منتصف الليل جاء الصانع يحمل الصندوق. فدفع له صابر أجره وأخفى الصندوق فى مكان بعيد عن الأعين حتى لا يراه جول. وعند الفجر تحركت القافلة على الطريق. وبعد مرور يومين وصلوا إلى شاطئ النهر فتوقفوا للراحة. وعندما راح الجميع فى النوم تسلل صابر باى إلى مكان جول فأوثق يديه وقدميه ووضعه داخل الصندوق وألقى به فى النهر.

ظل الصندوق سابحا فى الماء حتى حمله التيار إلى نفس المدينة التى يحكمها سنبول شقيق جول. وكان النهر فى هذا المكان يتفرع إلى فرعين يسير أحدهما مارا بحديقة قصر الملك سنبول. وفى هذا المكان علق الصندوق على ضفة النهر واستقر ساكنا. طلع الفجر فجاء البستانى يملأ قربة بالماء من النهر فرأى الصندوق راقدا هناك. انتشله البستانى وفتحه ورأى بداخله فتى جميل الهيئة فاقد الوعى. وحمله البستانى إلى منزله وأفاقه من غيبوبته. وبعد مرور ثلاثة أيام استعاد جول عافيته

وأصبح يخرج إلى - البستان. وفى أحد الأيام أخذ جول يقطف بعض الأزهار وعمل منها باقة جميلة. ثم أعطاها للبستانى وقال له:

- خذ هذه الباقة إلى الملك وعندما يسألك من جمعها قل له: "أنا بنفسى".

حمل البستانى الباقة إلى الملك الذى تحسسها بيده وأخذ يشمها وسأل قائلا:

- من الذى جمع هذه الأزهار ووضعها فى الباقة؟

- أنا يا مولاى - أجاب البستانى.

- شكرا لك.

خرج البستانى وأخذ سنبول يحدق فى الأزهار وهو يفكر: "لقد كان شقيقى جول يجمع الأزهار فى باقات مثل هذه الباقة بمثل هذه الطريقة تماما. وإن لم أكن بنفسى دفنت جثمانه تحت الأحجار لظننت أنه هو الذى جمع هذه الزهور".

وفى يوم خرج جول إلى المدينة فرأى فى الشوارع عددا من الفرسان يقفزون ويلهون فى مرح وهم يسيرون جميعا نحو أحد الأماكن. وعندما عاد جول إلى البيت سأل البستانى:

- أخبرنى أيها الوالد عن سبب وجود هذه العدد الكبير من الفرسان فى الشوارع اليوم، وإلى أين يذهبون؟

- ما رأيته اليوم هو جزء من الاحتفال بالزفاف.

- أى زفاف؟

- يعيش فى مدينتنا أحد التجار الأغنياء يدعى صابر باى. وقد سافر منذ وقت للتجارة إلى بعض المدن. ثم عاد من رحلته وأحضر معه عروسا ليتزوجها. لكن العروس طالبته أن يقيم احتفالا قبل الزفاف يدوم لأربعين يوما. فأقام لها صابر باى الاحتفال الذى طلبته. وقد قارب الاحتفال على الانتهاء فاليوم هو الثامن والثلاثون.

كاد جول أن يفقد صوابه بعد ما سمع أن صابر باى يريد حرمانه من زوجته المحبوبة. ولم يستطع النوم طوال الليل من الحزن والغم. وفى الفجر قام جول وخرج إلى البستان فجمع عددا من أجمل الأزهار ووضعها فى باقة بديعة. وعندما جلس مع البستانى إلى مائدة الفطور طلب منه قائلا:

– هل يمكننى أن أطلب منك معروفا أيها الوالد؟

– اطلب ما شئت يا بنى.

– أريد منك أن تركب حمارك وتأخذ هذه الأزهار وتذهب بها إلى منزل التاجر. وعندما تخرج إليك امرأة باهرة الجمال أعطها هذه الأزهار دون أن يراك أحد. وإذا سألتك:"هل جول موجود هنا؟" فقل لها:"نعم إنه هنا".

جلس البستانى على حماره وأخفى الأزهار فى عبه وانطلق إلى منزل التاجر حتى وصله. وهناك صار يدور حول المنزل ويصيح كالشحاذين:

– أيها الناس الطيبون تصدقوا على العبد المسكين بكسرة خبز.

خرجت من المنزل امرأة حسناء وأعطت للبستانى خبزا. وعندما أخذه منها أخرج خلسة باقة الزهور دون أن يلحظه أحد وأعطاها لها. وأدركت الفتاة على الفور أن هذه الأزهار قد أرسلها جول. فسألت البستانى:

– هل جول موجود هنا بنفسه؟

– موجود هنا بعد أن وصل سالما – أجاب البستانى.

تهلل وجه الفتاة من الفرح وقالت:

– أخبره إذن أن يحضر اليوم إلى هنا.

عاد البستانى إلى منزله وأبلغ جول بما قالته الفتاة. فلم يفكر جول طويلا بل قام وتنكر فى هيئة المتسولين وخرج مع البستانى قاصدين بيت التاجر.

كادت الفتاة أن تطير من السعادة بلقاء زوجها، وأخذت تبكى معه من الفرح. ثم قالت:

– يا زوجى الحبيب، لقد كذب علىّ صابر باى وأخبرنى أنك قتلت بأيدى اللصوص. وعندما طلب منى الزواج اشترطت عليه أن يقيم احتفالا لأربعين يوما وأنا أمنى نفسى أن يصلنى خبر منك خلال هذا الوقت. وها قد تحقق رجائى وعثرتَ علىّ. لكن غدا هو اليوم الأربعون وسوف يزوجوننى من صابر باى فماذا نحن فاعلان؟

فكر جول ثم قال:

– قبل أن يزوجوك للسيد صابر أعلنى للناس قائلة: "لقد أقام صابر باى الاحتفال لأربعين يوما. لكنى لن أصبح زوجة له حتى يحقق لى طلبا آخر. وهو أن يقص حكاية جول وسنبول. وإذا عجز عن سردها فليعثر على أحد يعرفها". وبالطبع لن يعرف أحد هذه الحكاية إلا أنا فقط.

– حسنا سوف اسأله هذا الطلب فى الغد – قالت الزوجة.

فى اليوم التالى عندما مضى الاحتفال إلى نهايته قالت الزوجة أمام الناس ما لقنه لها جول. فكاد صابر باى أن يجن من الغضب لأنه لم يعرف شيئا عن حكاية جول وسنبول. فذهب يشكو إلى الملك وأخبره بما طلبته الفتاة منه.

– غدا نعلن عن هذا بين الناس. ولابد أننا سوف نجد بينهم من يعرف الحكاية فيقصها علينا.

فى اليوم التالى احتشد الناس ووقف الملك أمامهم يسألهم:

– من فيكم يعرف حكاية جول وسنبول؟

صمت الجميع فلم يعرف أحد منهم الحكاية. فسأل الملك:

– هل هناك أحد من الناس لم يحضر هنا؟

أجاب رجل وقال:

– لقد حضر الجميع يا مولانا عدا بستانى حديقة القصر والفتى الذى يعيش معه.

أمر الملك بإحضارهما على الفور. فحضر جول وهو يرتدى أسمالا مهترئة ويغطى رأسه بطاقية واسعة ولم يتعرف سنبول عليه.

- هل تعرف حكاية جول وسنبول؟ سأل الملك.

- نعم، أعرفها جيدا - أجاب جول.

وأخذ جول يقص ويحكى عن كل ما حدث له وعن الصياد الذى قابله. فنادى الملك على الصياد. ثم حكى عن الشرطى الذى رماه بالسجن فنادى الملك على الشرطى. حتى وصل بحكايته إلى صابر باى الذى نادى عليه الملك هو الآخر. وجلس ثلاثتهم صابر باى والشرطى والصياد جنبا إلى جنب يرتعدون من الرعب والخوف.

وقبل أن ينتهى جول من حكايته نادى على المرأة التى أخرجته من موقد حمام البخار وعالجته. ثم نادى على البستانى الذى انتشله من الماء وقال:

- وهنا انتهت الحكاية. وهؤلاء هم الناس الطيبون الذين ساعدونى فى محنتى. هذه المرأة وهذا البستانى. أما الصياد والشرطى فقد سعوا إلى قتلى. وهذا التاجر صابر باى حاول أن يسلبنى زوجتى فوضعنى بصندوق ورمانى بالنهر ثم أقام الاحتفال بالزفاف لأربعين يوما.

وهنا خلع جول الأسمال التى يرتديها ورمى بالطاقية من فوق رأسه وقفز يهتف قائلا:

- انظروا إلىّ جيدا أيها الناس فأنا جول بشحمه ولحمه. انظروا إلىّ وتمعنوا النظر إلى وجهى يا رعايا الملك سنبول شقيقى المحبوب.

اندفع سنبول إلى شقيقه وأخذ يعانقه بقوة وحرارة. ثم أمر بشنق كل من الصياد والشرطى وصابر باى. وكافأ المرأة التى أنقذت جول من الموقد والبستانى فأغدق عليهما الذهب والفضة وأمر ببناء منازل جديدة لهما. ومنذ ذلك الوقت أصبحت المرأة والبستانى بمثابة أم وأب لجول وسنبول. وعين الملك شقيقه جول وزيرا له. وأقام الاحتفالات فى البلاد لأربعين يوما وليلة بمناسبة اجتماع جول مع زوجته ثانية. وهكذا حقق الشقيقان كل ما يحلمان به من أمانى ورغبات.

* * *

حاتم



قديما فى بلاد الشمس المشرقة عاش أحد الفقراء المعدمين. وكان للفقير ابن فى الخامسة عشر من العمر يدعى حاتم. وعندما مات الفقير لم تقدر أرملته أن تطعم ابنها بمفردها فأعطته لأحد الرجال الفقراء يدعى دادا باى كى يتكفل بتربية الصبى. لكن دادا باى هو الآخر لم يستطع من شدة فقره أن يطعم حاتم. فخرج به إلى السوق وباعه إلى أحد التجار الميسورين ويدعى جلال باى. اصطحب التاجر حاتم إلى منزله وصار يلقنه ما ينبغى عليه القيام به من أعمال.

بعد مرور ثلاث أعوام جمع جلال باى أربعين جملا وحمّلها بالبضائع وخرج بها مع قافلة من التجار صوب إحدى المدن البعيدة. واصطحب التاجر معه فى رحلته الفتى حاتم.

سارت القافلة طويلا طويلا. وتوالت عليها الأيام والليالى وهى تقطع الوديان والجبال وتعبر الصحراوات. وفى أحد الأيام عندما مالت الشمس للغروب رأى جلال باى فى الصحراء أطلال ديار خربة متهدمة فقال للتجار:

– هيا نبيت ليلتنا بين تلك الأطلال.

لكن التجار اعترضوا على اقتراحه وقالوا:

– إن المكان هنا موحش للغاية. ونحن منهكون من الترحال وسوف نستغرق جميعا فى النوم. وربما يخرج علينا اللصوص وقطاع الطرق ونحن غارقون فى نومنا ولن يهب أحد إلى نجدتنا فى هذا المكان.

وخاف التجار من التوقف عند هذه الأطلال وواصلوا طريقهم. لكن جلال باى أصر على موقفه ولم يستمع لنصيحتهم وتوقف بركبه للمبيت فى المكان المقفر. وبعد أن تناولوا طعام العشاء رقد جلال باى وخدمه للنوم تاركين حاتم لحراسة الجمال والبضائع بعد أن أعطوه سيفا كى يساعده فى مهمته.

وفى منتصف الليل ظهر فى الديار الخربة مسخوط ضخم الجثة أسود البشرة. نظر المسخوط إلى المكان ثم تسلل إلى الموضع الذى نام فيه جلال باى. أبصر حاتم المسخوط فامتشق سيفه وسار من خلفه يحذر وهوى على رأسه بالسيف فقطعها. ثم حمل الرأس وألقى بها فى مدخل الوادى. وسار حاتم بين الجمال والجياد وهو يفكر: "لقد تدبرت أمرى مع هذا المسخوط، لكنه بالتأكيد ليس وحيدا هنا، وسوف يأتى من بعده رفاقه من المساخيط، وحينئذ أضطر إلى دخول معركة صعبة معهم".

لم يوقظ حاتم أحدا من النائمين. بل خرج إلى الصحراء وصار يتطلع من حوله يمينًا ويسارًا حتى رأى جبلا فقرر قائلا فى نفسه: "لابد أن المساخيط يأتون من هذا الجبل، فلأذهب إلى هناك وأستطلع الأمر".

صعد حاتم إلى الجبل وشاهد كهفا فدخله،

وسار فى الكهف حتى رأى نورا من العمق وسمع صوتا يتكلم فالتصق بحائط الكهف وأخذ يتصنت إلى الصوت الصادر الذى قال:

- إن رفيقنا الأسود لم يعد بعد حتى الآن، هيا نذهب للبحث عنه لنرى إن كان قد أصابه مكروه.

خرج حاتم مسرعا من الكهف واختبأ عند مدخله وهو قابض على سيفه بقوة ووقف متأهبا. وما إن خرج المسخوط الأول من الكهف حتى قطع حاتم رأسه. ومن بعده ظهر الثانى فطارت رأسه أيضا. واستمر الحال هكذا حتى قطع رءوسهم جميعا.

بعد أن انتهى حاتم من أمر المساخيط دخل ثانية إلى الكهف فرأى بابًا فى الصخر على أحد الحوائط. فتح الباب فشاهد خلفه حديقة رائعة الجمال تغرد فيها البلابل وتكسوها الأزهار والرياحين. والأرض مفروشة بأبسطة حمراء مثل جمرة الفحم المتوهجة. وعلى أرائك مغطاة بالمخمل الناعم كانت تنام أربع فتيات آية فى الحسن والبهاء. استيقظت إحداهن ورأت حاتم فقالت له:

- ألا تعرف أيها الإنسان أن هذا الكهف يسكنه أربعون مسخوطا؟ ما الذى جاء بك إلى هنا؟ إن المساخيط سوف تعود وتقتلك حتى لو كان لديك عشرة أرواح. هيا اهرب من هنا بسرعة قبل وصولهم.

لكن حاتم أجاب عليها وقال:

- أنا لا أخشى الأربعين مسخوطا الذين تتحدثين عنهم. إن حياتهم كانت بقبضة يدى وقد قتلتهم جميعا. لكن ما الذى تفعلينه أنت فى هذا المكان؟

استيقظت بقية الفتيات على صوت الحديث الدائر والتفوا حول حاتم وقالت إحداهن:

- إننا بنات لأربعة ملوك. وقد خطفنا المساخيط وأتوا بنا إلى هنا.

خرج حاتم مع الفتيات إلى خارج الكهف وجعلهم يشاهدون جثث المساخيط مقطوعة الرءوس. أثنت الفتيات على حاتم وعلى شجاعته وشكروه لتحريرهم من أسرهم وصاروا يتوسلون إليه قائلين:

- خذنا معك ولا تتركنا فى هذا الكهف.

فقال حاتم:

– لا أستطيع اصطحابكم معى الآن. انتظرونى هنا لبضعة أيام ريثما أنتهى من عمل أقوم به ثم أعود إليكم وأعيدكم جميعا إلى منازلكم.

خرج حاتم من الكهف وسد مدخله ببعض الأحجار الكبيرة ثم عاد إلى الديار الخربة وشرع يعد الشاى. بعد طلوع الفجر قام جلال باى وخدمه فتناولوا فطورهم ومضوا يواصلون طريقهم. ولم يخبر حاتم أحدا عن سر الكهف وما جرى له فى الليلة السابقة.

بعد مرور بضعة أيام وصلت القافلة إلى إحدى المدن فتوقفت بها وذهب جلال باى إلى استراحة التجار. وفى الصباح خرج جلال باى مع بضاعته إلى السوق كى يبيعها لكن ما رآه هناك آثار دهشته الشديدة. فقد كان الناس يسيرون واجمين حزانى ولا أحد يرغب حتى فى النظر إلى بضاعته.

سأل جلال باى أحد العابرين:

– ما الذى جرى فى مدينتكم وجعل الناس يسيرون متكدرين لا يتحدثون مع أحد؟

– لقد حلت مصيبة كبيرة بمليكنا – قال العابر – فقد خطف المساخيط ابنته مليكة. وقد مرت ثلاثة أعوام ولم ينجح أحد فى العثور عليها بعد. فاسودت الحياة فى عيون جميع الناس بسبب هذا الحدث الأليم.

خرج جلال باى من السوق وأعلن قائلا:

– لن نفلح فى بيع أى شىء هنا، فهيا نشد الرحال إلى مدينة أخرى.

فى الصباح التالى خرجت القافلة مع بضائعها مسافرة إلى الطريق. وظلوا يسيرون لعدة أيام حتى وصلوا إلى مدينة أخرى فتوقفوا بها. بعد أن أخذ جلال باى قسطا من الراحة خرج إلى السوق يستطلع الحال. فرأى الناس جميعا يسيرون عابسين لا يسمع المرء ضحكة بينهم.

أخذ جلال باى يسأل الناس عن سبب عبوسهم فحكوا له أن ابنة ملك مدينتهم حورنيسة قد خطفها المساخيط منذ عامين. أدرك جلال باى أن لا أمل له فى التجارة هنا فشد رحاله ومضى فى طريق السفر.

مضت القافلة طويلا على الطريق وقطعت وديان وسهول شاسعة حتى وصلت إلى مدينة كبيرة فتوقفت بها. وكالعادة ذهب جلال باى إلى استراحة التجار. وفى هذه المرة لم يخرج إلى السوق بل سأل صاحب الاستراحة عن الأحوال فى المدينة فقال له صاحبها:

- كان لملكنا بنت تدعى بشاخون. ومنذ عام ونصف العام خطف المساخيط ابنته. وخرج الجميع يبحثون عنها بلا جدوى. ولهذا السبب أغلق الناس دكاكينهم وتركوا تجارتهم.

بعد أن استمع جلال باى إلى كلام الرجل قرر ألا يذهب إلى السوق. وفى نفس هذا اليوم واصل طريقه مسافرا إلى مدينة أخرى.

وظلت القافلة تقطع الطريق أياما طويلة وشهورا. وعندما أصبحت المدينة على مبعدة يوم سفر واحد توقفت القافلة فأنزلوا أحمالهم ونصبوا الخيام وأطلقوا الجمال والجياد ترعى. وذهب جلال باى مع حاتم بمفردهما صوب المدينة فوصلوها عند الليل. وكانت المدينة قد أوصدت أبوابها. فذهبا إلى منزل امرأة فقيرة عجوز وطلبا المبيت عندها. ودخل جلال باى المنزل وظل حاتم بالفناء مع الجوادين.

وعندما سأل جلال باى العجوز عن أحوال المدينة قالت له:

- ليتك ما سألت يا بنى فأحوالنا لا تسر عدواً ولا حبيبا. لقد كان لملكنا ابنة جميلة كالبدر تدعى ديلار خطفها المساخيط. وخرج جميع الناس من سن سبع إلى سبعين يبحثون عنها ليل نهار بلا جدوى. وقد أمر الملك جميع خدمه ورجاله، والمسافرين العابرين أن يبحثوا عنها. وهذه هى أحوالنا يا بنى.

قالت له العجوز ما قالت ثم أخرجت له صورة مرسومة لديلار. وما إن رأى جلال باى الصورة حتى كاد أن يفقد صوابه من حسنها.

ثم نادت العجوز على حاتم وجعلته يرى الصورة هو الآخر. وتعرف حاتم على صورة الفتاة. فقد كانت واحدة من الفتيات الأربع اللاتى تركهن بالكهف. قال جلال باى ورأسه ما زالت تدور:

– ما إن رأيت صورة ابنة الملك هذه حتى وقعت فى غرامها على الفور. ولن يقف حائل فى طريقى حتى أعثر عليها.

وقال حاتم لجلال باى:

– ليس من الصعب العثور عليها، لكن قبل ذلك ينبغى عليك الذهاب إلى القصر وسؤال الملك لو يقبل أن يزوجها لك فى حال عثورك عليها أم لا يقبل. وإن قبل عرضك فسوف أجدها لك بنفسى.

اغتبط جلال باى عندما سمع كلمات حاتم. وفى الصباح خرج إلى قصر الملك. وعندما قابله الملك قام جلال باى بتحيته وعرّفه بنفسه وأخبره بنيته فى البحث عن ابنته ديلار والعثور عليها. وطلب منه وعدا بأن يزوجها له فى حال نجاح مهمته. ابتهج الملك ووعده بأن يصاهره لو عثر عليها وأمره بالبدء فورا فى رحلة البحث. عاد جلال باى إلى منزل العجوز وأخذ حاتم وخرجا إلى الطريق.

سارا طويلا حتى وصلا أخيراً إلى الكهف الذى ترك فيه حاتم بنات الملوك ودخلا منه إلى الحديقة الرائعة. وما إن رأى جلال باى ديلار حتى خلب جمالها عقله ووقف مشدوها لا ينطق. فرّش حاتم وجه جلال باى بالماء حتى يفيق ويعود إلى رشده. ثم قال حاتم للفتاة:

– لقد رجعت إليك كما وعدت حتى أعود بك إلى ديارك فاستعدى للرحيل من هنا.

سرت ديلار وقامت تستعد للخروج معه وهى فى حالة من البهجة والفرح.

وقال حاتم للفتيات الأخريات:

– انتظرننى هنا حتى أصطحب ديلار إلى أهلها وأعود إليكم بعد ذلك.

اطمأنت الفتيات لوعد حاتم الذى خرج من الكهف بعد ذلك مع ديلار وجلال باى.

وانطلقوا فى طريق العودة حتى أصبحوا على مشارف المدينة فسبقهم حاتم على فرسه إلى قصر الملك وبشره بوصول ابنته. كاد الملك أن يطير من الفرح وأمر بإقامة الاحتفالات بالبلاد ابتهاجا بعودة ابنته المحبوبة. وبعد عدة أيام من الاحتفالات والأفراح ذهب الملك إلى ابنته وقال لها:

– ابنتى الحبيبة، لقد قطعت عهدا على نفسى أن أزوجك من الرجل الذى ينجح فى العثور عليك وعرف الناس جميعا بهذا العهد. وقد عثر عليك رجل اسمه جلال باى أريد أن أزوجك منه. فما قولك فى هذا الأمر؟

أجابت ديلار قائلة:

– أيها الوالد العزيز، إنى أقبل الزواج من الفتى الذى عثر علىّ وأنقذنى من المساخيط. لكن الذى عثر علىّ لم يكن جلال باى بل شاب يدعى حاتم. وحسب العهد الذى قطعته على نفسك ينبغى علىّ أن أتزوج من حاتم وليس من جلال باى.

وقع الملك فى حيرة ولم يدر ماذا يفعل. فاستدعى جلال باى وحاتم للمثول أمامه وأعاد على مسامعهم ما قالته ابنته ديلار. فقام حاتم وانحنى أمام الملك وقال:

– مولاى الملك، لقد كنت أنا بالفعل من أنقذ ابنتكم من المساخيط، لكنكم قطعتم وعدا لجلال باى أن تزوجوه من ابنتكم، وهو رب نعمتى. كما أننى مازلت صغيرا على الزواج.

أعجب الملك بحديث حاتم وأقام أفراح الزفاف لأربعين يوما وليلة. وبعد ذلك زوّج ابنته ديلار من جلال باى. وبعد ذلك اجتمع الملك برجال البلاط والوزراء وقدم إليهم صهره جلال باى وقال:

– لقد كبرت وتقدم بى العمر. ولهذا فإننى أترك مملكتى لصهرى جلال باى.

وهنا طلب حاتم الإذن له بالرحيل. لكن جلال باى اعترض وقال:

– لا ترحل يا حاتم، لقد صنعت لى معروفا كبيرا وأنا أريد أن أرد لك الصنيع وأزوجك.

لكن حاتم أصر على طلبه أن يسمح له الملك بمغادرة المدينة فسمح له جلال باى. وانطلق حاتم فى طريقه إلى الكهف الذى ترك به الفتيات. وعندما أصبح على مسافة يوم واحد من الكهف وقف بالقرب من عين ماء ورأى عندها ثلاثة فتيان غارقين فى نوم عميق يرتدون أسمالا ممزقة وأقدامهم متورمة وهم فى هيئة يرثى لها. فكر حاتم فى نفسه: "قد يكون الفتيان فى حاجة إلى العون". فاقترب منهم وأيقظهم من سباتهم. نهض الفتيان وقاموا بتحيته وسألهم حاتم قائلا:

– من أنتم؟ وماذا تفعلون فى هذا المكان المقفر؟

أجاب أحد الشبان وقال:

– نحن أبناء ملك كانون، وقد خطب لنا والدنا ثلاث بنات لثلاثة ملوك. لكن هؤلاء الملوك كتبوا لنا يقولون إن بناتهم قد خطفهن المساخيط وينبغى علينا البحث عنهن حتى نتزوجهن وها نحن منذ ذلك الحين نبحث عن الفتيات.

قال حاتم للفتيان:

– اطمئنوا أيها الفتيان، فأنا سوف أساعدكم فى العثور عليهن.

وسار حاتم مع الفتيان حتى وصلوا إلى الكهف فدخلوا إلى الفتيات وقال حاتم:

– لقد وصلت وأحضرت لكم من يؤنسكم فى طريق العودة إلى دياركم فهيا لترحلوا من هنا.

قدمت الفتيات لحاتم جزيل الشكر والامتنان لما فعله. ورحلوا جميعا فى الطريق إلى ديارهم مع الفتيان الخطاب.

وهكذا عاشت الفتيات ديلار ومليكة وحورنيسة وبشاخون فى هناء وسعادة مع أحبائهم وتحققت كل أمانيهم وأحلامهم.

بعد مرور بضعة أيام اجتمع أبناء الملك مع حاتم وقال أكبرهم:

– نريد السفر إلى بلدتنا فى كانون لرؤية الأهل ولا نريد ترك الفتيات. فما رأيك فى هذا الأمر؟

أجاب حاتم:

- اكتبوا رسالة وأنا أحملها إلى والدكم وأطمئنه عليكم جميعا وأخبره أنكم قد نجحتم فى مهمتكم.

وكتب الفتيان رسالة حملها حاتم ومضى فى طريقه الطويل.

ومرت عدة أيام حتى وصل حاتم إلى أحد الجبال فتوقف للراحة بالقرب من عين ماء. حطت فجأة حمامتان فوق غصن شجرة نامية بجانب العين. وقالت إحداهما للأخرى:

- فى المنزل الواقع خلف هذا الجبل يعيش أحد الأمراء منذ شهور وهو فاقد الذاكرة بلا عقل. فقد أحب ابنة ملكة الجان ولهذا فقد سلبته الجنيات الأخريات عقله.

عقبت الحمامة الأخرى وقالت:

- لكن هناك ترياق يمكن أن يعيد له عقله المسلوب. على بعد مائة خطوة من هنا توجد عين ماء أخرى تنمو عندها شجيرتان فروعهما متشابكة. إذا شرب الأمير من مغلى أوراق الشجيرتين يشفى على الفور ويعود إليه عقله.

قالت الحمامتان ما قالتا وطارتا فى الفضاء.

بحث حاتم عن الشجيرتين حتى وجدهما. فقطف بعض الأوراق منهما ودسها فى طيات ملابسه وسار يبحث عن الأمير الذى تحدثت عنه الحمامتان. وسرعان ما عثر على المنزل الواقع خلف الجبل. وعندما دلف إلى الداخل رأى فتى فى الثامنة عشر من العمر راقدا بلا وعى كما لو كان مستغرقا فى النوم. خرج حاتم من المنزل يستطلع المكان فشاهد منزلا آخر بالقرب منه. ورأى امرأتان تخرجان من المنزل. فاقترب منهما وسألهما:

- لماذا يرقد الفتى بلا وعى فى هذا المنزل؟

أجابت إحدى المرأتين قائلة:

- لا ندرى، فهو يرقد هنا منذ خمسة أشهر ولا أحد يعرف سببا لمرضه.

ثم طلب حاتم منهما وعاء كى يغلى فيه أوراق الشجيرتين. وبعد أن قام بغليها انتظر حتي برد المغلى ورش منه على وجه الفتى المريض. وسرعان ما أفاق الفتى من غيبوبته وجلس يحكى لحاتم سره:

- إننى أمير أدعى إبراهيم. وفى أحد الأيام خرجت للتريض ودخلت بستان ملكة الجان. وهناك رأيت الجنية ابنة ملكتهم فوقعت على الفور فى غرامها. ولم أدر بعد ذلك بعقلى ولا أعرف ماذا جرى لى.

قال حاتم للفتى:

- سوف أصطحبك الآن إلى والدك. ثم أسافر إلى مدينة كانون لأسلم رسالة للملك. وبعد ذلك سأعود إليك وأساعدك فى العثور على ابنة ملك الجان.

سار حاتم مع الفتى حتى وصل به إلى أهله وتركه هناك وانطلق نحو مدينة كانون.

ظل حاتم يسير طويلا وعبر الكثير من السهول والجبال حتى وصل أخيرا إلى مدينة كانون. فذهب إلى قصر الملك وقابله وأعطاه الرسالة التى كانت تقول:

"والدنا العزيز، نحن بخير وعافية، لم ننجح فى العثور على عرائسنا لوقت طويل، ومر بنا الكثير من المصاعب والأهوال فى الصحراء والفيافى أثناء البحث عنهن، حتى صادفنا الفتى الشجاع حاتم الذى يحمل رسالتنا إليك، وهو الذى ساعدنا فى تحقيق مهمتنا والعثور على عرائسنا. فأكرم وفادته وأجزل له العطاء".

قرأ الملك الرسالة واستقبل بعدها حاتم بحفاوة شديدة وأقام له الولائم. وبعد مرور يومين طلب حاتم من الملك أن يأذن له بالرحيل لكن الملك رفض وقال:

- لن أسمح لك بالرحيل من هنا أبدا بعد أن أصبحت مقربا منى مثل الابن. لقد تقدم بى العمر وأريد أن أزوجك وأجعلك تخلفنى ملكا على البلاد. فلا تسافر يا بنى وابق معى.

– مولاى الملك العظيم – قال حاتم – إن لدى مهمة ينبغى علىّ القيام بها. وبعد أن انتهى منها يمكننى أن أتزوج. فائذن لى بالرحيل لأقوم بمهمتى.

حاول الملك أن يثنى حاتم عن قراره بالسفر بلا جدوى. وفى النهاية سمح له الملك بالرحيل. وسافر حاتم فى طريقه حتى وصل إلى المدينة التى يعيش بها الأمير إبراهيم.

وما إن عرف الملك أن حاتم فى المدينة حتى أقام له احتفالا كبيرا واستقبله بالحفاوة والكرم. وبعد الاحتفال قال حاتم للملك:

– اسمح لنا يا مولاى أن نرحل أنا وإبراهيم فقد وعدته أن أساعده فى العثور علي سعادته.

حمّلهما الملك بالزاد وودعهما داعيا لهما بالتوفيق. وسافر الشابان فى طريقهما للبحث عن سعادة إبراهيم. وبعد مرور عدة أيام وصلا إلى مدخل الحديقة التى تعيش فيها الجنيات. ترجل حاتم من علي جواده وقال للأمير إبراهيم:

– انتظرنى هنا حتى أذهب إلى الحديقة أستطلع الأمور وأرى من بها.

وقف الأمير إبراهيم مع الجياد بينما تسلل حاتم إلى داخل الحديقة يستكشف الأحوال. ورأى بركة كبيرة ومن حولها بعض الأشجار. فاختبأ بين الأشجار يترقب ويرصد. مر بعض الوقت وسرعان ما ظهرت امرأة تحمل دلوا واقتربت من شاطئ البركة وملأت الدلو بالماء وسارت عائدة من حيث أتت. سار حاتم خلفها حتى دخلت منزلها ووقف خلف باب المنزل يتصنت. كان بالمنزل امرأتان تتحدثان فيما بينهما وقالت إحداهما للأخرى:

– هل تتذكرين الفتى الذى سحرته منذ عدة أشهر؟ لقد شفى من سحرى ووصل إلى هنا مرة أخرى، فقمت هذه المرة بسحره سحرا أبديا أسود لا يقدر أحد أن يبطل مفعوله، ولا يوجد دواء لسحرى الأسود سوى فى خزينة ملك جيرات. وهو لا يعطى هذا الدواء لأحد على الإطلاق.

اعترضت المرأة الأخرى وقالت:

- لكن هناك تنين مخيف ظهر فى مدينة جيرات، وهو فى كل يوم يلتهم بقرة وإنسانا. وقد اقترب الدور من ابنة الملك للتضحية بها. ولو استطاع أحد أن ينقذ الأميرة من الهلاك لن يبخل الملك عليه بالدواء. لكن أحدا مهما بلغت شجاعته لن يقدر على قتل التنين المرعب وإنقاذ الأميرة منه.

ضحكت المرأة الأولى وقالت:

- وآه لو يعرفون أن قتل هذا التنين المرعب ليس بالأمر الصعب. فعند مشارف مدينة جيرات تنمو شجرتان سامتان. يمكن أخذ بعض الأغصان الرفيعة منهما وطحنها ووضع المسحوق بداخل جلد بقرة ثم يوضع الجلد بطريق التنين. وعندما يراه سوف يبتلعه فيقتله السم على الفور.

قالت المرأتان ما قالتا وجلستا تتناولان الطعام.

أدرك حاتم أن المرأتين ساحرتان شريرتان. فخرج من الحديقة مسرعا إلى الأمير إبراهيم. ووجده ملقى على الأرض مثل الميت والرغاوى البيضاء تخرج من فمه. حمله حاتم فوق الحصان وذهب به إلى المنزل الواقع خلف الجبل الذى وجده فيه المرة السابقة.

وضع حاتم الأمير بالفراش وخرج من المنزل فقابل أحد الرعاة وسأله:

- كم تجنى من عملك فى العام أيها الوالد؟

- ليس أقل من خمسة عشر قطعة فضية - أجاب الراعى.

فقال له حاتم:

- ما قولك لو تعمل شهراً لدى وأنا أعطيك عن كل يوم تعمله قطعة ذهبية ؟ والعمل الذى أطلبه منك القيام به هو أن ترعى شاباً مريضاً يرقد فى هذا المنزل حتى أعود من سفرى.

قبل الراعى القيام بالمهمة ونفحه حاتم خمس قطع ذهبية مقدما وانطلق فى رحلة البحث عن الترياق. وسار طويلا وقطع سهولا شاسعة وصحراوات مقفرة حتى وصل أخيرا إلى مدينة جيرات. وذهب إلى قصر الملك ومثل أمامه ثم انحنى له وقال:

- هناك أحد الأمراء يرقد بلا وعى ولا حياة. وأنت يا مولاى لديك الترياق الشافى له من غيبوبته. وقد جئت كى أطلبه منكم.

- كلا - أجاب الملك - فأنا لا أعطى هذا الترياق لأحد أبدا إلا من كان فى مقدوره أن ينقذ ابنتى من أن تصبح فريسة للتنين حينذاك أعطيه له وأزوجه ابنتى أيضا.

قال حاتم للملك:

- ما دمتم تقطعون عهدا بهذا فلن أستحق الحياة إن لم أنقذ ابنتكم من التنين.

لم يصدق الملك قول حاتم وقال:

- لقد حاول قبلك الكثير من الفتيان المتباهين بشجاعتهم أن يقوموا بقتل التنين لكنهم أصبحوا جميعا طعاما له. وأنت أيها الفتى ما زلت صغيرا على أن تقتل مثل هذا الوحش. وأنا أشفق عليك من أن تهلك فى محاولتك. ولهذا سوف أعطيك بعضا من الترياق فخذه وارحل.

أجاب حاتم قائلا:

- إن الواجب والمروءة يحتمان علىّ أن أساعد على إزاحة الغم والمصائب التى تحل بالناس واسعى لتخليصهم من الشرور التى تهددهم. وعندما عرفت بأمر التنين الذى يجلب الأحزان للناس قررت أن أخلصهم منه ومن شره. ولن أرحل من هنا قبل أن أقتله وحينئذ يمكننى أخذ الترياق.

دهش الملك من جسارة الفتى وشجاعته فقال:

- حسنا أيها الفتى الجسور اذهب وقاتل التنين.

- أرجو أن تزودنى بخمسة من الرجال ليحضروا لى بعض الأغصان الرفيعة من الشجرتين الواقعتين عند مشارف المدينة. ثم يطحنوا تلك الأغصان ويسحقوها. وبعد ذلك يأتوا بعشر بقرات ويقومون بذبحها وسلخ جلودها.

نادى الملك على خدمه وأمرهم قائلا:

- اسمعوا أوامر حاتم ونفذوها بالحرف الواحد.

خرج حاتم مع الخدم إلى موقع الشجرتين وأمرهم بقطع الأغصان منهما. ثم طحنها الخدم. وذبحوا الأبقار وسلخوا جلودها وقاموا بحشو الجلود بالأغصان المطحونة. وبعد ذلك أمرهم حاتم بوضع الجلود المحشوة فى طريق التنين الذى اعتاد السير فيه.

ظهر التنين المخيف وصار يزحف على الطريق. وشاهد الجلود المحشوة بالمسحوق فصار يلتهمها واحدا بعد الآخر. وسرعان ما سرى السم فى جسم التين وسقط ميتا على الفور.

ما إن علمت ابنة الملك بأمر التنين حتى فرحت وأسرعت تقول للملك. لم يصدق الملك الخبر وأرسل وزراءه للتحقق من مقتل الوحش. وعندما عادوا إليه وأكدوا مصرع التنين اغتبط الملك وعانق حاتم وقال له:

- والآن أيها البطل الشجاع سوف أزوجك من ابنتى، ولن أسمح لك بالرحيل من هذه المدينة.

لكن حاتم توسل إلى الملك وقال:

- إننى ما زلت صغيرا على الزواج يا مولاى. وكل ما أبتغيه أن تعطينى الترياق وتسمح لى بالرحيل.

لكن الملك قال بعناد:

- لن أسمح لك بالخروج من هنا.

فشرح حاتم قائلا:

- مولاى الملك العظيم، لقد وعدت أن تعطينى الترياق الذى أريده لإنقاذ حياة أحد أصدقائى بعد أن وقع ضحية للسحر الأسود. وسوف أعود إليكم بعد أن يشفى.

وفى النهاية وافق الملك وأعطى لحاتم الترياق الذى يبطل مفعول السحر من خزينته. كما أعطاه عقاراً آخر يُفقد الوعى بمجرد أن يشمه المرء.

سرعان ما عاد حاتم إلى المنزل الذى ترك به الأمير إبراهيم. وبعد أن أعطاه الترياق الشافى عادت الحياة إليه. وأخذ حاتم يطعم إبراهيم ويرعاه حتى استعاد قوته وعافيته. وبعد بضعة أيام ذهبا إلى الحديقة التى تعيش بها الجنيات وابنة ملكة الجان وتوقفا عن مدخلها وقال حاتم لإبراهيم:

– انتظرنى هنا بجوار الجياد حتى أدخل وأستطلع الأحوال.

دخل حاتم إلى الحديقة وذهب إلى المنزل الذى تعيش فيه الساحرتان. والتصق بالباب يسترق السمع لكنه لم يسمع شيئا. فتح الباب ودخل يتسلل بحذر فرأى الساحرتين نائمتين. اقترب منهما وجعلهما يستنشقان العقار الذى أعطاه له ملك جيرات ليفقدا وعيهما. ثم قام بإحكام وثاق أيديهما وأقدامهما. بعد وقت قليل أفاقت إحداهما وقالت لحاتم:

– من أنت؟ وما الذى تبتغيه من هنا؟ حل وثاقى وأنا أحقق لك ما تريد.

– كلا – قال حاتم – لن أحل وثاق يديك ولا قدميك. أخبرينى من تكونين وإلا سوف أقطع رأسك فورا.

ارتعدت الساحرة من الخوف وقالت:

– لقد منحت ملكة الجان لبناتها هذه الحديقة. وهن جميعا يأتين إلى هنا مرة كل عام للهو والمرح. ونحن نقود على خدمتهن وتحضير الطعام لهن أثناء إقامتهن.

– وماذا تفعلون بالغرباء الذين يحضرون إلى هنا؟

– نسحرهم ثم نقتلهم بعد ذلك.

أرغم حاتم الساحرة على استنشاق العقار ثانية فراحت فى غيبوبة مرة أخرى. وجعل حاتم الساحرة الأخرى تعود إلى وعيها وسألها:

– كيف ومتى تأتى ملكة الجنيات إلى هنا؟ وكم تقضى من الوقت فى هذه الحديقة؟

قالت الساحرة الأخرى:

- عندما تأتى ملكة الجان إلى هنا يرافقها بناتها الأربع والجوارى الأربعون وبعض المساخيط يحملونها على العرش.

وعرف حاتم من الساحرة كل ما يريد أن يعرفه عن ملكة الجان. وبعد ذلك جعلها تستنشق العقار وراحت فى غيبوبة هى الأخرى وخرج حاتم إلى الحديقة. وهناك لمح منزلا آخر فذهب إليه يستكشف أمره. ورأى بداخله ثلاثة فتيان يسلخون اللحم من العظم ويجهزونه للطهى. دخل حاتم على الفتيان وسألهم:

- من أنتم؟ وكيف جئتم إلى هنا؟

أجاب أحد الفتيان قائلا:

- لا تشغل بالك بأمرنا واهرب من هنا سريعا قبل أن تراك الساحرتان الشريرتان فتسحرانك ثم تقتلانك بعد ذلك.

- اطمئنوا أيها الشبان - قال حاتم - فإن الساحرتين قد صارتا فى عداد الأموات.

اغتبط الفتيان بالخبر وأخذوا يسردون حكايتهم لحاتم:

- إننى ابن لأحد الملوك وأدعى قاسم -- قال أولهم - وهذان الشابان ابنان للوزير. كنا نسافر مرتحلين بين المدن حتى وصلنا إلى هذه الحديقة. وعندما رأيت الابنة الكبرى لملكة الجان وقعت فى غرامها وأحب رفيقاى الابنتين المتوسطتين. فقامت الساحرتان بسحرنا وجعلونا عبيدا لهم نقوم على خدمتهم وطهى الطعام لهم كل يوم.

استمع حاتم لما حكاه الأمير قاسم وقال:

- لا تتكدروا فإنى سوف أعينكم على تحقيق أمانيكم.

أحضر حاتم الأمير إبراهيم وعرّفه على الفتيان. وسار الشبان فى الحديقة وأشاروا لحاتم وإبراهيم على منزل آخر يقع فى ركن بها. وعندما دخلوه شاهدوا فيه صورا للأربع بنات والأربعين جارية. وما إن رأى إبراهيم صورة حبيبته حتى سقط على

الأرض فاقدا وعيه. جلس حاتم بجانبه حتى أفاق، وخرج به مع الفتيان إلى الحديقة حيث شاهدوا منصة مفروشة بالأبسطة والوسائد وعليها مائدة زاخرة بشتى صنوف الطعام وأشهاها. فقال الفتيان لحاتم شارحين:

– على هذه المنصة تجلس الجنيات والأربعين جارية يغنين ويمرحن ويستغرقن في اللهو والضحك.

– حسنا حسنا – قال حاتم – لقد أصابنا الجوع جميعا. فلنجلس ونأكل من هذه الأطباق الشهية. ثم ننتظر ظهور الجنيات.

جلس الفتيان وأكلوا حتى شبعوا. ثم قال حاتم لابني الوزير:

– أريد منكم أن تضعوا عليكم ملابس الساحرتين. وعندما تحضر الجنيات تقومان بخدمتهن كما كانت تفعل الساحرتان.

ارتدى ابنا الوزير ملابس الساحرات. وبدأ الاميران إبراهيم وقاسم في طهي الطعام وإعداده للجنيات. أما حاتم فاختبأ خلف حجرة الطعام والسيف في يده.

سرعان ما وصلت الجنيات في حراسة المساخيط المرعبين. خرج ابنا الوزير لاستقبالهم وهما في ملابس الساحرات وصارا يهتفان قائلين:

– هيا ادخلوا إلى حجرة الطعام هيا. فكل شيء على ما يرام هنا.

وكانت ملكة الجنيات قد اعتادت من زمن أن يسبقها الجنيات مع المساخيط إلى الحديقة. وبعد ذلك تدخل هي مع بناتها والجواري. وبدأ المساخيط يدخلون حجرة الطعام واحداً بعد الآخر وحاتم يقف خلف باب الحجرة. وكلما دخل أحدهم قطع حاتم رأسه حتى قتلهم جميعا. وعندما ظهرت ملكة الجنيات وهمت بدخول الحجرة نادى عليها ابنا الوزير وقالا لها:

– من هنا يا مولاتي من هنا.

وتقدم الشابان الملكة وبناتها حتى وصلوا إلى المنصة بالحديقة. وكان الأميران قاسم وإبراهيم يضعان الطعام في الأطباق. وعندما شاهدا بنات الملكة صعقا من

جمالهن، فسقطا على الأرض فاقدى الوعى. ورأت الملكة الشابين فتملكها الغضب وهتفت صارخة تنادى:

– إلىّ سريعا أيها المساخيط، إلىّ أيها السياف.

سمع حاتم نداء الملكة فخرج إليها مسرعا والسيف فى يده وقال لها:

– ها أنا السياف قد لبيت نداءك بدلا من مساخيطك الذين قتلتهم جميعا.

أصاب الملكة الذعر وسألت حاتم:

– ما هذا الذى تقوله؟ كيف قتلتهم؟

– هل تريدين مشاهدتهم؟ هيا بنا وأنا أريك مساخيطك – قال حاتم وذهب مع الملكة إلى الحجرة التى قتل فيها المساخيط. دهشت الملكة من شجاعة حاتم. ثم أشار حاتم إلى الفتيان وقال:

– إن هؤلاء الأمراء قد وقعوا فى غرام بناتك ومن جراء ذلك عانوا الأمرّين وذاقوا العذاب والأهوال بعد أن وقعوا فريسة للساحرات الشريرات. فبعد كل هذا ألا توافقين على زواجهم من بناتك؟ هيا أجيبينى على الفور.

تملك الرعب من ملكة الجنيات وخافت حاتم فوافقت أن تزوج ابنتها الكبرى من الأمير قاسم والبنتين الوسطتين من ابنى الوزير، والابنة الصغرى من الأمير إبراهيم.

ودع حاتم الأمراء وانطلق فى طريقه إلى مدينة جيرات واستقبله الملك بالفرح والحفاوة وأمر بإقامة الأفراح استعدادا للزفاف. لكن حاتم قال للملك:

– قبل أن أتزوج يا مولاى ينبغى علىّ السفر إلى والدىّ والحصول على موافقتهما.

– حسنا، فلتسافر إليهما الآن – قال الملك وزود حاتم بكل ما يحتاجه من زاد ومؤونة فى الطريق.

فى البداية ذهب حاتم إلى جلال باى ومكث فى ضيافته بضعة أيام. وبعد ذلك سأله:

– من كان أبى وأمى؟ وأين يمكننى العثور عليهما؟

حكى له جلال باى قائلا:

- إننى لم أتعرف إلى والدك ولم أره أبدا. وقد عاش فى مدينتنا رجل يدعى دادا باى هو الذى باعك لى.

رحل حاتم إلى مدينته وذهب إلى السوق. وهناك أخذ يسأل كل من يقابله عن العجوز دادا باى. لكنه لم يجد أحدا يعرفه عدا رجل إسكافى فى دكانه قال له:

- نعم يا بنى، يوجد هذا العجوز دادا باى.

توسل حاتم إلى الإسكافى وقال:

- أرجوك أيها الوالد أن تذهب وتطلب منه الحضور إلى هنا.

وأعطى حاتم الإسكافى خمس قطع ذهبية. فرح الرجل وكاد أن يطير من فوق الأرض وخرج ينادى على دادا باى وأحضره إلى دكانه فسأله حاتم:

- ألا تتذكر أنك منذ سنوات بعت صبيا يدعى حاتم إلى أحد السادة؟ فقد أحضرت لك من حاتم هذا هدية ثمينة.

وأعطى حاتم العجوز عشر قطع ذهبية. بكى العجوز دادا باى من الفرح وقال:

- ألست أنت حاتم بشحمه ولحمه؟

- نعم أنا هو حاتم الذى بعته عبدا. لكننى لست غاضبا منك لما فعلت وأعرف أن الفقر هو السبب فى ذلك. لكننى أريد أن أعرف أين أبى وأمى.

- أنا لم أعرف والدك قط يا بنى. لكننى عرفت أمك التى دفعها العوز والجوع إلى أن تتركك لى. وقد سمعت مؤخرا أنها تعمل خادمة لدى أحد السادة فى القرية.

ذهب حاتم مسرعا إلى القرية. واتجه إلى منزل السيد الذى قال عليه دادا باى. فاستقبله السيد ولما رآه فكر فى نفسه:"لابد أن الفتى هو أحد أثرياء التجار العابرين من هنا". وأحسن السيد استقبال حاتم وأفرد له مائدة بالطعام والشراب وجلسا معا يتحدثان. فقال حاتم:

- لقد سمعت أن لديكم هنا خادمة عجوز اسمها عدلات، وأنا أحمل لها هدية من ابنها.

نادى السيد على عدلات التى جاءت مهرولة بلمح البصر. فاقترب منها حاتم وقال:

- لقد أرسلنى إليك ابنك حاتم وأحمل هدية لك منه - وأعطاها حاتم عشرين قطعة ذهبية.

نظرت الأم إلى حاتم وانخرطت فى بكاء مرير وقالت:

- ولدى، ألست أنت حاتم؟ إن لك نفس عينيه وحاجبيه وكل هيئتك تشبه ابنى حاتم.

وهنا لم يستطع حاتم أن يحبس دموعه وارتمى فى أحضان أمه وقال:

- أماه، بالطبع أنا ابنك حاتم.

جلس السيد مشدوها لما يجرى حوله حتى إنه تجمد فى مكانه ولم ينطق. وظل حاتم وأمه يتحدثان حتى هبط الليل. وفى الصباح خرجا معا صوب المدينة.

وفى المدينة اشترى حاتم منزلا وعاش فيه مع أمه.

وذات مرة قال حاتم لأمه:

- احك لى يا أماه عن أبى. وأين هو الآن؟

انهمرت دموع الأم وقالت:

- لقد كان والدك رجلا فقيرا اسمه نيشان باى. لكنه كان مصارعا بارعا. وفى أحد الأعياد نازل والدك مصارعا شهيرا اسمه تيمور بك وهو مصارع ملك ميرك. واستطاع والدك أن يهزمه. فثار الملك وغضب وأمر بشنق والدك.

تكدر حاتم لما سمعه عن مصير والده وقرر:

- لقد قتل والدى دون ذنب أو جريرة. ولابد لى أن أنتقم له من ملك ميرك. ولن تهدأ نفسى حتى أثأر له من هذا الظالم.

فزعت الأم وقالت تتوسل إلى حاتم:

– ما هذا الذى تقوله يا بنى؟ هل تريد أن تقتل نفسك بعد أن اجتمعنا ثانية؟ لن تستطيع مواجهة هذا الملك. فلا ترحل وتتركنى بعد كل تلك السنين التى بكيتك وانتظرتك فيها.

– لا تبك يا أماه – قال حاتم – بل اسمحى لى بالرحيل وامنحينى بركتك للقيام بمهمتى.

وظل حاتم يرجو أمه ويلح عليها حتى وافقت فى نهاية الأمر على رحيله.

سافر حاتم وبعد أيام وصل إلى مدينة ميرك. وعند مشارفها دق على باب أحد البيوت. فخرجت إليه امرأة عجوز وقالت:

– نحن نعيش فى فقر مدقع يا بنى، ولا يوجد لدينا تبن لإطعام جوادك.

– لا تشغلى بالك بهذا الأمر يا أمى – قال حاتم – واسمحى لى فقط بالبقاء عندك لعدة أيام.

سمحت له العجوز بالدخول. فربط حصانه فى فناء البيت ودخل معها. ثم أعطاها نقودا فأحضرت له طعاما يأكله. وعندما هبط الليل تناول حاتم العشاء ورأى العجوز جالسة تبكى. سألها حاتم وقال:

– ما الذى يبكيك يا أمى؟

– لقد تذكرت ابنى رحيم جان الذى يماثلك فى العمر. فقد ألقوا به فى السجن وسوف يشنقونه بعد بضعة أيام امتثالا لأمر الملك.

– ولماذا أمر الملك بشنقه؟

– منذ أيام قليلة طلب الملك حضور جميع الفرسان لإقامة مباريات فى النزال والمبارزة بينهم وبين فرسان الملك. وكان ابنى رحيم جان من بينهم. ومن سوء طالعه أن سقط أحد فرسان الملك تحت سنابك الخيل وهو يبارزه فلقى مصرعه. ثار الملك وغضب وألقى بابنى فى السجن وأمر بشنقه.

– لا تبك يا أمى – قال حاتم – فسوف يعود ابنك إليك.

وفى صباح اليوم التالى قال حاتم للعجوز:

– سوف أخبرك بسر يا أمى ولا تفشينه لأحد.

– قل يا بنى وكن مطمئنا فأنا لا أحب الثرثرة.

قال حاتم:

– أريد أن أخرج ابنك من السجن. فخذى هذه النقود واذهبى إلى السوق واشترى ملابس شبيهة بملابس الدراويش الجوالة ومزماراً.

ذهبت العجوز إلى السوق واشترت كل ما طلبه حاتم. فارتدى حاتم ملابس الدراويش وحمل المزمار وخرج إلى الشوارع يغنى أغان عن الحق والعدالة. وسمع الملك أن هناك أحد الدراويش يطوف بالشوارع ويغنى للحق والعدالة. فأمر الملك بالقبض عليه ورميه فى السجن. وفى السجن تعرف حاتم على رحيم جان وصادقه. واتفقا معا على حفر نفق للهروب من السجن. وبعد بضعة أيام استطاع حاتم ورحيم جان وعدد آخر من السجناء أن يهربوا ويخرجوا إلى الحرية. ثم جلبوا السلاح وهجموا على قصر الملك فى المساء. واستطاعوا خلع الملك من عرشه وقتلوه. ثم نصبوا مكانه على العرش رحيم جان. ركضت العجوز أم رحيم جان فى القصر وعانقت حاتم وقالت له:

– إنى أدعو لك يا بنى أن تتحقق كل أمانيك وتعيش حياتك فى سعادة إلى الأبد.

قال حاتم لرحيم جان إنه سوف يرحل. فأجابه رحيم قائلا:

– خذنى معك فى رحلتك أيها الأخ، فهذا الملك لا يلزمنى.

– كلا – قال حاتم – لا ترفض هذا الملك وأقم لى منزلا بجوارك حتى أعود. وسوف أقيم فيه مع والدتى عند رجوعى.

اغتبط رحيم جان، وفى نفس اليوم أمر الصناع أن يبدأوا فى بناء منزل حاتم.

ومضى حاتم فى طريقه وظل يسير طويلا ويقطع السهول والفيافى حتى وصل أخيرا إلى مشارف مدينة جيرات. ورأى عابر سبيل فى الطريق فاستوقفه وسأله عن أحوال المدينة. فأخبره العابر قائلا:

– هناك معركة شرسة تدور رحاها فى المدينة. وسبب ذلك أن أحد الملوك أرسل الخطاب إلى ملكنا طالبين ابنته للزواج من هذا الملك. لكن ملكنا رفض وقال للرسل: "لقد خطبت ابنتى بالفعل لأحد الفتيان". فغضب الملك الآخر وأرسل حشوده تهاجم المدينة.

أسرع حاتم الخطى إلى المدينة ورمى بنفسه فى خضم المعركة الدائرة. فقتل الكثير والعديد من الغزاة وأباد كل من وقف فى طريقه. ثم قتل الملك الغازى ومن بعده صرع وزراءه. وبعد ذلك دخل إلى المدينة. استقبله ملك جيرات استقبال الأبطال وأقام الأفراح فى المدينة لأربعين يوما وليلة. ثم تزوج حاتم من الأميرة ابنة الملك. وبقى حاتم فى المدينة مع زوجته لمدة شهر رحل بعده إلى أمه ومعه الزوجة. فرحت الأم بالزوجة الجميلة الشابة وسافروا جميعا إلى مدينة ميرك واستقبلهم هناك رحيم جان بالحفاوة والسرور، واصطحبهم إلى منزل حاتم الذى شيده له. وهكذا عاش حاتم مع زوجته وأمه فى هناء وسعادة حتى آخر سنوات عمرهم.

* * *

حسـن وحـوريـة



فى إحدى ممالك الشرق القديمة عاش أحد التجار ويدعى أحمد جان مع زوجته. وكان لهما ولد اسمه حسن وبنت اسمها حـــورية. مرت الشهـــور والسنون ومـــات الأب وماتت الأم أيضـــا. وأصبح حســـن وأخته حورية يتيمـــين بلا أهل ولا مورد رزق يعيشان منه. فأصبح حسن يعمل أجيرا عند أحد السادة. وعندما لاحظ السيد موهبة حسن وإخـــلاصه فى العمل قـرر أن يجعـله فـردا من الأســرة فزوجـه من ابنته زليخة.

كانت زليخة تتمتع بطباع سيئة. وكانت تكره حورية ولا تطيق رؤيتها. فسعت جاهدة إلى التخلص منها.

وفى أحد الأيام رحل حسن للعمل خارج المدينة. فحملت زليخة جميع أغراضها من حجرتها إلى الفناء وسكبت عليها الزيت وأشعلت النار فيها.

وعندما عاد حسن من العمل صارت زليخة تولول وتصرخ:

- أختك العزيزة تكن لى كل الحقد والكراهية. وقد أحرقت جميع أغراضى. فإما أن تعاقبها أو تطلقنى لأننى لا أستطيع العيش معها تحت سقف واحد.

قام حسن يكيل اللكمات لأخته دون أن يحقق فى الأمر. فقالت حورية وهى تدافع عن نفسها:

- لا تضربنى يا أخى العزيز فأنا لم أخطئ فى شىء على الإطلاق. بل إن زليخة هى التى أحرقت أغراضها بنفسها كى توقع بيننا.

لم يصغ حسن إلى كلام شقيقته وانهال على المسكينة ضربا موجعا.

بعد مرور عام وضعت زليخة ولدا. وعلى الرغم من معاملتها السيئة لحورية إلا أن حورية كانت تحب الطفل وتهدهده وترعاه مثل أمه تماما.

وتعلق حسن بالولد وشغف به كثيرا. لكن زليخة صاحبة القلب الأسود ظلت تفكر فى التآمر على حورية. فقامت فى إحدى الليالى بعدما نام الجميع وذبحت طفلها ووضعته بفراش حورية ومعه السكين التى استخدمتها.

وفى الصباح قامت زليخة تحتضن زجها وهى تصرخ وتولول. وعندئذ سألها حسن:

- لماذا تبكى هكذا؟ ماذا جرى؟

أسرعت زليخة إلى فراش حورية وحملت الطفل الميت فى يدها وأخذت تصرخ بصوت وحشى وتقول:

- انظروا واشهدوا جميعا على ما جرى. قامت حورية أثناء نومنا وذبحت طفلنا.

صعق حسن من الصدمة وأمسك بحورية يسألها:

- أيتها البغيضة الملعونة لماذا قتلتِ طفلى؟ وما الذنب الذى اقترفه كى تقتليه؟

أخذت حورية تبكى وتتوسل:

- لا تظلمني يا أخى العزيز بقولك هذا. فأنا كنت أحب الطفل مثلك ولا يمكن أن أقوم بمثل هذا العمل الشنيع. إنها زليخة تفترى علىّ وتلصق بى هذه التهمة كذبا.

حينئذ أسرعت زليخة إلى فراش حورية ورفعت منه السكين وحملته إلى حسن وقالت:

- انظر بنفسك إلى هذا السكين كى تتأكد من صدق كلامى.

- إن هذا لمحض افتراء وكذب - صرخت حورية وهى تبكى - فالموت أهون علىّ من أن أفعل تلك الفعلة الشنعاء.

- أنت كاذبة وقد قتلت طفلى الوحيد وأنا أتبرأ منك إلى الأبد - قال حسن وهو فى حالة من الثورة والهياج. ثم أمسك بذراعى حورية فقطعهما وطردها من البيت شر طردة.

صارت القتاة تهيم على وجهها تسير فى السهول والوديان لأيام وليال طوال. وأصابها الجوع والتعب حتى وصلت وهى بين الحياة والموت إلى حديقة ملك البلاد سلطان خان.

كانت الحديقة مزروعة بالبطيخ والشمام. فصارت حورية تتسلل إليها فى الليل وتأكل منها. وفى النهار تتسكع فى أرجاء الحديقة.

وفى يوم قال الملك لأبنائه:

- هناك من يسرق البطيخ والشمام ويأكله من مزرعتنا بالحديقة. فمن منكم يذهب لحراستها؟

انحنى الابن الأكبر للملك وقال له:

- سوف أذهب أنا هذه الليلة للحراسة.

حمل الابن سيفه وذهب إلى المزرعة. وعندما انتصف الليل غلبه النعاس فراح فى النوم. وفى الصباح ذهب إلى والده وقال:

- لم يكن هناك أحد يا والدى.

وعندما ذهبوا لمعاينة المزرعة وجدوا البطيخ والشمام ناقصا. فأرسل الملك ابنه الأوسط للحراسة. لكنه أيضا راح فى النوم بعد منتصف الليل. وفى الصباح قال للملك:

- لم يظهر أحد هناك يا والدى.

حينئذ طلب الابن الأصغر أنور من أبيه أن يذهب للحراسة. فقال الملك له:

- لم ينجح شقيقاك من قبل فى الإمساك بأحد. فما الذى يمكنك أن تفعله وحدك؟

انحنى الأمير أنور وقال بهدوء:

- أرجوك أن تسمح لى فقد يمكننى أن أفعل ما لم يفعله أشقائى.

وافق الملك وسمح له بالخروج للحراسة. وفرح أنور فحمل سيفه وأحضر ملحا وذهب إلى المزرعة يحرسها. وعندما انتصف اليل بدأ النعاس يغالبه. فجرح نفسه بالسيف ورش الملح فوق الجرح. فطرد الألم النعاس ولم ينم الفتى من شدة الوجع.

وفى هذا الوقت تسللت حورية إلى المزرعة لكن أنور لمحها فانقض عليها وأمسك بها. ثم سألها فى دهشة:

- من أنت أيتها الفتاة؟ وما الذى تفعلينه هنا؟

أخذت حورية تبكى بمرارة وحكت للأمير عما جرى لها. اصطحب أنور الفتاة إلى والده وقص عليه حكايتها. فأمر الملك رجاله بالقصر:

- أحضروا ملابس جديدة جميلة للفتاة كى ترتديها. ولتبق معنا فى القصر.

ومر بعض الوقت حتى جاء أنور إلى الملك وقال:

- إن لى طلباً عندك يا والدى وأرجو ألا يغضبك منى هذا الطلب فتبيح دمى.

– لن أبيح نقطة واحدة من دمك فقل ما تريد.

خر أنور على قدميه ساجدا أمام الملك وقال:

– لقد وقعت فى غرام حورية فأرجوك أن تزوجنى منها.

تكدر سلطان خان وأصابه الحزن والغم وقال:

– هل يعقل أن تصبح تلك المشوهة مبتورة الذراعين زوجة لأمير مثلك؟ إن أجمل بنات الملوك وأغناهن يتمنين أن تختار إحداهن زوجة لك. فما الذى يعجبك فى حورية؟

– لا أريد من بنات الملوك أحدا، بل أريد فقط حورية حتى لو كانت مبتورة الذراعين فقد أحببتها ولن أتزوج واحدة غيرها أبدا.

كان سلطان خان يحب ابنه كثيرا. وخشى عليه أن يفقد صوابه إذا ما حرمه من فتاته. فوافق على زواجه من حورية. وأقيمت الأفراح والاحتفالات فى البلاد لأربعين يوما وليلة بمناسبة الزفاف.

بعد مرور عامين نادى سلطان خان على ابنه الأمير أنور وقرأ عليه رسالة وصلته من بلاد بعيدة. كانت الرسالة تقول:

"إن ابنكم الأصغر الأمير أنور يتصف بالحكمة والتواضع. وقد أوصى ملكنا قبيل موته أن ننصب من بعده ابنكم أنور ملكا على العرش. فنرجو أن تأذنوا له بالسفر إلينا لتسلم مقاليد الحكم".

– فهل أنت تقبل يا ولدى أن تسافر وتصبح ملكا على تلك البلاد البعيدة؟

– أقبل يا والدى لكن لى عندك رجاء. إن زوجتى حورية تنتظر مولودا. فإذا وضعت ولدا أرجو أن تبعث لى الرسل فى موكب احتفالى يخبروننى بالنبأ السعيد.

وافق الوالد على طلب ابنه وسمح له بالرحيل. وفى الصباح ودع أنور أباه وأمه وزوجته وخرج بصحبة عدد من القادة والجنود حتى غادر حدود المملكة. وسار طويلا يقطع الطرق والوديان والأنهار حتى وصل إلى المدينة المقصودة. فجلس ملكا على عرش البلاد برغبة ناسها وشعبها.

والآن فلنشمع ما جرى لحورية.

فى الميعاد المقدر لها للولادة، وضعت حورية طفلين: ولداً ذا خصلة ذهبية وبنتًا ذات ضفيرة فضية.

فرح سلطان خان فرحا كبيرا وأقام الاحتفالات فى البلاد ابتهاجا بالطفلين. وبعث بالرسل فى موكب احتفالى إلى أنور يحملون له رسالة بالنبأ السعيد.

مر موكب الرسل حاملى الرسالة بالمدينة التى كانت حورية تعيش فيها. وكانت زليخة تقف بالشارع أثناء مرورهم بالأعلام والزينة. فاقتربت منهم فى دهشة وسألتهم:

– ما هى مناسبة هذا الموكب الاحتفالى؟

قال لها أحد الرسل:

– إن الأمير أنور ابن سلطان خان قد اختير ملكا على بلاد أخرى. وقد وضعت له زوجته حورية مبتورة الذراعين ولدا وبنتا. ونحن نسير إلى الأمير حاملين له رسالة بالنبأ السعيد.

أسود وجه زليخة من الحقد والحسد. فاستغلت سفر زوجها إلى خارج المدينة ودعت الرسل إلى العشاء وقضاء الليل فى منزلها. ورحب الرسل بدعوة زليخة.

ذهب الرسل إلى منزل زليخة التى وضعت لهم أطيب المأكولات والأطباق والنبيذ فأكلوا حتى التخمة. ثم شربوا النبيذ والخمر حتى سكروا وراحوا فى نوم عميق.

أخذت زليخة تفتش فى أغراض الرسل وفى جيوبهم حتى عثرت على الرسالة التى كتبها الملك لابنه يبشره فيها بالخبر السعيد. فمزقت زليخة الرسالة وكتبت بدلا منها رسالة أخرى قالت فيها: "ولدى أنور، لقد وضعت زوجتك جروا وهرة. فما العمل؟"

ثم وضعت زليخة الرسالة الجديدة مكان القديمة فى جيب كبير الرسل. وفى الصباح تحرك الركب مرة أخرى إلى بلاد الأمير أنور.

وصل الرسل إلى الأمير وأعطوه الرسالة. وما إن قرأها حتى أصابه الحزن والغم. وكتب رسالة إلى والده يقول فيها: "والدى العزيز، على الرغم من أن حورية قد وضعت جروا وهرة إلا أننى أريدك أن تحسن معاملتها ولا تهينها. وسوف أحضر إليكم قريبا".

حمل الرسل الرسالة وانطلقوا فى طريق العودة. وفى الطريق قابلتهم زليخة ودعتهم إلى بيتها للراحة. وعندما سكر الضيوف من الخمر وراحوا فى النوم فتشت زليخة أغراضهم حتى وجدت الرسالة فمزقتها وكتبت رسالة أخرى قالت فيها: "والدى العزيز، على الرغم من أن حورية قد وضعت ابنا ذا خصلة ذهبية وبنتا ذات خصلة فضية إلا أنها لم تعد زوجة لى بعد الآن. فقد سئمت منها. وما إن تصلك رسالتى هذه حتى تقطع لها ثدييها. وضع الطفلين فى قفة علقها على ظهرها واطردها خارج القصر إلى الصحراء. وإذا عدت ورأيتهم بالقصر فسوف أتبرأ منك وأقاطعك".

فى الصباح مضى الرسل فى طريق العودة. وبعد أن وصلوا إلى المدينة توجهوا إلى القصر وأعطوا الرسالة إلى سلطان خان.

قرأ الملك الرسالة وأصابه الحزن والغضب وقال لنفسه: "لا أستطيع أن أفهم شيئا مما يحدث. لماذا أصبح ابنى قاسيًا إلى هذه الدرجة مع حورية؟ وبدلا من أن يفرح بالطفلين يطلب طردهما معها!!"

لم يخبر الملك أحدا بفحوى الرسالة. وظل عدة أيام وهو فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يفعل. وعندما لاحظت حورية حاله سألته قائلة:

– أخبرنى أيها الوالد ماذا بك؟ ولماذا أراك حزينا طوال الوقت؟

بكى الملك ولم يستطع الكلام. ثم أخرج الرسالة وأعطاها لحورية التى قرأتها وقالت للملك وهى تبكى:

– لابد أن تنفذ طلب ابنك أيها الوالد ولا تغضبه.

وهنا صار سلطان خان يبكى بشدة وقال:

– لن أقطع ثدييك أبدا يا ابنتى. فاحملى الطفلين وغادرى القصر والمدينة على الفور.

وضع الملك الطفلين بحذر فى قفة علقها فوق كتف حورية. ثم ودعته الزوجة الشابة وهى تبكى بكاء مريرا وغادرت القصر.

سارت حورية لمدة يومين على غير هدى. وفى اليوم الثالث كان عليها أن تعبر النهر. وأثناء عبورها سقط من القفة الولد ذو الخصلة الذهبية وغرق فى الماء. أخذت حورية تصرخ وتولول حتى وصلت إلى الشاطئ الآخر من النهر فجلست ترضع طفلتها وراحت فى نوم عميق من شدة البكاء.

فجأة سمعت حورية صوتا يوقظها ويقول:

– استيقظى يا ابنتى لتأخذى أشياءك الثمينة التى فقدتيها.

أفاقت حورية من نومها وهى ترتعد من الخوف فرأت أمامها جنيا عجوزاً يحمل بين يديه طفلها ذا الخصلة الذهبية ووضعه بجانبها. كادت حورية أن تحلق من السعادة فى هذه اللحظة وقامت فركعت أمام العجوز شاكرة. وقال لها الجنى:

– مرحبا مرحبا. أليس هذا الطفل ابنك؟

– نعم إنه ابنى أيها السيد الكريم. ابنى الذى سقط من القفة أثناء عبورى النهر.

– خذى واحمليه إذن.

– وكيف أحمله وأنا مبتورة الذراعين؟

– إذن ربما تتعرفين على هذين الذراعين؟– سألها الجنى مشيرا إلى ذراعين يحملهما بيده.

– نعم أيها الوالد إنى أعرفهما. فقد كان لى مثلهما تماما. لكن زوجة أخى ألصقت بى تهمة زورا وأوقعت بينى وبين أخى فقطع لى ذراعىَّ وطردنى من البيت.

أخذ الجنى يتمتم ببعض العبارات على الذراعين. ثم نفخ نفخة فعادت الذراعان إلى مكانهما بجسم حورية. ركعت الزوجة الشابة أمام قدمى الجنى تشكره بحرارة وهى لا تصدق نفسها من السعادة. فوضع لها الجنى فى إحدى يديها سبع حصوات، ثم وضع فى يدها الأخرى أربعين حصوة وقال لها:

– بعد أن يمر عليك يوم فى الطريق سوف تصلين إلى نهر عريض. فألق فيه بالسبع حصوات وسوف ينشق النهر ويتفرع إلى سبع قنوات ضحلة فتستطيعين عبوره

بسهولة. وبعد مرور ثلاثة أيام سوف تصلين إلى منطقة صحراوية فألق فيها بالأربعين حصوة وسوف يظهر أمامك قصر منيف وتحصلين على ثروة طائلة. فعيشى هناك مع طفليك فى سعادة وهناء لبقية عمرك.

قال عبارته هذه واختفى الجنى العجوز. فأرضعت حورية طفليها ومضت فى طريقها.

وبعد يوم وصلت إلى نهر كبير كما قال لها الجنى من قبل. فألقت فيه بالسبع حصوات وانشق النهر متفرعا إلى سبع قنوات ضحلة. ونجحت حورية فى عبوره إلى الضفة الأخرى. وسارت طويلا فى طريقها حتى وصلت أخيرا إلى المنطقة الصحراوية. فرمت فوق الرمال بالأربعين حصوة التى تحملها. وعلى الفور ظهر أمامها قصر بديع الجمال ليس له مثيل من قبل. تحيط به حدائق ومروج خضراء. ثم جاءت امرأة تركض من القصر وقالت لحورية:

- نحن ننتظرك منذ زمن طويل يا سيدتى وقد سعدنا كثيرا بوصولك الآن.

أخذت المرأة الطفلين من حورية المتعبة وحملتهما. وساقتها إلى حجرة رطبة بالقصر بها فراش وثير عليه سبعة أغطية. وأحضرت لها مائدة عامرة بأطيب الأطعمة والمشروبات.

والآن نترك حورية تستمتع فى قصرها البديع ونحكى عن شىء آخر.

بعد ما أرسل الأمير أنور خطابه إلى والده سلطان خان نادى على الوزراء وقال لهم:

- سوف أسافر إلى مدينتى وأعود بعد خمسة عشر يوما.

وكان هذا ما فعله الأمير. وعندما وصل إلى القصر لم يجد حورية ولا الأطفال ورأى والده غارقًا فى الحزن والهم. فسأله أنور وهو فى ذهول من أمره وقال:

- ماذا حدث يا والدى؟ وأين حورية؟

– لماذا تسأل هذا السؤال يا ولدى؟ ألم تكتب لى أن حورية لم تعد زوجتك بعد أن سئمتها؟ ألم تطلب منى فى خطابك أن أطردها هى وأطفالها من القصر إلى الصحراء بعد أن أقطع لها ثدييها؟

– ما هذا الذى تقوله يا والدى؟ لقد كتبت أنت لى فى رسالتك أن حورية قد وضعت جروا وهرة. فأجبت عليك وطلبت منك ألا تهينها حتى عودتى.

صعق أنور من الصدمة عندما عرف أن زوجته قد وضعت ولدا وبنتا. واندفع كالمجنون خارج القصر إلى الصحراء يبحث عنها وعن طفليه.

والآن سوف نحكى باختصار عن شقيق حورية.

أخيرا عرف حسن أن زليخة قد كذبت وألصقت بالزور التهمة لأخته. فندم ندما شديدا على قسوته مع أخته وظلمه لها. وصار يبحث عنها فى الشوارع طوال الأيام والليالى وهو لا يشعر بحاله من الحزن والحسرة. وأصبح كلما نام يرى حورية فى منامه. وتشاجر حسن مع زوجته وأخبرها أنه فقد شقيقته بسبب وضاعتها وشرها وأنه قرر أن يتركها ويرحل عنها.

هام حسن على وجهه فى الصحراء يبحث عن أخته. فقابل فى طريقه أنور الملتاع الذى سأله:

– ماذا تفعل فى الصحراء أيها الأخ؟

– أبحث عن أختى التى ضاعت منى أيها الأخ.

– ما اسم أختك؟

– اسمها حورية.

– إن زوجتى أيضا تدعى حورية. لكنها مسكينة مبتورة الذراعين. وقد عانت الأمرّين فى حياتها وقد أشفقت عليها فتزوجتها.

وقص أنور عليه كل ما جرى. فلم يتمالك حسن نفسه وأخذ يبكى بمرارة. وسأله أنور:

- لماذا تبكى؟

- إن زوجتك حورية هى شقيقتى التى أبحث عنها. لقد ظلمتها ولم أدرك أن زوجتى قد ألصقت بها التهمة زورا وهى بريئة. فقطعت ذراعيها وطردتها من البيت.

وصار يبكى ثانية بمرارة وحرقة.

- كفاك بكاء أيها الأخ. إن مصيبتنا واحدة إذن. وقد يحالفنا الحظ ونستطيع العثور عليها.

تعانق الاثنان وتعاهدا على الصداقة الأبدية ومضيا فى طريقهما. وطاف الاثنان بكل أرجاء الدنيا لمدة أربعة أعوام كاملة حتى وصلا فى النهاية إلى القصر الذى كانت حورية تعيش فيه حياتها السعيدة. فى هذا الوقت كانت حورية تقف بشرفتها عندما قدم الاثنان فتعرفت عليهما فى الحال ثم نادت على طفليها وقالت:

- اذهب يا بنى إلى الرجل الواقف على اليمين وقل له:"والدى"، وأنت يا ابنتى اذهبى إلى الرجل الواقف إلى اليسار وقولى له:"خالى".

ركض الطفلان إلى الرجلين. فقال الولد لأنور: "والدى". وقالت البنت لحسن: "خالى". نظر أنور وحسن كل منهما إلى الآخر ثم حملا الطفلين. حينئذ خرجت حورية من القصر إلى الرجلين وقدمت التحية لهما. ذهل الرجلان عندما شاهدا المرأة. فقد كانت نسخة طبق الأصل من حورية غير أنها لم تكن مبتورة الذراعين. وعندما عادت حورية إلى القصر قال حسن:

- إنها تشبه أختى كثيرا لكن لها ذراعين.

وهتف أنور هو الآخر قائلا:

- نعم، إنها تشبه زوجتى كل الشبه، لكن لها ذراعين.

عادت حورية ووضعت أمام شقيقها وزوجها مائدة زاخرة بالمأكولات وأكرمت وفادتهما على خير وجه. وبعد ما انتهيا من تناول الطعام قال حسن:

- أيتها السيدة الكريمة. إن لى شقيقة فقدتها وأبحث عنها الآن وهى تشبهك كثير الشبه. ألم تقابليها فى مكان ما؟ إنها جميلة مثلك لكنها مبتورة الذراعين.

– لم أشاهد مثل هذه المرأة التى تصفها فى منطقتنا – أجابت حورية.

شكر أنور وحسن المرأة على كرم الضيافة وهمّوا بالانصراف فقالت لهم حورية:

– لقد تأخر الوقت فاقضيا ليلتكما هنا وغدا ارحلا إلى حيث تريدان.

وافق الاثنان وأمرت حورية الخدم أن يضعوا للضيفين الأغطية الحريرية والوسائد الطرية على الفراش فى حجرتهما. وعندما نام الرجلان تسللت حورية إلى حجرتهما ودست فى جيب شقيقها سوارا من الماس ولؤلؤة ثمينة.

فى الصباح تناول حسن وأنور طعام الفطور وقاما بوداع حورية وانطلقا فى طريقهما.

بعد مرور زمن قليل على انصرافهما نادت حورية على الخدم وقالت:

– الحقوا بالغريبين على الطريق وأعيدوهما إلى هنا.

لحق الخدم بأنور وحسن وأخبراهما أن حورية تطلب منهما العودة إلى القصر. دهش الرجلان ورجعا مع الخدم إلى القصر. فتظاهرت حورية بالغضب والثورة وقالت:

– أيها الرجلان عديما الخلق والضمير. كيف تسرقان سوارى الماسى ولؤلؤتى الثمينة بعد ما أحسنت ضيافتكما واستقبلتكما فى منزلى بكل الحفاوة والكرم؟

اعترض أنور وحسن وأقسما لها أنهما لم يسرقا شيئا منها. قالت حورية:

– أنا لا أصدق ما تقسمان به ولابد أن أجعل الخدم يفتشونكما.

لم يجد الخدم شيئا فى جيوب أنور. لكنهم عثروا على اللؤلؤة والسوار الماسى فى جيب حسن. فسألت حورية شقيقها:

– ما هذا إذن الذى خرج من جيبك؟ ولماذا قلت إنك لم تسرق شيئا منى؟

صار حسن يقسم بكل المقدسات أنه لم يسرق شيئا وأن أحدا قد دبر له مكيدة ودسهم فى جيبه. ثم انطلق يبكى بشدة.

أشفقت حورية عليه وأخذت تبكى هى الأخرى وقالت:

– لا تبك أيها الشقيق فأنا أختك حورية. لقد قلت إن أحدا دبر لك مكيدة. وعندما قتلت زليخة طفلك ودست السكين بفراشى لم تصدق أنها كانت مكيدة لى وأننى كنت بريئة فقطعت ذراعىّ وطردتنى من البيت.

– هل أنت شقيقتى الحبيبة حقا؟– قال حسن غير مصدق نفسه.

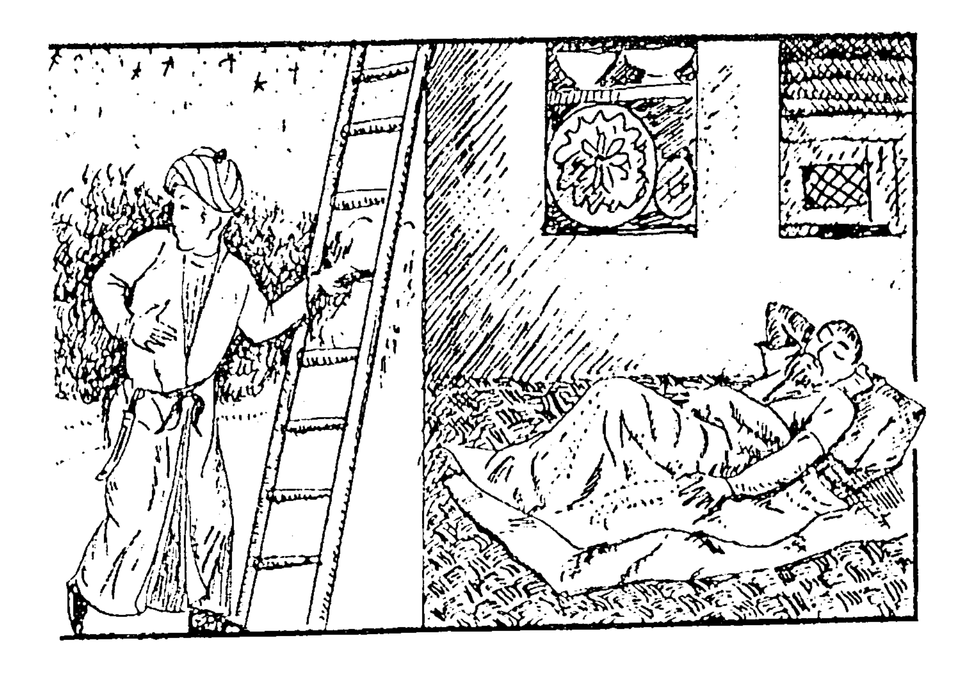
– نعم أنا شقيقتك بشحمى ولحمى. وهذا الرجل هو زوجى وهذان الطفلان هما ابنانا.

كاد حسن وأنور أن يطيرا من السعادة والفرح. وسرعان ما وصل الجميع إلى مدينة أنور. فابتهج الملك بهم وأقام الأفراح لأربعين يوما وليلة. أما الحقودة الحسود زليخة فشنقوها.

وأصبحت حورية الزوجة الحكيمة للملك أنور. وعاشت فى سعادة وهناء وتحققت كل أحلامها وأمانيها.

* * *

مامات الأصلع



فى زمن من الأزمنة القديمة عاش أحد الفقراء مع ابنه الوحيد حياة بائسة يجوع فيها يومًا ويأكل يومًا. كان ابنه يدعى مامات الأصلع. وقد عانى مامات من شظف العيش وقلة الطعام فقرر العمل لدى أحد السادة الأغنياء فى القرية وصار يرعى قطيع السيد الثرى. ظل مامات يرعى قطيع السيد لمدة خمس سنوات وبعدها طالب السيد أن يدفع له أجره عن تلك المدة. لكن السيد ماطله قائلا:

– فيما احتياجك للمال يا مامات؟ اعمل لدى خمس سنوات أخرى ثم أدفع لك بعد ذلك.

وعمل مامات فى رعى قطيع السيد لخمس سنوات أخرى ثم طالب بأجره. لكن السيد قال له:

- ألا تخجل من طلب النقود منى أيها الأصلع؟ فبعد مرور عشر سنوات على قيامك برعى قطيعى لم يزد عدده عن ألف رأس فقط. ولو كنت استأجرت راعيا غيرك لكانت رءوس القطيع قد وصل عددها إلى عشرة آلاف رأس خلال هذه السنين. لقد تسببت فى خسارة فادحة لى. لذلك عليك أن ترعى قطيعى لخمس سنوات بعد.

فكر مامات ثم قرر: "حسنا، لأرعى قطيع السيد لخمس سنوات بعد". وقام برعى القطيع لخمس سنوات. وبعد أن مرت السنون طالب مامات بأجره للمرة الثالثة فقال له السيد:

- عن أى أجر تتحدث؟ وماذا فعلت لى كى أدفع لك؟

- لقد قمت برعى قطيعك لخمسة عشر عاما وأنت تسألنى ماذا فعلت - أجاب مامات وهو فى ذهول ودهشة.

لكن السيد قال معترضا:

- إنك لم تقم برعى قطيعى وإنما الكلبان اللذان أعطيتهما لك منذ البداية هما من قاما برعى القطيع وليس أنت. فبدون الكلبين لا تستطيع رعى أى قطيع كان. هل فهمت؟

بعد ذلك صار السيد يسب مامات ويلعنه. فمضى المسكين يبكى بمرارة وذهب إلى والده.

وهنا ينبغى ذكر أن والده خلال تلك الفترة كان قد تزوج من أرملة. لم تكن الأرملة من الأثرياء لكنها امتلكت قطعة من الأرض وبعض الإبل. وبعد أن تزوج والده من الأرملة قام بزرع قطعة من أرضها بالكتان.

وعندما ترك مامات السيد وذهب إلى والده قال له الوالد:

- سوف أكلفك بعمل تقوم به يا ولدى العزيز مامات.

– أى عمل تريدنى أن أقوم به يا والدى؟– سأل مامات.

– لقد زرعت كتانا فى الأرض المجاورة للساقية البيضاء. وقد نضج المحصول فاذهب واحصده.

– حسنا يا والدى – أجاب مامات وذهب إلى الأرض المجاورة للساقية البيضاء وبدأ فى حصد محصول الكتان.

كان هناك صياد يصيد الأوز الطائر بالقرب من المكان. وأصاب الصياد أوزة فجرحها وسقطت بجانب مامات. فحملها وخبأها بين الكتان.

وصل الصياد إلى مامات وسأله:

– ألم تسقط أوزة جريحة بجوارك أيها الأصلع؟

أجاب الأصلع قائلا:

– أحصد الكتان بمفردى ولا أحد يساعدنى حتى أبى لا يحضر الخبز لى.

قال الصياد محتجا:

– أنا لا أسألك عن الخبز بل عن الأوزة.

– اليوم هو اليوم الثالث الذى يمر علىّ وأنا غارق فى حش الكتان. ألا يمكنك أن تخبرنى إن كنت حصدت نصف المحصول أم أكثر من النصف؟ – قال مامات.

– إنى لا أريد معرفة عدد الأيام التى حصدت فيها بل أريد معرفة مكان الأوزة إن كنت رأيتها بالقرب منك، الأوزة – قال الصياد فى غضب.

– لا أدرى فربما أحتاج إلى أربعة أيام لحش هذا الجانب من الأرض.

غضب الصياد ورحل وهو يسب ويلعن.

أخذ مامات يحصد الكتان حتى هبط الليل فذهب إلى البيت. وهناك قال لزوجة أبيه:

– أيتها الأم، اطهى لنا هذه الأوزة.

صرخت زوجة الأب بغضب وقالت:

- ليت الله يأخذك، ألا ترى أنى مشغولة؟ غدا سوف أطهوها لك.

فى صباح اليوم التالى استيقظ الأصلع واغتسل واستعد للخروج إلى حقل الكتان. وقبل أن يخرج سأل زوجة أبيه:

- متى تسلقين الأوزة يا أماه كى أعود فى الوقت المناسب للطعام؟

أجابت زوجة الأب:

- اليوم بعد غروب الشمس سوف تكون الأوزة جاهزة.

- حسنا - قال الأصلع وخرج إلى حقل الكتان ليعمل فى الحصاد.

كان لزوجة الأب عدد من العشاق. وكانت على موعد مع أحد عشاقها فى هذا اليوم مستغلة أن زوجها يبيت الليل بالحقل لحراسته.

شرعت المرأة فى تنظيف الأوزة من الريش ثم وضعتها فى قدر وأشعلت تحتها النار. فقد قررت أن تدعو عشيقها للأكل من الأوزة الشهية.

كان مامات على علم بمغامرات زوجة الأب الغرامية ويعرف عن عشاقها الكثر. وعندما أخبرته بالأمس أنها مشغولة أدرك على الفور أنها تتعمد أن تؤجل طهى الأوزة كى تدعو عشيقها إلى الأكل منها.

انتهى مامات من حش جزء من المحصول. وقرر أن يعود إلى البيت قبل أن تغرب الشمس. فحمل بعض الحزم فوق ظهره وانطلق بها إلى المنزل. وبعد أن وصل إليه رأى الأوزة فى قدر على النار وزوجة أبيه غائبة عن البيت.

أخرج مامات الأوزة من القدر. وذبح كلبا ثم سلخه وقطعه ووضعه بالقدر. وبعد ذلك صار يحمى النار تحت القدر. وخرج حاملا الأوزة إلى الحقل مرة أخرى. عادت زوجة الأب فرفعت اللحم من القدر فى وعاء ووضعت الوعاء على أحد الأرفف.

فى المساء أكل مامات الأوزة. ثم حمل بعض الحزم وعاد إلى البيت ونام. وفى وقت متأخر من الليل جاء العشيق إلى زوجة الأب. فقامت بدعوته إلى العشاء وهى تقول له: "لقد أعددت لك أوزة شهية مسلوقة". وقدمت إليه وليمة من لحم الكلب المسلوق. وجلس الاثنان يأكلان منه بنهم.

مر يوم، وفى صباح اليوم التالى خرجت زوجة الأب إلى القرية وتواعدت مع أحد العشاق مرة أخرى.

فى الليل قامت زوجة الأب بسلق ثلاثين بيضة ووضعتها فى إحدى السلال وتظاهرت بالنوم.

كان مامات قد رقد لينام لكن النعاس جافاه وشعر بالجوع الشديد يقرصه فأخذ يتأوه ويئن فى الفراش. وسمعته زوجة الأب فقالت له بغضب:

– مالك تتأوه أيها الأصلع ولا تنام. ليأخذك الله ويريحنى منك.

قال مامات:

– لا أستطيع النوم من الجوع الذى يقرصنى. سوف أبحث عن شىء أسد به جوعى حتى أستطيع النوم.

– حسنا اذهب وكل شيئا.

نهض مامات وبحث بين السلال حتى عثر على البيض المسلوق. فاغتبط وجلس يلتهمه حتى أتى على الثلاثين بيضة ولم يترك شيئا منها. ثم عاد إلى فراشه وتصنع النوم. وفى منتصف الليل وصل عشيق زوجة الأب إلى البيت ودخل متسللا.

قالت زوجة الأب للعشيق:

– لقد سلقت لك الكثير من البيض، فخذه من هذه السلة.

نظر العشيق إلى داخل السلة فوجدها فارغة وقال لها:

– لماذا تكذبين أيتها المرأة؟ لا يوجد شىء فى هذه السلة.

- ليأخذ الله هذا الأصلع، فلابد أنه قد أكل كل البيض.

غضب العشيق ورحل.

انقضى الليل وحل الصباح وتواعدت المرأة ثانية مع أحد العشاق. ثم اشترت قطعة جيدة من اللحم، قامت بتحميرها ووضعتها بإناء فخارى على أحد الأرفف.

عاد مامات من الحقل وعثر على اللحم وقال لنفسه: "هذا اللحم من نصيبى".

فى المساء رقدت زوجة الأب تتصنع النوم، ورقد مامات هو الآخر. وبعد قليل قام مامات متصنعا قضاء الحاجة. وتسلل فأكل اللحم المحمر وعاد إلى فراشه. وفى منتصف الليل وصل عشيق زوجة الأب.

- لقد وعدت أن تحمرى لى قطعة من اللحم، فأين هى؟- سأل العشيق.

- إنها هناك فى هذا الإناء الفخارى، فكلها هنيئا مريئا.

نظر العشيق فى الإناء ووجده فارغا فحزن واغتم. وكذلك تكدرت زوجة الأب وقالت:

- ليت الله يصيب هذا الأصلع بصاعقة من عنده؟ فهو الذى التهم اللحم. ألا تعرف موقع ضريح من أضرحة الأولياء الصالحين حتى أزوره وأدعو هناك على الأصلع كى يموت؟ فلابد من قتله بعد أن مكر بى لثلاثة أيام متتالية.

صرخ العشيق فى المرأة بغضب وقال:

- أنا لا أعرف مكان أية أضرحة. ولم يسبق لى اللجوء إليهم أو الاستعانة بخدماتهم. يمكنك سؤال الأصلع عن أماكنهم.

لم يكن مامات نائما حينذاك وسمع كل ما قيل.

وفى الصباح سألته زوجة الأب:

- ألا تعرف يا مامات أين يوجد ضريح لأحد أولياء الله الصالحين؟ فإن لدى رجاء من الله وأريد أن يساعدنى الولى على تحقيقه.

قال مامات على الفور:

– سوف أدلك على أحد الأضرحة الفعالة التى تساعدك على تحقيق رغباتك من أول دعاء ترفعينه هناك. لكن مكانه يقع بعيدا عن هنا بعض الشىء.

وصار مامات يشرح للمرأة الطريق إلى الضريح بشكل معقد للغاية متعمدا إرباكها حتى التبس عليها الأمر وأصبح من الصعب عليها أن تفهم شيئا مما قاله.

وسار مامات مسرعا فسبق زوجة الأب إلى الضريح واختبأ بداخله بينما كانت المرأة مازالت تسير فى الطرق المتشابكة التى وصفها لها.

وأخيرا وصلت زوجة الأب إلى الضريح وهى فى حالة من الإعياء والتعب وقالت بلهجة خشوع ورجاء:

– أيها الولى الحبيب إن لى أمنية واحدة أرجو أن تحققها لى.

– وما هى هذه الأمنية أيتها المرأة؟– قال صوت من داخل الضريح.

"يا للفرح والحظ السعيد إن الولى بنفسه يتواضع ويتحدث إلىّ"– اغتبطت المرأة وأردفت تقول:

– أريد منك أيها الولى الصالح أن تقتل مامات الأصلع ابن زوجى وتريحنى منه.

أجاب الصوت قائلا:

– لقد تذكرتِ أمنيتك جيدا ونسيتِ أن تحضرى لى ضحية لتحقيقها. فاذهبى الآن واذبحى لى خروفا كبيرا وحمريه جيدا ثم أحضريه لى. وبعد ذلك سوف أنظر فى أمرك.

فرحت المرأة وقالت لنفسها: "سوف تتحقق أمنيتى". وأسرعت عائدة إلى المنزل. لكنها سلكت نفس الطريق الطويل المتشابك أثناء العودة. وفى هذه الأثناء سبقها مامات إلى البيت بعد أن سلك الطريق المختصر. وساعد مامات المرأة على ذبح خروف سمين. وقامت زوجة الأب بإعداده وتحميره، ثم وضعته على صينية كبيرة وخرجت به إلى الضريح. وكان مامات قد سبقها إلى هناك واختبأ بداخله.

حملت المرأة الخروف إلى داخل الضريح وصارت تتحدث بصوت عال:

– لقد أحضرت لكم الخروف يا ولى الله الصالح.

– حسنا فعلت أيها المرأة. اتركيه بالمدخل وأخبرينى عن أمنيتك – قال صوت من داخل الضريح.

– أريدك يا سيدى أن تخلصنى من ابن زوجى وتقتله.

– وهل هذا كل ما تتمنينه من الدنيا؟

– نعم يا سيدى.

– إن ذلك أمر سهل للغاية. عليكى أن تشترى ثلاثة خراف على أن تكون ألوانهم كالتالى: أبيض وأسود وأصفر. وفى البداية تطعمين ابن زوجك الخروف الأبيض وحينئذ سوف تبيض عيناه. ثم أطعميه الخروف الأسود وسوف تسود عيناه. وأخيرا تطعميه الخروف الأصفر فتصفر عيناه ويموت بعد ذلك. اذهبى الآن أيتها المرأة فسوف تتحقق رغبتك.

– ألن تعيد إلى الصينية التى عليها اللحم يا ولى الله؟ – سألت المرأة.

– قلت لك اذهبى الآن من هنا يا امرأة، أما صينيتك فسوف تسبقك إلى البيت.

سارت زوجة الأب عبر الطريق الطويل. أما مامات فأكل اللحم بسرعة وسبقها إلى المنزل بعد أن سلك الطريق المختصر وجلس هادئا كما لو أنه لم يتحرك من مكانه. ثم وصلت المرأة وهى فى حالة يرثى لها من الإنهاك والإعياء. فسألها مامات:

– هل حقق لك الولى الصالح أمنيتك؟ لقد وصلت قبلك الصينية التى كان عليها اللحم.

– إن هذا الولى من أقوى أولياء الله – قالت زوجة الأب – لقد قال لى:"صينيتك سوف تسبقك إلى البيت". وها هى الصينية قد سبقتنى بالفعل.

ثم ذهبت المرأة إلى عشيقها وقالت له:

- لقد زرت ضريح أحد أولياء الله الصالحين وتقبل منى دعوتى بشرط أن أطعم الأصلع خروفا أبيض اللون وسوف يموت بعد ذلك. فاذهب واشتر لى خروفا أبيض.

- حسنا - قال العشيق - لو طلبت عشرة خراف لاشتريتها لك.

أحضرت المرأة الجزار فذبح الخروف الأبيض. وقامت بطهيه وقدمته للأصلع الذى أكل منه ورقد فى فراشه لينام. وفى منتصف الليل وصل العشيق إلى البيت وسأل المرأة:

- هل نام الأصلع؟

- نعم إنه نائم الآن بعد أن أكل لحم الخروف. وسوف تبيض عيناه ويموت بعد قليل - أجابت المرأة.

وفجأة صدر صوت خبط على الباب وتناهى صياح الزوج ينادى:

- افتح الباب يا مامات.

وهنا ينبغى التنويه أن مامات قد ذهب فى الظهيرة إلى الحقل وقابل أباه وطلب منه أن يحضر إلى البيت عند منتصف الليل. وسأله الأب: "لماذا تريدنى أن أذهب إلى البيت وأترك الحقل بلا حراسة؟" فرد عليه الأصلع وقال: "أنت لا تدرى ما الذى يجرى بالبيت يا والدى، إن زوجتك تواعد العشاق والأحبة، وأريد أن ألقنها درسا".

ما إن تردد صوت الخبط على الباب حتى انتفضت زوجة الأب مفزوعة من مكانها وقالت:

- ليأخذك الله أيها العجوز، ما الذى أتى بك فجأة فى هذا الوقت؟

- أين يمكننى الاختباء؟ أخبرينى بسرعة أين أختبئ - قال العشيق فى لهفة وخوف.

- اذهب إلى حجرة الكرار واختبئ هناك فلن يدخلها أحد حتى الصباح.

وما إن فر العشيق إلى حجرة الكرار حتى دخل العجوز وجلس ثم قال:

– كيف حالك اليوم يا مامات؟

أجاب مامات متصنعا المرض:

– لست على ما يرام يا والدى. فعيناى مريضتان ويبدو أننى سوف أموت قريبا.

– لا تقل مثل هذا الكلام يا ولدى فسوف يشفيك الله – قال العجوز.

– إنى أشعر برغبة فى أكل قطعة من الخبز بالزبد. وسوف أحضرها من الكرار.

– لكنك مريض لا تقوى على السير يا ولدى.

– سوف أتكئ على هذه العصا – قال مامات مشيرا إلى عصى غليظة بالحجرة. ثم أمسك بها وذهب إلى الكرار. فقبض على العشيق وانهال عليه ضربا بالعصى حتى تورم جسمه. وفر العشيق هاربا وهو يجرجر أقدامه بالكاد.

مرت الليلة وجاء الصباح ، ذهبت زوجة الأب إلى العشيق وقالت له:

– والآن اشتر لى خروفا أسود حتى أطعمه للملعون مامات حتى يهلك ويموت.

قال العشيق:

– كلا ، ألا يكفيك ما جرى لى؟ فقد تكسرت ضلوعى ولا أقوى على السير وليس لدى مال أشترى به الخروف.

باعت المرأة خمارها واشترت بثمنه خروفا أسود. ثم قامت بطهيه وذهبت بلحمه إلى مامات وقالت له:

– هذا اللحم مكافأة لك على إرشادك لى ضريح الولى الذى ساعدنى فى تحقيق أمنيتى.

أكل الأصلع اللحم ورقد لينام. وذهبت المرأة هى الأخرى إلى فراشها وتظاهرت بالنوم. وفى منتصف الليل حضر أحد العشاق إليها. وبعدها بوقت قليل ظهر العجوز عند الباب ودق عليه مناديا: "افتح الباب يا مامات يا ولدى".

نهض مامات وفتح الباب لوالده. وفزع العشيق وارتعد من الخوف وقال لزوجة الأب:

- أين يمكننى الاختباء؟

أجابت المرأة:

- لا تخف واذهب إلى الفناء سوف تجد هناك بالات من التبن، فاندس بينها ولن يراك أحد.

وفعل العشيق كما قالت له المرأة. وفى هذا الوقت جلس الوالد مع مامات وسأله:

- كيف حالك اليوم يا مامات؟

- آه يا والدى، لقد اسودت عيناى اليوم تماما حتى أكاد لا أرى شيئا ويبدو أننى سأصاب بالعمى.

- سوف يشفيك الله ويحفظك من كل سوء.

- لقد نفذ طعام الجياد يا والدى سوف أذهب لأحضر لها بعض التبن.

- افعل ما يحلو لك يا ولدى.

أمسك مامات بشوكة طويلة مثل الحربة وصار ينغزها وسط بالات التبن. لم يتحمل العشيق ضربات الشوكة واندفع هاربا إلى الخارج لا يلوى على شىء.

عاد الأصلع إلى فراشه وراح فى النوم.

فى صباح اليوم التالى خرجت زوجة الأب مرة أخرى وذهبت إلى عشيقها وقالت له:

- والآن أريدك أن تشترى خروفا أصفر اللون حتى أطعمه لمامات فتصفر عيناه ويموت بعد ذلك.

أجاب العشيق قائلا:

– لقد أصبحت عاجزا عن الحركة ولا أستطيع تحريك قدميّ أو يديّ وليس معى أية نقود لأشترى بها خروفا.

– لدى بعض المناديل الجيدة. سأعطيها لك حتى تبيعها وتشترى بثمنها الخروف – قالت المرأة.

وكان هذ ما فعله العشيق. وبعد أن باع لها المناديل اشترى لها الخروف الأصفر. فذبحته المرأة وقدمت لحمه إلى الأصلع الذى أكله وقال:

– أخ، لقد اصفرت عيناى الآن – ورقد فى فراشه لينام.

فرحت المرأة وقالت لنفسها: "لقد تحققت نبوءة الولى الصالح". وعندما انتصف الليل جاءها العشيق وجلسا معا يلهوان ويضحكان. وبينما هما غارقان فى اللهو والمجون دخل فجأة عليهما مامات يحمل عصى غليظة فى يده وانهال عليهما ضربا بكل ما أوتى من قوة ويقول:

– هل كنتم تظنوننى لا أرى ولا أعرف شيئا؟ أنا أعلم بكل ما جرى. لقد كنت أنا الذى تكلم بالضريح يا زوجة أبى. وأنا الذى طلبت منك أن تطعمينى الخراف. والآن تلقّوا جزاءكم.

حاول العشيق والمرأة أن يهربا من مامات لكنه لم يتركهما يفلتان منه. وساقهما وهما مفضوحان إلى شجرة المشمش بالحديقة وأمرهما قائلا:

– عانقوا الشجرة حتى تلتصقوا بها – وعندما التصقوا بالشجرة قال مامات تعويذة: "تسمروا". فتسمر الاثنان فى مكانهما وهما ملتصقان بشجرة المشمش.

ركب مامات على حماره وسار إلى القرية. وصار يدعو كل من يقابله ويقول:

– لقد ماتت زوجة أبى والعزاء بحديقة الدار.

وفى الطريق قابل السيد الذى كان يرعى قطيعه فى السابق ولم يدفع له أجره. وقال السيد لمامات:

- ساعدنى على النهوض من مجلسى وأمسك يدىّ.

وضع مامات يدا السيد فوق بعضهما البعض وقرأ تعويذة:"التصقوا". فالتصقت يدا السيد الذى احتج قائلا:

- لا تعجبنى حيلتك هذه يا بنى. افصل يدىّ عن بعضهما.

لكن مامات قال:

- أيها السيد المبجل لو أردت أن أفصل يديك عن بعضهما عليك أن تقبل ذيل حمارى.

- حسنا إنها قبلة والسلام - وما إن ألصق السيد شفتيه بذيل الحمار ليقبله حتى قرأ مامات تعويذته:"التصقوا" فالتصقت شفتا السيد بذيل الحمار.

جلس مامات على الحمار وسار به وهو يجر السيد خلفه.

وصل الأصلع إلى البيت وكان أهل القرية قد اجتمعوا فى حديقة المنزل. ودهش الجميع لما فعله مامات بزوجة الأب وعشيقها وسألوه:

- لماذا تهينهم على هذا النحو؟

حينئذ صار مامات يسرد كل شىء من البداية إلى النهاية. فحكى عن السيد الذى سرق أجره ولم يدفعه له بعد أن رعى له قطيعه لخمسة عشر عاما. ثم أخبرهم عن زوجة الأب وعن عشيقها. استهجن أهل القرية سلوك زوجة الأب المشين وعشيقها، لكنهم طلبوا من مامات أن يحررهما ويكفيهما افتضاح أمرهما أمام الجميع. فقرأ مامات تعويذة وحرر زوجة أبيه والعشيق. فركض الاثنان وفرا كل منهما فى طريق.

طلب أهل القرية من مامات قائلين:

- حرر السيد هو الآخر.

لكن مامات لم يوافق وقال:

– ليدفع لى أجرى فى البداية عن الخمسة عشر عامًا التى عملت فيها لديه وأنا أحرره.

– حرر فمه فقط عن ذيل الحمار حتى نطلب منه أن يدفع لك ونستمع له.

قرأ مامات تعويذته فانفصل فم السيد عن ذيل الحمار وحينئذ قال الناس للسيد:

– لقد قام مامات برعى قطيعك لمدة خمسة عشر عاما. فلماذا لم تدفع له أجره؟ أنت الآن ملزم أن تعطيه ما يستحق.

قال السيد:

– سوف أفعل ما تقولون به.

فسأل الناس مامات:

– ماذا تطلب من السيد يا مامات؟

أجاب مامات قائلا:

– لقد تكاثر القطيع خلال الأعوام الخمسة عشر حتى وصل عدد رءوسه إلى خمسة عشر ألف رأس. فمن العدل أن يمنحنى خمسة آلاف رأس عن السنين التى رعيت فيها.

حاول السيد أن يساوم ويقلل العدد وقال:

– ثلاثة آلاف رأس تكفيك يا مامات.

– فتظل يداك ملتصقتين إذن إلى الأبد – قال مامات.

خاف السيد وأصابه الفزع وقبل قائلا:

– حسنا حسنا، سوف أعطيك ما طلبت فافصل يدىّ الآن.

فصل مامات يدا السيد.

بعـد ذلك باع مـامـات جـزءا من الإبل التى حـصل عليـها وزوج والده من امـرأة صـالحـة. وتزوج هـو الآخر من فتاة مليـحة وعاش فى هنــاء وسـعادة بعـد أن تحـققت أمانيه وأحلامه.

* * *

المترجم فى سطور

عبد الرحمن عبد الرحمن الخميسى

- مواليد عام ١٩٥٧
- تخرج من كلية الآداب جامعة عين شمس.
- درس تاريخ الفن فى جامعة موسكو بالاتحاد السوفييتى.
- ترجم من اللغة الروسية إلى العربية بعض الأعمال المهمة مثل كتاب محاكمة البريسترويكا والعديد من الدراسات السياسية.
- كتب العديد من المسلسلات والأعمال التليفزيونية للأطفال والتى نالت الكثير من الجوائز .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنــى: حســن كامــــل